

تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه





الجزء السادس

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه



منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤ هـ.ق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطاهرين .

(٦٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في معنى الأنصار :

قالوا : لما انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال عليه السلام : ماقالت الأنصار ؟ قالوا : قالت : منّا أمير ومنكم أمير ؛ قال عليه السلام :

فَهَلاَّ ٱحْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَّى بِأَنْ يُحْسَنَ إلى مُحْسِنِهِمْ ، وَيُتَجاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ !

قَالُوا : وَما في هذَا مِنَ ٱلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ؟

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَوْ كَانَتِ الإِمَامَةُ فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِهِمْ . ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

فَمَاذَا[1] قَالَتْ قُرَيْشٌ ؟

قَالُوا : ٱحْتَجَّتْ بِأَنَّهَا شَجَرَةُ الرَّسُولِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

(١) مخطوطة النهج : « وماذا » .

أحْتَجُّوا بِالشجرَةِ ، وَأَضَاعُوا الثَّمَرَةَ !

***

الشَّرْحُ :

قد ذكرنا فيما تقدّم طرفاً من أخبار السقيفة ؛ فأمّا هذا الخبر الوارد في الوصية بالأنصار؛ فهو خبر صحيح، أخرجه الشيخان محمد بن إسماعيل البخاريّ ومسلم بن الحجاج القُشَيْرِيّ في مسنديهما ، عن أنس بن مالك ، قال : مرّ أبو بكر والعباس رضي الله تعالى عنهما بمجلس من الأنصار ، في مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون ، فقالا : مايبكيكم ؟ قالوا : ذكرنا محاسنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فدخلا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وأخبراه بذلك ؛ فخرج صلى الله عليه وسلم وقد عَصَبَ على رأسه حاشية بُرْدة[1]، فصعد المنبر ـ ولم يصعده بعد ذلك اليوم ـ فحمِدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال: « أوصيكم بالأنصار ، فإنّهم كَرِشِي وَعَيْبَتِي ، وقد قضوا الّذي عليهم ، وبقِيَ الّذي لهم ، فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم »[2].

فأما كيفية الاحتجاج على الأنصار ، فقد ذكرها عليّ عليه السلام ؛ وهي أنّه لو كان ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ ممّن يجعل الإمامة فيهم ؛ لأوصى إليهم ، ولم يوصِ بهم .

وإلى هذا نَظَر عمرو بن سعيد بن العاص ، وهو المسمى بالأشْدَق ؛ فإنّ أباه لما مات خلّفه غلاماً ، فدخل إلى معاوية فقال : إلى مَنْ أوْصى بك أبوك ؟ فقال : إنّ أبي أوصَى إليّ ولم يوصِ بي ؛ فاستحسن معاوية منه ذلك ؛ فقال : إنّ هذا الغلام لأشدق ، فسُمِّيَ الأشْدَق[3] .

فأما قول أمير المؤمنين: « احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة » ؛ فكلام قد تكرر منه

---

(١) البخاري : « بردة » .
(٢) صحيح البخاري ٢ : ٣١٢ ، صحيح مسلم ١٩٤٩ (٣) الأشدق : البليغ .

عليه السلام أمثاله ؛ نحو قوله: « إذا احتجّ عليهم المهاجرون بالقُرْبِ من رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت الحجة لنا على المهاجرين بذلك قائمة ؛ فإن فَلَجَتْ حُجّتهم كانت لنا دونهم ؛ وإلّا فالأنصار على دعوتهم ».

ونحو هذا المعنى قول العباس لأبي بكر: « وأما قولك: نحن شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم جيرانها ؛ ونحن أغصانها »:

* * *

[يوم السقيفة]

ونحن نذكر خبر السّقيفة[1]؛ روى أبو بكر أحمد بن عبدالعزيز الجوهريّ في كتاب " السقيفة " قال:

أخبرني أحمد بن إسحاق، قال: حدّثنا أحمد بن سيّار، قال: حدّثنا سعيد بن كثير ابن عُفَير الأنصاريّ أن النبيّ صلى الله عليه وآله لما قُبِض، اجتمعت الأنصار في سَقيفة بني ساعدة، فقالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض، فقال سعد بن عبادة لابنه قيس - أو لبعض بنيه: إنّي لا أستطيع أن أُسْمِعَ الناسَ كلامي لمرضي؛ ولكن تلقّ مني قولي فأسْمِعهم. فكان سعد يتكلّم، ويستمع ابنه ويرفع به صوته ليُسمع قومه؛ فكان من قوله بعد حمد الله والثناء عليه أنْ قال:

إنّ لكم سابقةً إلى الدين، وفضيلةً في الإسلام ليستْ لقبيلة من العرب. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبِثَ في قومه بضعَ عشرةَ سنة، يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلْع الأوثان؛ فما آمن به من قومه إلا قليل، والله ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله،

---

(١) انظر أخبار السقيفة أيضاً في الجزء الأول ٢١ - ٦١.

ولا يُعزُّوا دينه ، ولا يدفعوا عنه عِداه ؛ حتى أراد الله بكم خيرَ الفضيلة ، وساق إليكم الكرامة ، وخصَّكم بدينه ، ورزقكم الإيمان به وبرسوله ، والإعزازَ لدينه ، والجهادَ لأعدائه ؛ فكنتم أشدَّ الناس على مَنْ تخلّف عنه منكم ، وأثقله على عَدُوِّه من غيركم ؛ حتى استقاموا لأمر الله طوعاً وكرهاً،وأعطى البعيدُ المقادَةَ صاغراً داخراً[1]، حتى أنجز الله لنبيِّكم الوعد ، ودانت لأسيافكم العربُ،ثم توفّاه الله تعالى وهو عنكم راضٍ ؛ وبكم قريرُ عَيْن ؛ فشُدّوا يديكم بهذا الأمر ، فإنّكم أحقُّ الناس وأولاهم به .

فأجابوا جميعاً : أنْ وُفِّقْتَ في الرأي،وأصبت في القول ، ولن نعدُوَ ما أمرت. نولِّيك هذا الأمر ، فأنت لنا مقنع ، ولصالح المؤمنين رضاً .

ثم إنهم ترادُّوا الكلام بينهم ، فقالوا : إن أبتْ مُهاجرة قريش فقالوا : نحن المهاجرون ، وأصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأوّلون ؛ ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلامَ تُنازعوننا هذا الأمر من بعده ؛ فقالت طائفة منهم : إذاً نقول : مِنَّا أمير ومنكم أمير ، لن نَرْضَى بدون هـذا منهم أبداً ، لنا في الإيواء والنصرة مالهم في الهجرة، ولنا في كتاب الله مالهم ، فليسوا يعدُّون شيئاً إلا ونعدّ مثله ، وليس مِنْ رأينا الاستئثارُ عليهم ، فنّا أمير ومنهم أمير .

فقال سعد بن عبادة : هذا أول الوَهَن !

وأتى الخبرُ عمرَ ، فأتى منزلَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، فوجد أبا بكرٍ في الدار وعليّاً في جهاز رسول الله صلى الله عليه وآله — وكان الذي أتاه بالخبر مَعْن بن عديّ — فأخذ بيد عمر ، وقال : قم ، فقال عمر : إنّي عنك مشغول ، فقال : إنّه لابدّ من قيام ،فقام معه، فقال له : إنّ هـذا الحيَّ من الأنصار قد اجتمعُوا في سَقيفة بني ساعدة ، معهم سعد بن عُبادة ، يدورون حوْله ، ويقولون : أنت المرجّى ، ونجلك المرجّى . وثَمّ أناسٌ من

(١) كذا في ج ، والفاخر : « الذليل » ، وفي ب : « داحضا » .

أشرافهم ، وقد خشيت الفتنة ، فانظر ياعمر ماذا ترى ! واذكر لإخوتك من المهاجرين ، واختاروا لأنفسكم ، فإنى أنظر إلى باب فتنة قد فتح الساعة إلاّ أن يغلقه الله . ففزع عمر أشدّ الفزع ، حتى أتى أبا بكر ، فأخذ بيده ، فقال : قم ، فقال أبو بكر : إنّى عنك مشغول . فقال عمر : لا بدّ من قيام ! وسنرجع إن شاء الله .

فقام أبو بكر مع عمر ، فحدّثه الحديث ، ففزع أبو بكر أشدّ الفزع ، وخرجا مسرعين إلى سقيفة بنى ساعدة ؛ وفيها رجالٌ من أشراف الأنصار ؛ ومعهم سعد بن عبادة وهو مريض بين أظهرهم ، فأراد عمر أن يتكلّم ويمهّد لأبى بكر ؛ وقال : خشيتُ أن يقصر أبو بكر عن بعض الكلام ؛ فلما نبس[1] عمر ، كفّه أبو بكر وقال : عَلَى رِسْلك ؛ فتلقّ الكلامَ ثم تكلّمْ بعد كلامى بما بدالك . فتشهد أبو بكر ، ثم قال :

إنّ الله جل ثناؤه بعث محمدا بالهدى ودين الحق ، فدعا إلى الإسلام ، فأخذ الله بقلوبنا ونواصينا إلى مادعانا إليه ، وكنّا — معاشرَ المسلمين المهاجرين — أوّلَ الناس إسلاما ، والناس لنا فى ذلك تَبَع ؛ ونحن عشيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوسطُ العرب أنسابًا ، ليس من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة ؛ وأنتم أنصار الله ، وأنتم نصرتُم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أنتم وزراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإخواننا فى كتاب الله وشركاؤنا فى الدين ؛ وفيما كنّا فيه من خير ؛ فأنتم أحبُّ الناس إلينا وأكرمُهم علينا ، وأحقّ الناس بالرضا بقضاء الله ، والتسليم لما ساق الله إلى إخوانكم من المهاجرين ، وأحقّ الناس ألّا تحسدوهم ، فأنتم المؤثِرون على أنفسهم حين الخصاصة ، وأحقُّ الناس ألّا يكون انتقاض هذا الدين واختلاطه على أيديكم ، وأنا أدعوكم إلى أبى عبيدة وعمر ؛ فكلاهما قد رضيتُ لهذا الأمر ، وكلاهما أراه له أهلا .

---

(١) نبس : أى تكلم .

فقال عمر وأبو عبيدة : ماينبغى لأحدٍ من الناس أن يكونَ فوقك ، أنت صاحبُ الغار ، ثانى اثنين ، وأمرَكَ رسول الله بالصلاة ، فأنت أحقُّ الناس بهذا الأمر .

فقال الأنصار :

والله ما نحسدكم على خيرٍ ساقه الله إليكم ، ولا أحدٌ أحبّ إلينا ولا أرضى عندنا منكم ، ولكنا نشفق فيما بعد هذا اليوم ، ونحذر أن يغلبَ على هذا الأمر مَنْ ليس منّا ولا منكم ؛ فلو جعلتم اليوم رجلًا منكم بايعنا ورضينا — على أنه إذا هلك اخترنا واحداً من الأنصار ؛ فإذا هلك كان آخر من المهاجرين أبداً ما بقيت هذه الأمة — كان ذلك أجدر أن تَعْدِل[1] فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيشفق الأنصارى أن يزيغ فيقبض عليه القرشىّ ، ويشفق القرشىّ أن يزيغَ فيقبض عليه الأنصارىّ .

فقام أبو بكر فقال : إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بُعث عظم على العرب أن يتركوا دينَ آبائهم ، فخالفوه وشاقوه ، وخصّ الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواساة له ، والصَّبر معه على شدّة أذى قومه ، ولم يستوحشوا لكثرة عدوّهم ؛ فهم أول مَنْ عَبَدَ الله فى الأرض ، وهم أوّلُ مَنْ آمن برسول الله ، وهم أولياؤه وعترته ، وأحقّ الناس بالأمر بعده ، لاينازعهم فيه إلا ظالم ؛ وليس أحدٌ بعد المهاجرين فضلاً وقدَماً فى الإسلام مثلكم ؛ فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا نمتاز دونكم بمشورة ، ولا نقضى دونكم الأمور .

فقام الحباب بن المنذر بن الجموح ، فقال :

يامعشر الأنصار ؛ املِكُوا عليكم أيديَكم ؛ إنما الناس فى فيئكم وظلكم ؛ ولن يجترئ مجترئٌ على خلافكم ، ولا يصدر الناس إلا عن أمركم ، أنتم أهل الإيواء والنُّصْرة ، وإليكم كانت الهجرة ، وأنتم أصحاب الدّار والإيمان ؛ والله ماعبِد اللهُ علانيةً إلا عندكم وفى بلادكم ،

[1] كذا فى ج ، وفى ب : « العدل » .

ولا جمعت الصلاة إلا فى مساجدكم ، ولا عُرِف الإيمان إلا من أسيافكم ، فامْلِكوا عليكم أمرَكم ، فإن أبى هؤلاء ، فمنّا أميرٌ ومنهم أمير .

فقال عمر : هيهات ! لا يجتمع سَيْفان فى غِمْد ؛ إنّ العرب لا ترضى أن تؤمِّرَكم ونبيُّها من غيركم ، وليس تمتنع العرب أن تولّىَ أمرَها مَنْ كانت النبوّة فيهم ؛ وأولو الأمر منهم ، لنا بذلك الحجة الظاهرة على مَنْ خالفنا ، والسلطان المبين على مَنْ نازعنا ، مَنْ ذا يخاصمُنا فى سلطان محمد وميراثه ؛ ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلاّ مُدْلٍ بباطل ، أو متجانفٌ لإثم ، أو متورِّط فى هَلَكَة !

فقامَ الحُباب ، وقال :

يا معشر الأنصار ، لا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من الأمر ، فإن أبَوْا عليكم ما أعطيتموهم فأجلُوهم عن بلادكم ، وتولّوا هذا الأمر عليهم ، فأنتم أوْلَى الناس بهذا الأمر ، إنّه دانَ لهذا الأمر بأسيافكم مَنْ لم يكن يدين له . أنا جُذَيْلُها المحكَّك ، وعُذَيْقُها المرجَّب[1] ، إن شئتم لنعيدنّها جذعة[2] ، والله لا يردّ أحدٌ علىّ ما أقول إلا حطمتُ أنفه بالسَّيف .

قال : فلما رأى بشير بن سعد الخزرجىّ ما اجتمعت عليه الأنصار من تأمير سعد بن عبادة — وكان حاسداً له ، وكان من سادة الخزرج — قام فقال :

أيها الأنصار ، إنّا وإنْ كُنّا ذوِى سابقة ، فإنّا لم نُرِد بجهادنا وإسلامِنا إلا رضا ربِّنا وطاعة نبيِّنا ، ولا ينبغى لنا أن نستطيل بذلك على الناس ، ولا نبتغى به عِوَضاً

---

(١) قال الزمخشرى فى الفائق ١ : ١٨٦ : « الجذل : عود ينصب للإبل الجربى تحتك به فتستشفى . والمحكك : الذى كثر به الاحتكاك حتى صار مملساً . والعذق ؛ بالفتح : النخلة . والمرجب : المدعوم بالرجبة ؛ وهى خشبة ذات شعبتين ؛ وذلك إذا طال وكثر حمله . والمعنى : إنى ذو رأى يشفى بالاستضاءة به كثيراً فى مثل هذه الحادثة ، وأنا فى كثرة التجارب والعلم بموارد الأحوال فيها ، وفى أمثالها ومصادرها ، كالنخلة الكثيرة الحمل . ثم رمى بالرأى الصائب عنده ، فقال : منا أمير ومنكم أمير » .

(٢) قال فى اللسان : « إن شئتم أعدناها جذعة ، أى أول ما يبتدأ فيها » .

من الدّنيا ، إن محمدا صلى الله عليه وسلم رجلٌ من قريش ؛ وقومه أحقُّ بميراثِ أمره ، وايمُ الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر ؛ فاتّقوا اللهَ ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم .

فقام أبو بكر ، وقال : هذا عمر وأبو عُبيدة ، بايعوا أيّهما شئتم ؛ فقالا : والله لا نتولّى هذا الأمر عليك ؛ وأنت أفضلُ المهاجرين ، وثانى اثنين ، وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصلاة ؛ والصّلاةُ أفضلُ الدّين ، ابسُط يدَك نبايعْك .

فلما بَسط يدَه ، وذهبا يبايعانه ، سبقهما بشير بن سعد ، فبايَعه ، فناداه الحُباب ابن المنذر : يا بشير ، عَقَقْتَ عَقَاقِ[1] ؛ والله ما اضطرك إلى هـذا الأمر إلّا الحسدُ لابن عمّك .

ولمـا رأت الأوس أنّ رئيساً من رؤساء الخزرج قد بايع ، قام أُسَيد بن حُضَير — وهو رئيس الأوس — فبايَع حسدا لسعد أيضا، ومنافسةً له أن يلِيَ الأمرَ، فبايعت الأوس كلّها لمـا بايع أُسَيد ، وحمِل سعد بن عبادة وهو مريض ، فأُدخل إلى منزله ، فامتنع من البَيْعة فى ذلك اليوم وفيما بعده ، وأراد عمر أن يُكرِهه عليها ، فأُشير عليه ألّا يفعل ، وأنه لا يبايع حتى يُقتل ، وأنه لا يُقتل حتى يقتـل أهلُه ، ولا يقتل أهلُه حتى يقتلَ الخزرج ؛ وإن حوربت الخزرج كانت الأوس معها .

وفـد الأمر فتركوه ، فـكانَ لا يصلِّى بصلاتهم ، ولا يجمع بجماعتهم ، ولا يقضى بقضائهم ؛ ولو وجد أعوانا لصاوَلهم ؛ فلم يزلْ كذلك حتى مات أبو بكر ، ثم لقِيَ عمرَ فى خلافته ؛ وهو على فرس ، وعمر على بعير ، فقال له عمر : هيهات ياسعد ! فقال سعد : هيهات يا عمر ! فقال : أنت صاحب مَنْ أنت صاحبه ؟ قال : نعم أنا ذاك ؛ ثم قال لعمر : والله ما جاورنى أحدٌ هو أبغضُ إلىّ جواراً منك ، قال عمر : فإنه مَنْ كَرِه جوار رجل انتقل عنه ؛ فقال سعد : إنّى لأرجو أن أخلّيَها لك عاجلا إلى جوار مَنْ هو أحبُّ إلىّ

(١) ج : « يا عقاق » .

جواراً منك ومن أصحابك؛ فلم يلبث سعدٌ بعد ذلك إلا قليلا حتى خرج إلى الشام، فمات بحُوران ولم يبايع لأحدٍ؛ لا لأبى بكر ولا لعمر ولا لغيرهما.

قال: وكثُر الناسُ على أبى بكر، فبايعه معظمُ المسلمين فى ذلك اليوم؛ واجتمعت بنو هاشم إلى بيت علىّ بن أبى طالب، ومعهم الزبير، وكان يعدّ نفسه رجلا من بنى هاشم؛ كان علىّ يقول: مازال الزُّبير منّا أهلَ البيت؛ حتى نشأ بنُوه، فصرفُوه عنّا.

واجتمعتْ بنو أميّة إلى عثمان بن عفّان، واجتمعت بنو زُهرة إلى سعد وعبد الرحمن؛ فأقبل عمر إليهم وأبو عبيدة، فقال: مالى أراكم ملتاثين؟ قوموا فبايعوا أبا بكر؛ فقد بايع له الناس، وبايعه الأنصار. فقام عثمان ومن معه، وقام سعد وعبد الرحمن ومَن معهما، فبايعوا أبا بكر.

وذهب عمر ومعه عصابة إلى بيت فاطمة، منهم أُسيد بن حُضير وسلمة بن أسلم، فقال لهم: انطلقوا فبايعوا، فأبَوْا عليه؛ وخرج إليهم الزُّبير بسيفه، فقال عمر: عليكم الكلبَ، فوثب عليه سلمة بن أسلم، فأخذ السيفَ من يده فضرب به الجدار، ثم انطلقوا به وبعلىّ ومعهما بنو هاشم، وعلىّ يقول: أنا عبدُ الله وأخو رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ حتى انتهوا به إلى أبى بكر، فقيل له: بايعْ، فقال: أنا أحقُّ بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أوْلى بالبيعة لى، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتُم عليهم بالقرابة من رسول الله، فأعطوكم القيادة، وسلّموا إليكم الإمارة، وأنا أحتجُّ عليكم بمثل ما احتججتُم به على الأنصار. فأنصفونا إن كنتم تخافون الله من أنفسكم، واعرفوا لنا من الأمر مثل ماعرفت الأنصار لكم، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون.

فقال عمر: إنك لستَ متروكا حتى تبايع. فقال له علىّ: احلب ياعمر حلباً لك شطرُه! اشدُد[1] له اليوم أمرَه ليردّ عليك غداً! ألا والله لاأقبل قولك ولا أبايعه. فقال له أبو بكر:

---

(١) ب: «شدّ».

فإن لم تبايعني لم أكرهك ، فقال له أبو عبيدة: يا أبا الحسن ، إنك حديثُ السنّ ، وهؤلاء مَشْيَخة قريش قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك ، وأشدّ احتمالا له ؛ واضطلاعاً به ، فسلّم له هذا الأمر وارْضَ به ، فإنك إن تعش وَيَطُلْ عمرك فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق ؛ فى فضلك وقرابتك ، وسابقتك وجهادك .

فقال علىّ : يامعشرَ المهاجرين ، اللهَ اللهَ ! لاتُخرِجوا سلطانَ محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم ، ولا تدفعوا أهلَه عن مقامه فى الناس وحَقّه ، فوالله يامعشرَ المهاجرين ، لَنَحْنُ ـ أهلَ البيت ـ أحقُّ بهذا الأمر منكم. أما كان منّا القارئُ لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله ، العالم بالسنّة ، المضطلع بأمر الرعية ! والله إنه لفينا ، فلاتتبعوا الهوى ، فتزدادوا من الحقّ بعدا .

فقال بشير بن سعد : لو كان هذا الكلامُ سمعتْهُ منك الأنصار ياعلىّ قبل بيعتهم لأبى بكر ، مااختلف عليك اثنان ، ولكنّهم قد بايعوا .

وانصرف علىّ إلى منزله ، ولم يبايع ، ولزم بيته حتى ماتت فاطمة فبايَع .

* * *

قلت :هذا الحديثُ يدلّ على بُطْلان مايُدّعَى من النصّ على أمير المؤمنين وغيره،لأنه لوكان هناك نصٌّ صريح لاحتجّ به ولم يجرِ للنصّ ذكر ، وإنما كان الاحتجاج منه ومن أبى بكر ومن الأنصار بالسوابق والفضائل والقرب ، فلوكان هناك نصٌّ على أمير المؤمنين أو على أبى بكر ، لاحتجّ به أبو بكر أيضاً على الأنصار ، ولاحتجّ به أميرُ المؤمنين على أبى بكر ، فإنّ هذا الخبر وغيره من الأخبار المستفيضة يدلّ على أنه قد كان كاشفهم وهَتَك القناع بينه وبينهم ، ألا تراه كيف نسبهم إلى التعدّى عليه وظلمه ، وتمنّع من طاعتهم ،

وأسمعهم من الكلام أشدّه وأعلظه ؛ فلو كان هناك نص لذكره، أو ذكره بعض مَن كان من شيعته وحزبه ؛ لأنّه لا عِطر بعد عَرُوس .

وهذا أيضاً يدلّ على أنّ الخبرَ المروىّ فى أبى بكر فى صحيحى البخارى ومسلم غيرُ صحيح ؛ وهو ماروى من قوله عليه السلام لعائشة فى مرضه : « ادعى لى أباك ، حتى أكتب لأبى بكر كتاباً ؛ فإنى أخافُ أن يقول قائل ، أو يتمنى متمنّ ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » .

وهذا هو نص مذهب المعتزلة .

* * *

وقال أحمد بن عبد العزيز الجوهرى أيضاً : حدّثنا أحمد وقال : حدثنا ابن عُفير ، قال: حدّثنا أبو عوف عبد الله بن عبد الرحمن ، عن أبى جعفر محمد بن علىّ رضى الله عنهما ، أنّ علياً حَمل فاطمة على حمار ، وسار بها ليلاً إلى بيوت الأنصار ؛ يسألهم النصرة ، وتسألهم فاطمة الانتصار له ، فكانوا يقولون : يابنتَ رسول الله ، قدمضت بيعتُنا لهذا الرجل،لو كان ابنُ عمّك سبق إلينا أبا بكر ما عَدَلْنا به ؛ فقال علىّ : أكنت أتركُ رسولَ الله ميّتاً فى بيته لا أجهّزه ، وأخرجُ إلى الناس أنازعهم فى سلطانه !

وقالت فاطمة : ماصنع أبو حسن إلا ما كان ينبغى له ، وصنعوا هم ما الله حَسْبُهم عليه .

وقال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وحدثنا أحمد ، قال : حدثنى سعيد بن كَثير ، قال : حدثنى ابن لَهيعة ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما مات وأبو ذرّ غائب ، وقدم وقد وُلّى أبو بكر ، فقال : أصبتم قِناعه ، وتركتم قرابه ؛ لوجعلتم هذا الأمر فى أهلِ بيت نبيّكم لما اختلف عليكم اثنان .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبة ، قال : حدثنا أبو قبيصة محمد بن حرب ، قال : لما توفّى النبيّ صلى الله عليه وآله ، وجرى فى السقيفة ما جرى تمثل علىّ :

وأصبح أقوام يقولون ما اشتهوا ... ويطغون لمّا غالَ زيداً غوائلُهْ

[قصيدة أبى القاسم المغربىّ وتعصبه للأنصار على قريش]

وحدثنى أبو جعفر يحيى بن محمد بن زيد العلوىّ نقيب البصرة ؛ قال : لما قدم أبو القاسم علىّ بن الحسين المغربىّ من مصر إلى بغداد ، استكتبه شرفُ الدولة أبو علىّ بن بويه ، وهو يومئذ سلطان الحضرة ، وأمير الأمراء بها ، والقادر خليفة ، فسدت الحالُ بينه وبين القادر ؛ واتفق لأبى القاسم المغربىّ أعداء سوء أوحشوا القادر منه ، وأوهموه أنه مع شرف الدولة فى القبض عليه وخلعه من الخلافة ، فأطلق لسانه فى ذكره بالقبيح . وأوصل القول فيه ، والشكوى منه ، ونسبه إلى الرفض وسبّ السلف ، وإلى كفران النعمة ، وأنه هرب من يد الحاكم صاحب مصر بعد إحسانه إليه .

قال النقيب أبو جعفر رحمه الله تعالى : فأما الرفض فنعم ؛ وأما إحسان الحاكم إليه فلا ؛ كان الحاكم قتل أباه وعمّه وأخاً من إخوته ، وأفلت منه أبو القاسم بخديعة الدين ، ولو ظفر به لألحقه بهم .

قال أبو جعفر : وكان أبو القاسم المغربىّ ، ينسب فى الأزد ، ويتعصّب لقحطان على عدنان ، وللأنصار على قريش ، وكان غاليا فى ذلك مع تشيّعه ، وكان أديباً فاضلا شاعراً مترسّلا ، وكثير الفنون عالماً ، وانحدر مع شرف الدولة إلى واسط ، فاتفق أن حصل بيد القادر كتاب بخطه شبه مجموع ؛ قد جمعه من خطه وشعره وكلامه مسود ، أخذه بعض مَنْ كان يشنأ أبا القاسم ، ويريد كيده ، فوجد القادر فى ذلك المجموع قصيدة من شعره ، فيها تعصّب شديد للأنصار على المهاجرين ، حتى خرج إلى نوع من الإلحاد والزندقة لإفراط غلوّه

وفيها تصريح بالرَّفض مع ذلك ، فوجدها القادر تمرة[1] الغراب ، وأبرزها إلى ديوان الخلافة، فقرئ الجموع والقصيدة بمحضرٍ من أعيان الناس من الأشراف والقضاة والمعدّلين والفقهاء، ويشهد أكثرهم أنه خطّه ، وأنهم يعرفونه كما يعرفون وجهه، وأمر بمكاتبة شرف الدولة بذلك ، فإلى أن وصل الكتاب إلى شرف الدولة بما جرى ، اتصل الخبر بأبي القاسم قبل وصول الكتاب إلى شرف الدولة ، فهرب ليلًا ، ومعه بعضُ غلمانه ، وجارية كان يهواها ويتحظّاها، ومضى إلى البَطيحة ، ثم منها إلى الموصل ، ثم إلى الشام ، ومات في طريقه، فأوصى أن تحمَل جثته إلى مشهد عليّ ، فحملت في تابوت ، ومعها خفراء العرب حتى دفن [2] بالمشهد بالقرب منه عليه السلام [2] .

وكنت برهةً أسأل النقيبَ أبا جعفر عن القصيدة ، وهو يدافعني بها ، حتى أملاها عليَّ بعد حين ، وقد أوردتها هاهنا بعضها ؛ لأني لم أستجزْ ولم أستحلّ إيرادها على وجهها، فمن جملتها — وهو يذكر في أولها رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويقول : إنه لولا الأنصار لم تستقمْ لدعوته دعامة ، ولا أرست له قاعدة ، في أبيات فاحشة كرهنا ذكرها :

نحنُ الَّذين بنا استجارَ فلم يَضِعْ ... فينا ، وأصبحَ في أعزِّ جِوارِ

بسيوفنا أمست سخينةُ برّكًا ... في بَدْرِها كعقائرِ الجزّارِ[3]

ولَنحنُ في أُحُدٍ سَمَحْنَا دونه ... بنفوسنا للموت خوفَ العارِ

فنجا بمهجته ، فلولا ذبُّنا ... عنه تنشّبَ في مخالِب ضارِ

وحميّة السَّعْدَين بل بحماية الـ ... ـدِّين يوم الجحفلِ الجرّارِ

في الخندق المشهور إذ ألقى بها ... بيدٍ ، ورام دفاعها بِبَوارِ

قالا : معاذ الله إن هضيمةً ... لم نعطِها في سالف الأعصارِ

---

(١) يقال إذا أصاب الرجل عند صاحبه أفضل مايريد من الخير والخصب : وجد تمرة الغراب ، وذلك أن الغراب إنما يجنى من التمر أجوده . ثمار القلوب ٣٦٦ .

(٢—٢) ج « بالقرى » .

(٣) سخينة : لقب قريش ، وفي ا ، ج : « تركا » .

ماعندنا إلا السيوفُ ، وأقبلا   نحو الحتوف بها بِدَارِ بِدَارِ
ولنا بيوم حنينَ آثارٌ متى   تذكرْ فهنّ كرائمُ الآثارِ
لما تصدع جمُه فغدا بنا   مستصرخًا بغيرةٍ وجُؤَارِ
عطفت عليه كاتُنا ، فتحصّنتْ   منّا جموعُ هوازنٍ بفرارِ
وفدَتْه من أبناء قَيْلةَ عُصْبةٌ   شَرَوَى النقير وجنّةَ البقّارِ
أفنحنُ أولى بالخلافة بعدَهُ   أم عبد تيم حاملُو الأوزارِ!
ماالأمر إلا أمرُنا وبسعدِنا   زُفّتْ عروسُ الملك غير نوارِ!
لـكنها حسدُ النفوس وشحُّها   وتذكّرُ الأذحالِ والأوتارِ
أفضى إلى هَرْجٍ وَمَرْجٍ فانبرت   عشواء خابطةً بغير نهارِ
وتداولتهـا أربعٌ لولا أبو   حَسَنٍ لقلتُ لؤمت من إسْئارِ[1]
من عاجزٍ ضَرِعٍ ، ومن ذى غلظةٍ   جافٍ ، ومن ذى لوثة خوّارِ[2]
ثم ارتدى المحرومُ فضلَ رِدائِها   فغلت مراجل إحنةٍ وغرارِ
فتأكّلت تلك الجُذَى ، وتلظّتْ   تلك الظُّبا ، ورقا أجيجُ النارِ
تالله لو ألقوا إليه زمامها   لمشى بهم سُجُحًا بغيرِ عِثارِ[3]
ولو انّها حلّت بساحةِ مجدِه   بادِي بدًا سكنت بدارِ قَرَارِ
هو كالنبي فضيلةً ، لـكنّ ذا   من حظّه كاسٍ ، وهـذا عارِ
والفضلُ ليس بنافعٍ أربابَه   إلا بمسعدةٍ من الأقدارِ
ثم امتطاها عبدُ شمس فاغتدَتْ   هزؤًا ، وبُدّلَ رِبحُها بخَسَارِ
وتنقّلت فى عصبةٍ أمويةٍ   ليسوا بأطهارٍ ولا أبرارِ

---

(١) الإسْعار ، بالكسر : أربعة فى العدد .
(٢) الضرع : الضعيف .
(٣) ج : « تبار » .

مابين مأفونٍ إلى مُتَزَندِقٍ   ومُداهنٍ ومضاعَفٍ وحِمَارِ

فهذه الأبيات، هى نظيفُ القصيدة، التقطناها وحذفْنا الفاحش، وفى الملتقط المذكور أيضاً مالا يَجُوز، وهو قوله : « نحن الذين بنا استجار » ، وقوله : « أتى بها بيدر » ، وقوله : « فنجا بمهجته . . . . » البيت . وقوله عن أبى بكر : « عبد تيم » ، وقوله : « لولا علىّ لقلت فى الأربعة إنهم إستار لؤم » ، وذكره الثلاثة رضى الله عنهم بما ذكرهم ونسبهم إليه . وقوله : « إن علياً كالنبى فى الفضيلة » ، وقوله : « إنّ النبوّة حقٌّ أُعطيَه وحُرِمه علىّ عليه السلام » .

فأما قوله فى بنى أمية : « مابين مأفون . . . . » البيت ، فمأخوذ من قول عَبْد الملك بن مرْوان ، وقد خطب فذكر الخلفاء من بنى أُميّة قبله ، فقال : إنّى والله لستُ بالخليفة المستضعَف ، ولا بالخليفة المداهن ، ولا بالخليفة المأفون ؛ عَنَى بالمستضعف عثمان ، وبالمداهن معاويةَ ، وبالمأفون يزيدَ بن معاوية ؛ فزاد هذا الشاعر فيهم اثنين : وهما المتزندق ، وهو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، والحمار وهو مرْوان بن محمد بن مروان .

***

[أمر المهاجرين والأنصار بعد بيعة أبى بكر]

وروى الزبير بن بكار فى "الموفقيات" قال : لما بايع بشير بن سعد أبا بكر ، وازدحم الناس على أبى بكر فبايعوه ، مرّ أبو سفيان بن حرب بالبيت الذى فيه علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فوقف وأنشد :

بَنِى هاشمٍ لاتطمِعُوا النَّاسَ فيكمُ   ولا سيَّمَا تَيم بن مرّة أو عــــدِىْ
فما الأمرُ إلا فيكمُ وإليكمُ   وليس لها إلّا أبو حسنٍ علىْ

أبا حَسَنٍ فاشدُدْ بها كفَّ حازمٍ   فإنك بالأمر الذى يُرْتَجى مَلِىّ
وأىّ امرئٍ يرمى قصيًّا ورأيها   منيعُ الحِمى والناس من غالب قصىّ!

فقال علىّ لأبى سفيان : إنك تريدُ أمراً لسنا من أصحابه ، وقد عهد إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً فأنا عليه ؛ فتركه أبو سفيان وعدَل إلى العبّاس بن عبد المطلب فى منزله ، فقال : ياأبا الفضل[1] ، أنت أحقّ بميراث ابن أخيك ، امدد يدك لأبايعك ، فلا يختلف عليك الناس بعد بيعتى إياك . فضحك العباس ، وقال : ياأبا سفيان ، يدفعها علىّ ويطلبها العباس ! فرجع أبو سفيان خائبا .

قال الزبير : وذكر محمد بن إسحاق أنّ الأوس تزعم أنّ أوّل مَنْ بايع أبا بكر بشير ابن سعد ، وتزعم الخزرج أن أول مَنْ بايع أُسَيد بن حُضير .

قلت : بشير بن سعد خزرجىّ ، وأسيد بن حضير أوسىّ ، وإنما تدافع الفريقان الروايتين تفادياً عن سعد بن عبادة ، وكراهية كلّ حىّ منهما أن يكونَ نقضُ أمره جاء من جهة صاحبه ؛ فالخزرج هُمْ أهله وقرابته ، لايقرّون أن بشير بن سعد هو أول مَنْ بايع أبا بكر وأبطل أمرَ سعد بن عبادة ، ويُحيلون بذلك على أسيد بن حضير ؛ لأنه من الأوس أعداء الخزرج . وأمّا الأوس فكرهوا أيضاً أن ينتسب أسيد إلى أنه أول مَنْ نقضَ أمر سعد بن عبادة ، كى لايرمُوه بالحسد للخزرج ؛ لأن سعد بن عُبادة خزرجىٌّ ، فيحيلون بانتقاض أمره على قبيلته ــ وهم الخزرج ــ ويقولون : إنّ أول مَنْ بايع أبا بكر ونَقَض دعوة سَعد بن عبادة بشيرُ بن سعد . وكان بشيرٌ أعوَر .

والذى ثبت عندى أنّ أوّلَ مَنْ بايعه عمر ، ثم بشير بن سعد ، ثم أُسَيد بن حُضَير ، ثم أبو عبيدة بن الجرّاح ، ثم سالم مولى أبى حُذَيفة .

---

(١) كذا فى ب ، ج ، وفى ا : « أنت لها » .

قال الزبير : وقد كان مالأ أبا بكر وعمر على نقض أمر سعد وإفساد حاله رجلان من الأنصار ممّن شهد بدرا ، وهما عُوَيم بن ساعدة ومعن بن عدىّ .

قلت : كان هذان الرجلان ذوَىْ حُبٍّ لأبي بكر في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله واتفق مع ذلك بغض وشحناء ؛ كانت(1) بينهما وبين سعد بن عبادة ، ولها سبب مذكور في كتاب " القبائل " لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، فليُطلب من هناك .

وعُوَيم بن ساعدة ، هو القائل لمّا نصب الأنصار سعدا : يامعشرَ الخزرج ؛ إن كان هذا الأمر فيكم دونَ قريش فعرّفونا ذلك وبرهِنُوا حتى نبايعكم عليه ؛ وإن كان لم دونكم ، فسلّموا إليهم ؛ فو الله ما هلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرّفنا أنّ أبا بكر خليفة حين أمرَه أن يصلّيَ بالناس ؛ فشتمه الأنصار وأخرجوه ؛ فانطلق مسرعا حتى التحقَ بأبي بكر ، فشحذَ عزمه على طلب الخلافة .

ذكر هذا بعينه الزبير بن بكار في " الموفقيات " .

وذكر المدائنيّ والواقديّ أنّ معن بن عديّ اتفق هو وعُوَيم بن ساعدة على تحريض أبي بكر وعمر على طلب الأمر وصَرْفه عن الأنصار . قالا : وكان معن بن عديّ يشخصهما إشخاصا ، ويسوقهما سَوْقًا عنيفا إلى السقيفة ، مبادرةً إلى الأمر قبل فواته .

* * *

قال الزبير بن بكار : فلمّا بُويع أبو بكر ، أقبلت الجماعة التي بايعته تزفّه زفًّا إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان آخرُ النهار ، افترقوا إلى منازلهم ، فاجتمع قومٌ من الأنصار وقوم من المهاجرين ، فتعاتبوا فيما بينهم ، فقال عبد الرحمن بن عوف : يامعشرَ الأنصار ، إنكم وإن كنتم أُولي فضل ونصر وسابقة ؛ ولكن ليس فيكم مثل أبي بكر ولا عمر ولا عليّ ولا أبي عبيدة . فقال زيد بن أرقم : إنا لا ننكر فضلَ مَنْ ذَكرتَ

(١) ج : « كانا » .

يا عبد الرحمن ؛ وإنّ مِنّا لسيّد الأنصار سعد بن عبادة ، ومَنْ أمر الله رسوله أن يقرئه السلام ، وأن يأخذ عنه القرآن أُبَيّ بن كعب ، ومَنْ يجيء يوم القيامة إمام العلماء مُعاذ بن جبل ، ومن أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين خُزيمة ابن ثابت ؛ وإنّا لنعلم أنّ ممّن سمّيتَ من قريش مَنْ لو طلب هذا الأمر لم ينازعْه فيه أحد ؛ عليّ بن أبي طالب .

قال الزّبير : فلما كان من الغد قام أبو بكر فخطب الناس وقال :

أيّها الناس ؛ إني وليت أمرَكم ولستُ بخيركم ، فإذا أحسنت فأعينوني ؛ وإن أسأت فقوِّموني ؛ إنّ لي شيطاناً يعتريني ؛ فإيّاكم وإيّاي إذا غضبت ؛ لا أوثر في أشعاركم وأبشاركم . الصّدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضّعيف منكم قويّ حتى أردّ إليه حقّه ، والقويّ ضعيف حتى آخذ الحق منه . إنّه لا يدَعُ قومٌ الجهادَ إلا ضربهم الله بالذلّ ، ولا تشيع في قوم الفاحشة إلا عمّهم البلاء ؛ أطيعوني ما أطعتُ الله ، فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله .

قال ابن أبي عبرة القرشيّ :

شكراً لمن هو بالثناء حقيقٌ ... ذهب اللّجاجُ وبُويع الصّديقُ
مِنْ بعد ما زَلّتْ بسعدٍ نعلُهُ ... ورجا رجاءً دونَهُ العَيّوقُ
حفّتْ به الأنصارُ عاصبَ رأسِه ... فأتاهمُ الصِّدّيقُ والفاروقُ
وأبو عبيدةَ والذين إليهمُ ... نفس المؤمّل للقاء تتوقُ[1]
كنّا نقول : لها عليّ والرضا ... عُمَرٌ وأَولاهمْ بذاك عتيقُ
فدعتْ قريش باسمه فأجابها ... إنّ المنوّه باسمه الموثوقُ

(١) ب : « تسوق » .

قل للالى طلبوا الخلافة زَلَّةً   لم يُخطَّ مثل خطاهمُ مخلوقُ
إنّ الخلافة فى قريش مالــكم   فيها ـ وربِّ محمد ـ معرُوقُ

* * *

وروى الزبير بن بكار، قال : روى محمد بن إسحاق أنّ أبا بكر لما بُويع افتخرت تَيم بن مرة ـ قال : وكان عامة المهاجرين وجلّ الأنصار لا يشكُّون أنّ عليا هو صاحب الأمر بعد رسول الله، صلى الله عليه وآله ـ فقال الفضل بن العباس : يامعشرَ قريش، وخصوصا يابنى تَيْم، إنّـكم إنما أخذتم الخلافة بالنبوة، ونحن أهلُها دونكم، ولو طلبنا هذا الأمرَ الذى نحنُ أهلُه لـكانت كراهةُ الناس لنا أعظم من كراهتهم لغيرنا؛ حسداً منهم لنا، وحقداً علينا، وإنا لنعلم أنّ عند صاحبنا عَهْداً هو ينتهى إليه .

وقال بعض ولد أبى لهب بن عبد المطلب بن هاشم شعرا :

ما كنتُ أحسِبُ أنّ الأمر منصرفٌ   عن هاشمٍ ثمّ منهـا عن أبى حَسَنِ
أليس أوّلَ مَنْ صلّى لقبلتكمْ   وأعلمَ الناس بالقرآن والسّننِ
وأقربَ الناس عهداً بالنبىّ ومَنْ   جبريلُ عَوْنٌ له فى الغسْلِ والـكَفَنِ
مافيه مافيهمُ لا يمترونَ به   وليس فى القوم مافيه من الحسن
ماذا الذى رَدّهُمْ عنه فنعلَمه   ها إنّ ذَا غَبْنُنَا من أعظم الغَبَنِ!

قال الزُّبير : فبعث إليه علىّ فنهاه وأمرَه ألا يعود، وقال : سلامة الدّين أحبّ إلينا من غيره .

قال الزبير : وكان خالدُ بن الوليد شيعةً لأبي بكر ، ومن المنحرفين عن عليّ ، فقام خطيباً ، فقال : أيُّها الناس ، إنَّا رُمِينا في بدء هذا الدين بأمرٍ ثَقُلَ علينا ــ والله ــ محمِلُه ، وصعُب علينا مُرتقاه ؛ وكنَّا كأنَّا فيه على أوتار ؛ ثم والله ما لبثنا أن خفَّ علينا ثِقلُه، وذَلَّ لنا صَعْبُه ، وعجِبْنا ممن شكَّ فيه بعد عَجَبِنا ممن آمن به ؛ حتى أُمِرنا بما كنا نَنْهَى عنه ، ونُهينا عمّا كنا نأمر به ؛ ولا والله ما سُبِقنا إليه بالعقول ؛ ولكنه التوفيق . ألا وإنَّ الوحي لم ينقطع حتى أُحكِم ؛ ولم يذهب النبيّ صلى الله عليه وسلم فنستبدل بعده نبيًّا ؛ ولا بعد الوحي وحياً ؛ ونحن اليوم أكثرُنا أمس ، ونحن أمس خيرٌ منّا اليوم ؛ مَن دَخَلَ في هذا الدين كان ثوابه على حَسَب عمله ، ومَن تركه رددناه إليه ، وإنه والله ما صاحب الأمر ــ يعني أبا بكر ــ بالمسئول عنه ، ولا المختلَف فيه ، ولا الخفيّ الشخص ، ولا المغموز القَناة .

فعجب الناس من كلامه ، ومدحه حَزْنُ بنُ أبي وهب المخزوميّ ؛ وهو الذي سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله « سَهْلاً » ، وهو جدّ سعيد بن المسيِّب الفقيه ، وقال :

وقامَتْ رِجالٌ من قُرَيْشٍ كثيرةٌ ... فلم يَكُ منهم في الرِّجالِ كخالدِ

ترقَّى فلم يَزْلَقْ به صدرُ نعله ... وكفَّ فلم يعرِض لتلك الأوابدِ

فجاء بها غرّاءَ كالبدرِ ضوءها ... فسمّيتُها في الحسن أمّ القلائدِ

أخالدُ لا تَعْدَمْ لؤيُّ بن غالبٍ ... قيامَك فيها عند قذفِ الجلامدِ

كساك الوليدُ بن المغيرة مجدَه ... وعلّمك الأشياخُ ضربَ القَماحِدِ[1]

تقارع في الإسلام عن صُلْبِ دينه ... وفي الشرك عن أحسابِ جَدٍّ ووالدِ

---

(١) القماحد : جمع قمحدوة ؛ وهي الهنة الناشزة فوق القفا .

وكنتَ لمخزوم بن يقظة جُنّةً ... يمدّك فيها ماجداً وابنُ ماجدِ
إذا ما سَما في حَرْبها ألفُ فارسٍ ... عَدَلْتَ بألفٍ عند تلك الشدائدِ
ومن يكُ في الحرب المثيرة واحداً ... فما أنت في الحرب العَوان بواحدِ
إذا ناب أمرٌ في قريشٍ مخلّجٌ ... تشيب له رُؤْسُ العذارى النواهدِ [1]
تولّيتَ منه ما يُخافُ وإن تَغِبْ ... يقولوا جميعاً: حَظّنا غير شاهدِ

قال الزّبير: وحدّثنا محمد بن موسى الأنصاريّ المعروف بابن مَخْرَمة، قال: حدّثني إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عَوْف الزهريّ، قال: لما بُويع أبو بكر واستقرّ أمرُه، نَدِم قوم كثير من الأنصار على بيْعته، ولام بعضُهم بعضاً، وذكروا عليّ ابن أبي طالب، وهتفوا باسمه؛ وإنّه في داره لم يخرجْ إليهم، وجزع لذلك المهاجرون، وكثُر في ذلك الكلام.

وكان أشدّ قريش على الأنصار نفرٌ فيهم؛ وهم سهيل بن عمرو؛ أحد بني عامر ابن لؤيّ، والحارث بن هشام، وعِكْرِمة بن أبي جهل المخزوميّان؛ وهؤلاء أشراف قريش الذين حاربوا النبيّ صلى الله عليه وآله، ثم دخلوا في الإسلام، وكلّهم موتورٌ قد وَتَرَهُ الأنصار. أما سهيل بن عمرو فأسره مالك بن الدخشم يوم بدْر، وأمّا الحارث ابن هشام، فضربه عروة بن عمرو، فجرحه يوم بَدْر؛ وهو فارٌّ عن أخيه. وأمّا عِكْرمة ابن أبي جهل، فقتل أباه ابنا عَفْراء، وسلَبه دِرْعه يوم بدر زيادُ بن لبيد، وفي أنفسهم ذلك.

فلما اعتزلت الأنصار تجمّع هؤلاء، فقام سهيل بن عمرو فقال: يامعشرَ قريش؛ إنّ هؤلاء القوم قد سمّاهم الله الأنصار، وأثنى عليهم في القرآن؛ فلهم بذلك حَظٌّ عظيم؛ وشأن غالب؛ وقد دَعَوا إلى أنفسهم وإلى عليّ بن أبي طالب؛ وعليّ

(1) رؤس: جمع رأس، مثل رءوس.

في بيته لو شاء لردَّهم ؛ فادعوهم إلى صاحبكم وإلى تجديد بيعته ؛ فإنْ أجابوكم وإلا فقاتلوهم؛ فوالله إني لأرجُو الله أن ينصرَكم عليهم كما نُصِرتم بهم .

ثم قام الحارث بن هشام، فقال : إن تكن الأنصارُ تبوأتِ الدار والإيمان مِنْ قبل ، ونقلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دورهم من دورنا، فآووْا ونصروا ، ثم ما رَضُوا حتى قاسمونَا الأموال[1]، وكَفَوْنَا العمل ؛ فإنهم قد لَجُّوا بأمرٍ إن ثبتوا عليه ، فإنّهم قد خرجوا مما وُسِموا به ؛ وليس بيننا وبينهم معاتبة إلا السّيف ؛ وإن نزعوا عنه فقد فعلوا الأوْلَى بهم والمظنون معهم .

ثم قام عِكْرمة بن أبي جهل ، فقال : والله لولا قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأئمة من قريش » ، ما أنكرْنا إمْرة الأنصار ، ولكانوا لها أهلًا ، ولكنه قولٌ لا شكَّ فيه ولا خيار ، وقد عجلت الأنصار علينا، والله ما قبضنا عليهم الأمرَ ولا أخرجناهم من الشورى؛ وإنّ الذي هم فيه من فَلَتات الأمور ونَزَغات الشيطان، وما لا يبلغه المُنى ، ولا يحمله الأملُ. أعذِروا إلى القوم ، فإنْ أبوْا فقاتلوهم ؛ فوالله لو لم يبق من قريش كلّها إلا رجل واحد لصيَّر الله هذا الأمر فيه .

قال : وحضَر أبو سفيان بن حرب ، فقال :

يامعشرَ قريش ، إنه ليس للأنصار أن يتفضّلوا على الناس حتى يُقرّوا بفضلنا عليهم، فإن تفضّلوا فحسبنا حيث انتهى بها، وإلا فحسبُهم حيث انتهى بهم . وايمُ الله لئن بطروا المعيشة ، وكَفَروا النعمة ، لنضربنّهم على الإسلام كما ضربوا عليه ، فأما عليّ بن أبي طالب فأهل والله أن يُسوَّد على قريش ، وتطيعه الأنصار .

فلما بلغ الأنصار قول هؤلاء الرهط قام خطيبهم ثابت بن قيس بن شماس فقال :

يامعشرَ الأنصار ، إنّما يكبرُ عليكم هذا القول لو قاله أهلُ الدين من قريش؛ فأمّا إذا كان من أهل الدنيا ، لاسيما من أقوام كلّهم موتور ؛ فلا يكبُرَنّ عليكم ؛ إنما الرأى

(١) كذا في ج ، وفي ا ، ب : « الأمور » .

والقول مع الأخيار المهاجرين ؛ فإن تكلمت رجال قريش ؛ والذين هم أهل الآخرة مثل كلام هؤلاء ؛ فعند ذلك قولوا ما أحببتم وإلا فأمسكوا .

وقال حسان بن ثابت يذكر ذلك :

تنادى سهيلٌ وابنُ حربٍ وحارثٌ ... وعكرمةُ الشانى لنا ابن أبى جهلِ

قتلنا أباهُ وانتزعنا سلاحَهُ ... فأصبحَ بالبطحا أذلَّ من النَّملِ

فأمّا سهيلٌ فاحتواهُ ابن دخشمٍ ... أسيراً ذليلاً لا يُمِرُّ ولا يُحْلِي

وصخرُ بن حربٍ قد قتلنا رجالَهُ ... غداةَ لِوَا بدرٍ فمرجَلُهُ يَغْلِي

وراكضنا تحتَ العجاجة حارثٌ ... على ظهر جرداء كباسقة النَّخلِ

يقبِّلها طوراً وطوراً يحثّها ... ويعدلها بالنفس والمالِ والأهلِ

أولئك رهطٌ من قريشٍ تبايعوا ... على خطّةٍ ليست من الخطط الفُضْلِ

وأعجبُ منهم قابلو ذاكَ منهمُ ... كأنّا اشتملنا من قريشٍ على ذَحْلِ

وكلّهمُ ثانٍ عن الحقِّ عطفَهُ ... يقولُ اقتلوا الأنصارَ يا بئسَ من فِعْلِ!

نصرنا وآوينا النبيَّ ولم نخفْ ... صروفَ الليالى والبلاءَ على رَجْلِ

بذلنا لهمْ أنصافَ مالِ أكفّنا ... كقسمة أيسارِ الجزورِ من الفَضْلِ

ومن بعد ذاك المالِ أنصافَ دُورِنا ... وكنّا أناساً لا نعيَّرُ بالبُخْلِ

ونحمى ذمارَ الحىِّ فهرِ بن مالكٍ ... ونوقدُ نارَ الحربِ بالحطبِ الجَزْلِ

فكان جزاءُ الفضلِ منّا عليهمُ ... جهالتهم حمقاً وما ذاك بالعدلِ

فبلغ شعرُ حسان قريشاً ، فغضبوا وأمروا ابن أبى عزّة شاعرهم أن يجيبه ، فقال :

معشرَ الأنصارِ خافوا ربّكمْ ... واستجيروا الله من شرِّ الفِتَنْ

إنّنى أرهبُ حرباً لاقحاً ... يَشْرَقُ المُرْضِعُ فيها باللَّبَنْ

جرّها سعدٌ وسعدٌ فتنةٌ ... ليت سعدَ بن عبادٍ لم يكُنْ

خلفَ برهوتٍ خفيًّا شخصُهُ[1] ... بين بُصرى ذى رُعينٍ وجَدَنْ

---

(١) برهوت : واد باليمن .

ليس ماقدّر سـعـد كائناً   ماجرى البحر وما دام حَضَن[1]
ليس بالقاطع منّـا شعرة   كيف يُرجى خير أمرٍ لم يَحِنْ!
ليس بالمدرك منهـا أبداً   غـير أضغاثِ أمانيٍّ الوسَنْ

• • •

قال الزُّبير : لمّا اجتمع جمهور الناس لأبي بكر أكرمت قريش معن بن عديّ وعويم ابن ساعدة؛ وكان لهما فضلٌ قديم في الإسلام؛ فاجتمعت الأنصار لهما في مجلس ودعوهما، فلما أحضرا أقبلت الأنصار عليهما فعيّروهما بانطلاقهما إلى المهاجرين، وأكبروا فعلهما في ذلك؛ فتكلم معن، فقال :

يامعشرَ الأنصار إنّ الذي أراد الله بكم خيرٌ مما أردتم بأنفسكم، وقد كان منكم أمرٌ عظيم البلاء، وصغّرته العاقبة؛ ولو كان لكم على قريش مالقريش عليكم، ثم أردتموهم لِمَا أرادوكم به لم آمَنْ عليهم منكم مثل ما آمن عليكم منهم؛ فإن تعرفوا الخطأ فقد خرجتم منه وإلا فأنتم فيه.

قلت . قوله : «وقد كان منكم أمر عظيم البلاء، وصغّرته العاقبة» يعني عاقبة الكفّ والإمساك؛ يقول : قد كان منكم أمر عظيم؛ وهو دعوى الخلافة لأنفسكم؛ وإنما جعل البلاء معظّما له، لأنه لو لم يتعقّبه الإمساك؛ لأحدث فتنة عظيمة؛ وإنما صغّره سكونهم ورجوعهم إلى بيعة المهاجرين.

وقوله : «وكان لكم على قريش ...» إلى آخر الكلام، معناه : لو كان لكم الفضل على قريش كفضل قريش عليكم، وادّعت قريش الخلافة لها، ثم أردتم منهم الرجوع عن دعواهم، وجرت بينكم وبينهم من المنازعة مثل هذه المنازعة التي جرت الآن بينكم لم آمن عليهم منكم أن تقتلوهم؛ وتقدّموا على سفك دمائهم؛ ولم يحصل لي من سكون النفس إلى

(١) حضن : جبل بأعلى نجد .

حلكم عنهم وصبركم عليهم مثل ما أنا آمن عليكم منهم ، فإنهم صبروا وحلُموا ، ولم يقدموا على استباحة حربكم والدخول فى دمائكم .

* * *

قال الزبير : ثم تكلم عُويم بن ساعدة ، فقال : يا معشر الأنصار ؛ إنّ من نعم الله عليكم أنه تعالى لم يُرِدْ بكم ما أردتم بأنفسكم ، فاحمدوا الله على حسن البلاء ، وطول العافية ، وصرف هذه البليّة عنكم ، وقد نظرت فى أول فتنتكم وآخرها فوجدتها جاءت من الأمانىّ والحسد ؛ واحذروا النِّقَم ؛ فوددت أنّ الله صيّر إليكم هذا الأمر بحقه فكنا نعيش فيه .

فوثبت عليهما الأنصار ؛ فأغلظوا لهما ، وفحشوا عليهما ، وانبرى لهما فروة بن عمرو ، فقال : أنسيتما قولكما لقريش : « إنا قد خلّفنا وراءنا قوماً قد حلّت دماؤهم بفتنتهم » ! هذا والله ما لا يغفر ولا ينسى ؛ قد تُصرَف الحية عن وَجْهها وسمّها فى[1] نابها . فقال معن فى ذلك :

وقالت لِىَ الأنصارُ إنَّكَ لم تُصِبْ	فقلت : أمالِى فى الكلام نَصيبُ !
فقالوا : بلَى قل ما بدا لكَ راشـداً	فقلت ومثـلى بالجواب طبيبُ
تركتُكُمُ والله لمّا رأيتـكمْ	تُيوساً لهــا بالحرّتين نَبيبُ[2]
تنادُون بالأمر الذى النجم دُونَهُ	ألا كلّ شىء ما سـواهُ قريبُ
فقلتُ لكمْ قولَ الشفيق عليكمُ	وللقلبِ من خَوْف البلاء وَجِيبُ
دعُوا الرَّكْضَ واثنوا من أعنة بَغْيكمْ	ودبُّوا فسَيْرُ القاصـدين دَبِيبُ
وخلُّوا قريشاً والأمورَ وبايعوا	لمن بايعوه تَرْشُـدُوا وتُصِيبُوا

---

(١) ح : « فيها » .

(٢) النبيب : صياح التيس عند الهياج ؛ ومنه قول عمر لوفد أهل الكوفة حين شكوا سعداً إليه : « ليكلمنى بعضكم ولا تنبوا عندى نبيب التيوس » .

أراكم أخذتم حقكم بأكفكم ... وما الناس إلا مخطئ ومصيبُ

فلما أبيتم زلّتْ عنكم إليهمُ ... وكنتُ كأنى يومَ ذاك غريبُ

فإن كان هذا الأمر ذنبى إليكمُ ... فلى فيكمُ بعد الذنوب ذنوبُ

فلا تبعثوا منّى الكلامَ فإننى ... إذا شئتُ يوماً شاعرٌ وخطيبُ

وإنى لحلوٌ تعترينى مرارةٌ ... وملحٌ أُجاجٌ تارةً وشَرُوبُ[1]

لكل امرئٍ عندى الذى هو أهلُه ... أفانين شتى والرجال ضروبُ

وقال عُويم بن ساعدة فى ذلك :

وقالت لىَ الأنصار أضعاف قولهم ... لمعنٍ ، وذاك القولُ جهلٌ من الجهلِ

فقلت : دعُونى لا أبا لأبيكمُ ... فإنى أخوكم صاحب الخطر الفصلِ[2]

أنا صاحب القولِ الذى تعرفونه ... أقطّ أنفاس الرجال على مَهْلِ

فإن تسكتوا أسكتْ وفى الصَّمْتِ راحة ... وإن تنطقوا أُصْمتْ مقالتكم تَبْلِ

وما لُمْتُ نفسى فى الخلاف عليكمُ ... وإن كنتمُ مُستجمعين على عَذْلى

أريدُ بذاك الله لا شىء غيرهُ ... وما عند ربّ الناس من دَرَجِ الفضلِ

وما لىَ رِحْمٌ فى قريش قريبةٌ ... ولا دارها دارِى ولا أصلُها أصْلِى

ولكنهمُ قومٌ علينا أئمةٌ ... أدينُ لهم ما أنقذت قَدَمِى نعلى

وكانَ أحقَّ الناس أن تقنعُوا به ... ويحتملوا مَنْ جاء فى قوله مِثْلى

لأنى أخفُّ الناس فيما يسرّكمْ ... وفيما يَسُوء لا أُمِرّ ولا أُحْلِى

قال فَرْوة بن عمر — وكان ممن تخلّف عن بيْعة أبى بكر ، وكان ممن جاهد مع

(١) الأجاج : الماء الملح شديد الملوحة . والشروب : الماء دون العذب يصلح للشرب مع بعض كراهة .
(٢) ب : « الحطة الفصل » .

رسول الله، وقاد فرسين فى سبيل الله؛ وكان يتصدّق من نخله بألف وَسْق فى كلّ عام؛ وكان سيّداً؛ وهو من أصحاب علىّ؛ وممّن شهد معه يوم الجمل . قال : فذكر معناً وعويماً، وعاتبهما على قولها : « خلّفنا وراءنا قوما قد حلّت دماؤهم بفتنتهم » :

ألا قُلْ لمعنٍ إذا جئته · وذاك الذى شيمه ساعِدَهْ
بأنّ المقـــال الذى قلتما · خفيفٌ علينا سوى واحِدَهْ
مقالتكمُ : إنّ مَنْ خلفنا · مِراضٌ قلوبهمُ فاسدَهْ
حــلال الدماء على فتنةٍ · فيا بئسما رَبَّتِ الوالدَهْ!
فلَمْ تأخذا قَدْر أثمانها · ولم تستفيدا بهـــا فائدَهْ
لقــــد كذّب اللهُ ما قلتُما · وقد يكذب الرائدُ الواعِدَهْ[1]

(•••)

قال الزبير : ثم إنّ الأنصار أصلحوا بين هذين الرّجلين وبين أصحابهما؛ ثم اجتمعت جماعة من قريش يوما وفيهم ناس من الأنصار وأخلاط[2] من المهاجرين ؛ وذلك بعد انصراف الأنصار عن رأيها وسكون الفتنة ؛ فاتفق ذلك عند قدوم عمرو بن العاص من سفَر كان فيه ، فجاء إليهم ، فأفاضُوا فى ذكر يوم السّقيفة وسعد ودعواه الأمر ، فقال عمرو بن العاص: والله لقد دفع الله عنّا من الأنصار عظيمة، ولَمَا دفع الله عنهم أعظم ، كادوا والله أن يحلّوا حبلَ الإسلام كما قاتلوا عليه ، ويخرِجُوا منه مَنْ أدخلوا فيه، والله لئن كانوا سمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « الأئمة من قريش » ، ثم ادّعَوْها لقد هلكوا وأهلكوا ، وإن كانوا لم يسمعوها فما هم كالمهاجرين ، ولا ـ كأبى بكر ، ولا للدينة

(١) يقال : سحاب واعد ؛ أى الذى يعد بالمطر ؛ ومؤنثه « واعدة » .
(٢) الأخلاط : القوم المختلطون .

كـكة، ولقد قاتلونا أمس فغلبونا على البدء ، ولو قاتلناهم اليوم لغلبناهم على العاقبة ! فلم يجبه أحد ، وانصرف إلى منزله وقد ظفر ، فقال :

ألا قُلْ لأوسٍ إذا جئتَها ... وقُلْ كُلَّما جئتَ للخزرجِ

تمنّيتمُ الملكَ في يثربٍ ... فأُنزلتِ القِدرُ لم تنضجِ

وأخدجتمُ الأمرَ قبل التمامِ ... وأعجِبْ بذا المعجَلِ المُخدَجِ [1]

تريدون نتْجَ الحِيالِ العِشا ... رَ ولم تلقحوه فلم يُنتَجِ

عجبتُ لسعدٍ وأصحابِهِ ... ولو لم يهيجوه لم يَهتَجِ

رجا الخزرجيُّ رجاءَ السرابِ ... وقد يُخلِفُ المرءَ ما يرتجي

فكان كمُنحٍ على كفِّهِ ... بكفٍّ يقطّعها أهوجِ

فلما بلغ الأنصارَ مقالته وشعرُه ، بعثوا إليه لسانهم وشاعرهم النعمان بن العجلان — وكان رجلًا أحمر قصيرًا، تزدريه العيون ، وكان سيدًا فخمًا — فأتى عمرًا وهو في جماعة من قريش ، فقال : والله ياعمرو ما كرهتم من حربنا إلا ما كرهنا من حربكم ، وما كان الله ليخرجكم من الإسلام بمن أدخلكم فيه؛ إنْ كان النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال : « الأئمة من قريش » ، فقد قال : « لو سلكَ الناس شِعْبًا، وسلك الأنصار شِعْبًا، لسلكتُ شِعب الأنصار »، والله ما أخرجناكم من الأمر إذْ قلنا : منّا أمير ومنكم أمير، وأمّا مَنْ ذكرتَ، فأبو بكر لعَمْري خير من سَعْد ، لكنّ سعدًا في الأنصار أطوعُ من أبي بكر في قريش ، فأمّا المهاجرُون والأنصار ، فلا فرقَ بينهم أبدا ، ولكنّك يابن العاص ، وترْتَ بني عبد مناف بمسيرك إلى الحبشة لقتل جعفر وأصحابه ، ووترتَ بني مخزوم بإهلاك عُمارة ابن الوليد . ثم انصرف فقال :

---

(١) يقال : أخدج الأمر ؛ إذا لم يحكمه ، والمخدج : الناقص .

فقُلْ لقريش نحنُ أصحابُ مكّةٍ ... وَيَوْمَ حنينٍ والفوارسُ في بَدْرِ
وأصحابُ أُحْدٍ والنّضير وَخَيْبَرٍ ... ونحن رجعنا من قُرَيْظةَ بالذِّكْرِ
ويوم بأرض الشام أُدخِلَ جعفر ... وزيد وعبد الله في عَلَقٍ يَجْرِى [1]
وفي كلّ يومٍ ينكر الكلبُ أهلَه ... نطاعنُ فيه بالمثقّفةِ السُّمْرِ
ونضربُ في نَقْعِ العجاجة أرؤساً ... ببيضٍ كأمثال البروق إذا تَسْرِى
نَصَرْنا وآوينا النبيّ ولم نخفْ ... صروفَ الليالي والعظيمَ من الأمْرِ
وقلنا لقومٍ هاجروا قَبْلُ: مَرْحباً ... وأهلاً وسهلاً، قد أمنتمْ من الفقْرِ
نقاسمكمْ أموالَنا وبيوتَنا ... كقسمة أيسار الجزورِ على الشَّطْرِ
ونكفيكمُ الأمْرَ الذى تكرهونَه ... وكنّا أناساً نُذْهِبُ العسر باليُسْرِ
وقلتم: حرامٌ نصب سعدٍ ونصبكمْ ... عتيقَ بن عثمان — حلالٌ — أبا بكرِ
وأهلٌ أبو بكر لها خير قائمٍ ... وإن عليًّا كان أخلقَ بالأمْرِ
وكان هوانا في عليّ وإنه ... لأهلٌ لها يا عمرو من حيثُ لا تدرى
فذاك بعونِ الله يدعو إلى الهدَى ... وينهى عن الفحشاء والبَغْىِ والنُّكْرِ
وصيُّ النبيِّ المصطفى وابنُ عمِّه ... وقاتِلُ فرسانِ الضلالة والكُفْرِ
وهذا بحمدِ الله يَهْدِى من العَمَى ... ويفتح آذاناً ثقُلْنَ من الوَقْرِ
نجيُّ رسول الله في الغار وحدَه ... وصاحبُه الصِّدّيقُ في سالِفِ الدَّهْرِ
فلولا اتّقاء الله لم تذهبوا بها ... ولكن هذا الخير أجمع للصَّبْرِ
ولم نَرْضَ إلّا بالرِّضَا ولربما ... ضربنا بأيدينا إلى أسفل القِدْرِ

فلما انتهى شعر النعمان وكلامُه إلى قريش، غضب كثير منها، وألفى ذلك قدومُ خالد ابن سعيد بن العاص من اليمن وكان رسول الله استعمله عليها، وكان له ولأخيه أثر قديم

---

(١) العلق: الدم، وفي ا، ب: «في طلق» وما أثبته من ج والاستيعاب.

عظيم فى الإسلام ؛ وهما مِنْ أوّل من أسلم من قريش ؛ ولهما عبادة وفضل. فعصب للأنصار، وشتمَ عمرو بن العاص ، وقال : يامعشرَ قريش ؛ إنّ عمراً دخل فى الإسلام حين لم يجدْ بدًّا من الدخول فيه ، فلما لم يستطِعْ أن يكيدَه بيده كاده بلسانه ، وإنّ مِنْ كيده الإسلام تفريقَه وقطعه بين المهاجرين والأنصار . والله ما حاربْناهم للدِّين ولا للدنيا ؛ لقد بذلوا دماءهم لله تعالى فينا ؛ وما بذلنا دماءنا لله فيهم ؛ وقاسمونا ديارَهم وأموالهم ، وما فعلنا مثل ذلك بهم ، وآثرونا على الفقْر ، وحرمناهم على الغنى ، ولقد وصّى رسولُ الله بهم ، وعزّاهم عن جَفْوة السلطان ؛ فأعوذ بالله أن أكونَ وإياكم الخلَفَ المضيِّع ، والسلطان الجانى !

قلت : هذا خالد بن سعيد بن العاص ؛ هو الذى امتنع من بيعة أبى بكر ، وقال : لا أبايع إلا عليًّا ، وقد ذكرنا خبره فيما تقدم .

وأما قوله فى الأنصار : « وعزّاهم عن جَفْوة السُّلطان » فإشارة إلى قول النبىّ صلى الله عليه وآله : « ستَلْقَوْن بعدى أثَرَةً ، فاصبروا حتى تقدَموا علىَّ الحوض » ؛ وهذا الخبر هو الذى يكفِّر كثير من أصحابنا معاوية بالاستهزاء به ؛ وذلك أنّ النعمان بن بشير الأنصارىّ جاء فى جماعة من الأنصار إلى معاوية ، فشكَوْا إليه فقرَهم ، وقالوا : لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله لنا : « ستلقوْن بعدى أثَرَةً » ، فقد لقيناها . قال معاوية : فماذا قال لكم ؟ قالوا : قال لنا : « فاصْبروا حتى تردوا علىَّ الحوض » ، قال : فافعلوا ما أمركم به عساكم تلاقونه غدا عند الحوض كما أخبركم ؛ وحرمهم ولم يعطهمْ شيئا .

قال الزّبير : وقال خالد بن سعيد بن العاص فى ذلك :

تفوّه عمرو بالذى لا نُرِيدُه ... وصرّح للأنصار عن شَنْأَةِ البُغْضِ
فإن تكُنِ الأنصار زَلّتْ فإننا ... نُقِيلُ ولا نجزيهمُ بالقَرْضِ

فلا تقطعنْ ياعمرو ما كانَ بيننا ولا تَحملنْ ياعمرو بعضاً على بعضِ

أتنسى لهم ياعمرو ما كان منهمُ ليالىَ جئناهم من النَّفل والفَرْضِ

وقسْمَتنا الأموال كاللَّحم بالمُدَى وقسمتَنا الأوطان كلٌّ به يقضى

ليالىَ كلُّ الناس بالكفر جَهْرةً ثِقالٌ علينا ، مجمعونَ على البُغضِ

فساوَوْا وآوَوا وانتهَيْنَا إلى المُنَى وقَرَّ قَرَارَانا من الأمن والخفضِ (١)

* * *

قال الزُّبير: ثم إنّ رجالًا من سفهاء قريش ومثيرى الفِتَن منهم ، اجتمعوا إلى عمرو بن العاص ، فقالوا له : إنّك لسانُ قريش ورجُلها فى الجاهليّة والإسلام ، فلا تدَع الأنصار وما قالت ؛ وأكثروا عليه من ذلك ، فراح إلى المسجد ، وفيه ناس من قريش وغيرهم ، فتكلم وقال: إنّ الأنصار ترَى لنفسها ما ليس لها ، وايمُ الله لوددتُ أنّ الله خلّى عنّا وعنهم، وقضى فيهم وفينا بما أحبّ ، ولنحنُ الذين أفسدْنا على أنفسنا أحرزناهم عن كلّ مكروه ، وقدّمناهم إلى كلّ محبوب ، حتى أمِنوا المَخوف ؛ فلما جاز لهم ذلك صغَّروا حقنا ، ولم يراعُوا ما أعظمنا من حقوقهم .

ثم التفت فرأى الفضلَ بن العباس بن عبد المطلب ، وندم على قوله ، للخئولة التى بين ولَد عبد المطلب وبين الأنصار ، ولأنّ الأنصار كانت تُعظّم عليًّا ، وتهتِف باسمه حينئذ ، فقال الفضل : ياعمرو ، إنّه ليس لنا أن نكتُمَ ما سمعنا منك ، وليس لنا أن نُجيبَك ؛ وأبو الحسن شاهد بالمدينة ؛ إلا أن يأمرنا فنفعل .

ثم رجع الفضلُ إلى علىّ فحدّثه ، فغضب وشتَم عمرا ، وقال : آذى الله ورسوله ؛ ثم قام فأتى المسجد ، فاجتمع إليه كثير من قريش وتكلّم مغضَبا ، فقال :

يامعشرَ قريش ، إن حبّ الأنصار إيمان ، وبغضهم نفاق ، وقد قضَوْا ما عليهم ،

---

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « ووقر أمراننا » .

وبقي ماعليكم ؛ واذكروا أنّ الله رغب لنبيكم عن مكّة ، فنقله إلى المدينة . وكره له قريشا؛ فنقله إلى الأنصار ، ثم قدِمْنا عليهم دارَهم ، فقاسمونا الأموال ، وكَفَوْنا العمل ، فصرْنا منهم بَيْن بذل الغنيّ وإيثار الفقير ، ثم حاربَنا الناس فوقونا بأنفسهم ؛ وقد أنزل الله تعالى فيهم آيةً من القرآن، جمع لهم فيها بين خمس نِعَم، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1]، ألَا وإنّ عمرو بن العاص قد قام مقاما آذى فيه الميّت والحيّ، ساء به الواتر وسرّ به الموتور؛ فاستحقّ من المستمع الجواب ، ومن الغائب المقت ؛ وإنه مَنْ أحبّ الله ورسوله أحبّ الأنصار ، فليكفُف عمرو عنّا نفسه .

قال الزبير : فمشت قريش عند ذلك إلى عمرو بن العاص ، فقالوا : أيها الرجل ؛ أمّا إذا غضب عليّ فاكففْ .

وقال خُزيمة بن ثابت الأنصاريّ يخاطب قريشا :

أيالَ قُرَيْش أصلِحُوا ذاتَ بينِنـــا　　　وبينكُمُ قد طالَ حَبْلُ التماحكِ[2]

فلاَ خَـــيْرَ فيكُمْ بعدَنا فارفُقوا بنا　　　ولا خيرَ فينا بعـــد فِهر بن مالكِ

كِلانا على الأعــــداء كفٌّ طويلة　　　إذا كان يومٌ فيه جَبٌّ الحوارِكِ[3]

فلا تذكرُوا ما كان مِنّا ومنكمُ　　　ففي ذِكْرِ ماقد كان مَشْيُ التَّساوُكِ[4]

قال الزّبير : وقال عليّ للفضل : يافضل ، انصر الأنصار بلسانك ويدك، فإنهم منك وإنك منهم ، فقال الفَضل :

قلتَ ياعمرُو مقالا فاحشا　　　إن تَعُد ياعمرو والله فَلكْ

(١) سورة الحشر ٩
(٢) التماحك : اللجاج.
(٣) كناية عن الشدة ؛ والحارك : عظم في الظهر .
(٤) التساوك : المشي الضعيف .

إنما الأنصار سيفٌ قاطعٌ ... مَنْ تُصبْه ظُبَةُ السيفِ هَلَكْ[1]
وسيوفٌ قاطعٌ مَضْرَبُها ... وسهامُ الله في يوم الحَلَكْ
نصرُوا الدين وآوَوْا أهلَه ... منزلٌ رَحْبٌ ورزقٌ مُشترَكْ
وإذا العربُ تلظَّتْ نارُها ... بَرَكُوا فيها إذا الموتُ بَرَكْ

ودخل الفضل على عليّ فأسمعه شعره ، ففرح به ، وقال وَرِيَتْ بك زنادى يا فضل ؛ أنت شاعر قريش وفتاها ، فأظهِر شِعْرَك وابعث به إلى الأنصار ؛ فلما بلغ ذلك الأنصار، قالت : لا أحد يجيبُ إلّا حسّان الحسام ؛ فبعثوا إلى حسان بن ثابت ، فعرضوا عليه شعر الفضل ، فقال : كيف أصنع بجوابه ! إنْ لم أتحرَّ قوافِيَه فضحني ، فرويدا حتى أقفُوَ أثره في القوافي ؛ فقال له خُزَيمة بن ثابت : اذكُر عليا وآله يكفِك عن كلّ شيء ، فقال :

جزى الله عنّا والجزاء بكفِّه ... أبا حسنٍ عنّا ومَنْ كأبي حَسَنْ
سبقتَ قريشا بالذى أنت أهلُه ... فصدرُك مشروح ، وقلبك ممتحَنْ
تمنّتْ رجالٌ من قريش أعِزّةٌ ... مكانَك هيهاتَ الهُزالُ من السِّمَنْ !
وأنتَ من الإسلام في كلّ موطنٍ ... بمنزلة الدَّلْوِ البَطِينِ من الرَّسَنْ
غضبتَ لنا إذ قامَ عمرٌو بخطبة ... أماتَ بها التقوى وأحيا بها الإحَنْ
فكنتَ المرجّى من لؤيّ بن غالب ... لما كان منهم ، والذى كانَ لم يكُنْ
حفظتَ رسولَ الله فينا وعهدَه ... إليك ومَنْ أولى به منكَ مَنْ ومَنْ !
ألستَ أخاه في الهُدى ووصيَّه ... وأعلمَ منهم بالكتابِ وبالسُّنَنْ
فحقّك ما دامت بنجدٍ وشيجةٌ ... عظيمٌ علينا ثم بعد على اليمنْ

قال الزّبير : وبعثت الأنصار بهذا الشعر إلى عليّ بن أبي طالب ، فخرج إلى المسجد،

(١) ظبة السيف : حده

وقال لمن به من قريش وغيرهم . يامعشرَ قريش ، إن الله جعلَ الأنصار أنصارا ، فأثنى عليهم فى الكتاب ، فلا خيرَ فيكم بعدهم ؛ إنّه لايزال سفيه من سفهاء قريش وَتَرَه الإسلام ، ودفعه عن الحقّ ، وأطفأ شرفه وفضّل غيره عليه ؛ يقوم مقاما فاحشا فيذكر الأنصار ؛ فاتقوا الله وارعَوْا حقّهم ، فوالله لو زالوا لزلتُ معهم ؛ لأنّ رسول الله قال لهم : « أزولُ معكم حيثما زُلتم » ، فقال المسلمون جميعا : رحمك الله يا أبا الحسن ! قلت قولا صادقا .

قال الزبير : وترك عمرو بن العاص المدينة ، وخرج عنها حتى رضىَ عنه علىّ والمهاجرون . قال الزبير : ثم إنّ الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط ـ وكان يبغض الأنصار لأنهم أسرُوا أباه يوم بَدْر ، وضربوا عنقه بين يدىْ رسول الله ـ قام يشتم الأنصار ، وذكرهم بالهُجْر ، فقال : إن الأنصار لَترى لها من الحقّ علينا مالا نراه ، والله لئن كانوا آوَوا لقد عزُّوا بنا ، ولئن كانوا آسوا لقد مَنُّوا علينا ، والله مانستطيع مودّتهم ؛ لأنه لايزال قائل منهم يذكر ذلّنا بمكة ، وعزّنا بالمدينة ، ولا ينفكون يعيّرون موتانا ، ويغيظون أحياءنا ، فإن أجبناهم قالوا : غضبت قريش على غاربها ، ولكن قد هوّن علىّ ذلك منهم حرصُهم على الدين أمس ، واعتذارهم من الذنب اليوم ، ثم قال :

تباذَخَتِ الأنصار فى الناس باسمها[(1)]	ونسبتُها فى الأزْد عَمْرو بن عامرِ
وقالوا : لَنا حقٌّ عظيم ومِنّةٌ	على كلِّ بادٍ من مَعَدٍّ وحاضرِ
فإنْ يكُ للأنصار فضلٌ فلم تنَلْ	بحرمته الأنصار فضلَ المهاجرِ
وإن تكن الأنصار آوتْ وقاسمَتْ	معايشَها مَنْ جاء قسمةَ جازرِ
فقد أفسدت ما كان منها بمنِّها	وما ذاك فعلُ الأكرمين الأكابرِ
إذا قال حسانٌ وكعب قصيدةً	بشتم قريش غُنِّيتْ فى المعاشرِ
وسارَ بها الرُّكبان فى كلّ وجهةٍ	وأعملَ فيها كلُّ خُفٍّ وحافرِ

(1) ج : « تفاخرت الأنصار » .

فهذا لنا من كلِّ صاحب خطبة ... يقومُ بها منكم ومن كلِّ شاعرِ
وأهلٌ بأن يُهجَوْا بكلِّ قصيدةٍ ... وأهلٌ بأن يُرْمَوْا بنبل فواقرِ

قال: ففشا شعره فى الناس، فغضبت الأنصار، وغضب لها من قريش قومٌ، منهم ضرار بن الخطاب الفهرىّ، وزيد بن الخطاب، ويزيد بن أبى سفيان، فبعثوا إلى الوليد لجاء.

فتكلّم زيد بن الخطاب، فقال: يابن عُقبة بن أبى معيط، أما والله لو كنت من الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، لأحببتَ الأنصار، ولكنّك من الجفاة فى الإسلام البطاء عنه، الذين دخلوا فيه بعد أنْ ظهر أمرُ الله وهم كارهون؛ إنّا نعلم أنّا أتيناهم ونحن فقراء، فأغنونا، ثم أصبنا الغنى فكفّوا عنا، ولم يرزءونا شيئاً. فأما ذكرهم ذلة قريش بمكة وعزها بالمدينة، فكذلك كنا، وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ [1]، فنصرنا الله تعالى بهم، وآوانا إلى مدينتهم.

وأما غضبك لقريش فإنا لا ننصر كافراً، ولا نوادّ مُلحداً ولا فاسقاً؛ ولقد قلت وقالوا، فقطعك الخطيب، وألجمك الشاعر.

وأما ذكرك الذى كان بالأمس، فدَعِ المهاجرين والأنصار؛ فإنك لستَ من ألسنتهم فى الرضا، ولا نحن من أيديهم فى الغضب.

وتكلّم يزيد بن أبى سفيان، فقال: يابن عُقبة، الأنصار أحقُّ بالغضب لقتلى أُحُد، فاكفف لسانك، فإنّ مَنْ قتله الحقّ لا يغضب له.

وتكلّم ضرار بن الخطاب، فقال: أما والله لولا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

---

(١) سورة الأنفال ٢٦.

« الأئمة من قريش » لقلنا : الأئمة من الأنصار ، ولكن جاء أمر غَلب الرأى ، فاقمع شرَّتك أيها الرجل ؛ ولا تكن امرأ سَوْء ، فإن الله لم يفرّق بين الأنصار والمهاجرين فى الدنيا، وكذلك الله لا يفرّق بينهم فى الآخرة .

وأقبل حسان بن ثابت مغضَباً من كلام الوليد بن عُقْبة وشعره ، فدخل المسجد وفيه قوم من قريش ، فقال : يامعشرَ قريش ، إن أعظم ذنبنا إليكم قتلُنا كفارَكم ، وحمايتُنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وإن كنتم تنقمون منّا منّةً كانت بالأمس ؛ فقد كفى الله شرّها ، فما لنا وما لكم ! والله ما يمنعنا من قتالكم الجبنُ ، ولا من جوابكم العِيّ . إنا لحيٌّ فَعَال ومقال ؛ ولكنا قلنا : إنها حرب ؛ أولها عار وآخرها ذلّ ؛ فأغضينا عليها عيوننا ، وسحبنا ذيولنا ، حتى نَرَى وتَرَوْا ، فإن قلتم قلنا ، وإن سكتّم سكتنا .

فلم يجبْه أحدٌ من قريش ، ثم سكت كلٌّ من الفريقين عن صاحبه ، ورضِيَ القوم أجمعون ، وقطعوا الخلاف والعصبية .

انتهى ما ذكره الزبير بن بكار فى " الموفّقيات " ونعود الآن إلى ذكر ما أورده أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى فى كتاب " السقيفة " .

* * *

قال أبو بكر : حدّثنى أبو يوسف يعقوب بن شيبة ، عن عمر بن آدم عن رجاله ، عن سالم بن عبيد ، قال : لما توفّىَ رسول الله وقالت الأنصار : منّا أميرٌ ومنكم أميرٌ ؛ أخذ عمر بيد أبى بكر ، وقال : سَيْفان فى غِمْد واحد ! إذاً لا يصلحان . ثم قال : مَنْ له هذه الثلاث : ﴿ ثانيَ اثْنَيْنِ إذْ هُمَا فى الغارِ ﴾ مَنْ هُما ؟ ﴿ إذ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَتَحْزَنْ ﴾ ، مَنْ صاحبه ؟ ﴿ إنّ اللهَ مَعَنَا ﴾[1] مَعَ مَنْ ؟ ثم بسط يده إلى أبى بكر فبايعه ، فبايعه الناس أحسنَ بيعة ، وأجملها .

---

(١) سورة التوبة ٤٠ .

قال أبو بكر : حدثنا أحمد بن عبد الجبار العُطاردى ، عن أبى بكر بن عيّاش ، عن زيد بن عبد الله ، قال : إنّ الله تعالى نظر فى قلوب العباد ، فوجدَ قَلْبَ محمد عليه الصلاة والسلام خَيْرَ قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، وابتعثه برسالته ، ثم نظر فى قلوب الأمم بعدَ قلبه ، فوجد قلوبَ أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه ، يقاتلون عن دينه ، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأى المسلمون سيئاً فهو عند الله سيّئ .

قال أبو بكر بن عياش : وقد رأى المسلمون أن يولّوا أبا بكر بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فكانت ولايته حسنة .

قال أبو بكر : وحدثنا يعقوب بن شيبة ، قال : لما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الأنصار : « منّا أميرٌ ومنكم أميرٌ » ، قال عمر : أيّها الناس ، أيّكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قدّمهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصّلاة ! رضيك الله لديننا أفلا نرضاك لدنيانا !

* * *

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدثنى زيد بن يحيى الأنماطيّ ، قال : حدثنا صخر بن جُويرية ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، قال : أخذ أبو بكر بيد عمر ويد رجل من المهاجرين — يرونه أبا عبيدة — حتى انطلقوا إلى الأنصار ، وقد اجتمعوا عند سَعْد فى سقيفة بنى ساعدة ، فقال عمر : قلت لأبى بكر : دعنى أتكلّم ، وخشيت جِدّ أبى بكر — وكان ذَا جِدّ — فقال أبو بكر لا ، بل أنا أتكلّم ، فما هو والله إلا أن انتهينا إليهم ، فما كان فى نفسى شيء أريد أن أقوله إلا أتى أبو بكر عليه ، فقال لهم :

يا معشرَ الأنصار ، ماينكرُ حقّكم مسلم ! إنا والله ما أصبنا خيراً قطّ إلا شرَكتمونا

فيه ، لقد آويتم ونصرتم ، وآزرتم وواسيتم ؛ ولكن قد علمتم أنّ العرب لا تُقرّ ولا تطيع إلا لامرئٍ من قريش ، هم رهط النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أوسطُ العرب وشيجةَ رحِم ، وأوسط الناس داراً ، وأعربُ الناس ألسنةً ، وأصبحُ الناس أوجهاً ؛ وقد عرفتم بلاء ابن الخطاب في الإسلام وقدمه ، هلمّ فلنبايعه .

قال عمر : بل إياك نبايع ، قال عمر : فكنتُ أوّل الناس مدّ يده إلى أبي بكر فبايعه ، إلّا رجلا من الأنصار أدخل يده بين يدي ويد أبي بكر فبايعه قبلي . ووطئ الناس فراش سعد ، فقيل : قتلتم سعداً . فقال عمر : قتل الله سعداً ! فوثب رجل من الأنصار ، فقال : أنا جُذَيْلُها المحكَّك وعذيقُها المرجّب . فأخذ ووطئ في بطنه ودسّوا في فيه[1] التراب .

* * *

قال أبو بكر : وحدّثني يعقوب ، عن محمد بن جعفر ، عن محمد بن إسماعيل ، عن مختار التمّار ؛ عن عيسى بن زيد ، قال : لما بويع أبو بكر جاء أبو سفيان إلى عليّ ، فقال : أغلبكم على هذا الأمر أذلّ بيت من قريش وأقلّها ! أما والله لئن شئت لأملأنّها على أبي فَصيل خيلا ورجلا ؛ ولأسدّنّها عليه من أقطارها ، فقال عليّ : يا أبا سفيان ، طالما كدتَ الإسلام وأهله ، فما ضرّهم شيئاً ؛ أمسك عليك ؛ فإنا رأينا أبا بكر لها أهلاً .

قال أبو بكر : وحدّثنا يعقوب ، عن رجاله ، قال : لمّا بُويع أبو بكر تخلّف عليّ فلم يبايع ، فقيل لأبي بكر : إنه كره إمارتك[2] ، فبعث إليه : أكرهت إمارتي ؟ قال : لا ، ولكن القرآن خشيت أن يُزاد فيه ، فحلفتُ ألا أرتدي رداء حتى أجمعه ؛ اللهمّ إلا إلى صلاة الجمعة .

---

(١) ج : « فه » .
(٢) ج : « إمرتك » .

فقال أبو بكر : لقد أحسنت ، قال : فكتبه عليه الصلاة والسلام كما أنزل ، بناسخه ومنسوخه .

***

قال أبو بكر : حدثنا يعقوب ، عن أبي المعمر ، عن محمد بن راشد ، عن مكحول ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل خالد بن سعيد بن العاص على عمل ، فقدم بعدما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بايع الناس أبا بكر ، فدعاه إلى البيعة ، فأبى ، فقال عمر : دَعْني وإياه ، فمنعه أبو بكر حتى مضت عليه سنة ، ثم مرّ به أبو بكر وهو جالس على بابه فناداه خالد يا أبا بكر ؟ هل لك في البيعة ؟ قال : نعم ، قال : فادْنُ ، فدنا منه ، فبايعه خالد وهو قاعد على بابه .

قال أبو بكر : وحدثنا أبو يوسف يعقوب بن شيبة ، عن خالد بن مخلد ، عن يحيى ابن عمر ، قال . حدثني أبو جعفر الباقر ، قال جاء أعرابيٌّ إلى أبي بكر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال له : أوصني ، فقال : لا تأمَّرْ على اثنين . ثم إن الأعرابي شخص إلى الرَّبَذَة ، فبلغه بعد ذلك وفاةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأل عن أمر الناس : مَنْ وليَه ؟ فقيل : أبو بكر ؛ فقدم الأعرابيّ إلى المدينة ، فقال لأبي بكر : ألستَ أمرتَني ألا أتأمّر على اثنين ؟ قال : بلى ، قال : فما بالُك ؟ فقال أبو بكر : لم أجد لها أحداً غيري أحقَّ منّي .

قال : ثم رفع أبو جعفر الباقرُ يدَيْه وخفّضهما ، وقال : صدق ، صدق .

قال أبو بكر : وقد رُوِي هذا الخبر برواية أتمّ من هذه الرواية : حدثنا يعقوب بن شيبة ، قال : حدثنا يحيى بن حمّاد ، قال : حدثنا أبو عوانة ، عن سليمانَ الأعمش ، عن سُلَيمان بن ميسرة ، عن طارق بن شهاب ، عن رافع بن أبي رافع الطائيّ ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً ، فأمّر عليهم عمرو بن العاص ، وفيهم أبو بكر وعمر ، وأمرهم

أن يستنفِروا مَنْ مرّوا به ، فمرّوا علينا فاستنفرونا ، فنفرنا معهم في غزاة ذات السلاسل — وهي التي تفتخر بها أهل الشام ، فيقولون : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو ابن العاص على جيش فيه أبو بكر وعمر — قال : فقلت ؛ والله لأختارنّ في هذه الغزاة لنفسي رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أستهديه ، فإني لستُ أستطيع إتيانَ المدينة ؛ فاخترتُ أبا بكر ولم آل ؛ وكان له كِساء فَدَكِيّ يُخِلّه[1] عليه إذا رَكِب ، ويلبسه إذا نزل ؛ وهو الذي عيّرته به هوزان بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقالوا لا نبايع ذا الخِلال ، قال : فلما قضينا غزاتنا ، قلت له : يا أبا بكر . إني قد صحبتكُ وإنّ لي عليك حقا ، فعلّمْني شيئا أنتفع به ؟ فقال : قد كنت أريد ذلك لو لم تقل لي : تعبدُ الله لا تشركُ به شيئا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتحجّ البيت ، وتصوم شهرَ رمضانَ ، ولا تتأمّر على رجلين ، فقلت : أما العبادات فقد عرفتها ؛ أرأيت نهيك لي عن الإمارة ! وهل يصيب الناسَ الخير والشر إلا بالإمارة ! فقال : إنك استجهدتَني فجهدت لك ، إنّ الناس دخلوا في الإسلام طوعا وكرها فأجارهم الله من الظلم ، فهم جيران الله وعواد الله وفي ذمة الله ، فَمَنْ يظلم منكم إنما يحقِر ربه ، والله إنّ أحدكم ليأخذ شويهة جاره أو بعيره ، فيظلُّ عملُه بأسا بجاره ، والله من وراء جاره ، قال : فلم يلبث إلا قليلا حتى أتتنا وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألتُ : من استخلف بعده ؟ قيل : أبو بكر ، قلت أصاحبي الذي كان ينهاني عن الإمارة ! فشددتُ على راحلتي ، فأتيت المدينة ، فجعلت أطلب خَلْوَتَه ، حتى قدرت عليها ، فقلت أتعرفني ؟ أنا فلان ابن فلان ، أتعرف وصية أوصيتَني بها ؟ قال : نعم إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبض والناس حديثو عهد بالجاهلية ، فخشيتُ أن يفتتنوا ، وإنّ أصحابي حمّلونيها ، فما زال يعتذر إليّ حتى عذرته ، وصار من أمري بعد أن صرت عريفا .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة ، عن رجاله ، عن الشعبيّ ، قال : قام الحسن ابن عليّ عليه السلام إلى أبي بكر وهو يخطُب على المنبر فقال له : انْزل عن منبر أبي ، فقال :

(١) يخله عليه : أي يجمع بين طرفي الكساء بخلال من عود أو حديد .

أبو بكر : صدقت ؛ والله إنه لمنبر أبيك لا منبر أبي ، فبعث عليّ إلى أبي بكر ؛ إنه غلام حدَثٌ ، وإنا لم نأمره ، فقال أبو بكر : صدقت ، إنا لم نتهمك .

قال أبو بكر : وروى أبو زيد،عن حباب بن يزيد،عن جرير،عن المغيرة أنّ سلْمان والزبير وبعضَ الأنصار كان هواهم أن يبايعوا عليا بعد النبيّ صلى الله عليه وآله ، فلما بويع أبو بكر،قال سلْمانُ للصحابة:أصبتم الخير،ولكن أخطأتم المعدِن قال : وفى رواية أخرى : أصبتم ذا السنّ منكم،ولكنكم أخطأتم أهلَ بيت نبيكم. أما لو جعلتموها فيهم ما اختلف منكم اثنان ولأ كلتموها رَغَداً .

قلت : هذا الخبر هو الذى رواه المتكلمون فى باب الإمامة عن سلْمان أنه قال : « كرديد ونكرديد »،تفسره الشيعة ، فتقول : أراد أسلمتم وما أسلمتم ، ويفسره أصحابنا فيقولون معناه : أخطأتم وأصبتم .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد ، قال : حدثنا محمد بن يحيي ، قال : حدثنا غسّان ابن عبد الحميد ، قال : لما أكثر فى تخلف عليّ عن البيعة،واشتدّ أبو بكر وعمر فى ذلك، خرجت أم مِسْطح بن أثاثة، فوقفت عند قبر النبى صلى الله عليه وآله ونادته : يارسول الله !

قدْ كان بعدك أنباء وهَنْبَثةٌ   لو كنتَ شاهِدَها لم تكثر الخطَبُ[1]

إنا فقدناك فَقْدَ الأرض وابلها   فاختلّ قومك،فاشهدهم ولاتَغِبِ

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وسمعت أبا زيد عمر بن شبّة يحدِّث رجلا بحديث لم أحفظ إسنادَه ، قال : مرّ المغيرة بن شعبة بأبى بكر وعمر ، وهما جالسان على باب النّبى حين قُبِض،فقال : مايقعدكما ؟ قالا : ننتظر هذا الرجل يخرج فنبايعه ـ يعنيان عليا ـ فقال : أتريدون أن تنظروا حَبَل الحَبَلة[2] من أهل هذا البيت ! وسِّعوها فى قريش تتّسع .

(١) الهنبثة : الصوت الخفى . وفى اللسان ـ ونسب البيتين لفاطمة . « وهنبثة » والهنبثة : الاختلاط فى القول .

(٢) الحبلة فى الأصل : الكرْم ؛ قيل : معناه حمل الكرْمة قبل أن تبلغ ؛ ولعله كناية عن صغر سن على .

قال : فقاما إلى سَقيفة بنى ساعدة ، أو كلاما هذا معناه .

قال أبو بكر :وأخبرنا أبو جعفر محمد بن عبدالملك الواسطيّ،عن يزيد بن هارون،عن سفيان بن حسين،عن الزهريّ،عن أنس بن مالك ، قال:لما مرض رسول الله مرضه الذى مات فيه أتاه بلال يؤذنه بالصلاة، فقال بعد مرتين : يابلال،قد أبلغتَ ؛ فمن شاء فليصلّ بالناس ، ومن شاء فليدعْ .

قال : ورُفعت الستور عن رسول الله،فنظرنا إليه كأنّه ورقة بيضاء، وعليه خَميصة[1] له ، فرجع إليه بلال فقال : مُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس ، قال : فما رأيناه بعد ذلك عليه السلام .

وقال أبو بكر : وحدّثنى أبو الحسن علىّ بن سليمان النوفلىّ ، قال : سمعتُ أبيًا يقول : ذُكرسعد بن عبادة يوماعلياًبعد يوم السقيفة،فذكرأمرا من أمره نسيه أبوالحسن، يوجب ولايته ، فقال له ابنه قيس بن سعد : أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا الكلام فى علىّ بن أبى طالب ثم تطلب الخلافة ، ويقول أصحابُك : منّا أمير ومنكم أمير ! لا كلمتك والله من رأسى بعد هذا كلمة أبدا .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو الحسن على بن سليمان النوفلىّ ، قال : حدثنى أبى،قال : حدّثنى شريك بن عبد الله ، عن إسماعيل بن خالد ، عن زيد بن علىّ بن الحسين ، عن أبيه،عن جدّه ، قال:قال علىّ : كنت مع الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة له فى المحبوب والمكروه،فلما عزّ الإسلام،وكَثُر أهله ، قال:ياعلىّ ؛ زد فيها:«على أن تمنعوا رسول الله وأهل بيته مما تمنعون منه أنفسكم وذراريكم » ، قال: فحملها على ظهور القوم ، فوفى بها مَنْ وَفَى ، وهلك مَنْ هَلَك .

قلت : هذا يطابق ماروَاهُ أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب " مقاتل الطالبيين " أن

(١) الخميصة : كساء أسود مربع ؛ له علمان .

جعفر بن محمد عليه السلام وقف مستترا فى خِفْية ، يشاهد المحامل التى حُمِل عليها عبد الله ابن الحسن وأهلُه فى القيود والحديد من المدينة إلى العراق ، فلما مرُّوا به بكى ، وقال : ماوفت الأنصار ولا أبناء الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وآله ، بايعهم على أن يمنعوا محمدا وأبناءه وأهله وذريّته مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم وأهليهم وذراريّهم ، فلم يفوا . اللهمّ اشدد وطأتك على الأنصار .

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد ، قال : حدثنا أحمد بن الحكم ، قال : حدثنا عبد الله بن وهب ، عن ليث بن سعد ، قال : تخلّف علىّ عن بيعة أبى بكر ، فأخرِج مُلَبَّبا[1] يُمْضَى به رَكْضاً ؛ وهو يقول: معاشرَ المسلمين، علامَ تُضرب عنق رجل من المسلمين ، لم يتخلّفْ لخلاف ، وإنما تخلّف لحاجة ! فما مرّ بمجلس من المجالس إلا يقال له : انطلق فبايع .

قال أبو بكر : وحدّثنا علىّ بن جرير الطائىّ ، قال : حدثنا ابنُ فضيل ، عن الأجلح ، عن حبيب بن ثعلبة بن يزيد ، قال : سمعت عليًّا يقول: أمَا وربِّ السماء والأرض ، ثلاثا ، إنه لعهد النبىّ الأمىّ إلىّ : « لتغدرَنّ بك الأمّة من بعدى » .

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد عمر بن شبّة بإسناد رفعه إلى ابن عباس ، قال : إنّى لأماشى عمر فى سكّة من سكك المدينة ، يده فى يدى ، فقال : يابن عباس ، ماأظنّ صاحبَك إلا مظلوما ، فقلت فى نفسى : والله لايسبقُنى بها ، فقلت : ياأمير المؤمنين ، فارددْ إليه ظلامتَه . فانتزع يدَه من يدى ، ثم مرّ يهمهم ساعة ثم وقف . فلحقته فقال لى : يابن عباس ؛ ماأظنّ القوم منعهم من صاحبك إلا أنّهم استصغروه ؛ فقلت فى نفسى : هذه شرّ من الأولى ! فقلت: والله مااستصغره الله حين أمرَه أن يأخذ سورة براءة من أبى بكر.

* * *

(١) يقال : لبب فلان فلاناً : أخذ بتلبيبه ، أى جمع ثيابه عند صدره ونحره ثم جره .

[ذكر أمر فاطمة مع أبي بكر]

فأما مارواه البخاري ومسلم في الصحيحين[1] من كيفية المبايعة لأبي بكر بهذا اللفظ الذي أورده عليك؛ وبالإسناد إلى عائشة : أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من النبي صلى الله عليه وآله ، وهما حينئذ يطلبان أرضه من فدك ، وسهمه من خيبر ، فقال لهما أبو بكر : إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إنا معشر الأنبياء لا نورث؛ ماتركناه صدقة ، إنما يأكل آل محمد من هذا المال » ؛ وإني والله لا أدع أمرًا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنعه إلا صنعته . فهجرته فاطمةُ ولم تكلمه في ذلك حتى ماتت ، فدفنها عليٌّ ليلا ، ولم يؤذن بها أبا بكر . وكان لعلي وجه[2] من الناس في حياة فاطمة . فلما توفيت فاطمة انصرفت وجوهُ الناس عن عليّ[3] ، فمكثت فاطمة ستة أشهر ثم توفيت — فقال رجل للزهري وهو الراوي لهذا الحديث عن عائشة : لم يبايعه عليٌّ ستة أشهر ؟ قال : ولا أحد من بني هاشم حتى بايعه عليٌّ . فلما رأى ذلك ضرع إلى مبايعة أبي بكر ، فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا ، ولا يأت[4] معك أحد ، وكره أن يأتيه عمر لما عرف من شدته ، فقال عمر : لا تأتهم وحدك ، فقال أبو بكر : والله لآتينهم وحدي ، وما عسى أن يصنعوا بي ! فانطلق أبو بكر حتى دخل عَلَى عليّ ، وقد جمعَ بني هاشم عنده ؛ فقام عليٌّ . فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهلهُ ، ثم قال : أمّا بعد ، فإنه لم يمنعنا أنْ نبايعك يا أبا بكر إنكارٌ لفضلك ، ولا منافسةٌ لخير ساقه الله إليك ، ولكنا كنا نرى أنّ لنا في هذا الأمر حقا ، فاستبددتم به علينا . وذكر قرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله وحقه ، فلم يزل عليٌّ يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر ، فلما صمت عليٌّ تشهّد أبو بكر ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهلهُ ، ثم قال : أما بعد

(١) صحيح البخاري ٢ : ١٨٦ ، ومسلم ٣ : ١٣٨٠ مع اختلاف في لفظ الحديث .
(٢) مسلم : « وجهة » .
(٣) مسلم : « استنكر على وجوه الناس » .
(٤) مسلم : « ولا يأتنا »

فوالله لقرابة رسول الله صلى الله عليه وآله أحبُّ إليّ أنْ أصلَها من قرابتي، وإني والله ما آلوكم من هذه الأموال التي كانت بيني وبينكم إلا الخير ؛ ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «لا نورّث، ما تركناه صدقة؛ وإنما يأكل آل محمد في هذا المال»، وإني والله لا أترك أمرًا صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا صنعتُه إن شاء الله ، قال علي : موعدك العشيّة للبيعة ، ، فلما صلّى أبو بكر الظهر ، أقبل على الناس ثم عذَر عليًّا[1] ببعض ما اعتذر به ، ثم قام عليّ فعظم من حقّ أبي بكر ، وذكر فضلَه وسابقته ، ثم مضى إلى أبي بكر فبايعه ، فأقبل الناس إلى عليّ ، فقالوا : أصبتَ وأحسنت ، وكان عليّ قريبًا إلى الناس حين قارب الأمر بالمعروف .

* * *

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز ، قال : حدثني أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدثني إبراهيم بن المنذر ، قال : حدثنا ابن وهب ، عن ابن لَهيعة ، عن أبي الأسود ؛ قال : غضب رجال من المهاجرين في بيعة أبي بكر بغير مشورة ، وغضب عليّ والزبير ، فدخلا بيتَ فاطمة ، معهما السلاح ، فجاء عمر في عِصابة ، فيهم أُسيد بن حُضير ، وسلمة بن سلامة بن قُريش ؛ وهما من بني عبد الأشهل ، فاقتحما الدّار ، فصاحت فاطمة وناشدتْهما الله ، فأخذوا سيفيهما ، فضربوا بهما الحجر حتى كسروهما ، فأخرجهما عمر يسوقهما حتى بايعا .

ثم قام أبو بكر ، فخطب الناسَ ، ، فاعتذر إليهم ، وقال : إنّ بيعتي كانت فَلْتةً وقَى الله شَرّها ، وخشيت الفتنة ، وايمُ الله ما حرصت عليها يومًا قطّ ، ولا سألتها الله في سرٍّ ولا علانية قطّ ، ولقد قُلِّدتُ أمرًا عظيمًا ما لي به طاقة ، ولا يدان ، ولقد وددت أنّ أقوى الناس عليه مكاني .

---

(١) مسلم : « وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة ، وعذره الذي اعتذر إليه » .

فقيل المهاجرون ، وقال عليٌّ والزبير : ما غضِبْنا إلا في المشورة ، وإنّا لنرى أبا بكر أحقَّ الناس بها ، إنّه لصاحبُ الغار ، وثاني اثنين ، وإنا لنعرفُ له سنه ،ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وآله بالصّلاة وهو حيّ .

قال أبو بكر : وذكر ابنُ شهاب بن ثابت أن قيس بن شماس أخا بنى الحارث من الخزرج ، كان مع الجماعة الذين دخلوا بيت فاطمة

قال : وروى سعد بن إبراهيم أنّ عبد الرحمن بن عوف كان مع عمر ذلك اليوم ، وأنّ محمد بن مسلمة كان معهم ، وأنّه هو الذي كسر سيفَ الزبير .

قال أبو بكر : وحدّثني أبو زيد عمر بن شبّة ، عن رجاله ، قال : جاء عمر إلى بيت فاطمة في رجال من الأنصار ونفر قليل من المهاجرين، فقال : والّذي نفسي بيده لتخرجُنّ إلى البيعة أولأحرقنّ البيت عليكم. فخرج إليه الزبير مصلتا بالسيف، فاعتنقه زياد بن لَبيد الأنصاريّ ورجل آخر ، فنَدَر[1] السيفُ من يده ، فضرب به عمر الحجر فكسره ، ثم أخرجَهم بتلابيبهم يساقون سَوْقًا عنيفا ؛ حتى بايعوا أبا بكر .

قال أبو زيد : وروى النضْر بن شُمَيل، قال : حُمِل سيف الزبير لمـا نَدَر من يده إلى أبي بكر وهو على المنبر يخطب ، فقال : اضربوا به الحجر ، قال أبو عمرو بن حماس : ولقد رأيت الحجَر وفيه تلك الضربة ، والناس يقولون : هذا أثر ضربة سيف الزبير .

قال أبو بكر : وأخبرني أبو بكر الباهليّ ، عن إسماعيل بن مجالد ، عن الشعبيّ ، قال: قال أبو بكر : ياعمر ، أين خالد بن الوليد ؟ قال : هو هذا ، فقال: انطلقا إليهما-يعني عليا والزبير - فأتيانى بهما ، فانطلقا ، فدخل عمر ووقف خالد على الباب من خارج ، فقال عمر للزبير : ما هذا السيف؟ قال : أعددته لأبايع عليًّا، قال : وكان في البيت ناس كثير ، منهم المقداد بن الأسود وجمهور الهاشميين ، فاخترط عمر السيف فضرب به صخرة في البيت

---

(١) ندر : سقط .

فكسره ، ثم أخذ بيد الزبير ، فأقامه ثم دفعه فأخرجه ، وقال : ياخالد ، دونك هـذا ، فأمسكه خالد ـ وكان خارجَ[1] البيت مع خالد جَمْعٌ كثير من الناس ، أرسلهم أبو بكر ردءًا لهما ـ ثم دخل عمر فقال لعليّ : قم فبايع ، فتلكأ واحتبس[2] ، فأخذ بيده ، وقال : قم ، فأبى أن يقومَ ، فحمله ودفعه كما دفع الزبير ، ثم أمسكهما خالد ، وساقهما عمر ومَن معه سَوْقاً عنيفاً ، واجتمع الناس ينظرون ، وامتلأت شوارع المدينة بالرجال ، ورأت فاطمة ماصنع عمر ، فصرخت وولولت ، واجتمع معها نساء كثير من الهاشميّات وغيرهن ، فخرجت إلى باب حجرتها ، ونادت : ياأبا بكر ، ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله ! والله لا أكلّم عمر حتى ألقى الله .

قال : فلما بايع عليّ والزبير ، وهدأت تلك الفورة ، مشى إليها أبو بكر بعد ذلك فشفع لعمر ، وطلب إليها فرضيت عنه .

قال أبو بكر : وحدثني المؤمل بن جعفر ، قال : حدثني محمد بن ميمون ، قال : حدثني داود بن المبارك ، قال : أتينا عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ونحن راجعون من الحجّ في جماعة ، فسألناه عن مسائلَ ، وكنت أحدَ مَنْ سأله ، فسألته عن أبي بكر وعمر ، فقال : أجيبك بما أجاب به جَدّي عبد الله ابن الحسن ، فإنه سئل عنهما ، فقال : كانت أمّنا صِدّيقة ، ابنة نبيّ مرسل ، وماتت وهي غضبى على قوم ، فنحن غضاب لغضبها .

قلت : قد أخذ هذا المعنى بعض شعراء الطالبيِّين من أهل الحجاز ، أنشدنيه النقيب جلال الدين عبد الحميد بن محمد بن عبد الحميد العلويّ قال : أنشدني هذا الشاعر لنفسه ـ وذهب عني أنا اسمه ـ قال :

يا أبا حفصٍ الهوَيْنَى وما كـنـــت مليًّا بذاك لولا الحِمَـــامُ

(١) ب : « في خارج البيت » . (٢) احتبس : توقف .

أتموتُ البتولُ غضْبَى ونرضى   ما كذا يصنعُ البنون الكرامُ !

يخاطب عمر ويقول له : مهلا ورُوَيدا[1] ياعمر ، أى ارفق واتّئد ولا تعنُف بنا . وما كنت مليًّا ، أى وما كنت أهلا لأن تخاطَب بهذا وتستعطف ، ولا كنت قادرا على ولوج دار[2] فاطمة على ذلك الوجه الذى ولجتها عليه ، لولا أن أباها الذى كان بيتها يحترم ويصان لأجله مات فطمع فيها من لم يكن يطمع . ثم قال : أتموت أمّنا وهى غضبى ونرضى نحن ! إذاً لسنا بكرام ، فإنّ الولد الكريم يرضى لرضا أبيه وأمه ويغضب لغضبهما .

والصحيح عندى أنّها ماتت وهى واجدة على أبى بكر وعمرَ ، وأنها أوصت ألّا يصلّيا عليها ؛ وذلك عند أصحابنا من الأمور المغفورة لهما ، وكان الأولى بهما إكرامَها واحترامَ منزلها لكنّهما خافا الفرقة ، وأشفقا من الفتنة ، ففعلا ماهو الأصلحُ بحسب ظنّهما ؛ وكانا من الدين وقوة اليقين بمكان مكين ، لا شكّ فى ذلك ، والأمور الماضية يتعذّر الوقوف على عِللها وأسبابها ، ولا يعلم حقائقها إلّا مَنْ قد شاهدها ولابسها ، بل لعلّ الحاضرين المشاهدين لها يعلمون باطن الأمر ؛ فلا يجوز العدولُ عن حسن الاعتقاد فيهما بما جرى ؛ والله ولىّ المغفرة والعفو ؛ فإنّ هذا لو ثبت أنّه خطأ لم يكن كبيرة ، بل كان من باب الصغائر التى لا تقتضى التبرُّؤ ، ولا توجب زوال التولّى .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدثنا محمد بن حاتم ، عن رجاله ، عن ابن عباس ، قال : مرّ عمر بعلىّ ، وأنا معه بفناء داره فسلّم عليه ، فقال له علىّ : أين تريد ؟ قال : البقيع ، قال : أفلا[3] تصل صاحبك ، ويقوم معك[3] ؟ قال : بلى ، فقال لى علىّ : قم معه ، فقمت فمشيتُ إلى جانبه ، فشبك أصابعه فى أصابعى ، ومشينا قليلا ، حتى إذا خلفنا البقيع قال لى : يابن عباس ، أما والله إنّ صاحبك هذا لأولَى الناس بالأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلّا أنّا خفناه على اثنين ؛ قال ابن عباس : فجاء بكلام لم أجد بدًّا من

(١) ب : « رويدا » .   (٢) ج : « بيت » .
(٣-٣) ب : « تصل جناحك ويقوم معك » .

مسألته عنه ، فقلت : ما هما يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : خِفْناه على حـداثة سنّه ، وحبّه بنى عبد المطلب .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو زيد ، قال : حدّثنى محمد بن عباد ، قال : حدّثنى أخى سعيد بن عباد ، عن الليث بن سعد ، عن رجاله ، عن أبى بكر الصديق أنّه قال : ليتنى لم أكشفْ بيتَ فاطمة ، ولو أعلن علىّ الحرب !

قال أبو بكر : وحدّثنا الحسن بن الربيع ، عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرىّ ، عن علىّ بن عبد الله بن العباس عن أبيه ، قال : لما حضرتْ رسولَ الله صلى الله عليه وآله الوفاة ، وفى البيت رجالٌ فيهم عمر بن الخطاب ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ائتونى بدواةٍ وصحيفة ، أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعدى ، فقال عمر كلمة معناها أنّ الوَجَع قد غلَب على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال : عندنا القرآن حسبُنا كتاب الله ! فاختلف مَنْ فى البيت واختصموا ، فمِن قائل يقول : القول ما قال رسول الله صلى الله عليـه وآله ، ومِنْ قائل يقول : القول ما قال عمر ، فلما أكثرُوا اللّغط واللغو والاختلاف ، غضب رسول الله ، فقال : « قوموا ! إنه لا ينبغى لنبىّ أن يختلف عنده هكذا » ، فقاموا ، فمات رسول الله صلى الله عليه وآله فى ذلك اليوم ؛ فكان ابن عباس يقول : إنّ الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله ــ يعنى الاختلاف واللغط .

قلت : هذا الحديث قد خرّجه الشيخان محمد بن إسماعيل البخارىّ ، ومسلم بن الحجاج القشيرىّ فى صحيحيهما[1] ، واتفق المحدّثون كافة[2] على روايته .

■ ■ ■

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد ، عن رجاله ، عن جابر بن عبدالله ، قال : قال رسول الله

---

(١) صحيح مسلم : ١٢٥٩ (٢) ب : « جميعا » .

صلى الله عليه وآله : إنْ تولَّوها أبا بكر تجدُوه ضعيفا فى بَدَنه ، قويًّا فى أمر الله ، وإن تولَّوها عمر تجدوه قويًّا فى بدنه قويا فى أمر الله ، وإن تولَّوها عليا — وما أراكم فاعلين — تجدوه هاديا مهديًّا ، يحملكم على المحجّة البيضاء ، والصراط المستقيم .

قال أبو بكر : وحدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح ، عن أحمد بن سيّار ، عن سعيد بن كثير الأنصارىّ ، عن رجاله ، عن عبد الله بن عبد الرحمن ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله فى مرض موته أمَّر أسامة بن زيد بن حارثة على جيش فيه جِلَّةُ المهاجرين والأنصار ؛ منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير ، وأمَره أن يُغير على مؤتة حيث قتل أبوه زيد ، وأن يغزو وادىَ فلسطين . فتثاقل أسامةُ وتثاقل الجيش بتثاقُله ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله فى مرضه يثقُل ويخِفُّ ، ويؤكد القول فى تنفيذ ذلك البعث ؛ حتى قال له أسامة : بأبى أنت وأمى ! أتأذن لى أن أمكُث أياما حتى يَشفيَكَ الله تعالى ! فقال : اخرج وسِرْ على بركة الله ، فقال : يارسول الله ، إن أنا خرجت وأنت على هذه الحال خرجتُ وفى قلبى قرحة منك ، فقال : سر على النصر والعافية ، فقال : يارسول الله ، إنى أكره أن أسأل عنك الركبان ، فقال : انفُذ[1] لما أمرتُك به ، ثم أغمى على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقام أسامة فتجهّز للخروج ، فلما أفاق رسول الله صلى الله عليه وآله سأل عن أسامة والبعث ، فأخبر أنهم يتجهّزون ، فجعل يقول : « أنفذوا بعث أسامة ، لعن الله مَنْ تخلّف عنه » ، وكرر[2] ذلك ، فخرج أسامة واللواء على رأسه والصحابة بين يديه ، حتى إذا كان بالجُرْف نزل ومعه أبو بكر وعمر وأكثر المهاجرين ؛ ومن الأنصار أُسَيد بن حُضَير وبشير بن سعد وغيرهم من الوجوه ، فجاءه رسولُ أمّ أيمن ، يقول له : ادخل فإنّ رسول الله يموت ، فقام من فوره ، فدخلَ المدينة واللواء معه ، فجاء به حتى ركزه بباب رسول الله ، ورسول الله قد مات فى تلك الساعة .

قال : فما كان أبو بكر وعمر يخاطبان أسامة إلى أن ماتا إلا بالأمير .

---

(١) انفذ : أى امض لوجهك .　　(٢) ج : « وتكرر » .

(٦٧)

الأصـل:

ومن كلام له عليه السلام لما قلد محمد بن أبي بكر مصر فملكت عليه وقتل :

وَقَدْ أَرَدْتُ تَوْلِيَةَ مِصْرَ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ ؛ وَلَوْ وَلَّيْتُهُ إِيَّاهَا لَمَا خَلَّى لَهُمُ الْعَرْصَةَ ، وَلَا أَنْهَزَهُمُ الْفُرْصَةَ ، بِلَا ذَمٍّ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ، فَلَقَدْ كَانَ إِلَيَّ حَبِيباً ، وَكَانَ لِي رَبِيباً .

* * *

[ذكر محمد بن أبي بكر وذكر ولده]

الشّـرْحُ :

أمّ محمد بن أبي بكر أسماء بنت عُمَيس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خَثْعم ؛ كانت تحتَ جعفر بن أبي طالب ، وهاجرتْ معه إلى الحبشة، فولدت له هناك عبدَالله ابن جعفر الجواد، ثم قتل عنها يوم مُؤْتة ، فخلَفَ عليها أبو بكر الصدّيق ، فأولدها محمداً ، ثم مات عنها ، فخلَف عليها عليّ بن أبي طالب ؛ وكان محمد ربيبه وخرِّيجَه ، وجارياً عنده مجرَى أولاده، رضَع الولاء والتشيّع مذ زمن الصِّبا ، فنشأ عليه ؛ فلم يكن يعرف له أباً غير عليّ ، ولا يعتقد لأحدٍ فضيلة غيره ؛ حتى قال عليّ عليه السلام : محمد ابني من صلب أبي بكر ؛ وكان يكْنَى أبا القاسم في قول ابن قتيبة [١] . وقال غيرُه : بل كان يكْنَى أبا عبد الرحمن .

(١) في المعارف ص ١٧٥ .

وكان محمد من نُسّاك قريش ؛ وكان ممن أعان على عثمان فى يوم الدّار ؛ واختلف : هل باشر قتلَ عثمان أم لا ! ومن ولد محمد: القاسم بن محمد بن أبى بكر فقيه الحجاز وفاضلُها؛ ومن ولد القاسم : عبد الرحمن بن القاسم بن محمد ؛ كان من فضلاء قريش ويكنَى أبا محمد؛ ومن ولد القاسم أيضاً أم فَرْوَة ، تزوجها الباقر أبو جعفر محمد بن علىّ ، فأولدها الصادق أبا عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام ؛ وإلى أم فَرْوَة أشار الرضىّ أبو الحسن بقوله :

يفاخرُنا قومٌ بمَنْ لم نلدهمُ ... بتيمٍ إذا عُدّ السوابق أو عَدِى [1]
وَيَنْسَوْنَ مَنْ لو قدّموه لقدّموا ... عِذارَ جوادٍ فى الجِياد مُقلَّدِ
فتًى هاشمٍ بعد النبىّ وباعُها ... لمَرْمَى عُلًا أو نيلِ مجدٍ وسُودَدِ
ولولا علىّ ما علَوْا سَرَوَاتِهـا ... ولا جَعْجَعُوا فيها بمَرْعًى وَمَوْرِدِ
أخـذنا عليكم بالنبىّ وفاطمٍ ... طِلاعَ المساعى مِنْ مَقَامٍ وَمَقْعَدِ
وَطُلْنَا بِسِبْطَىْ أحمدٍ ووصيِّه ... رقابَ الورى مِنْ مُتْهِمِينَ وَمُنْجِدِ
وحُزْنا عتيقاً وهو غايةُ فخرِكُمْ ... بمولد بنت القاسم بن محمدِ
فجدٌّ نبىٌّ ثم جـدٌّ خليفةٌ ... فأكرم بجدّينا : عتيقٍ وأحمدِ
وما افتخرتْ بعد النبىّ بغيرِه ... يدٌ صَفَقَتْ يومَ البِياع على يَدِ

قوله :

* ولولا علىّ ما علَوْا سَرَوَاتِها . . . * البيت

ينظر فيه إلى قول المأمون فى أبيات يمدح فيها عليًّا ، أولها :

ألامُ على حُبِّى الوصىَّ أبا الحسن ... وذلك عندى من أعاجيبِ ذا الزّمَنْ

والبيت المنظور إليه منها قوله :

---

(١) ديوانه لوحة ٩١ .

وَلَوْلَا مَاعُدَّتْ لِهَـــاشِمِ إِمْرَةٌ   وَكَانَ مَدَى الأَيَّامِ يَمْضِي وَيُمْتَهَنْ

***

[هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ونسبه]

وأمّا هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زُهرة ابن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤى بن غالب ، فعمّه سعد بن أبي وقاص ، أحدُ العشرة ، وأبوه عُتْبة بن أبي وقّاص ، الذى كسر رَبَاعِيَة[1] رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد ، وكلَمَ شفتيه وشجّ وجهه ، فجعل يمسح الدمَ عن وجهه ، ويقول : « كيف يُفلح قوم خضبوا وجهَ نبيِّهم بالدم ، وهو يدعوهم إلى ربهم ! » ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾[2] .

وقال حسان بن ثابت فى ذلك اليوم :

إِذَا اللهُ حَيَّا مَعْشَراً بِفَعَـــالِهِمْ   وَنَصَرَهُمُ الرحمـــنَ رَبُّ المَشَارِقِ[3]

فَهَـــدَّكَ رَبِّى يَاعُتَيبَ بنَ مَالِكٍ   وَلَقَّاكَ قَبلَ المَوتِ إِحدَى الصَّوَاعِقِ[4]

بَسَطْتَ يَمِيـــناً لِلنَّبِيِّ مُحَمَّــدٍ[5]   فَدَمَّيتَ فَاهُ قُطِّعَتْ بِالبَـــوَارِقِ[6]

فَهَلَّا ذَكَرتَ اللهَ وَالمَنزِلَ الَّذِى[7]   تَصِيرُ إِلَيهِ عِنْدَ إِحدَى الصَّعَائِقِ

فَمَنْ عَاذِرِى مِن عَبـدِ عُذْرَةَ بَعدَمَا   هَوَى فِى دُجُوجِىٍّ شَدِيدِ المَضَايِقِ ![8]

---

(١) الرباعية : السن التى بين الثنية والناب .

(٢) سورة آل عمران ١٢٨ .

(٣) ديوانه ٢٩١ .

(٤) الديوان : « فأخزاك ربى » .

(٥) الديوان : « فنى برمية » .   (٦) البوارق : السيوف .

(٧) الديوان : « فهلا خشيت الله » .

(٨) لم يذكر فى الديوان .

وأورثَ عارا فى الحياة لأهـــله وفى النار يوم البعث أمّ البوائق[1]

وإنما قال، « عبد عُذْرة » لأنّ عتبة بن أبى وقاص وإخوته وأقاربه فى نسبهم كلام، ذكر قوم من أهل النسب أنهم من عُذْرة، وأنهم أدعياء فى قريش؛ ولهم خبر معروف، وقصة مذكورة فى كتب النسب.

وتنازَع عبدُ الله بن مسعود وسعد بن أبى وقّاص فى أيام عثمان فى أمرٍ فاختصما، فقال سعد لعبد الله: اسكُت ياعبدَ هذيل، فقال له عبدُ الله: اسكُتْ ياعبد عُذْرة.

وهاشم بن عتبة هو المِرْقال، سمى المرقال، لأنه كان يُرْقِل فى الحرب إرقالا؛ وهو من شيعة علىّ، وسنفصّل[2] مقتلَه، إذا انتهينا إلى فصل من كلامه يتضمّن ذكر صِفّين.

***

فأما قوله: « لما خَلّى لهم العَرْصة » فيعنى عَرْصة مصر؛ وقد كان محمد رحمه الله تعالى: لما ضاق عليه الأمر، ترك لهم مصر، وظنّ أنه بالفِرار ينجو بنفسه، فلم ينجُ وأُخِذ وقُتِل.

وقوله: « ولا أنهزَتهم الفُرصَة »، أى ولا جعلتهم للفرصة منتهزين. والهمزة للتعدية، يقال: أنهزت الفرصة، إذا أنهزتُها غيرى.

***

ونحن نذكر فى هذا الموضع ابتداء أمرِ الدين ولاّه علىّ عليه السلام مصر، إلى أن نتهى إلى كيفية ملك معاوية لها وقتل محمد بن أبى بكر؛ وننقل ذلك من كتاب إبراهيم ابن سعد بن هلال الثقفى، وهو كتاب " الغارات ".

---

(١) رواية الديوان:

لَقَدْ كانَ حَرْبًا فى الْحَيَاةِ لِقَوْمِهِ وفى الْبَعْثِ بعدَ المَوْتِ إحْدَى الْبَوَائِقِ

(٢) ا: « وسنذكر ».

[ولاية قيس بن سعد على مصر ثم عزله]

قال إبراهيم : حدثنا محمد بن عبد الله بن عثمان الثقفي ، قال : حدثني علي بن محمد بن أبي سيف ، عن الكلبي ، أن محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، هو الذي حرّض المصريين على قتل عثمان وندبهم إليه ، وكان حينئذ بمصر ، فلما ساروا إلى عثمان وحصروه ، وثب هو بمصر على عامل عثمان عليها ، وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، أحد بني عامر بن لؤي ، فطرده عنها ، وصلى بالناس ؛ فخرج ابنُ أبي سرح من مصر ، ونزل على تخوم أرضها مما يلي فلسطين ، وانتظر مايكون من أمر عثمان ، فطلع عليه راكب ، فقال له : ياعبد الله ، ماوراءك ؟ ماخبرُ الناس بالمدينة ؟ قال : قتل المسلمون عثمان، فقال ابنُ أبي سرح : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ثم صنعوا ماذا ياعبد الله ؟ قال : بايعوا ابن عم رسول الله علي بن أبي طالب ، فقال ثانية : إنا لله وإنا إليه راجعون ! فقال الرجل : أرى أن ولاية علي عدلت عندك قتل عثمان ! قال : أجل ، فنظر إليه متأملاله فعرفه ، فقال أظنك عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، أمير مصر ! قال : أجل ، قال : إن كانت لك في الحياة حاجة فالنجاء النجاء ؛ فإن رأي علي فيك وفي أصحابك إن ظفر بكم قتلكم أو نفاكم عن بلاد المسلمين ؛ وهذا أمير تقدم بعدي عليكم . قال : ومَن الأمير ؟ قال : قيس بن سعد بن عبادة . فقال ابنُ أبي سرح : [1] أبعد الله [1] ابن أبي حذيفة ! فإنه بَغَى على ابن عمه ، وسعى عليه ، وقد كان كفله ورباه ، وأحسن إليه ، وأمِنَ جواره ؛ فجهز الرجال إليه حتى قُتل ، ووثب على عامله .

وخرج ابن أبي سرح حتى قدم على معاوية بدمشق .

قال إبراهيم : وكان قيس بن سعد بن عبادة من شيعة علي ومناصحيه [2] ؛ فلما ولي الخلافة ، قال له : سرْ إلى مصر فقد وليتكها ، واخرج إلى ظاهر المدينة، واجمع ثقاتك ومن

(١ — ١) ساقط من ب .

(٢) ج : « وناصحيه » .

أحببت أن يصحبك حتى تأتىَ مصر ومعك جند ، فإن ذلك أرعبُ لعدوّك، وأعزّ لوليّك. فإذا أنت قدمتَها إن شاء الله ، فأحسن إلى المحسن ، واشتد[1] على المريب، وارفقْ بالعامة والخاصة فالرفق يُمْن .

فقال قيس : رحمك الله ياأمير المؤمنين ! قد فهمتُ ماذكرتَ ، فأمّا الجندُ فإنى أدعُه لك ، فإذا احتجتَ إليهم كانوا قريباً منك ، وإن أردت بعثهم إلى وجْهٍ من وجوهك كان لك عُدّة ، ولكنّى أسير إلى مصر بنفسى وأهل بيتى ؛ وأمّا ما أوصيتنى به من الرفق والإحسان فالله تعالى هو المستعانُ على ذلك .

قال : فخرج قيسٌ فى سبعة نفر من أهله حتى دخل مصر ، فصعِد المنبر ، وأمر بكتاب معه يُقْرَأ على الناس ، فيه :

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى مَنْ بلغه كتابى هذا من المسلمين . سلام عليكم ؛ فإنى أحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو .

أما بعد ؛ فإن الله بحسن صنعه وقدره وتدبيره اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله ، وبعث به أنبياءه إلى عباده ؛ فكان مما أكرم الله عزّ وجلّ به هذه الأمة وخصّهم به من الفضل أن بعث محمداً صلى الله عليه وسلّم إليهم ، فعلّمهم الكتاب والحكمة والسنّة والفرائض وأدّبهم لكيما يهتدوا ، وجمعهم لكيلا يتفرّقوا ، وزكّاهم لكيما يتطهّروا ؛ فلما قضى من ذلك ما عليه ، قبضه الله إليه ، فعليه صلوات الله وسلامه ورحمته ورضوانه . ثم إن المسلمين من بعده استخلفوا أميرين منهم صالحيْن ، فعملا بالكتاب والسنّة وأحييا السِّيرة؛ ولم يعدُوَا السنة . ثم توُفّيا رحمهما الله ، فولّى بعدهما والٍ أحدثَ أحداثاً ، فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا ، ثمّ نقموا فغيّروا ثم جاءونى فبايعونى ، وأنا أستهدى الله الهدَى ، وأستعينه على التقوَى . ألا وإنّ لكم علينا العملَ بكتاب الله وسنة رسوله والقيام بحقّه ، والنصح لكم بالغيب ، والله المستعان على ماتصفون ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

---
(١) ب : « واشدد » .

وقد بعثتُ لكم قيسَ بن سعد الأنصارى أميراً ، فوازروه وأعينوه على الحقّ ، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم ، والشدّة على مُريبكم ، والرفق بعوامّكم وخواصّكم ؛ وهو ممّن أرضَى هَدْيَه ، وأرجو صلاحَه ونصحه . نسأل الله لنا ولكم عملا زاكيا ، وثوابا جزيلا ورحمة واسعة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكتبه عبدالله بن أبى رافع فى صفر سنة ست وثلاثين .

قال إبراهيم : فلما فرغ من قراءة الكتاب ، قام قيس خطيباً فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال : الحمدُ لله الذى جاء بالحقّ ، وأمات الباطل ، وكَبَتَ الظالمين . أيّها الناس ؛ إنّا بايعنا خَيْرَ من نعلم من بعد نبيِّنا محمد صلى الله عليه وآله ؛ فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله ، فإن نحن لم نعمل بكتاب الله وسنة رسوله فلا بيعة لنا عليكم .

فقام الناس فبايعوا ، واستقامت مصر وأعمالها لقيس ، وبعث عليها عماله ؛ إلاَّ أنّ قريةً منها قد أعظمَ أهلُها قتل عثمان ، وبها رجل من بنى كنانة يقال له يزيد بن الحارث ، فبعث إلى قيس : إنّا لا نأتيك فابعث عُمّالك ، فالأرض أرضُك ؛ ولكن أقرّنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس .

ووثب محمد بن مسلَمة بن مخلَّد بن صامت الأنصارىّ فنَعَى عثمان ، ودعا إلى الطلب بدمه ؛ فأرسل إليه قيس : ويحك ! أعلىَّ تثِب ! والله ما أحبّ أن لى ملك الشام ومصر وأنّى قتلتك ! فاحقِنْ دمك . فأرسل إليه مسلَمة : إنى كافٌّ عنك ما دمتَ أنتَ والى مصر .

وكان قيس بن سعد ذا رأيٍ وحَزْم ، فبعث إلى الذين اعتزلوا : إنى لا أكرهكم على البَيْعة ، ولكنى أدَعُكم وأكفّ عنكم . فهادنهم وهادن مسلمة بن مخلّد ، وجبَى الخراج ؛ وليس أحد ينازعه .

• • •

قال إبراهيم : وخرج عليٌّ عليه السلام إلى الجمل ؛ وقيس على مصر ، ورجع من البصرة إلى الكوفة ، وهو بمكانه ، فكان أثقلَ خلق الله على معاوية لقرب مصر وأعمالها من الشام ، ومخافة أن يقبل عليٌّ بأهل العراق ، ويقبل إليه قيس بأهل مصر ؛ فيقع بينهما. فكتب معاوية إلى قيس ، وعليٌّ يومئذ بالكوفة قبل أن يسيرَ إلى صِفّين :

من معاوية بن أبي سُفيان إلى قيس بن سعد . سلام عليك ، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد؛ فإنكم إن كنتم نقمتم على عثمان في أثَرَةٍ رأيتموها، أو ضربة سوط ضربَها، أو في شتمه رجلا ، أو تسييره واحداً ، أو في استعماله الفتيانَ من أهله ـ فإنكم قد علمتم إن كنتم تعلمون، أنّ دمه لم يحلّ لكم بذلك ؛ فقد ركبتم عظيماً من الأمر ، وجئتم شيئاً إدًّا ، فتب ياقيس إلى ربّك، إن كنت من المجلبين على عثمان إن كانت التوبة قبل الموت تغني شيئاً ؛ وأما صاحبُكَ فقد استيقنا أنه أغرى الناس بقتله، وحملهم على قتله حتى قتلوه ، وأنه لم يسلَم من دمه عُظْم قومك ، فإن استطعتَ ياقيس أن تكونَ ممّن يطلب بدم عثمان فافعل ، وتابعنا على عليّ في أمرنا . هذا ولك سلطان العراقين إنْ أنا ظفرتُ مابقيت، ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز مادام لي سلطان ، وسلْني عن غير هذا مما تحبّ ، فإنك لاتسألني شيئاً إلّا أتيتهُ ؛ واكتب إليّ رأيك فيما كتبتُ إليك .

فلما جاء إليه كتابُ معاوية أحبّ أن يدافعه ، ولا يبدي له أمرَه ، ولا يعجّل له حربه ، فكتب إليه :

أما بعدُ؛ فقد وصل إليّ كتابُك، وفهمتُ الذي ذكرتَ من أمر عثمان؛ وذلك أمرٌ لم أقاربه. وذكرتَ أنّ صاحبي هو الذي أغرى الناسَ بعثمان ودسّهم إليه حتى قتلوه ؛ وهذا أمرٌ لم أطّلع عليه . وذكرت لي أنّ عُظْم عشيرتي لم تسلَمْ من دم عثمان ؛ فلعمري إنّ أولى

الناس كان في أمره عشيرتي ، وأمّا ماسألتني من متابعتك على الطلب بدمه ، وما عرضته عليّ فقد فهمته ، وهذا أمرٌ لي نظر فيه وفِكْر ، وليس هذا مما يُعجّل إلى مثله ، وأنا كافٌّ عنك؛ وليس يأتيك من قِبَلي شيء تكرهُه ؛ حتى ترى ونرى ، إن شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال إبراهيم : فلما قرأ معاوية كتابه لم يرهُ إلا مقاربا مباعدا ، ولم يأمن أن يكون له في ذلك مخادعا مكايدا ، فكتب إليه :

أمّا بعد ، فقد قرأتُ كتابك ؛ فلم أرك تدنو فأعُدَّك سِلْما . ولم أرك تتباعد فأعُدَّك حربا ، أراك كحبل الجَزُور ؛ وليس مثلي يصانَع بالخداع ، ولا يخدَع بالمكايد ، ومعه عدد الرجال وأعِنّة الخيل ، فإن قبلتَ الذي عرضتَ عليك فلك ما أعطيتُك ؛ وإن أنت لم تفعل ملأتُ مصر عليك خَيْلا ورَجْلا . والسلام .

فلما قرأ قيس كتابه ، وعلم أنه لا يقبل منه المدافعة والمطاولة ، أظهر له مافي نفسه ، فكتب إليه :

من قيس بن سعد ؛ إلى معاوية بن أبي سفيان :

أما بعد ، فالعجبُ من استسقاطك رأيي ، والطمع في أنْ تسومني — لا أبا لغيرك — الخروجَ من طاعة أولى الناس بالأمر ؛ وأقولهم بالحقّ ، وأهداهم سبيلا ، وأقربهم من رسول الله وسيلةً . وتأمرني بالدخول في طاعتك وطاعة أبعد الناس من هذا الأمر ؛ وأقولهم بالزّور ، وأضلّهم سبيلا ، وأدناهم من رسول الله وسيلة ؛ ولديك قوم ضالّون مضلّون . طواغيت من طواغيت إبليس . وأمّا قولُك إنّك تملأ عليّ مصرَ خَيْلا ورَجْلا ؛ فلئن لم أشغلْك عن ذلك حتى يكون منك ، إنّك لذو جِدّ . والسلام .

فلما أتى معاوية كتابُ قيس ؛ أيِسَ وثَقُل مكانه عليه ؛ وكان[1] أن يكون مكانه غيره أحبَّ إليه لما يعلم من قوته وتأبّيه[2] ونجدته ، واشتدّ أمره على معاوية ؛ فأظهر للناس أنّ

(١) ج : « ورأى » .
(٢) ج : « وبأسه » .

قيساً قد بايعكم ، فادعوا الله له . وقرأ عليهم كتابه الذي لان فيه وقاربه ، واختلق كتاباً نسبه إلى قيس فقرأه على أهل الشام :

للأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد :

أما بعد ؛ إنّ قتلَ عثمان كان حدثاً في الإسلام عظيماً ؛ وقد نظرتُ لنفسي وديني ، فلم أر يسعُني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً محرماً برّاً تقياً ، فنستغفر الله سبحانه لذنوبنا ، ونسأله العصمة لديننا . ألا وإني قد ألقيت إليكم بالسّلام ، وأجبتُك إلى قتال قَتَلَة إمام الهدى المظلوم ؛ فاطلب مِنّي ما أحببتَ من الأموال والرجال أعجّله إليك إن شاء الله. والسلام على الأمير ورحمة الله وبركاته .

قال : فشاع في الشام كلّها أنّ قيساً صالح معاوية ، وأتت عيونُ عليّ بن أبي طالب إليه بذلك ، فأعظمه وأكبره وتعجّب له ، ودعا ابنيه حسناً وحسيناً وابنه محمداً وعبد الله ابن جعفر ، فأعلمهم بذلك ، وقال : ما رأيكم ؟ فقال عبد الله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ، دَعْ ما يَريبُك إلى ما لا يريبُك . أعزلْ قيساً عن مصر . قال عليّ : والله إني غيرُ مصدّق بهذا على قيس . فقال عبد الله : اعزله يا أمير المؤمنين ، فإن كان ما قد قيل حقا فلا يعتزلْ لك أن عزلتَه ؛ قال : وإنهم لكذلك إذ جاءهم كتاب من قيس بن سعد ، فيه :

أما بعد ، فإني أخبرُ يا أمير المؤمنين — أكرمك الله وأعزك — إنّ قِبَلي رجالاً معتزلين سألوني أن أكفّ عنهم وأدَعَهم على حالهم حتى يستقيمَ أمرُ الناس فنرى ويرون ، وقد رأيتُ أن أكفّ عنهم ولا أعجّل بحربهم ، وأنْ أتألفهم فيما بين ذلك ؛ لعلّ الله أن يقبل بقلوبهم ، ويفرّقهم عن ضلالتهم إن شاء الله . والسلام

فقال عبد الله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ، إنك إن أطعته في تركهم واعتزالهم استشرى الأمرُ وتفاقمت الفتنة ، وقعدَ عن بيعتك كثير ممن تريده على الدخول فيها ، ولكن مُرْه بقتالهم . فكتب إليه :

أما بعد ؛ فسِرْ إلى القوم الذين ذكرت ، فإنْ دخلُوا فيا دخل فيه المسلمون وإلا فناجزْهم ، والسلام .

قال : فلما أتى هذا الكتاب قيساً فقرأه لم يتمالك أن كتبَ إلى عليّ :

أما بعدُ يا أمير المؤمنين ، تأمُرني بقتال قوم كافّين عنك ، ولم يمدّوا يداً للفتنة ، ولا أرصدوا لها ، فأطعني يا أمير المؤمنين ، وكُفّ عنهم ، فإنّ الرأيَ تركهم ، والسلام .

فلمّا أتاه هذا الكتاب ، قال عبدُ الله بن جعفر : يا أميرَ المؤمنين ، ابعث محمد بن أبي بكر إلى مصر يكفِكَ أمرها ، واعزل قيساً ؛ فوالله لبلغني أن قيساً يقول : إنّ سلطاناً لا يتمّ إلا بقتل مسلمة بن مخلّد لسلطان سوء ؛ والله ما أحبّ أنّ لي سلطان الشام مع سلطان مصر ، وأنني قتلت ابنَ مخلّد . وكان عبدالله بن جعفر أخا محمد بن أبي بكر لأمه ؛ وكان يحبّ أن يكونَ له إمْرة وسلطان ؛ فاستعمل عليّ عليه السلام محمد بن أبي بكر على مصر ، لمحبّة له ولهوى عبد الله بن جعفر أخيه فيه ؛ وكتب معه كتاباً إلى أهل مصر ، فسار حتى قدمها ، فقال له قيس : مابالُ أمير المؤمنين ! ماغيّره ! أدخلَ أحدٌ بيني وبينه ! قال : لا وهذا السلطان سلطانك . — وكان بينهما نسب ، كان تحت قيس قُرَيبة بنت أبي قحافة أخت أبي بكر الصديق ، فكان قيس زوجَ عمته — فقال قيس : لا والله لا أقيم معك ساعة واحدة ، وغضب حين عزله عليّ عنها ، وخرج منها مقبلاً إلى المدينة ولم يمض إلى عليّ بالكوفة .

قال إبراهيم : وكان قيسٌ مع شجاعته ونجدَته جواداً مفضالا ؛ فحدثني علي بن محمد ابن أبي سيف ، عن هاشم ، عن عروة ، عن أبيه ، قال : لما خرج قيس بن سعد من مصر ، فمرّ بأهلِ بيت من بَلْقَيْن ، فنزل بمائهم ، فنحرَ له صاحبُ المنزل جزوراً وأتاه بها ، فلما كان الغد نحر له أخرى ، ثم حبسَتْهم السماء اليوم الثالث ، فنحر لهم ثالثة ، ثم إنّ السماء أقلعَتْ

فلما أراد قيسٌ أن يرتحل ، وضع عشرين ثوبا من ثياب مصر ، وأربعة آلاف درهم عند امرأة الرجل ؛ وقال لها : إذا جاء صاحبك ، فادفعي هذه إليه ، ثم رحل ؛ فما أتت عليه إلا ساعة حتى لحقه الرجل صاحب المنزل على فرس، ومعه رمح، والثياب والدراهم بين يديه، فقال : ياهؤلاء ، خذوا ثيابكم ودراهمكم فقال قيس : انصرف أيها الرجل ، فإنا لم نكن لنأخذها ؛ قال : والله لتأخذنها ، فقال قيس : لله أبوك ! ألم تكرمنا وتحسن ضيافتنا فكافأناك ! فليس بهذا بأس ؛ فقال الرجل : إنا لا نأخذ لقِرى الأضياف ثمنا ؛ والله لا آخذها أبدا . فقال قيس : أمّا إذ أبى ألّا يأخذها فخذوها[1] ؛ فوالله مافضلني رجل من العرب غيره .

قال إبراهيم : وقال أبو المنذر : مرّ قيس في طريقه برجل من بَلِيّ ، يقال له : الأسود ابن فلان ، فأكرمه ، فلما أراد قيس أن يرتحل وضع عند امرأته ثيابا ودراهم ، فلما جاء الرجل دفعته إليه ، فلحقه فقال : ما أنا بائع ضيافتي ؛ والله لتأخذنّ هذا أو لأنفذنّ الرمحَ بين جنبيك ! فقال قيس : ويحكم خذوه !

قال إبراهيم : ثم أقبلَ قيس حتى قدم المدينة ، فجاءه حسّانُ بن ثابت شامتاً به — وكان عثمانيا — فقال له : نزَعك عليّ بن أبي طالب ، وقد قتلت عثمان ، فبقي عليك الإثم ، ولم يحسن لك الشكر ! فزجره قيس وقال : ياأعمى القلب ، ياأعمى البصر ، والله لولا ألقى بين رهطي ورهطك حرْبا لضربت عنقك . ثم أخرجه من عنده .

قال إبراهيم : ثم إنّ قيساً وسهل بن حُنيف ، خرجا حتى قدما على عليّ الكوفة ، فخبّره قيس الخبر وما كان بمصر فصدّقه . وشهد مع عليّ صِفّين هو وسهل بن حنيف

قال إبراهيم : وكان قيس طُوالا أطول الناس وأمدّهم قامة ، وكان[2] سِناطا أصلع شيخا شجاعا مجرّبا مناصحا لعليّ ولولده ، ولم يزل على ذلك إلى أن مات .

---

(١) ساقطة من ب .
(٢) السناط : الذي لا لحية له .

قال إبراهيم : حدثني أبو غسّان ، قال : أخبرني عليّ بن أبي سيف ، قال : كان قيس بن سعد مع أبي بكر وعمر في سفر في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فكان ينفق عليهما وعلى غيرهما ويُفضِل . فقال له أبو بكر : إنّ هذا لا يقوم به مالُ أبيك فأمسِك يدك . فلمّا قدموا من سفرهم قال سعد بن عبادة لأبي بكر : أردت أن تبخّل ابني ! إنا لقومٌ لا نستطيع البخل .

قال : وكان قيس بن سعد يقول في دعائه : اللهم ارزقني حَمْداً ومجداً وشكراً ، فإنه لا حَمْدَ إلا بفَعال ، ولا مجد إلا بمال . اللهمّ وسّع عليّ فإنّ القليل لا يسعني ولا أسعه .

* * *

[ولاية محمد بن أبي بكر على مصر وأخبار مقتله]

قال إبراهيم : وكان عهد عليّ إلى محمد بن أبي بكر الذي قرئ بمصر :

هذا ما عَهِد عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر حين ولّاه مصر ؛ أمره بتقوى الله في السرّ والعلانية ، وخوف الله تعالى في المَغيب والمشهد ، وأمره باللّين على المسلم ، والغلظ على الفاجر ، وبالعدل على أهل الذمّة ، وبالإنصاف للمظلوم ، وبالشدّة على الظالم ، وبالعفو عن الناس وبالإحسان ما استطاع ؛ والله يجزي المحسنين . وأمره أنْ يدعُوَ مَنْ قِبَلَه إلى الطاعة والجماعة ؛ فإنّ لهم في ذلك من العاقبة وعظم المثوبة ما لا يُقْدَر قدرُه ولا يعرَف كُنْهُه . وأمره أن يجبيَ خَراج الأرض على ما كانت تُجبَى عليه من قَبْلُ ، ولا ينتقص ولا يبتدع ، ثم يقسمه بين أهله كما كانوا يقسمونه عليه من قبل ؛ وإن تكنْ لهم حاجة يواسِ بينهم في مجلسه ووجهه ؛ ليكون القريب والبعيد عنده عَلَى سواء . وأمره أن يحكم بين الناس بالحقّ ، وأن يقوم بالقِسْط ، ولا يتبع الهوى ، ولا يخاف [في الله[1]] لومة لائم ؛ فإن الله مع مَنِ اتّقاه وآثر طاعته على مَنْ سواه .

---

(١) من ا ، ج .

وكتبه عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله لغرّة شهر رمضان سنة ست وثلاثين .

قال إبراهيم : ثم قام محمد بن أبي بكر خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : أما بعدُ فالحمد لله الذي هدانا وإياكم لما اختُلِف فيه من الحقّ ، وبصّرنا وإياكم كثيراً مما عَمِيَ عنه الجاهلون . ألا وإنّ أمير المؤمنين ولّاني أموركم ، وعَهِد إليّ بما سمعتم ، وأوصاني بكثير منه مشافهة ، ولن آلوكم خيراً ما استطعت ؛ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب . فإن يكن ما ترون من آثاري وأعمالي طاعة لله وتقوى ، فاحمدوا الله على ما كان من ذلك ؛ فإنه هو الهادي إليه ؛ فإن رأيتم من ذلك عملا بغير الحقّ ، فارفعوه إليّ ، وعاتبوني عليه ، فإني بذلك أسعد وأنتم بذلك جديرون . وفّقنا الله وإياكم لصالح العمل .

قال إبراهيم : وحدّثني يحيى بن صالح ، عن مالك بن خالد الأسديّ ، عن الحسن بن إبراهيم ، عن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، قال : كتب عليّ عليه السلام إلى أهل مصر لما بعث محمد بن أبي بكر إليهم كتابا يخاطبهم به[1] ، ويخاطب محمدا أيضا فيه :

أما بعد ، فإني أوصيكم بتقوى الله في سرّ أمركم وعلانيته ؛ وعلى أيّ حالٍ كنتم عليها ؛ وليعلم المرء منكم أنّ الدنيا دارُ بلاء وفناء ، والآخرة دار جزاء وبقاء ؛ فمن استطاع أن يؤثِرَ مايبقى على مايفنى فليفعل ؛ فإنّ الآخرة تبقى ، والدنيا تفنى . رزقنا الله وإياكم بَصَراً لما بصرنا وفهْماً لما فهمنا ؛ حتى لا نقصر عما أمرَنا ، ولا نتعدّى إلى ما نهانا . واعلم يا محمد أنّك وإن كنت محتاجا إلى نصيبك من الدنيا إلاّ أنك إلى نصيبك من الآخرة أحوج ، فإن عرَض لك أمران : أحدُهما للآخرة والآخر للدنيا ، فابدأ بأمر الآخرة ، ولتعظُم رغبتُك في الخير ، ولتحسُن فيه نيتك ، فإنّ الله عزّ وجلّ يعطى العبد على قَدْرِ نيّته ؛ وإذا أحبّ الخيرَ وأهله ولم يعمله كان إن شاء الله كمن عمله ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رجع من تبُوك : إنّ بالمدينة لأقواماً ماسرتُم من مسير ، ولاهبطتم من وادٍ إلا

(1) ب : « فيه » ، وما أثبته من ا ، ج .

كانوا معكم؛ ماحبسهم إلّا المرض ـ يقول : كانت لهم نيّة ـ ثم اعلم يا محمد أني قد وليتك أعظم أجنادي أهل مصر ، ووليتك ما وليتك من أمر الناس ، فأنت محقوق أنْ تخافَ فيه على نفسك ، وتحذّر فيه على دينك ؛ ولو كان ساعة من نهار . فإن استطعت ألا تُسخِط ربّك لرضا أحدٍ من خلقه فافعل،فإنّ في الله خَلَفاً من غيره، وليس في شيء خلفٌ منه،فاشتدّ على الظالم ، ولِنْ لأهل الخير ، وقرّبْهم إليك ، واجعلهم بطانتك وإخوانك . والسلام .

قال إبراهيم : حدّثني يحيى بن صالح ، عن مالك بن خالد ، عن الحسن بن إبراهيم ، عن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، قال : كتب عليّ إلى محمد بن أبي بكر وأهل مصر :

أما بعد،فإني أوصيكم بتقوى الله والعمل بما أنتم عنه مسؤولون ، فأنتم به رهن،وإليه صائرون ، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [1] . وقال : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾ [2] . وقال : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ • عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [3] .

فاعلموا عباد الله أن الله سائلكم عن الصغير من أعمالكم والكبير ؛ فإن يعذّب فنحن الظالمون ، وإنْ يغفر ويرحم فهو أرحم الراحمين . واعلموا أنّ أقربَ ما يكون العبد إلى الرحمة والمغفرة حينما يعمل بطاعة لله ومناصحته في التوبة ، فعليكم بتقوى الله عزّ وجل؛ فإنّها تجمع من الخير ما لا يجمع غيرها،ويُدْرَكُ بها من الخير ما لا يدرَك بغيرها خير الدنيا وخير الآخرة ؛ يقول الله سبحانه: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [4] .

واعلموا عبادَ الله أنّ المؤمنين المتقين قد ذهبوا بعاجل الخير وآجله ، شركوا أهلَ الدنيا في دنياهم

---

(١) سورة المدثر ٣٨ .
(٢) سورة آل عمران ٢٨ .
(٣) سورة الحجر ٩٢ ، ٩٣ .
(٤) سورة النحل ٣٠ .

ولم يشاركهم أهلُ الدنيا في آخرتهم ؛ يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ﴾[1] ؛ سكنوا الدنيا بأفضل ماسكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم، فأكلوا من أفضل ما يأكلون، وشربوا من أفضل مايشربون، ويلبسون من أفضل مايلبسون ، ويسكنون من أفضل مايسكنون ، أصابوا لذة أهل الدنيا مع أهل الدنيا مع أنّهم غداً من جيران الله عزّ وجل، يتمنّون عليه، لا يردّ لهم دعوة، ولا ينقص لهم لذة . أمافي هذا مايشتاق إليه مَنْ كان له عقل !

واعلموا ـ عباد الله ـ أنكم إذا اتقيتم ربّكم، وحفظتم نبيّكم في أهل بيته، فقد عبدتموه بأفضل ماعُبِد، وذكرتموه بأفضل ماذكر، وشكرتموه بأفضل ماشُكر، وأخذتم بأفضل الصبر، وجاهدتم بأفضل الجهاد ؛ وإنْ كان غيركم أطول صلاة منكم ، وأكثر صياماً، إذا كنتم أتقى لله وأنصحَ لأولياء الله من آل محمد صلى الله عليه وآله وأخشع. واحذروا عبادَ الله الموت ونزوله ، وخذوا له، فإنه يدخل بأمر عظيم : خير لا يكون معه شرّ أبداً، أو شرّ لا يكون معه خير أبداً. وليس أحد من الناس يفارق روحُه جسده، حتى يعلم إلى أيّ المنزلتين يصير ؛ إلى الجنّة أم إلى النار ! أعدوّ هو لله أم وليّ له ! فإنْ كان وليا فُتِحت له أبواب الجنة، وشرع له طريقها ، ونظر إلى ما أعدّ الله عزّ وجل لأوليائه فيها ؛ فرغ من كلّ شغل ، ووضع عنه كل ثقل ؛ وإن كان عدوًّا فتحت له أبوابُ النار ، وسهل له طريقها ، ونظر إلى ما أعدّ الله فيها لأهلها. واستقبل كل مكروه، وفارق كلّ سرور، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[2] .

واعلموا عبادَ الله أنّ للموت ليس منه فوْت ، فاحـذروه وأعدّوا له عُدّته ، فإنكم

(١) سورة الأعراف ٣٢ .
(٢) سورة النحل ٢٨ ، ٢٩ .

طُرَداء الموت ؛ إن قمتم أخذكم ، وإن هربتم أدركم ؛ وهو ألزم لكم من ظِلّكم ، معقودٌ بنواصيكم ، والدُّنيا تطوَى من خلفكم ؛ فأكثروا ذكرَ الموتِ عند ما تنازعكم إليه أنفسكم من الشهوات ، فإنه كَفَى بالموت واعظا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكثروا ذكرَ الموت فإنه هاذم اللذات[1] » .

واعلموا عبادَ الله أنّ ما بعد الموت أشدُّ من الموت ؛ لمن لم يغفر الله له ويرحمه . واحذروا القبرَ وضمّته وضيقه وظلمته ؛ فإنه لذى يتكلّم كلَّ يوم : أنا بيت التراب ، وأنا بيت الغربة ، وأنا بيت الدود . والقبر روضة من رياض الجنة . أو حفرة من حفر النار . إنّ المسلم إذا مات قالت له الأرض مرحبا وأهلا ؛ قد كنت ممّن أحبُّ أن تمشيَ على ظهرى ، فإذْ وليتك فستعلم كيف صنعى بك ! فيتسع له مدّ بصره . وإذا دُفن الكافر قالت له الأرض : لا مرحبا ولا أهلا ؛ قد كنتَ مِن أبغض أن تمشيَ على ظهرى ، فإذ وليتك فستعلم كيف صنعى بك ! فتنضمّ عليه حتى تلتقيَ أضلاعه .

واعلموا أن المعيشة الضَّنك التى قال سبحانه : ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ﴾[2] هى عذابُ القبر ، فإنه يسلط على الكافر فى قبره حيّاتٍ عظام تنهش لحمه حتى يبعث ، لو أن تنّيناً منها نفخ الأرض ما أنبت الزرع أبدا .

اعلموا عبادَ الله أنّ أنفسكم وأجسادكم الرقيقة الناعمة التى يكفيها اليسير من العقاب ضعيفة عن هذا ، فإن استطعتم أن ترحموا أنفسكم وأجسادكم ممّا لا طاقة لكم به ، ولا صبْرَ لكم عليه ؛ فتعملوا بما أحبَّ الله سبحانه وتتركوا ما كَرِهَ ؛ فافعلوا ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله !

واعلموا ـ عباد الله ـ أنّ مابعد القبر أشدُّ من القبر ؛ يومٌ يشيب فيه الصغير ، ويسكر فيه

---

(١) هاذم : قاطع ، وبقية الحديث : « فإنه لا يكون فى كثير إلا قلله ، ولا فى قليل إلا أجزله » ، نقله فى الجامع الصغير ١ : ٩٠ .

(٢) سورة طه ١٢٤ .

الكبير ؛ وتذهل كلّ مرضعة عما أرضعت . واحذروا يوماً عبوساً قمطريراً ، كان شرّه مستطيرا . أما إنّ شرّ ذلك اليوم وفزعه استطار حتى فزعت منه الملائكة الذين ليست لهم ذنوب ، والسبع الشداد ، والجبال الأوتاد ، والأرضون المهاد . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، وتغيّرت فكانت وردةً كالدّهان ، وكانت الجبال سرابا ، بعد ما كانت صُمًّا صلابا ؛ يقول الله سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ﴾[1] . فكيف بمن يعصيه بالسّمع والبصر ، واللسان واليد ، والفرج والبطن ؛ إن لم يغفر الله ويرحم !

واعلموا — عباد الله — أنّ ما بعد ذلك اليوم أشدّ وأدهى ؛ نارٌ قعرها بعيد ، وحرّها شديد ، وعذابها جديد ، ومقامعها حديد ، وشرابها صديد ، لا يفتر عذابها ، ولا يموت ساكنها ؛ دارٌ ليست لله سبحانه فيها رحمة ، ولا يُسمع فيها دعوة ؛ ومع هذا رحمة الله التي وسعت كلّ شيء ، لا تعجز عن العباد ، وجنّة عرضها كعرض السماء والأرض ، خير لا يكون بعده شرّ أبدا ، وشهوة لا تنفد أبدا ، ولذة لا تفنى أبدا ، ومجمع لا يتفرق أبدا . قومٌ قد جاوروا الرحمن ، وقام بين أيديهم الغلمان ، بصحافٍ من ذهب فيها الفاكهة والريحان . وإنّ أهل الجنة يزورون الجبّار سبحانه في كلّ جمعة ، فيكون أقربهم منه على منابر من نور ، والذين يلونهم على منابر من ياقوت ؛ والذين يلونهم على منابر من مسك ، فبيناهم كذلك ينظرون الله جلّ جلاله ، وينظر الله في وجوههم ؛ إذ أقبلت سحابة تغشاهم فتمطرُ عليهم من النعمة واللذة والسرور والبهجة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه ومع هذا ما هو أفضل منه ، رضوان الله الأكبر .

أما إنّا لو لم نخوّف إلا ببعض ما خوّفنا به لكنا محقوقين أنْ يشتدّ خوفنا مما لا طاقة

---

(١) سورة الزمر ٦٨

لنا به ، ولا صبرَ لقوتنا عليه ؛ وأن يشتدّ شوقنا إلى ما لا غنَى لنا عنه ولا بدَّ لنا منه ؛ فإن استطعتم عباد الله أن يشتدّ خوفكم من ربّكم فافعلوا ؛ فإنّ العبد إنما تكون طاعته على قَدْرِ خوفه ؛ وإنّ أحسنَ الناس لله طاعة ، أشدُّهم له خوفاً .

وانظر يا محمد صلاتَك كيف تصلّيها ؛ فإنما أنت إمامٌ ينبغي لك أن تتمّها وأن تخفّفها وأن تصلّيَها لوقتها ، فإنه ليس من إمام يصلي بقوم فيكون في صلاته وصلاتهم نقص إلا كان إثمُ ذلك عليه ، ولا ينقص من صلاتهم شيئاً .

واعلم أنّ كلّ شيء من عملك يتبع صلاتك ، فمَنْ ضيّع الصلاة فهو لغيرها أشدُّ تضييعا . ووضوءك من تمام الصلاة ، فأتِ به على وجهه ؛ فالوضوء نصف الإيمان . أسأل الله الذي يَرَى ولا يُرَى وهو بالمنظر الأعلى ، أن يجعلنا وإيّاك من المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

فإن استطعتم يا أهلَ مصر ، أن تصدّق أقوالَكم أعمالَكم ، وأن يتوافق سِرُّكم وعلانيتكم ، ولا تخالف ألسنتُكم قلوبَكم فافعلوا . عصمنا الله وإياكم بالهدى ، وسلك بنا وبكم المحجّة الوسطى . وإيّاكم ودعوة الكذّاب ابن هند . وتأمّلوا واعلموا أنّه لا سوى إمام الهدى وإمام الردى ، ووصيّ النبيّ وعدوّ النبيّ ؛ جعلنا الله وإياكم ممّن يحب ويرضى . ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنّي لا أخاف على أمتي مؤمنا ولا مشركا ؛ أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه ، وأمّا المشرك فيخزيه الله بشركه ؛ ولكنّي أخاف عليهم كلّ منافق اللسان ؛ يقول ما تعرفون ، ويفعل ما تنكرون » .

واعلم يا محمد أنّ أفضلَ الفقه الورع في دين الله ، والعمل بطاعته ، فعليك بالتقوى في سِرّ أمرك وعلانيته ، أوصيك بسبع هنّ جوامع الإسلام : اخشَ الله ولا تخشَ الناس في الله ؛ وخيرُ القول ما صدّقه العمل ؛ ولا تقضِ في أمر واحد بقضاءين مختلفين فيتناقضَ

أمرُك وتزيغَ عن الحق . وأحبَّ لعامة رعيّتك ما تحبّه لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك. وأصلِحْ أحوال رعيّتك ، وخض الغمراتِ إلى الحق ، ولا تخف لَوْمَةَ لائم . وانصح لمن استشارك ، واجعل نفسك أسوة لقريب المسلمين وبعيدهم . جعل الله خلتنا وودنا خلة المتقين وود المخلصين ، وجمع بيننا وبينكم في دار الرضوان إخوانا على سرر متقابلين. إن شاء الله.

قال إبراهيم بن سعد الثقفيّ : فحدثني عبدالله بن محمد بن عثمان ، عن عليّ بن محمد بن أبي سيف ، عن أصحابه ، أنّ عليًّا لما كتب إلى محمد بن أبي بكر هذا الكتاب ، كان ينظر فيه ويتأدّب بأدبه ، فلما ظهر عليه عمرو بن العاص وقتله ، أخذ كتبه أجمع ، فبعث بها إلى معاوية ، فكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويتعجّب منه ، فقال الوليد بن عُقْبة ، وهو عند معاوية ، وقد رأى إعجابه به: مُرْ بهذه الأحاديث أن تحرق ، فقال معاوية : مه ! لا رأيَ لك ! فقال الوليد : أفمِنَ الرأي أن يعلم الناس أنّ أحاديث أبي تراب عندك تتعلّم[1] منها؟ قال معاوية : ويحك ! أتأمرني أن أحرِقَ علمًا مثلَ هذا ! والله ما سمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكم . فقال الوليد : إنْ كنتَ تعجب من علمه وقضائه فعلام تقاتله ! فقال : لولا أن أبا تراب قتل عثمان ثم أفتانا لأخذنا عنه . ثم سكت هُنَيهة ، ثم نظر إلى جلسائه فقال: إنّا لا نقول: إن هذه من كتب عليّ بن أبي طالب ، ولكن نقول : هذه من كتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمد ، فنحن ننظر فيها ، ونأخذ منها .

قال : فلم تزلْ تلك الكتب في خزائن بني أميّة ، حتى وليَ عمر بن عبد العزيز ، فهو الذي أظهر أنّها من أحاديث عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

• • •

قلت : الأليق أن يكون الكتاب الذي كان معاوية ينظرُ فيه ويعجب منه ،

(١) ج : « تعلم » .
(٢) ج : « تولى » .

ويقى به ويقضى بقضاياه وأحكامه هو عهد عليّ عليه السلام إلى الأشتر، فإنه نسيج وحده، ومنه تعلّم الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة ؛ وهذا العهد صار إلى معاوية لما سمّ الأشترَ ومات قبل وصوله إلى مصر ؛ فكان ينظر فيه ويعجب منه ، وحقيق من مثله أن يقتنى فى خزائن الملوك .

قال إبراهيم : فلمّا بلغ عليّاً عليه السلام أنّ ذلك الكتاب صارَ إلى معاوية ، اشتدّ عليه حُزنا .

وحدثنى بكر بن بكار ، عن قيس بن الربيع ، عن ميسرة بن حبيب ، عن عمرو بن مرة ، عن عبد الله بن سلَمة ، قال : صلّى بنا عليّ عليه السلام ، فلما انصرف قال :

لَقَدْ عَثرتُ عَثْرَةً لاأعتذِرْ سَوْفَ أكِيسُ بعدها وأستَمِرّْ[1]

• وأجمعُ الأمرَ الشَّتيتَ المنتشِرْ[2] •

فقلنا : مابالك ياأمير المؤمنين ؟ فقال : إنّى استعملتُ محمد بن أبى بكر على مصر ؛ فكتب إلىّ أنه لاعلم لى بالسنّة ، فكتبت إليه كتابا فيه أدب وسنّة ، فقتل وأخذ الكتاب .

قال إبراهيم : فحدّثنى عبد الله محمد ؛ عن ابن أبى سيف المدائنىّ ، قال : فلم يلبث محمد ابن أبى بكر شهرا كاملًا حتى بعث إلى أولئك المعتزلين الذين كان قيس بن سعد موادعاً لهم ، فقال : ياهؤلاء ، إما أن تدخلوا فى طاعتنا ، وإمّا أن تخرجوا من بلادنا . فبعثوا إليه : إنا لانفعل ، فدعنا حتى ننظر إلى مايصير إليه أمرُ الناس ، فلا تعجل علينا . فأبى عليهم ، فامتنعوا منه وأخذوا حذرَهم . ثم كانت وقعة صِفين ؛ وهم لمحمد هائبون ؛ فلما أتاهم خبرُ معاوية وأهل الشام ، ثمّ صار الأمر إلى الحكومة ، وأنّ عليا وأهل العراق قد قفلوا عن معاوية والشام إلى عراقهم ، اجترءوا على محمد بن أبى بكر ، وأظهروا المنابذة له . فلما رأى محمدٌ ذلك بعثَ إليهم ابن جُمْهان البلوىّ ومعه يزيد بن الحارث الكنانى فقاتلاهم ،

(١) كاس يكيس وأكيس ، من الكيس ؛ وهو ضد الحمق . واستمر ، أى أقوى واشتد .

(٢) المنتشر : المتفرق .

فقتلوها . ثم بعث إليهم رجلا من كَلْب فقتلوه أيضا . وخرج معاوية بن حُدَيْج من السكاسك يدعو إلى الطلب بدم عثمان ، فأجابه القوم وناس كثير آخرون ، وفسدت مصر على محمد ابن أبي بكر ؛ فبلغ عليا توثّبهم عليه ، فقال ماأرى لمصر إلا أحد الرجلين : صاحبنا الذى عزلنا بالأمس — يعنى قيس بن سعد بن عبادة — أو مالك بن الحارث الأشتر . وكان علىٌّ حين رجع عن صفين ، ردّ الأشتر إلى عمله بالجزيرة ، وقال لقيس بن سعد : أقم أنت معى على شُرْطتى حتى نفرُغ من أمر هذه الحكومة، ثم اخرج إلى أذربيجان ، فكان قيس مقيما على شُرْطته ، فلما أن انقضى أمر الحكومة كتب علىٌّ إلى الأشتر، وهو يومئذ بنصيبين:

أمّا بعد، فإنك ممّن أستظهر به على إقامة الدين ، وأقمع به نَخْوة الأثيم، وأَسُدُّ به الثغر المخوف . وقد كنت وليتُ محمد بن أبي بكر مصرَ ، فخرجتْ عليه خوارجُ ، وهو غلام حدَث السنّ ، ليس بذى تجربةٍ للحروب، فاقدم[1] علىّ لننظر فيما ينبغى . واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك . والسلام .

فأقبل الأشتر إلى علىّ ، واستخلف على عمله شبيب بن عامر الأزدى — وهو جدّ الكرْمانىّ الذى كان بخُراسان صاحب نَصر بن سَيّار — فلما دخل الأشتر على علىّ حدّثه حديثَ مصر وخبّره خبر أهلها ، وقال له : ليس لها غيرُك ، فاخرج إليها رحمك الله ، فإنّى لا أوصيك ؛ اكتفاء برأيك ؛ واستعنْ بالله على ماأهمّك ، واخلط الشدّة باللين ، وارفقْ ما كان الرّفق أبلغَ ، واعتزم على الشدّة حين لا يُغْنى عنك إلا الشدّة .

فخرج الأشترُ من عنده فأتى برحْله وأتت معاويةَ عيونُه فأخبروه بولاية الأشتر مصر، فعظُم ذلك عليه ، وقد كان طمع فى مصر ، فعلم أنّ الأشتر إن قدم عليها كان أشدّ عليه من محمد بن أبي بكر ، فبعث إلى رجل من أهل الخراج يثق به ، وقال له إنّ الأشترَ قد ولِيَ مصر ، فإن كفيتنيه لم آخذْ منك خراجاً مابقيتُ وبقيتَ ؛ فاحتلْ فى هلاكه ماقدرتَ عليه .

---

(١) يقال : اقدم الرجل البلد يقدمه ، من باب تعب

فخرج الأشتر حتى انتهى إلى القُلْزُم[1] حيث تُرْكَبُ السفن من مصر إلى الحجاز ، فأقام به ، فقال له ذلك الرجل ، وكان ذلك المكان مكانه : أيها الأمير ؛ هذا منزل فيه طعام وعَلَف ، وأنا رجلٌ من أهل الخراج ، فأقِم واسترِحْ ، وأتاه بالطعام حتى إذ طَعِم سقاه شَرْبة عسل ؛ قد جعل فيها سُمًّا ، فلمّا شربها مات .

قال إبراهيم : وقد كان أميرُ المؤمنين كتبَ على يد الأشتر كتاباً إلى أهل مصر ؛ روى ذلك الشعبيّ عن صَعْصعة بن صُوحان :

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى مَنْ بمصر من المسلمين :

سلامُ الله عليكم ، فإنّي أحمد الله إليكم ، الذي لا إله إلا هو ؛ أما بعد فإنّي قد بعثت إليكم عبداً من عباد الله ، لا ينام أيام الخوف ، ولا ينكلُ عن الأعداء حِذارَ الدوائر . لا نا كِلٌ من قدَم ، ولا واهٍ في عزم ، من أشدّ عبادالله بأساً ، وأ كرمهم حسَباً ، أضرّ على الفُجّار من حريق النار ، وأبعدُ الناس من دَنَسٍ أو عار ، وهو مالك بن الحارث الأشتر ، حسام صارمٌ ، لا نابي الضَّريبة ، ولا كليلُ الحدّ ، حليم في السِّلم ، رزينٌ في الحرب ، ذو رأي أصيل ، وصبر جميل . فاسمعوا له وأطيعوا أمرَه ، فإنْ أمرَ كم بالنَّفْر فانفِروا ، وإنْ أمرَ كم أن تقيموا فأقيموا ، فإنه لا يُقدِمُ ولا يُحجِمُ إلّا بأمري . وقد آثرتُكم به على نفسي ؛ نصيحةً لكم ، وشدّة شكيمة[2] على عدوّ كم . عصمكم الله بالهدى ، وثبّتكم بالتقوى ، ووفّقنا وإيا كم لما يحب ويرضى . والسلام عليكم ورحمة الله .

قال إبراهيم : وروى جابر عن الشعبيّ قال : هلك الأشتر حين أتى عَقَبة أُفِيق[3] .

قال إبراهيم : وحدثنا وطبة بن العَلاء بن المنهال الغنويّ ، عن أبيه ، عن عاصم

---

(١) القلزم : مدينة بمصر على رأس الخليج المضاف إليها ، وأطلالها الآن قرب مدينة السويس .
(٢) الشكيمة : الأنفة والانتصار من الظلم .
(٣) أفيق ، بالفتح ثم الكسر : قرية من حوران .

ابن كُلَيب ، عن أبيه ، أن عليًّا لما بعث الأشتر إلى مصر واليًا عليها ، وبلغ معاوية خبرُه ، بعث رسولاً يتبع الأشتر إلى مصر ، وأمره باغتياله ؛ فحمل معه مِزْوَدين فيهما شراب ، وصحب الأشتر ، فاستسقى الأشترُ يوماً فسقاه من أحدهما ، ثم استسقى يوماً آخر منه فسقاه من الآخر وفيه سم فشربه ، فمالت عنقه . وطُلِب الرجل ففاتهم .

قال إبراهيم : وحدّثنا محرز بن هشام ، عن جرير بن عبد الحميد ، عن مغيرة الضّبي ؛ أنّ معاوية دسّ للأشتر مولًى لآل عمر ، فلم يزل المولى يذكر للأشتر فضلَ عليّ وبني هاشم ؛ حتى اطمأنّ إليه ، واستأنس به ، فقدِم الأشتر يوماً ثَقَله[1] أو تقدّم ثَقَله ، فاستسقى ماء، فقال له مولى آل عمر[2] : وهل لك في شربة سَويق ؟ فسقاه شربة سويق فيها سمّ فمات. وقد كان معاوية قال لأهل الشام لما دسّ إليه مولى آل عمر : ادعُوا على الأشتر ، فدَعَوْا عليه ؛ فلما بلغه موتُه قال : ألا ترون كيف استُجيب لكم !

قال إبراهيم : قد رُوِى من بعض الوجوه أنّ الأشتر قُتِل بمصر بعد قتال شديد . والصحيح أنه سُقِى سمًّا فمات قبل أن يبلغ مصر .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن عليّ بن محمد بن أبي سيف المدائنيّ ، أنّ معاوية أقبل يقول لأهل الشام : أيها الناس ، إنّ عليًّا قد وجّه الأشتر إلى مصر ، فادعُوا الله أن يكفيكوه ؛ فكانوا يدعُون عليه في دُبُر كلّ صلاة ، وأقبل الذى سقاه السمّ إلى معاوية ، فأخبره بهلاك الأشتر ، فقام معاوية في الناس خطيباً ، فقال :

أما بعدُ ، فإنه كان لعليّ بن أبي طالب يدان يمينان ، فقُطِعت إحداهما يوم صِفّين وهو عمّار بن ياسر ، وقد قُطِعت الأخرى اليوم ؛ وهو مالك الأشتر .

(١) الثقل : زاد المسافر .
(٢) ب : « مولى عمر » .

قال إبراهيم : فلما بلغ عليًا موتُ الأشتر ، قال: إنّا لله وإنا إليه راجعون ! والحمد لله ربّ العالمين! اللهمّ إنّى أحتسبه عندك ؛ فإنّ موته من مصائب الدهر. ثم قال: رحم الله مالكا؛ فلقد وفّى بعهده ؛ وقضى نحبَه ، ولقِيَ ربَّه ؛ مع أنا قد وطّنا أنفسنا أن نصبرَ على كلّ مصيبة بعد مصابنا برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها من أعظم المصيبات .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن هشام المرادىّ ، عن جرير بن عبد الحميد ، عن مغيرة الضبى ، قال : لم يزلْ أمرُ علىّ شديداً حتى مات الأشتر ، وكان الأشتر بالكوفة أسودَ من الأحنف بالبصرة .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبدالله ، عن ابن أبى سيف المدائنىّ ، عن جماعة من أشياخ النَّخَع ، قالوا : دخلْنا على أمير المؤمنين حين بلغه موتُ الأشتر ، فوجدناه يتلهّف ويتأسف عليه ، ثم قال : لله درّ مالك ! وما مالك ! لو كان من جبل لكان فِنْدا[1] ، ولو كان من حَجَرٍ لكان صَلْدا ، أما والله ليهدّنّ موتُك عالَما ، وليفرحنّ عالَماً ، على مثل مالك فلتبكِ البواكى ! وهل مرجُوٌّ كمالك ! وهل موجود كمالك !

قال علقمة بن قيس النَّخَعىّ : فما زال علىّ يتلهف ويتأسفُ ! حتى ظننا أنه المصاب به دوننا ، وعُرِف ذلك فى وجهه أياما .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبد الله، عن المدائنىّ، قال :حدثنا مولًى للأشتر، قال: لما هلك الأشتر أصيب[2] فى ثقله رسالةُ علىّ إلى أهل مصر :

من عبدالله أمير المؤمنين إلى النفر من المسلمين الذين غضبوا لله إذْ عُصِىَ فى الأرض ، وضرَب الجورُ برواقه على البرّ والفاجر ، فلا حقٌّ يُستراح إليه ، ولا منكرٌ يُتناهى عنه . سلام عليكم ؛ فإنّى أحمَدُ إليكم الله الذى لا إله إلا هو .

---

(١) الفند : الجبل العظيم .
(٢) أصيب : أى وجد .

أما بعد، فقد وجّهتُ إليكم عبداً من عباد الله لا ينام في الخوف، ولا ينكل من الأعداء حذارَ الدوائر، أشدّ على الكافرين من حريق النار، وهو مالك بن الحارث الأشتر أخو مَذْحِج، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه سيف من سيوف الله، لا نابي الضريبة[1]، ولا كليلُ الحدّ؛ فإن أمركم أن تقيموا فأقيموا، وإن أمركم أن تنفروا فانفروا، وإن أمركم أن تُحجموا فأحجموا؛ فإنه لا يقدِم ولا يحجم إلا بأمري، وقد آثرتكم به على نفسي، لنصيحته وشدة شكيمته على عدوّه، عصمكم الله بالحق، وثبّتكم بالتقوى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال إبراهيم: وحدثنا محمد بن عبدالله، عن المدائنيّ، عن رجاله، أن محمد بن أبي بكر لما بلغه أن عليا قد وجّه الأشتر إلى مصر، شقّ عليه، فكتب عليه السلام إليه عند مَهلِك الأشتر:

أما بعد، فقد بلغني موجدتُك من تسريحي الأشتر إلى عملك، ولم أفعل ذلك استبطاء لك عن الجهاد، ولا استزادة[2] لك منى في الجدّ، ولو نزعت ما حوت يداك من سلطانك لوليتك ما هو أيسرُ مؤنة عليك، وأعجب ولاية إليك؛ إلا أن الرجل الذي ولّيته مصر، كان رجلاً لنا مناصحاً؛ وهو على عدوّنا شديد، فرحمة الله عليه، فقد استكمل أيامه، ولاقى حِمامه؛ ونحن عنه راضون؛ فرضيَ الله عنه، وضاعفَ له الثّواب، وأحسنَ له المآب. فأصحِر[3] لعدوك وشمِّر للحرب، وادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وأكثر ذكرَ الله والاستعانة به، والخوفَ منه، يكفِك ما أهمّك، ويُعنك على ما ولاك. أعاننا الله وإياك على ما لا ينال إلا برحمته؛ والسلام.

قال: فكتب محمد بن أبي بكر إليه جوابه:

---

(١) الضريبة: السيف وحده.
(٢) ج: «استزادة»، بالراء، أي رغبة.
(٣) أصحر لعدوك؛ أي ابرز له في الصحراء.

إلى عبد الله أمير المؤمنين من محمد بن أبي بكر :

سلام عليك فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ؛ أمّا بعد فقد انتهى إليّ كتابُ أمير المؤمنين وفهمته ؛ وعرفتُ ما فيه، وليس أحدٌ من الناس أشدَّ على عدوّ أمير المؤمنين، ولا أرأفَ وأرقّ لوليّه منّي . وقد خرجتُ فعسكرت، وأمّنتُ الناسَ ؛ إلّا مَنْ نَصَبَ لنا حربًا ، وأظهر لنا خِلافًا ، وأنا أتبع أمرَ أمير المؤمنين ، وحافظ ولاجئ إليه وقائم به ، والله المستعان على كلّ حال ، والسّلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

قال إبراهيم : حدثنا محمد بن عبد الله بن عثمان، عن ابن سيف المدائنيّ، عن أبي جَهْضم الأزديّ أنّ أهلَ الشام لما انصرفوا عن صِفّين ، كانوا ينتظرون ما يأتي به الحَكَمان، فلمّا انصرفا وتفرّقا ، وبايع أهلُ الشام معاوية بالخلافة لم يزدد معاوية إلّا قوّة ؛ واختلف أهلُ العراق على عليّ بن أبي طالب فلم يكن هَمّ معاوية إلا مِصْر ؛ وقد كان لأهلها هائبًا لقربهم منه، وشدّتهم على مَنْ كان على رأي عثمان ، وقد كان علم أنّ بها قومًا قد ساءهم قتلُ عثمان ، وخالفوا عليًّا ؛ مع أنّه كان يرجو أن يكون له فيها معاونة إذا ظهر عليها على حرب عليّ، لوفور خَراجها ، فدعا علَى مَنْ كان معه من قريش: وهم عمرو بن العاص السهميّ، وحبيب ابن مَسْلمة الفهريّ، وبُسْر بن أبي أرطاة العامريّ، والضّحاك بن قيس الفهريّ، وعبد الرحمن ابن خالد بن الوليد المخزوميّ ومن غير قريش نحو شُرَحْبيل بن السِّمط الحِميريّ، وأبي الأعور السُّلَميّ، وحمزة بن مالك الهَمْدانيّ، فقال : أتدرون لماذا دعوتكم ؟ قالوا : لا ، قال : فإنّي دعوتكم لأمر هوَ لي مُهِمّ ؛ وأرجو أن يكون الله عزّ وجلّ قد أعانَ عليه، فقال له القوم – أو من قال له منهم – : إنّ الله لم يُطْلِعْ على غيبه أحدا، ولسنا ندري ما تريد ! فقال عمرو بن العاص: أرى والله أن أمرَ هذه البلاد المصرية لكثرة خراجها وعدد أهلها قد أهمّك[1]،

---

(١) ج : « همك » .

فخبرتنا تسألنا عن رأينا في ذلك، فإنْ كنتَ لذلك مضمرتنا، وله حمتنا، فاعزم واصرم، ونعم الرأي ما رأيت؛ إنّ في افتتاحها عزّك وعزّ أصحابك، وذلّ عدوّك، وكَبْتَ أهلِ الخلاف عليك.

ـ قال معاوية : أهمّك ما أهمّك يا ابن العاص ! وذلك أنّ عمراً كان بايع معاوية على قتال عليّ، وأن مصر له طُعْمة ما بقي ـ فأقبل معاوية على أصحابه، وقال : إنّ هذا ـ يعني ابن العاص ـ قد ظنّ وحقّق ظنّه ، قالوا : ولكنّا لا ندري، ولعلّ أبا عبد الله قد أصاب ؛ فقال عمرو : وأنا أبو عبد الله ، إنّ أفضل الظنون ما شابه اليقينَ .

ثم إن معاوية حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ؛ فقد رأيتم كيف صنع الله لكم في حربكم هذه على عدوّكم ! ولقد جاءوكم وهم لا يشكّون أنهم يستأصلون بيضتكم ويحوزون بلادكم ، ما كانوا يرون إلّا أنكم في أيديهم ، فردّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكفاكم مؤنتهم ، وحاكمتموهم إلى الله فحكَم لكم عليهم ، ثم جمع كلمتنا ، وأصلح ذات بيننا ، وجعلهم أعداء متفرّقين ؛ يشهدُ بعضهم على بعض بالكفر ، ويسفِكُ بعضُهم دَم بعض ؛ والله إنّي لأرجو أن يُتمّ الله لنا هذا الأمر ؛ وقد رأيت أن أحاوِل حرب مصر ، فماذا ترون ؟

فقال عمرو بن العاص : قد أخبرتُك عمّا سألت ، وأشرتُ عليك بما سمعت .

فقال معاوية : ما ترون ؟ فقالوا : نرى ما رأى عمرو بن العاص . فقال معاوية : إنّ عمراً قد عزم وصرم بما قال ، ولم يفسّر كيف ينبغي أن نصنع !

قال عمرو : فإني مشير عليك بما تصنع ، أرى أن تبعث جيشاً كثيفاً ، عليهم رجلٌ صارم ، تأمنُه وتثق به ؛ فيأتيَ مصر فيدخلَها فإنه سيأتينا مَنْ كان على مثلِ رأينا من أهلها ، فنظاهره على مَنْ كان من عدوّنا ، فإن اجتمع بها جندك ومَنْ كان بها من شيعتك على مَنْ بها من أهل حربك ، رجوتُ الله أن يُعزّ نصرَك ، ويظهر فَلَجَك .

فقال معاوية : هل عندك شيء غير هـذا نعمله فيا بيننا وبينهم قبل هـذا ؟

قال : ما أعلمه .

قال معاوية : فإنّ رأيي غيرُ هذا ؛ أرى أن نكاتب مَنْ كان بها من شيعتنا ، ومَنْ كان بها من عدوّنا : فأما شيعتنا فنأمرُهم بالثبات على أمرهم وتُمَنِّيهم قدومَنا عليهم ؛ وأمّا مَنْ كان بها من عدوّنا فندعوهم إلى صلحنا ، ونُمَنّيهم شكرَنا ، ونُخوّفهم حربنا ، فإن صلَح لنا ماقِبَلهم من غير حرب ولاقتال ، فذلك ما أحببنا ، وإلا حربُهم من وراء ذلك . إنّك يابنَ العاص لَامْرُؤٌ[1] بورك لك في العَجلة ، وبورك لي في التؤده .

قال عمرو : فاعمل بما أراك الله ، فوالله ما أرى أمرك وأمرهم يصير إلّا إلى الحرب .

قال : فكتب معاوية عند ذلك إلى مسلمة بن مُخَلَّد الأنصاريّ ، وإلى معاوية بن حُدَيْج السَّكُونيّ ، وكانا قد خالفا عليا :

أما بعد ؛ فإن الله عزّ وجلّ قد ابتعثكما لأمرٍ عظيم ؛ أعظمَ به أجرَكما ورفع درجتكما ومرتبتكما في المسلمين . طلبتما بدم الخليفة المظلوم ، وغضبتما لله ، إذ تُرِك حكم الكتاب ، وجاهدتما أهلَ الظلم والعدوان ، فأبشرا برضوان الله ، وعاجلا نصرة أولياء الله ؛ والمواساة لكما في دار الدنيا وسلطاننا ؛ حتى ينتهيَ ذلك إلى مايرضيكما ، ويؤدّى[2] به حقكما ، فالزما أمرَكما ، وجاهـدا عدوّكما ، وادعوا المدبرين منكما إلى هداكما ؛ فكأنّ الجيش قد أظلّ عليكما ، فاندفع كلُّ ماتكرهان ، ودام كلُّ ماتهويان ؛ والسلام عليكما ورحمة الله .

وبعث بالكتاب مع مولى له يقال له سُبَيع ، فخرج بكتابه حتى قدم به عليهما بمصر ،

---

(١) ساقطه من أ ، ب .

(٢) أ ، ج : « ويؤل » .

ومحمد بن أبى بكر يومئذ أميرُها قد ناصبه هؤلاء النفر الحرب ؛ وهم هائبون الإقدام عليه؛ فدفع الكتاب إلى مسلمة بن مخلّد ، فقرأه فقال : القَ به معاوية بن حُدَيج ، ثم القَى به حتى أجيبَ عنّى وعنه . فانطلق الرسول بكتاب معاوية فأقرأه إيّاه ، ثم قال له إنّ مسلمة قد أمرنى أن أردّ الكتاب إليه لكى يجيبَ عنك وعنه . قال : قل له فليفعل ! فأتى مسلمة بالكتاب . فكتب الجواب عنه وعن معاوية بن حُدَيج . أما بعدُ ، فإن هذا الأمر الذى قد ندبْنا له أنفسنا ، وابتغينا الله به على عدوّنا ، أمرٌ نرجو به ثواب ربّنا ، والنصرَ على مَنْ خالفنا ، وتعجيل النقمة على مَنْ سعى على إمامنا ، وطأطأ الرّكض فى مهادنا ، ونحن بهذه الأرض قد نفينا مَن كان بها من أهل البَغى ، وأنهضنا مَنْ كان بها من أهل القسط والعدل وقد ذكرت موازرتَك فى سلطانك وذات يدك ؛ وبالله إنه لا من أجْلِ مالٍ نهضْنا ، ولا إياه أردنا ، فإن يجمع الله لنا ما نريد ونطلب أو يُرِنا ماتمنّينا ، فإنّ الدنيا والآخرة لله رب العالمين ، وقد يؤتيهما الله جميعاً عالَماً من خلقه ، كما قال فى كتابه : ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [1] عجّل لنا خيلك ورجلك؛ فإن عدوّنا قد كان علينا جريئاً [2] ، وكنّا فيهم قليلا ، وقد أصبحوا لنا هائبين ، وأصبحنا لهم منابذين ، فإنْ يأتنا مددٌ من قِبَلك يفتح الله عليك ؛ ولا قوة إلا بالله ؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل .

قال : فجاء هذا الكتاب معاويةَ وهو يومئذ بفلسطين ، فدعا النفر الذين سمّيناهم من قريش وغيرهم ، وأقرأهم الكتاب ، وقال لهم : ماذا ترون؟ قالوا : نرى أن تبعث إليهم جيشاً من قِبَلك فأنت مفتتحها إن شاء الله ، بإذن الله .

قال معاوية : فتجهّزْ إليها يا أبا عبد الله — يعنى عمرو بن العاص — فبعثه فى ستة آلاف

(١) سورة آل عمران ١٤٨ .
(٢) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « حرباً » .

فخرج يسير ، وخرج معه معاوية يودّعه ، فقال له معاوية عند وَدَاعه إياه : أوصيك بتقوى الله ياعمرو ، وبالرفق فإنّه يُمْنٌ ، وبالتؤدة فإنّ العجلة من الشيطان ، وبأن تقبلَ من أقبل ، وتعفوَ عمّن أدبر ، أنظره فإن تاب وأناب قبلتَ منه ، وإن أبى فإنّ السطوة بعد المعرفة أبلغُ في الحجة ، وأحسن في العاقبة . وادع الناسَ إلى الصلح والجماعة ، فإنْ أنت ظفرت فليكن أنصارُك أبرّ الناس عندك ، وكلّ الناس فأولِ حسَناً .

قال : فسار عمرو في الجيش حتى دنا من مصر ، فاجتمعت إليه العثمانية ، فأقام وكتب إلى محمد بن أبي بكر :

أما بعد ، فتنحّ عني بدمك يابنَ أبي بكر ، فإني لا أحبُّ أن يصيبَك منّي ظُفر ، وإنّ الناسَ بهذه البلاد قد اجتمعُوا على خلافك ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك ، وهم مسلموك لو قد التقت حَلْقتَا البطان ، فاخرج منها فإني لك من الناصحين . والسلام .

قال : وبعث عمرو إلى محمد مع هذا الكتاب كتابَ معاوية إليه ؛ وهو :

أما بعد ؛ فإنّ غِبّ[1] الظلم والبغي عظيم الوبال ، وإنّ سفكَ الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقْمة في الدنيا والتَّبعة الموبقة في الآخرة ، وما نعلمُ أحداً كان أعظمَ على عثمان بغياً ، ولا أسوأَ له عيباً ، ولا أشدَّ عليه خلافاً منك ؛ سعيتَ عليه في الساعين ، وساعدت عليه مع الساعدين ، وسفكت دمه مع السافكين ، ثم تظنّ أني نائم عنك ، فتأتي بلدة فتأمن فيها وجلّ أهلها أنصاري ؛ يرون رأيي ، ويرفُضون قولك ، ويستصرخونني عليك . وقد بعثت إليك قوماً حِناقاً عليك ، يسفكون دمك ، ويتقرّبون إلى الله عزّ وجلّ بجهادك ؛ وقد أعطوا الله عهداً ليقْتُلُنّك ؛ ولو لم يكن منهم إليك ما قالوا لقتلك الله بأيديهم أو بأيدي غيرهم من أوليائه ؛ وأنا أحذّرك وأنذرك ؛ فإنّ الله مُقيد منك ، ومقتصٌّ لوليه وخليفته بظلمك له ، وبغيك عليه

---

(١) غبّ الظلم : عاقبته .

ووقيعتك فيه ، وعداوتك يوم الدار عليه ، تطعن بمشاقصك[1] فيما بين أحشائه وأوداجه ؛ ومع هذا فإني أكره قتلك ، ولا أحب أن أتولى ذلك منك ؛ ولن يسلمك الله من النقمة أين كنت أبداً ، فتنحّ وانجُ بنفسك . والسلام .

قال : فطوى محمد بن أبي بكر كتابيهما ، وبعث بهما إلى علي عليه السلام ، وكتب إليه :

أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإن العاصي ابن العاص ، قد نزل أداني مصر واجتمع إليه من أهل البلد مَن كان يرى رأيهم ؛ وهو في جيش جرّار ، وقد رأيت ممن قبلي بعض الفشل ، فإن كان لك في أرض مصر حاجة فامددني بالأموال والرجال ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : فكتب إليه علي :

أما بعد ، فقد أتاني رسولك بكتابك ، تذكر أن ابن العاص قد نزل في جيش جرّار ، وأن مَن كان على مثل رأيه قد خرج إليه . وخروجُ مَن كان يرى رأيه خيرٌ لك من إقامته عندك . وذكرتَ أنك قد رأيت ممن قبلك فشلاً ، فلا تفشل وإن فشلوا ؛ حصّن قريتك ، واضمُمْ إليك شيعتك ، وأذكِ الحرس في عسكرك ، واندب إلى القوم كنانة ابن بشر ، المعروف بالنصيحة والتجربة والبأس ، وأنا نادبٌ إليك الناس على الصعب والذلول . فاصبِر لعدوك وامضِ على بصيرتك ، وقاتلهم على نيّتك ، وجاهدهم محتسباً لله سبحانه ؛ وإن كانت فئتك أقلّ الفئتين ؛ فإن الله تعالى يُعين القليل ويخذُل الكثير . وقد قرأتُ كتابَي الفاجرين المتحابّين على المعصية ، والمتلائمَين على الضلالة ، والمرتشيَين على الحكومة ، والمتكبّرين على أهل الدين ؛ الذين استمتعوا بخلاقهم ؛ كما استمتع الذين من

---

(١) المشاقص : جمع مشقص ؛ وهو النصل العريض .

قبلهم بخلائقهم ، فلا يضرّنّك إرداعها وإبراقها ، وأجبهما إن كنت لم تجبهما بماها أهله ، فإنك تجد مقالا ماشئت . والسلام .

قال : فكتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية جواب كتابه :

أما بعد ؛ فقد أتاني كتابك تذكر من أمر عثمان أمراً لاأعتذر إليك منه ، وتأمرني بالتنحّي عنك كأنك لي ناصح ، وتخوّفني بالحرب كأنك عليّ شفيق ؛ وأنا أرجو أن تكون الدائرة عليكم ، وأنْ يُهلككم الله في الوقعة، وأن ينزل بكم الذلّ ، وأن تولّوا الدُّبُر ؛ فإن يكن لكم الأمر في الدنيا فكم وكم لَعَمْري من ظالم قدنصرتم وكم من مؤمن قد قتلتم ومثّلتم به ! وإلى الله المصير ، وإليه تردّ الأمور ؛ وهو أرحم الراحمين ؛ والله المستعانُ على ما تصفون .

قال : وكتب محمد بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص جوابَ كتابه :

أما بعد ،فهمت كتابَك، وعلمت ماذكرت. زعمت أنك تكره أن يصيبَك منك ظُفر، فأشهدبالله إنك لمن المبطلين . وزعمت أنك ناصحي ، وأقسم إنك عندي ظنين. وقدزعمت أن أهلَ البلد قدرفضوني ، وندموا على اتّباعي ؛ فأولئك حزبك وحزب الشيطان الرجيم ؛ وحسبنا الله رب العالمين ونعم الوكيل،وتوكّلت على الله العزيزالرحيم، ربّ العرش العظيم.

* * *

قال إبراهيم : فحدثنا محمد بن عبدالله ، عن المدائنيّ ، قال: فأقبل عمرو بن العاص يقصد قَصْد مصر ، فقام محمد بن أبي بكر في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ؛ يامعاشرَ المؤمنين ،فإنّ القوم الذين كانوا ينتهكون الحرْمة ، ويغشَوْن[1] الضلالة ، ويستطيلون بالجبريّة ، قد نصبوا لكم العداوة ، وساروا إليكم بالجنود ، فمن أراد الجنّة والمغفرة فليخرجْ إلى هؤلاء القوم فيجاهدْهم في الله . انتدبوا[2] رحمكم الله مع

(١) ب : « أرض الضلالة » . (٢) انتدبوا : أى خفوا .

كنانة بن بشر . ثم ندب معه نحو ألفي رجل ، وتخلف محمد في ألفين ، واستقبل عمرو بن العاص كنانة وهو على مقدّمة محمد ، فلما دنا عمرو من كنانة سرّح إليه الكتائب ؛ كتيبة بعد كتيبة ، فلم تأته من كتائب الشام كتيبة إلا شدّ عليها بمن معه فيضربها حتى يُلحقها بعمرو ، ففعل ذلك مرارا . فلما رأى عمرو ذلك بعث إلى معاوية بن حُدَيج الكندي، فأتاه في مثل الدَّهْم [1] . فلما رأى كنانة ذلك الجيش ، نزل عن فرسه ؛ ونزل معه أصحابه فضاربهم بسيفه ، وهو يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾ [2] . فلم يزل يضاربهم بالسيف حتى استشهد رحمه الله

قال إبراهيم : حدثنا محمد بن عبد الله ، عن المدائني ، عن محمد بن يوسف ، أن عمرو ابن العاص لما قتل كنانة أقبل نحو محمد بن أبي بكر ، وقد تفرّق عنه أصحابه ؛ فخرج محمد متمهّلا ، فمضى في طريقه حتى انتهى إلى خربة [3] فأوى إليها ، وجاء عمرو بن العاص حتى دخل الفسطاط ، وخرج معاوية بن حُدَيج في طلب محمد ، حتى انتهى إلى عُلُوج [4] على قارعة الطريق ، فسألهم : هل مرّ بهم أحد ينكرونه ؟ قالوا : لا ، قال أحدهم : إني دخلت تلك الخربة ، فإذا أنا برجل جالس . قال ابن حُدَيج : هو هو وربّ الكعبة ، فانطلقوا يركضون ، حتى دخلوا على محمد ، فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشا ، فأقبلوا به نحو الفُسْطاط .

قال : ووثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص ، وكان في جُنْده ، فقال : لا والله لا يُقتَلُ أخي صبرا ، ابعث إلى معاوية بن حُدَيج فانْهَهُ ، فأرسل عمرو ابن العاص : أن ائتني بمحمد ، فقال معاوية : أقتلتم كنانة بن بشر ابن عمي ، وأخلّي عن محمد!

---

(١) الدهم : العدد الكثير .
(٢) سورة آل عمران ١٤٥ .
(٣) الخربة : موضع الخراب .
(٤) علوج : جمع علج ؛ وهو الرجل من كفار العجم .

هيهات ! ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ [1]. فقال محمد: اسقونى قطرة من الماء، فقال له معاوية بن حُدَيج: لاسقانى الله إن سقيتُك قطرة أبداً، إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائماً محرماً، فسقاه الله من الرّحيق المختوم؛ والله لأقتلنّك يابن أبى بكر وأنت ظمآن، ويسقيك الله من الحميم والغِسْلين، فقال له محمد : يابن اليهودية النّساجة ! ليس ذلك اليوم إليك ولا إلى عثمان، إنما ذلك إلى الله يسقى أولياءه ويظمئ أعداءه ؛ وهم أنت وقرناؤك ومَنْ تولّاك وتولّيته؛ والله لو كان سيْفى فى يدى ما بلغتم منى ما بلغتم . فقال له معاوية بن حُدَيج : أتدرى ما أصنع بك ؟ أدخلك جوْفَ هذا الحمار الميت ثم أحرقه عليك بالنار . قال : إن فعلتم ذلك بى فطالما فعلتم ذلك بأولياء الله ، وايمُ الله إنّى لأرجو أن يجعل الله هذه النار التى تخوّفنى بها برداً وسلاماً ، كما جعلها الله على إبراهيم خليله، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك، كما جعلها على نمرود وأوليائه، وإنى لأرجو أن يُحْرِقَكَ الله وإمامك معاوية ، وهذا ـ وأشار إلى عمرو بن العاص ـ بنار تلظى ، كلّما خَبَتْ زادها الله عليكم سعيراً . فقال له معاوية بن حديج : إنى لا أقتلك ظلماً ، إنما أقتلك بعثمان بن عفان، قال محمد : وما أنت وعثمان! رجل عمل بالجوْر ، وبدّل حكم الله والقرآن ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [2]، ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [3] ، ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [4] ؛ فنقمْنا [5] عليه أشياء عملها ، فأردنا أن يَخْلع من الخلافة عَمَلاً ، فلم يفعل ، فقتله مَنْ قتله من الناس .

---

(١) سورة القمر ٤٣ .
(٢) سورة المائدة ٤٤ .
(٣) سورة المائدة ٤٥ .
(٤) سورة المائدة ٤٧ .
(٥) نقم عليه ، بكسر القاف : أنكر أمره .

فغضب معاوية بن حُدَيج ، فقدّمه فضرب عنقه ، ثم ألقاه فى جَوْف حمار وأحرقه بالنار .

فلما بلغَ ذلك عائشة جَزِعت عليه جزعا شديدا ، وقنتَتْ فى دُبُر كل صلاة تدعو على معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن حُديج ، وقبضت عيالَ محمد أخيها وولده إليها ، فكان القاسم بن محمد من عيالها .

قال : وكان ابن حُدَيج ملعونًا خبيثا يسبّ علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

قال إبراهيم : وحدثنى عمرو بن حماد بن طلحة القنّاد ، عن علىّ بن هاشم ، عن أبيه، عن داود بن أبى عوف ، قال : دخلَ معاوية بن حُدَيج علَى الحسن بن علىّ فى مسجد المدينة ، فقال له الحسن : ويلك يامعاوية ! أأنت الّذى تسبّ أميرَ المؤمنين عليا عليه السلام ! أما والله لئن رأيته يوم القيامة ــ وما أظنك تراه ــ لترينّه كاشفا عن ساق ، يضرب وجوه أمثالك عن الحوض ضَرْبَ غرائب الإبل .

قال إبراهيم : وحدثنى محمد بن عبدالله بن عثمان ، عن المدائنى ، عن عبدالملك بن عُمير ، عن عبدالله بن شدّاد ، قال : حلفتْ عائشة لاتأكل شواء[1] أبدا بعد قَتل محمد ، فلم تأكلْ شواء حتى لحقت بالله ، وماعثرت قطّ إلا قالت : تَعِس معاوية بن أبى سفيان[2] وعمرو بن العاص ، ومعاوية بن حُديج !

قال إبراهيم : وقد روى هاشم أن أسماء بنت عُمَيْس ، لما جاءها نعىُ[2] محمد ابنها وما صُنِع به ، قامت إلى مسجدها ، وكَظَمت غيظها حتى تشخّبت[3] دما .

قال إبراهيم : وروى ابنُ عائشة التيمىّ عن رجاله عن كثير النّوّاء ، أن أبا بكر خرّج

---

(١) الشواء ، بالكسر والضم : ما شوى من اللحم وغيره .
(٢) نعاه له : أخبره بموته .
(٣) يقال : تشخب دماً : أى انفجر عرقه بالدم .

في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله في عَرَاة ، فرأت أسماء بنت عُمَيس وهي تحته : كأنّ أبا بكر مخضّب بالحناء رأسه ولحيته ، وعليه ثياب بيض ، فجاءت إلى عائشة فأخبرتها ، فقالت : إنْ صدقت رؤياك فقد قُتِل أبو بكر ، إن خضابه الدم ، وإن ثيابه أكفانه ، ثم بكت ، فدخل النبيّ صلى الله عليه وآله وهي كذلك ، فقال : ما أبكاها ؟ فقالوا : يارسولَ الله ، ما أبكاها أحد ، ولكنّ أسماء ذكرتْ رؤيا رأتْها لأبي بكر ، فأُخبِرَ النبيّ صلى الله عليه وآله ، فقال : «ليس كما عبّرت عائشة؛ولكن يرجع أبو بكر صالحاً،فيلقى أسماء ، فتحمل منه بغلام ، فتسمّيه محمدا ، يجعله الله غيظاً على الكافرين والمنافقين » .

قال : فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم .

قال إبراهيم : حدّثنا محمد بن عبدالله ، عن المدائنيّ ، قال : فكتب عمرو بن العاص إلى معاوية بن أبي سفيان عند قتل محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر : أما بعد ، فإنا لقينا محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر في جموع من أهل مصر ، فدعوناهم إلى الكتاب والسنّة ، فعصوا الحق ، فتهوّكوا[1] في الضّلال ، فجاهدناهم ، واستنصرنا الله جلّ وعزّ عليهم ، فضرب الله وجوههم وأدبارهم ، ومنحنا[2] أكتافهم ؛ فقتِل محمد بن أبي بكر وكنانة بن بِشْر ، والحمد لله رب العالمين .

قال إبراهيم : وحدّثني محمد بن عبد الله ، عن المدائنيّ ، عن الحارث بن كعب بن عبد الله بن قعين ، عن حبيب بن عبد الله ، قال : والله إني لعند عليّ جالسٌ إذ جاءه عبد الله بن معين وكعب بن عبدالله مِنْ قِبَل محمد بن أبي بكر يستصرخانه قبل الوقعة؛ فقام عليٌّ فنادى في الناس : الصلاة جامعة[3]؛فاجتمع الناس فصعد المنبر ، فحمِد الله وأثنى

---

(١) التهوك : التحير ، وفي ب : « فهولوا » .
(٢) ج : « وأمنحنا أكتافهم » .
(٣) ساقطة من ج .

عليه ؛ وذكر رسول الله صلى الله عليه وآله ، فصلّى عليه ، ثم قال : أما بعدُ ، فهذا صريخُ[1] محمد بن أبي بكر وإخوانكم من أهل مصر ، قد سار إليهم ابنُ النابغة عدوّ الله وعدوّ مَنْ والاه ، ووليّ مَنْ عادى الله ، فلا يكونَنّ أهلُ الضلال إلى باطلهم ، والركون إلى سبيل الطاغوت أشدّ اجتماعاً على باطلهم وضلالتهم منكم على حقكم فكأنكم بهم وقد بدءوكم وإخوانكم بالغَزْو ، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنَّصْر عبادَ الله : إنّ مصر أعظم من الشام وخيرٌ أهلاً ، فلا تُغْلَبوا على مصر ؛ فإنّ بقاءَ مصر في أيديكم عِزٌّ لكم ، وكبتٌ لعدوّكم ، اخرجوا إلى الجرَعة ـ قال : والجرَعة[2] بين الحيرة والكوفة ـ لنتوافى هناك كلّنا غداً إن شاء الله .

قال : فلما كان الغد ، خرج يمشي ، فنزلها بُكْرة ، فأقام بها حتى انتصف النهارُ ، فلم يوافه مائة رجل ، فرجع . فلما كان العشيّ بعث إلى الأشراف فجمعهم ، فدخلوا عليه القصر ، وهو كئيب حزين ، فقال : الحمدُ لله على ما قضَى مِنْ أمرٍ ، وقدّر من فعل ، وابتلاني بكم أيتها الفرقة التي لا تطيعُ إذا أمرتُها ، ولا تجيب إذا دعوتُها . لا أبا لغيركم ! ماذا تنتظرون بنصركم والجهاد على حقكم الموت خيرٌ من الذلّ في هذه الدنيا لغير الحقّ ! والله إن جاءني الموت ـ وليأتينّي ـ لتجدُنّي لصحبتكم جِدَّ قالٍ

ألا دين يجمعُكم ! ألا حميّة تغضبكم ! ألا تسمعون بعدوّكم ينتقص بلادَكم ، ويشنّ الغارة عليكم ! أو ليس عجباً أنّ معاوية يدعو الجُفاة الطَّغام الظلمة ، فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة ، ويجيبونه في السنة المرة والمرتين والثلاث ، إلى أيّ وجه شاء ، ثم أنا أدعوكم ـ وأنتم أولو النُّهى وبقيّة الناس ـ تختلفون وتفترقون عنّي ، وتعصونني وتخالفون عليّ !

---

(١) الصريخ هنا : المستغيث .

(٢) في الأصول : « الجرعة » تصحيف .

فقام إليه مالك بن كعب الأرحبيّ ، فقال يا أمير المؤمنين ، اندب الناس مَعِي ؛ فإنه لا عطرَ بعد عَروس[1] ، وإن الأجر لا يأتي إلا بالكرْه . ثم التفت إلى الناس وقال : اتقوا الله ، وأجيبوا دعوة إمامكم ، وانصروا دعوته ، وقاتلوا عدوَّكم ، إنا نسير إليهم يا أمير المؤمنين .

فأمر عليٌّ سعداً مولاه أن ينادي : ألاَ سيرُوا مع مالك بن كعب إلى مصر ، وكان وجهاً مكروها ، فلم يجتمعوا إليه شهراً ، فلما اجتمع له منهم ما اجتمع خرج بهم مالك ابن كعب ، فعسكرَ بظاهر الكوفة ، وخرج معه عليٌّ ، فنظر فإذا جميع مَنْ خرج نحو من ألفين ، فقال علي : سيرُوا ، والله ما أنتم ! ما إخالكم تدركون القوم حتى ينقضيَ أمرُهم !

فخرج مالك بهم وسار خمس ليال ، وقدم الحجاج بن غَزِيّة الأنصاريّ على عليّ ، وقدم عليه عبد الرحمن بن المسيّب الفزاريّ من الشام ؛ فأما الفزاريّ فكان عيناً لعليّ عليه السلام ، لا ينام ، وأما الأنصاريّ فكان مع محمد بن أبي بكر ؛ فحدثه الأنصاري بما عاين وشاهد ، وأخبره بهلاك محمد ، وأخبره الفزاري أنه لم يخرج من الشام حتى قدمت البشرى من قِبَل عمرو بن العاص ، يتبع بعضُها بعضاً بفتح مصر ، وقتل محمد ابن أبي بكر ، وحتى أذّن معاوية بقتله على المنبر وقال : يا أمير المؤمنين ، ما رأيتُ يوماً قطُّ سروراً مثل سرور رأيته بالشام حين أتاهم قَتْلُ محمد بن أبي بكر ، فقال عليّ : أما إنّ حزننا على قتله ، على قدر سرورهم به ؛ لا بل يزيدُ أضعافا .

قال : فسرّح عليٌّ عبد الرحمن بن شريح إلى مالك بن كعب ، فردّه[2] من الطريق

قال : وحزن عليّ على محمد بن أبي بكر حتى رُئي ذلك فيه ، وتبيّن في وجهه ، وقام في الناس خطيبا ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : ألا وإنّ مصر قد افتتحها الفَجَرة

(١) لا عطر بعد عروس ، مثل يضرب في ذم ادخار الشيء وقت الحاجة ، وانظر مورد المثل في الميداني ٢ : ٢١١ ، ٢١٢ .
(٢) ب : « فطرده » .

أولياء الجوْر والظلم ، الذين صدّوا عن سبيل الله ، وبغَوا الإسلام عِوَجاً . ألا وإنّ محمد ابن أبى بكر قد استُشهدَ رحمة الله عليه ، وعندالله نحتسبه . أما والله لقدْ كان ـ ماعلمت ـ ينتظر القضاء ، ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ، ويحبُّ سَمْت المؤمن ؛ إنىّ والله لا ألومُ نفسى على تقصير ولا عجز ؛ وإنّى بمقاساة الحرب لِجدُّ بَصير ، إنّى لأُقدِمُ على الحرب ، وأعرِف وَجْه الحزم ، وأقوم بالرأى المصيب ، فأستصرخُكم معلنا ، وأناديكم مستغيثاً؛ فلا تسمعون لى قولا ، ولا تُطيعون لى أمرا ؛ حتى تصيرَ الأمور إلى عواقب المساءة. وأنتم القومُ لا يدرَك بكم الثأرُ ؛ ولا تنقضُ بكم الأوتار ؛ دعوتُكم إلى غياث إخوانكم منذُ بضع وخمسين ليلة : فجرجرتُمْ [1] علىّ جَرْجرة الجمل الأسرّ [2] ، وتثاقلتم إلى الأرض تثاقُلَ من لانيّةَ له فى الجهاد ، ولا رأىَ له فى الاكتساب للأجر ، ثم خرج إلىّ منكم جُنيْد متذائب ضعيف ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . فأفٍّ لكم ! ثم نزل فدخل رَحْله .

قال إبراهيم : حدّثنا محمد بن عبد الله ؛ عن المدائنىّ ؛ قال : كتب علىّ إلى عبد الله ابن عباس وهو على البصرة :

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين عليه السلام ، إلى عبد الله بن عباس : سلام عليك ورحمة الله وبركاته :

أما بعد ؛ فإن مصر قد افتتحت ، وقد استُشهد محمد بن أبى بكر ، فعندالله عزّ وجلّ نحتسبه [3] . وقد كنت كتبتُ إلى الناس ، وتقدّمت إليهم فى بدء الأمر ، وأمرتُهم بإغاثته

(١) ب : « خرجتم » صوابه فى ح . والجرجرة : تردد هدير الفحل .
(٢) الجمل الأسر ؛ السرر : وجع يأخذ البعير فى كركرته .
(٣) ج : « احتسابه » .

قبل الوقعة ، ودعوتهم سرا وجهرا ، وعوداً وبدءا ، فمنهم الآتى كارها، ومنهم المتعلل كاذباً، ومنهم القاعد خاذلا . أسأل الله أن يجعل لى منهم فرَجاً، وأن يريحنى منهم عاجلا ؛ فوالله لولا طمعى عند لقاء عدوّى فى الشهادة ، وتوطينى نفسى عند ذلك، لأحببت ألا أبقى مع هؤلاء يوما واحدا . عزم الله لنا ولك على تقواه وهداه ، إنه على كل شىء قدير . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : فكتب إليه عبدالله بن عباس :

لعبد الله على أمير المؤمنين من عبدالله بن عباس سلام على أمير المؤمنين ، ورحمة الله وبركاته :

أما بعد ؛ فقد بلغنى كتابُك تذكر فيه افتتاح مصر وهلاكَ محمد بن أبى بكر ، وأنك سألتَ الله ربك أن يجعل لك من رعيتك التى ابتُليت بها فرجا ومخرجا ، وأنا أسأل الله أن يُعلىَ كلمتك ، وأن يغيثك بالملائكة عاجلا . واعلم أن الله صانع لك ، ومعزٌّ دعوتك ، وكابتٌ عدوك . وأخبرك يا أمير المؤمنين أن الناسَ ربما تباطئوا ثم نشطوا ؛ فارفق بهم يا أمير المؤمنين ودارِهم ومنّهم، واستعنْ بالله عليهم . كفاك الله الهمّ! والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال إبراهيم : وروى عن المدائنىّ؛ أن عبدالله بن عباس قدم من البصرة على علىّ ، فعزّاه عن محمد بن أبى بكر .

وروى المدائنىّ أنّ عليا قال : رحم الله محمدا كان غلاما حَدَثا ، لقد كنت أردت أن أُوَلِّىَ المِرْقال[1] هاشم بن عتبة مصر ؛ فإنه والله لو وليَها لما خلَّى لابن العاص وأعوانه العَرْصة ، ولا قُتل إلا وسيفه فى يده ، بلا ذمّ لمحمد ، فلقد أجهد نفسه فقضى ما عليه .

(١) المرقال : لقب هاشم بن عتبة الزهرى ؛ لأن علياً عليه السلام دفع إليه الراية يوم صفين ؛ فكان يرقل بها إرقالا ، والإرقال : ضرب من العدو .

قال المدائني : وقيل لعليّ عليه السلام : لقد جزعتَ على محمد بن أبي بكر يا أميرَ المؤمنين . فقال : وما يمنعني ؟ إنّه كان لي ربيبا ، وكان لِبَنِيّ أخا ، وكنت له والدا . أعدُّه ولدا .

• • •

[خطبة للامام عليّ بعد مقتل محمد بن أبي بكر]

وروى إبراهيم ، عن رجاله ، عن عبد الرحمن بن جندب ، عن أبيه ، قال : خطب عليّ عليه السلام بعد فتح مصر ، وقتل محمد بن أبي بكر ، فقال :

أما بَعْد ، فإنّ الله بَعَثَ محمداً نذيراً للعالمين ، وأميناً على التنزيل ، وشهيداً على هذه الأمّة ؛ وأنتم مَعاشِرَ العرب يومئذ على شرّ دين ، وفي شرّ دار ، مُنيخون على حجارة خُشْن ، وحيّات صُمّ ، وشَوْكٍ مَبْثُوث في البلاد ، تَشْرَبُونَ الماءَ الخبيث ، وتأكلونَ الطَعامَ الخبيثَ ؛ تسفِكُونَ دِماءَكُمْ ، وتقتلونَ أولادَكُمْ ، وتقْطَعُونَ أرحامَكُمْ ؛ وتأكلُونَ أموالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطِلِ . سُبُلُكُم خائفة ، والأصنامُ فيكم منصوبة ، ولا يؤمِنُ أكثرُهُمْ باللهِ إلّا وهمْ مُشرِكُونَ .

فمنّ اللهُ — عزّ وجلّ — عليكم بمحمد ، فبَعَثَهُ إليكُمْ رَسُولاً مِنْ أنفُسِكُمْ ، فعلَّمَكُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ ، وَالفرائِضَ وَالسُّنَنَ ، وأمَرَكُمْ بِصِلةِ أرحامِكُمْ وَحَقْنِ دِمائِكُمْ وصلاحِ ذَاتِ البَيْنِ ، وأنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلَى أهْلِهَا ، وَأنْ تُوفُوا بالعَهْدِ ، وَلَا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ، وأنْ تَعاطَفوا وتبارّوا وتَرَاحَموا . ونهاكُمْ عن التَّناهُبِ وَالتَّظَالُمِ وَالتَّحاسُدِ وَالتَّباغِي وَالتَّقاذُفِ ، وعن شُرْبِ الخمرِ وبَخْسِ المِكْيَالِ ، وَنَقْصِ المِيزانِ . وتقدّم إليكم فيما يُتْلَى عليكم : ألاّ تَزْنُوا ولا تُرْبُوا ، ولا تأكُلُوا أموالَ

الْيَتَامَى ظُلْمًا ، وأنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أهلِها ، وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وكلُّ خيرٍ يُدْنِى إلى الجنةِ ، ويُبَاعِدُ عَنِ النَّارِ أمَرَكُمْ بِهِ ، وَكُلُّ شَرٍّ يُدْنِى إلى النارِ وَيُبَاعِدُ عنِ الْجَنَّةِ نَهَاكُمْ عنه .

فلما استكملَ مُدَّته ، توفَّاهُ اللهُ إليْهِ سَعِيداً حميداً، فيالها مُصيبةً خَصَّتِ الأقْرَبِينَ، وعَمَّتِ المسلمِينَ ! ما أُصيبوا قبلها بمثلها ، ولَنْ يُصابُوا بَعْدَهَا أُخْتَها . فلما مضى لسبيله صلى الله عليه وسلّم ، تنازع المسلمون الأمْرَ بَعْدَهُ،فوالله ما كَانَ يُلْقَى فى روعى،ولَا يَخْطُر عَلَى بالى أنَّ العَرَبَ تَعْدِلُ هذا الأمرَ بَعْدَ محمدٍ من أهلِ بيْتِهِ ، وَلَا أنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّى من بعده . فما رَاعَنِى إلَّا انْثِيالُ الناسِ على أبى بكرٍ ، وإجْفَالُهُمْ [1] إليهِ لِيُبَايِعُوهُ ، فأمْسَكْتُ يَدِى ، ورأيتُ أنِّى أحق بمقامِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم فى الناسِ مِمَّنْ تولَّى الأمرَ من بَعْدِهِ ، فلبثْتُ بذلك ماشاء اللهُ حتى رأيتُ راجعةً من الناس رجعتْ عن الإسلام ، يدعونَ إلى مَحْقِ دينِ الله وملة محمد صلى الله عليه ، فخَشِيتُ إن لم أنصر الإسلامَ وأهلَه أن أرى فيه ثَلْمًا وهدمًا يكونُ المصابُ بهما عَلَىَّ أعظم من فوات وِلَايةِ أُمورِكُمْ ، التى إنما هىَ مَتَاعُ أيام قلائل ، ثم يزولُ ما كانَ منها كما يزولُ السرابُ ، وكما يتقشَّعُ السَّحَابُ ، فمشيتُ عندَ ذلكَ إلى أبى بكرٍ فبايعتُهُ ، ونهضتُ فى تلكَ الأحداث ، حتى زَاغَ الباطلُ وَزَهَقَ ، وكانتْ كلمةُ اللهِ هِىَ العُلْيَا ، وَلَوْ كَرِهَ الكافرونَ .

فتولَّى أبو بكر تلك الأمورَ ، فيسَّرَ وسَدَّدَ ، وقارَبَ واقتصدَ ، وصَحِبْتُه مُنَاصِحًا، وأطعتُهُ فيما أطاعَ اللهَ فيهِ جاهداً، وما طمِعْتُ أن لو حَدَثَ به حادث وأنا حىٌّ أن يَرُدَّ إلىَّ الأمرُ الَّذِى نازعتُهُ فيه طَمَعَ مُسْتيقنٍ ، ولا يئستُ منْهُ يأْسَ مَنْ لا يرجوه ، ولولا خاصّة ما كان بيْنَهُ وبين عمر ، لظننتُ أنه لَا يَدْفَعُهَا عنِّى ! فلما احْتُضِر بَعَثَ إلى عُمر فولّاه فسمِعْنَا وأطعنا وناصحنا .

---

(١) أجفل الناس وانجفلوا : أى ذهبوا مسرعين .

وتولّى عمر الأمرَ ، فكانَ مرضيَّ السِّيرة ، ميمونَ النَّقيبة ؛ حتى إذا احتُضِر ، قلت في نفسي : لن يَعدِلَها عَنِّي ؛ ليس يدافعها عني[1] ، فجعلني سادسَ ستة ؛ فما كانوا لولاية أحدٍ منهم أشدَّ كراهة لولايتي عليهم ؛ كانوا يَسْمعونَ عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلّم لِجاج أبي بكر ، وأقول : يامعشرَ قريش ، إنا ـ أهلَ البيت ـ أحقُّ بهذا الأمر منكم ما كانَ فينا مَنْ يقرأ القرآن ، ويعرفُ السُّنّة ، ويدين بدين الحقّ . فخشِيَ القوم ـ إن أنا وَليتُ عليهم ـ ألاَّ يكون لهم من الأمر نصيب ما بَقُوا ، فأجمعوا إجماعاً واحداً ، فصرفُوا الولاية إلى عثمان ، وأخرجوني منها ؛ رجاء أنْ ينالُوها ، ويتداوَلُوها إذ يئسوا أن ينالُوا بها مِنْ قِبَلِي ؛ ثم قالوا : هَلُمَّ فبايعْ وإلا جاهدناك ؛ فبايعت مستكرَهاً ، وصبرت محتسِباً ، فقال قائلُهم : يابنَ أبي طالب ، إنّك على هذا الأمر لحريصٌ ؛ فقلت أنتُم أحرصُ مني وأبعد ؛ أيّنا أحرَصُ ؟ أنا الذى طلبتُ ميراثي وحَقّي الذى جعلني الله ورسوله أوْلَى به ، أم أنتم إذْ تضربُون وَجْهي دُونَه ، وتحولون بيني وبينه ! فبهتوا ، والله لا يهدي القوم الظالمين .

اللهم إني أستعديك على قُرَيْش ، فإنّهم قطعوا رَحِمي ، وأضاعوا إيايَ ، وصغّروا عظيم منزلتي ، وأجمعوا على منازعَتي حقّاً كنت أوْلَى به منهم ، فسلبونيه ثم قالوا : ألا إنَّ في الحقّ أن تأخذه ، وفي الحق أن تمنعه ؛ فاصبر كمداً ، أومت آسِفاً حَنِقاً .

فنظرتُ فإذا ليسَ معي رافد ولا ذابٌ ولا ناصر ولا ساعد إلا أهلُ بيتي ، فضنَنْت بهم عن المنية ، وأغضيتُ على القذى ، وتجرّعت ريقي على الشَّجَى ؛ وصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الغيظ على أمرٍّ من العلقم ، وآلَم للقلب مِنْ حَزِّ الشِّفَار ، حتى إذا نقِمْتم على عثمان أتيتموه فقتلتموه ؛ ثم جئتموني لتبايعوني ، فأبيتُ عليكم ، وأمسكت يدي فنازعتموني ودافعتموني ، وبسطتُم يدي فكففتُها ، ومددتموها فقبضتُها ، وازدحمتم عليّ حتى ظننت أنّ بعضكم قاتل بعضكم أو أنكم قاتِلِيَّ . فقلتم : بايِعْنا لا نجدُ غيرَك ، ولا نرضى إلا بك ، بايعنا

(١) ب : « ليس يدافعني منها » .

لا نفترق ولا نختلف كلمتُنا. فبايعتُكم ودعوتُ الناسَ إلى بيعتي، فمن بايع طوعاً قبلتُه؛ ومن أبى لم أُكرِهْهُ وتركته.

فبايعني فيمَن بايعني طلحةُ والزبير؛ ولو أبيَا ما أكرهتُهما، كما لم أُكرِهْ غيرَهما؛ فما لبثا إلا يسيراً حتى بلغني أنهما خرجا من مكةَ متوجهيْن إلى البصرة؛ في جيش ما منهم رجلٌ إلا قد أعطاني الطاعة، وسمح لي بالبيعة؛ فقدماً على عاملي وخزّان بيت مالي وعلى أهل مصري الذين كلهم على بيعتي وفي طاعتي، فشتّتوا كلمتَهم، وأفسدوا جماعتَهم، ثم وثبوا على شيعتي من المسلمين، فقتلوا طائفةً منهم غدراً، وطائفةً صبْراً[1]. ومنهم طائفة غضبوا لله ولي، فشهَرُوا سيوفَهم وضربوا بها؛ حتى لقُوا الله عزّ وجلّ صادقين؛ فوالله لو لم يصيبُوا منهم إلا رجلاً واحداً متعمّدين لقتله لحلّ لي به قتلُ ذلك الجيش بأسره، فدَعْ ما أنهم قد قتَلُوا من المسلمين أكثرَ من العدّة التي دخلُوا بها عليهم؛ وقد أدالَ الله منهم، فبعداً للقوم الظالمين!

ثم إني نظرتُ في أمر أهل الشام، فإذا أعرابٌ أحزاب وأهلُ طمع جفاة طغاة، يجتمعُون من كلّ أوْب؛ من كان ينبغي أن يؤدَّب وأنْ يولَّى عليه، ويؤخذ على يده؛ ليسوا من الأنصار ولا المهاجرين ولا التّابعين بإحسان. فسِرْتُ إليهم، فدعوتُهم إلى الطاعة والجماعة، فأبوْا إلا شقاقاً وفراقاً، ونهضوا في وجوه المسلمين ينضَحُونهم بالنّبل، ويشْجُرونهم[2] بالرماح؛ فهناك نهدْتُ[3] إليهم بالمسلمين فقاتلتُهم، فلما عضَّهم السلاح، ووجَدُوا ألم الجراح، رفعوا المصاحف يدعونَكم إلى ما فيها؛ فأنبأتكم أنّهمْ ليسوا بأهل دين ولا قرآن، وأنهم رفعوها مكيدةً وخديعةً ووهْناً وضعفاً، فامضوا على حقّكم وقتالكم. فأبيتم عليّ وقلتم: اقبَلْ منهم؛ فإنْ أجابوا إلى ما في الكتاب جامعونا على ما نحن عليه من

(١) صبرا، أي حبسا
(٢) يشجرونهم بالرمح: يطعنونهم.
(٣) نهد للقتال: نهض.

الحقّ، وإنْ أبَوْا كان أعظمَ لحجّتنا عليهم. فقبلتُ منهم، وكففتُ عنهم؛ إذْ وَنيتم وأبيتم ؛ فكان الصُّلح بينكم وبينهم على رجلين ، يُحْيِيان ما أحيا القرآن ، ويُميتان ما أمات القرآن؛ فاختلف رأيُهما ، وتفرّق حكمهما ، ونَبَذا ما في القرآن ، وخالفا ما في الكتاب ؛ فجنّبهما الله السّداد ، ودَلّاهما في الضّلالة ، فانحرفتْ فِرْقَةٌ منّا فتركناهم ما تركونا ؛ حتى إذا عَثَوْا[1] في الأرض يقتلون ويفسدون ، أتيناهم فقلنا : ادْفَعُوا إلينا قَتَلَةَ إخوانِنا ، ثم كتابُ الله بيننا وبينكم . قالوا : كلُّنا قتلهم ؛ وكلُّنا استحلّ دماءهم . وشدّت علينا خيلُهم ورجالُهم ، فصرَعَهم الله مصارعَ الظالمين .

فلما كان ذلك من شأنِهم أمرتُكم أن تمضُوا من فَوْرِكم ذلك إلى عدوّكم ، فقلتم : كلّتْ سيوفُنا ، وَنَفِدَتْ نبالُنا ، ونَصَلَت أسنّة رماحنا ، وعاد أكثرها قِصَدا[2] ، فارجع بنا إلى مصرنا لنستعدّ بأحسن عُدّتنا ، فإذا رجعتَ زِدتَ في مقاتلتنا عدّةَ مَنْ هَلَكَ منّا وفارقنا ؛ فإنّ ذلك أقوى لنا على عدوّنا . فأقبلتُ بكم ، حتى إذا أطللتُم على الكوفة أمرتُكم أن تنزلوا بالنُّخَيلة ، وأن تلزَمُوا معسكرَكم ، وأن تَضُمُّوا قَوَاصيَكم ، وأن توطّنُوا على الجهاد أنفسَكم ، ولا تكثِرُوا زيارة أبنائكم ونسائكم ، فإن أهلَ الحربِ للصابرُوها ، وأهلَ التشمير فيها الذين لا يتقادُون من سَهر ليلهم ولا ظَمَإِ نهارهم ، ولا خَمص بطونهم ، ولا نصَب أبدانهم ، فنزلت طائفةٌ منكم معي معذِرَة ، ودخلت طائفة منكم المِصْرَ عاصية ؛ فلا مَنْ بَقِيَ منكم صَبَرَ وثَبَتَ ، ولا مَنْ دخل المِصْرَ عاد ورَجَعَ ؛ فنظرتُ إلى معسكري، وليس فيه خمسون رجلا ؛ فلما رأيتُ ما أتيتم ، دخلت إليكم فلم أقْدِرْ على أن تخرجوا معي إلى يومنا هذا ، فما تنتظرون ! أما ترَوْن أطرافَكم قد انتُقِصَتْ ، وإلى مصر قد فتحت ، وإلى شيعتي بها قد قتلت ؛ وإلى مسالحكم تُعْرَى ، وإلى بلادكم تُغْزَى ! وأنتم ذَوُو عدد كثير،

---

(١) عثى : أفسد ، مثل عاث .
(٢) القصد : جمع قصدة ؛ وهى القطعة المتكسرة .

وشَوْكة وبأس شديد ؛ فما بالكم ! لله أنتم من أين تؤتون ! وما لكم تُؤفَكُون ! وأنّى تُسْحَرُون !

ولو أنّكم عَزَمْتم وأجمعتم لم تراموا ؛ إلا أنّ القوم تَراجَعُوا وتناشبوا وتناصحوا وأنتم قد وَنَيْتُم وتماشَشْتُمْ وافترقْتُم، ماإن أنتم إن أتمَّ عندى على هذا بسُعَداء[1] ؛ فانتبهوا بأجمعكم، وأجمعوا على حَقِّكم ، وتجرّدوا لحرب عَدُوِّكم ؛ وقد أبدتِ الرّغوةُ عن الصَّريح ، وبَيَّن الصُّبحُ لذى عينين ! إنما تقاتلون الطُّلَقاء ، وأبناء الطُّلَقاء ، وأولى الجفاء ، ومَنْ أسلمَ كرها ! وكان لرسول الله صلى الله عليه أنْف[2] الإسلام كلّه حربا ! أعداء الله والسنّة والقرآن ، وأهل البدَع والأحداث ، ومن كان بوائقه تُتَّقى ، وكان عن الإسلام منحرفا ، أكَلَة الرُّشا ، وعَبَدة الدنيا ! لقد أُنهِيَ إلىّ أنّ ابنَ النابغة لم يبايعْ معاويةَ حتى أعطاه ، وشرط له أن يؤتيَه ماهي أعظم مما في يده من سلطانه ، ألا صَفِرَتْ يدُ هذا البائع دينَه بالدنيا ، وخزيَتْ أمانة هذا المشترى نصرةَ فاسق غادر بأموال المسلمين ؛ وإنّ فيهم مَنْ قد شرب فيكم الخمرَ وجُلِد الحدّ ؛ يُعرَف بالفساد في الدين ، والفعل السّيء ؛ وإنّ فيهم مَنْ لم يُسلم حتى رُضِخ له رَضيخة[3] .

فهؤلاء قادة القوم ؛ ومَنْ تركتُ ذكر مساوئه مِنْ قادتهم مِثْلُ من ذكرت منهم ؛ بل هو شرّ ، ويودّ هؤلاء الذين ذكرت لو وُلُّوا عليكم فأظهروا فيكم الكُفْر والفساد والفجور والتسلُّط بجبريّة، واتبعوا الهوى وحكَموا بغير الحقّ . ولأنتم — عَلَى ما كانَ فيكم مِنْ تواكُلٍ وتخاذُلٍ — خيرٌ منهم وأهدى سبيلا ؛ فيكم العلماء والفقهاء ، والنُّجَباء والحكماء ، وحَمَلة الكتاب والمتهجّدون بالأسحار ، وعُمّار المساجد بتلاوة القرآن ؛ أفلا تسخَطُون وتهتمّون أن ينازعَكم الولايةَ عليكم سفهاؤكم ، والأشرار الأراذل منكم !

---

(١) كذا في ب ، وهي ساقطة من ا ، ج
(٢) أنف كل شيء : أوله .
(٣) الرضيخة : العطية القليلة .

فاسمعوا قولي ، وأطيعوا أمرى ؛ فوالله لئن أطعتمونى لا تغوُون ، وإن عصيتمونى لا ترشُدُون ؛ خُذُوا للحرب أهبّتَها وأعِدُّوا لها عُدّتَها ؛ فقد شبَّتْ نارُها ، وعلا سنانها وتجرّدَ لكم فيها الفاسقون ، كى يعذّبوا عباد الله ، ويطفئُوا نور الله.ألا إنه ليس أولياء الشيطان من أهل الطمع والمكر والجفاء بأوْلَى فى الجدّ فى غيّهم وضلالهم من أهل البرّ والزهادة والإخبات فى حقهم وطاعة ربّهم؛ إنّى والله لو لقيتُهم فرداً وهم ملاء الأرض،ما باليت ولا استوحشت ؛ وإنى مِنْ ضلالتهم الّتى هم فيها ، والهُدَى الذى نحن عليه ، لَعَلَى ثقة وبيِّنة ، ويقين وبصيرة ؛ وإنى إلى لقاء ربّى لمشتاق ، ولحسن ثوابه لمنتظر ؛ ولكنّ أسفاً يعتريني ، وحزنا يخامرُنى ، أن يلىَ أمرَ هذه الأمة سفهاؤها وفجّارها ، فيتخذوا مال الله دُوَلًا ، وعباده خَوَلًا ، والصالحين حرْبًا . وايمُ الله لولا ذلك لما أكثرتُ تأنيبَكم وتحريضَكم،ولتركتُكم إذ وَنيتم وأبيتم حتى ألقاهم بنفسى؛متى حُمّ لى لقاؤهم فوالله إنى لَعَلَى الحقّ ، وإنّى للشهادة لمحِبّ، فانفروا خفافا وثقالا،وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . ولا تثاقلوا إلى الأرض فتقرّوا بالخسف، وتبوءوا بالذلّ ، ويكنْ نصيبُكم الخسران [إنّ][1] أخا الحرب اليقظان،ومَنْ ضعف أوْدى ، ومن ترك الجهاد كان كالمغبون المهين .

اللهم اجْمَعْنا وإياهم على الهُدى ، وزهّدْنا وإياهم فى الدنيا ، واجعل الآخرة خيرا لنا ولهم من الأولى .

* * *

[خبر مقتل محمد بن أبى حذيفة]

قال إبراهيم : وحدثنى محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن المدائنىّ ، أنّ محمد بن أبى حُذَيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، أُصيبَ لما فتح عمرو بن العاص مصر ، فبعث به

(١) تكملة يقتضيها السياق .

إلى معاوية بن أبي سفيان وهو يومئذ بفلسطين ، فحبسه معاوية في سجن له ، فمكث فيه غير كثير ، ثم هرب — وكان ابن خال معاوية — فأرى معاويةُ الناسَ أنه كره انفلاته من السجن ؛ وكان يحب أن ينجوَ ، فقال لأهل الشام : مَنْ يطلبه ؟ فقال رجل من خثعم — يقال له عبيد الله ابن عمرو بن ظلام ، وكان شجاعا وكان عثمانيا : أنا أطلبه ، فخرج في خيل فلحقه بحُوَّارين[1] ، وقد دخل غارٍ هناك ، فجاءت حُمُرٌ فدخلته ، فلما رأت الرجل في الغار فزعت ونفرت ؛ فقال حمّارون كانوا قريبا من الغار : إنّ لهذه الحُمُر لشأنا ، ما نفَّرها من هذا الغار إلا أمر ؛ فذهبوا ينظرون ؛ فإذا هم به ؛ فخرجوا به ؛ فوافاهم عبد الله بن عمرو بن ظلام ؛ فسألهم ووصَفه لهم فقالوا : ها هو هذا ؛ فجاء حتى استخرجه ، وكره أن يصيرَ به إلى معاوية فيخلِّيَ سبيله ، فضرب عنقه. رحمه الله تعالى .

---

(١) حوارين : من قرى حلب ، أو حصن بناحية حمص (مراصد الاطلاع) .

(٦٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فى ذم أصحابه :

كَمْ أُدَارِيكُمْ كَمَا تُدَارَى الْبِكَارُ الْعَمِدَةُ ، وَالثِّيَابُ الْمُتَدَاعِيَةُ ! كُلَّمَا حِيصَتْ مِنْ جَانِبٍ تَهَتَّكَتْ مِنْ آخَرَ ، كُلَّمَا أَطَلَّ عَلَيْكُمْ مَنْسِرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ ، وَانْجَحَرَ انْجِحَارَ الضَّبَّةِ فِي جُحْرِهَا ، وَالضَّبُعِ فِي وِجَارِهَا .

الذَّلِيلُ وَاللهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ ، وَمَنْ رُمِيَ بِكُمْ فَقَدْ رُمِيَ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ .

إِنَّكُمْ وَاللهِ لَكَثِيرٌ فِي الْبَاحَاتِ ، قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّايَاتِ ، وَإِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ ، وَيُقِيمُ أَوَدَكُمْ ، وَلٰكِنِّي وَاللهِ لَا أَرَى إِصْلَاحَكُمْ بِإِفْسَادِ نَفْسِي .

أَضْرَعَ اللهُ خُدُودَكُمْ ، وَأَتْعَسَ جُدُودَكُمْ ! لَا تَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَعْرِفَتِكُمُ الْبَاطِلَ ، وَلَا تُبْطِلُونَ الْبَاطِلَ كَإِبْطَالِكُمُ الْحَقَّ .

* * *

الشرح :

البِكَار : جمع بَكْر ، وهو الفتىُّ من الإبل . والعَمِدة : التى قد انشدَخَتْ أَسْنِمَتها من داخل وظاهرها صحيح ؛ وذلك لكثرة ركوبها .

والثياب المتداعية : الأسمال التى قد أخلقت ؛ وإنما سمِّيت متداعية ، لأن بعضها يتخرّق فيدعو بعضَها إلى مثل حاله .

وحِيصت : خيطت ، والحَوْص : الخياطة . وتهتّكت : تخرّقت .

وأطلّ عليكم ، أى أشرف ، وروى : « أظلّ » بالظاء المعجمة ، والمعنى واحد .

ومَنْسر : قطعة من الجيش تمرّ قدام الجيش الكثير ، والأفصح « مِنْسَر » بكسر الميم وفتح السين ، ويجوز « مَنْسِر » بفتح الميم وكسر السين .

وانجحر : استتر فى بيته ، أجحرتُ الضبّ ، إذا ألجأته إلى جُحْره فانجحر .

والضبُعة : أنثى الضِّباع ، وإنما أوقع التشبيه على الضبُعة مبالغة فى وصفهم بالجبن والفرار ؛ لأن الأنثى أجبنُ وأذل من الذكر . والوجار : بيت الضبع .

والسهم الأفوق : الناصل المكسور الفُوق ، المنزوع النصل ، والفُوق : موضع الوتَر من السهم ؛ يقال نَصَل السّهم إذا خرج منه النَّصْل فهو ناصل ؛ وهذا مثل يضرب لمن استنجد بمن لا ينجده .

والباحات : جمع باحة ، وهى ساحة الدار ، والأَوَد : العوج ، أود الشىء بكسر الواو يأوَد أَوَدا ، أى اعوجّ ، وتأوّد ، أى تموج . وأضرع الله خدودكم : أذلّ وجوهكم . ضَرَع الرجل ذلّ وأضرعه غيره ، ومنه المثل : « الحمّى أضرعته لك »[1] .

وأتعسَ جدودكم ، أى أحال حظوظكم وسعودكم وأهلكها فجعلها إدباراً ونحسا . والتَّعْس : الهلاك . وأصله الكبّ ؛ وهو ضد الانتعاش . تَعَس الرجل ، بفتح العين يعْس تَعْسا . يقول : كم أداريكم كما يدارى راكب البعير بعيرَه المنفضخ السنام ، وكما يدارى لابس الثوب السَّمَل ثوبَهُ المتداعى ، الذى كلّما خيط منه جانب تمزّق جانب .

ثم ذكر خُبْثَهم وذلّهم ، وقلّة انتصار مَنْ ينتصر بهم ، وأنّهم كثير فى الصورة ، قليل فى المعنى . ثم قال : إنى عالم بما يصلحكم ؛ يقول : إنما يصلحكم فى السياسة السيفُ ؛ وَصَدَق ! فإن كثيراً لا يصلُح إلا عليه . كما فعل الحجّاج بالجيش الذى تقاعد بالمهلّب ،

(١) الميدانى ١ : ٢٠٥ ، يضرب فى الذل عند الحاجة تنزل .

فإنه نادى مناديه : مَنْ وجدناه بعد ثالثة لم يلتحق بالمهلَّب فقد حلّ لنا دمه ؛ ثم قتَل عُمير بن ضابئ وغيره ؛ فخرج الناس يُهْرَعون إلى المهلَّب .

وأميرُ المؤمنين لم يكُنْ ليستحلَّ من دماء أصحابه ما يستحلّه مَنْ يريد الدنيا وسياسة الملك وانتظام الدولة ، قال عليه السلام : « لكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسى » ، أى بإفساد دينى عند الله تعالى .

فإن قلت : أليستْ نُصرة الإمام واجبةً عليهم ؟ فلم لا يقتلهم إذ أخلُّوا بهذا الواجب ؟

قلت : ليس كلّ إخلال بواجب يكون عقوبته القتل ، كمن أخلّ بالحج . وأيضا فإنّه كان يعلم أن عاقبةَ القتل فساد عليه واضطرابهم ؛ فلو أسرع في قتلهم لشَمَسُوا عليه شغبا يُفْضِى إلى أن يقتلوه ويقتلوا أولادَه ، أو يسلموه ويسلموهم إلى معاوية ؛ ومتى علم هذا أو غلب على ظنّه لم يَجُزْ له أن يسوسَهم بالقتل الذى يُفضى إلى هذه المفسدة ، فلو ساسَهم بالقتل والحال هذه ؛ لكان آثماً عند الله تعالى ، ومواقعاً لقبيح ؛ وفى ذلك إفساد دينه كما قال : « لا تعرفون الحق كمعرفتكم الباطل ... » إلى آخر الفصل ؛ فكأنه قال : لا تعتقدون الصواب والحقّ كما تعتقدون الخطأ والباطل ؛ أى اعتقادكم الحقّ قليل ، واعتقادكم الباطل كثير ؛ فعبّر عن الاعتقاد العام بالمعرفة الخاصة ؛ وهى نوع تحت جنسه مجازا .

ثم قال : ولا تسرعون فى نقض الباطل سرعتكم فى نقض الحقّ وهدمه .

* * *

[طائفة من الأشعار الواردة فى ذمّ الجبن]

واعلم أن الهجاء بالجبن والذل الفرَق كثير جدا ، ونظير قوله : « إنكم لكثير فى الباحات ، قليل تحت الرايات » قول معدان الطائى :

فأمّا الّذِى يُحْصِيهِمُ فَمُكَثِّرٌ ... وَأمّا الّذِى يُطْرِيهِمُ فمُقلِّلُ[1]

---

(١) ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ٣ : ١٤٦٣

ونحو قول قراد بن حَنَش ، وهو من شعر الحماسة [١] :

وأنتم سماء يُعْجِبُ النَّاسَ رِزُّها ۞ بآبدةٍ تُنْحِي شَدِيدٍ وَئِيدُها [٢]

تُقَطِّع أطنابَ البيوتِ بحاصبٍ ۞ وأكذبُ شيء بَرْقُها ورُعُودُها [٣]

فَوَيْلُمِّها خيلاً بهاء وشارةً ۞ إذا لاقت الأعداء لولا صدُودُها !

ومن شعر الحماسة فى هذا المعنى :

لَقَدْ كَانَ فِيكُمْ لَوْ وَفَيْتُمْ بجارِكُمْ ۞ لِحًى وَرِقَابٌ عَرْدَةٌ وَمَنَاخِرُ [٤]

من الصُّهْبِ أثناء وجُذْعًا كأنَّها ۞ عذارَى عليها شارةٌ وَمَعَاجِرُ [٥]

ومن الهجاء بالجبن والفرار ، قولُ بعض بنى طيّئ يهجو حاتمًا ، وهو من شعر الحماسة أيضًا [٦] :

لعمرى وَمَا عَمْرِى علىَّ بهيِّن ۞ لَبِئْسَ الفتى للدعْوِ بالليل حاتِمُ

غداة أتى كالثَّوْرِ أُحْرِجَ فاتّقى ۞ بجبهته أقتالَه وهو قائمُ [٧]

كأنْ بصحراء المُرَيْطِ نعامةً ۞ تبادِرُها جنحَ الظلام نعائِمُ

أعارَتْكَ رِجْلَيْهَا وهَافِى لُبِّهَا ۞ وقد جُرِّدَتْ بيضُ المُتُونِ صوارمُ

---

(١) ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ٣ : ١٤٣١ ؛ من أبيات أربعة أولها :

تَقَوَّمِى أَرْعَى لِلْعُلَا مِنْ عِصَابَةٍ ۞ من الناسِ ياحارِ بنَ عَمْرٍو تَسُودُها

(٢) رزها : صوتها ، أى صوت رعدها . والآبدة : الغريبة . وتنحى : تقصد .

(٣) الحاصب : الريح تجىء بالحصباء .

(٤) من أبيات لمنصور بن مسجاح الضبى؛ حماسة أبى تمام — بشرح التبريزى ٤ : ٢٥ . عردة: غلاظ.

(٥) يريد من الإبل الصهب ، والصهبة : حمرة يعلوها بياض. وأثناء : جمع ثنى ؛ وهو من الإبل ما يلقى ثنيته ؛ وذلك فى السنة الثالثة والجذع : جمع جذع ؛ وهو ما قبل الثنى . والمعجر : ثوب أصغر من الرداء تلبسه المرأة . وفى التبريزى : « ومعاصر »

(٦) ليزيد بن قنافة . ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ٣ : ١٤٦٤

(٧) غداة أتى كالثور؛ يعنى حاتما ، وأحرج: ضيق عليه وأخرج من عادته، والأقتال: الأقران والأعداء ، واحده قتل

ونظير للمعنى الأول أيضاً قول بعضهم من شعر الحماسة :

كاثِرْ بسعدٍ إن سعداً كثيرةٌ ... ولا ترجُ من سعدٍ وفاء ولا نصرا[(1)]

يروعك من سعدِ بن عمرٍو جُسُومُها ... وتزهد فيها حين تقتلها خُبْرا

ومنه قول هُرَيف القوافي :

وما أُمُّكم تحت الخوافق والقنا ... بثكلى ولا زهراء من نسوة زُهْرِ[(2)]

ألستم أقلَّ الناس عند لوائهم ... وأكثرهم عند الذّبيحة والقِدْرِ

وممن حسّن الجبن والفرار بعضُ الشعراء فى قوله :

أضحت تشجّعنى هندٌ وقد علمت ... أنّ الشجاعة مقرونٌ بها العَطَبُ[(3)]

لا والذى حجّت الأنصارُ كعبتَه ... ما يشتهى الموتَ عندى من له أرَبُ

للحرب قومٌ أضلّ الله سعيَهمُ ... إذا دعتهم إلى حوماتها وثبوا

ولستُ منهم ولا أهوى فعالهمُ ... لا القتلُ يعجبنى منها ولا السَّلَبُ

ومن هذا قول أيمن بن خُرَيم الأسدى :

إنّ للفتنة هيطاً بيّناً ... فرويد المَيْطِ منها يعتدِلْ[(4)]

فإذا كان عطاءٌ فابتدِرْ ... وإذا كان قتالٌ فاعتزلْ

إنما يُسْعِرُها جُهَّالُها ... حطب النار فدعْها تشتعلْ

وممن عرف بالجبن أميّة بن عبد الله بن خالد بن أَسِيد ، عيّره عبد الملك بن مروان فقال :

---

(1) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ٤ : ٩١ ، من غير نسبة ، وبعده :

ولا تدعُ سعداً للقراع وخلّها ... إذا أمنت ونبّها البلد القفرا

(2) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ٤ : ٩٩

(3) عيون الأخبار ٤ : ١٦٤ ، من غير نسبة ، العقد ١ : ١٦٦

(4) عيون الأخبار ١ : ١٦٤ ، العقد ١ : ١٦٧ ، والهيط : الصخب والشدة

إذا صَوّتَ العصفورُ طار فؤادُه ... وليثٌ حديد الناب عند الثرائدِ[1]

وقال آخر :

يطيرُ فؤادُه مِنْ نَشْحِ كَلْبٍ ... ويكفيه من الزّجر الصفيرُ

وقال آخر :

ولو انها عصفورة لحسبْتَها ... مُسَوّمَةً تدعو عَبيدا وأزْنَما[2]

* * *

[أخبار الجبناء وذكر نوادرهم]

ومن أخبار الجبناء مارواه ابن قتيبة فى كتاب " عيون الأخبار " قال : رأى عمرَ ابن العاص معاوية يوماً فَضحِك ، وقال: مِمَّ تضحكُ يا أمير المؤمنين ، أضحكَ الله سنّك ! قال: أضحكُ من حُضُورِ ذهنك عند إبدائك سوءتك يوم ابن أبى طالب ؛ والله لقد وجدتَه مَنّاناً [كريماً][3] ولو شاء أن يقتلكَ لقتلك . فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، أما والله إنّى لعن يمينك حين دعاك إلى البراز فاحولّتْ عيناك ، وانتفخ سَحْرُك ، وبدا منك ما أكره ذكْرَه لك ؛ فمِن نفسك فاضحك أو فدَعْ[4] .

* * *

قال ابن قتيبة : وقدم الحجاجُ على الوليد بن عبد الملك ، وعليه دِرْعٌ وعمامة سوداء وقوسٌ عربية وكنانة ، فبعثت أمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان إلى الوليد — وهى تحته يومئذ : مَنْ هـذا الأعرابىّ المستلئم فى السلاح عندك على خلوة ، وأنت فى غُلالة ؟

---

(١) عيون الأخبار ١ : ١٦٦ ، العقد ١ : ١٦٨/

٢) هو العوام بن شوذب الشيبانى ، عيون الأخبار ١ : ١٦٦ والبيت من شواهد المغنى ٢ : ١٩٦

(٣) من عيون الأخبار .

(٤) عيون الأخبار ٤ : ١٦٩

فأرسلَ إليها الوليد : إنه الحجّاج ، فأعادت عليه الرسول : والله لأن يخلوَ بك مَلَكُ الموت أحبُّ إليّ من أن يخلوَ بك الحجاج ! فضحك وأخبر الحجاج قولها وهو يمازحه ، فقال الحجاج : يا أمير المؤمنين ، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة رَيْحانة وليست بقَهْرمانة ؛ فلا تطلعْها على سرِّك ، ومكايدة عدوّك .

فلما انصرف الحجاج ودخل الوليد على امرأته أخبرها بمقالة الحجاج ، فقالت : يا أميرَ المؤمنين ، حاجتي إليك اليوم أن تأمره غدا أن يأتيني مسلِّمًا ، ففعل ذلك ، وأتاها الحجاج فحجَبَتْه ثم أدخلته ، ولم تأذن له في القُعود ، فلم يزل قائمًا ، ثم قالت : إيهٍ يا حجاجُ ! أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقتلك ابنَ الزبير وابن الأشعث ! أما والله لولا أنّ الله عَلِمَ أنّك شرُّ خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة الحرام ، ولا بقتل ابن ذات النِّطاقين أول مولود في الإسلام ؛ وأما نهيُك أميرَ المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ لذّاته وأوطاره ؛ فإنْ كنّ ينفرجن عن مثلك فما أحقّه بالقبول منك ، وإن كنّ ينفرجْنَ عن مثله ، فهو غير قابل لقولك . أما والله لو نفض نساءُ أمير المؤمنين الطيبَ من غدائرهنّ فبعنَه في أعطية أهل الشام حين كنت في أضيَق من القرن ، قد أظلتك الرّماح ، وأثخنك الكفاح ؛ وحين كان أمير المؤمنين أحبّ إليهم من آبائهم وأبنائهم ؛ فأنجاك الله من عدوّ أمير المؤمنين بحبّهم إياه ؛ قاتل الله القائل حين ينظر إليك وسنان غزالة [1] بين كتفيك :

أسدٌ عليّ وفي الحروبِ نعامةٌ   رَبْدَاء تنفِر من صَفيرِ الصَّافِرِ
هلا برزتَ إلى غزالة في الوغى   أم كان قلبك في جَنَاحَيْ طائرِ !

ثم قالت لجواريها : أخرجْنَه ، فأخرج [2] :

• • •

---

(١) غزالة : امرأة شبيب الخارجي
(٢) عيون الأخبار ١ : ١٦٩ ، ١٧٠

ومن طريف حكايات الجبناء ماذكره ابن قتيبة أيضاً فى الكتاب المذكور ؛ قال كان بالبصرة شيخٌ من بنى نَهْشل بن دارم ، يقال له عروة بن مرثد ، ويكنى أبا الأعزّ ، ينزل فى بنى أخت له من الأزْد فى سكة بنى مازن ، فخرج رجالهم إلى ضياعهم فى شهر رمضان ، وخرج النساء يصلّين فى مسجدهم ، ولم يبق فى الدار إلا إماء ، فدخل كلب يعتس ، فرأى بيتاً مفتوحاً فدخله ، وانصفق الباب عليه ، فسمع بعضُ الإماء الحركة ، فظنوا أنه لصّ دخل الدار ، فذهبت إحداهنّ إلى أبى الأعزّ ، فأخبرته ، فقال أبو الأعزّ : مَلأم يبتغى اللصّ عندنا ! وأخذ عصاه ، وجاء حتى وقف بباب البيت ، وقال : إيه يافلان ! أما والله إنى بك لعارف ، فهل أنت من لصوص بنى مازن ! شربت حامضاً خبيثاً ، حتى إذا دارت فى رأسك منتك نفسُك الأمانىّ ، وقلت : أطرق دور بنى عمرو ، والرجال خلوف ، والنساء يصلّين فى مسجدهنّ ، فأسرقهم ! سوءةً لك ! والله مايفعل هـذا ولد الأحرار ! وايمُ الله لتخرجنّ أو لأهتفنّ هتفةً مشئومة يلتقى فيها الحيّان : عمرو وحنظلة ، وتجىء سعد عدد الحصى ، وتَسيل عليك الرّجال ، من هنا وهنا ، ولئن فعلتُ لتكوننّ أشأمَ مولود !

فلما رأى أنه لا يجيبُه ، أخذه باللين، فقال : اخرج ـ بأبى أنت ـ مستوراً ، والله ماأراك تعرفنى ، ولو عرفتنى لقنعت بقولى ، واطمأننت إلىّ ابن أخت البازّ الوَصول ، أنا ـ فديتك ـ أبو الأعزّ النهشلىّ ! وأنا خال القوم ، وجِلْدة بين أعينهم ! لا يعصوننى ، ولا تضارّنّ الليلة وأنت فى ذمتى ، وعندى قَوْصَرّتان[1] ، أهداها إلىّ ابنُ أختى البارّ الوصول ، فخذ إحداها ، فانتبذها حلالاً من الله ورسوله .

وكان الـكلب إذا سمع الكلام أطرق ، وإذا سكت أبو الأعزّ وثب يريد المخرج ، فتهاتف[2] أبو الأعزّ ، ثم تضاحك ، وقال : ياألأم الناس وأوضعهم ! ألا أرانى لك منذ الليلة

(١) القوصرة : قفف ومتقل : وعاء يرفع فيه التمر من البوارى . (٢) التهاتف : الضحك والاستهزاء

فى وادٍ وأنت لى فى وادٍ آخر ، أقبلت السوداء والبيضاء ، فتصيح وتطرق ؛ فإذا سكتّ عنك وثبتّ تريد الخروج ! والله لتخرجنّ أو لأُلحنّ عليك البيت .

فلما طال وقوفه جاءت إحدى الإماء ، فقلت : أعرابىٌّ مجنون والله ، ما أرى فى البيت شيئاً ، فدفعت الباب فخرج الكلب شاردا ، وحاد عنه أبو الأغرّ ساقطا على قفاه ، شائلة رجلاه ؛ وقال : تالله ما رأيت كالليلة هذه ! ما أراه إلا كلبا ، ولو علمت بحاله لولجت عليه[1]

ونظير هذه الحكاية حكاية أبى حيّة النميرىّ ، وكان جبانا ، قيل : كان لأبى حيّة سيفٌ ليس بينه وبين الخشب فرق ، كان يسميه لُعاب المنيّة ، فحكى عنه بعض جيرانه أنه قال : أشرفتُ عليه ليلة ، وقد انتضاه وهو واقفٌ بباب بيت فى داره ، وقد سمع فيه حِسّاً ، وهو يقول : أيها المغترّ بنا ، المجترئ علينا ، بئس والله ما اخترتَ لنفسك ! خيرٌ قليلٌ وسيف صقيل ؛ لعاب المنيّة الذى سمعتَ به ، مشهورة صولته ، ولا تخاف نبوته . اخرج بالعفو عنك ؛ لا أدخل بالعقوبة عليك ؛ إنى والله إن أدعُ قيسا تملأ الفضاء عليك خيلا ورجلا . سبحان الله ! ما أكثرها وأطيبها ! والله ما أنت ببعيد من تابعها ، والرسوب فى تيار لجتها !

قال : وهبت ريحٌ ففتحت الباب ؛ فخرج كلب يشتدّ ، فلبط بأبى حية واربدّ ، وشغر برجليه ، وتبادرت إليه نساء الحى ، فقلن : يا أبا حيّة ، لفرخ روعك ؛ إنما هو كلب ؛ فجلس وهو : يقول الحمد لله الذى مسخك كلبا ، وكفانى حربا[2] !

* * *

وخرج مغيرة بن سعيد العِجْلىّ فى ثلاثين رجلا بظهر الكوفة ، فطعطعوا[3] ، وخالد بن عبد الله القسرىّ أمير العراق ، يخطب على المنبر فعرق ، واضطرب وتحيّر ، وجعل يقول : اطعمونى ماء ، فهجاه ابن نوفل فقال :

(١) عيون الأخبار ١ : ١٦٨ ، ١٦٩ .
(٢) عيون الأخبار ١ : ١٦٨
(٣) الطعطعة : تتابع الأصوات واختلاطها .

أخالدُ لاجزاكَ اللهُ خيراً ... وأيرى فى حِرِ امِّكَ من أميرِ[1]

تروم الفخر فى أعرابِ قَسْرٍ ... كأنك من سَراةِ بنى جَرِيرِ

جرير من ذوى يمَنٍ أصيلٌ ... كريم الأصل ذُو خَطَرٍ كبيرِ

وأمُّك عِلْجَةٌ وأبوك وغْدٌ ... وما الأذناب عَدْلٌ للصدورِ !

وكنتَ لدَى المغيرة عَبْدَ سَوْءٍ ... تبولُ من المخافة للزئيرِ

لأعلاجٍ ثمانيةٍ وشَيْخٍ ... كبير السنّ ليس بذى ضَرِيرِ[2]

صرخت من المخافة : أطعِمُونى ... شراباً ثمّ بُلْتَ على السريرِ

وقال آخر يعيره بذلك :

بَلّ السَّرِيرَ من خوف ومن دَهَشٍ ... واستطعم الماء لما حدّ فى الهرَبِ[3]

ومن كلام ابن المقفع فى ذم الجبن : الجبن مقتلة ، والحرص محرَمة ! فانظر فيما رأيت وسمعت : مَنْ قُتِل فى الحرب مقبلاً أكثر أم مَنْ قتل مدبرا ! وانظر مَنْ يطلب إليك بالإجمال والتكرّم أحقّ أن تَسخوَ نفسُك له بالعطية ، أم من يطلب ذلك بالشَّرَهِ والحرص !

---

(١) من أبيات وردت متفرقة فى البيان والتبيين ٣ : ٢٦٧ / ٤ : ٢٠٥ ، والحيوان ٢ : ٢٦٧ / ٤ : ٢٢٢ / ٧ : ٢٠

(٢) أورد المرزبانى هذا البيت فى الموشح ٢٢٥ ، وعده شاهداً على ماق الشعر من التناقض ، قال : فلفظة « ضرير » إنما تستعمل — وهى تصريف من الضرر — فى الأكثر الذى لا بصر له ، وقول هذا الشاعر فى هذا الشيخ : إنه ذو بصر وأنه ضرير تناقض من جهة اللغة والعدم ؛ وذلك أنه كأنه يقول : إن له بصراً ولا بصر له ؛ فهو بصير أعمى .

(٣) البيت أيضاً ليحيى بن نوفل ، ذكره الجاحظ فى البيان ١ : ١٢٢ ، وأورد بعده :

وَأَلْحَنُ النّاسِ كلُّ النّاسِ قاطبةً ... وكانَ يُولَعُ بالتّشْدِيقِ فى الخُطَبِ

(٦٩)

الأصل :

وقال عليه السلام فى سحرة اليوم الذى ضرب فيه :

مَلَكَتْنِي عَيْنِي وَأَنَا جَالِسٌ ، فَسَنَحَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ! مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْأَوَدِ وَاللَّدَدِ ! فَقَالَ : ادْعُ عَلَيْهِمْ ، فَقُلْتُ : أَبْدَلَنِي اللهُ بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَأَبْدَلَهُمْ بِي شَرًّا لَهُمْ مِنِّي .

قال الرضىّ رحمه الله :

يعنى بالأَوَد الاعوجاج ، وباللَّدَد الخصام ، وهذا من أفصح الكلام .

* * *

الشرح :

قوله : « ملكتنى عينى » من فصيح الكلام ، يريد غلبنى النوم .

قوله : « فسنح لى رسول الله صلى الله عليه وآله » ، يريد مرّ بى كما تسنحُ الظّباء والطير يمرّ بك ، ويعترض لك .

وذا هاهنا بمعنى « الذى » كقوله تعالى : ﴿ مَاذَا تَرَى ﴾[1] ؛ أى ما الذى ترى ، يقول : قلت له : ما الذى لقيتُ من أمتك ! وما هاهنا استفهامية كأىّ ، ويقال ذلك فيما يستعظم أمره ، كقوله سبحانه : ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ ﴾[2] . و « شرًّا » هاهنا لا يدلّ على أنّ فيه شرًّا ، كقوله : ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ﴾[3] لا يدلّ على أنّ فى النار خيراً .

(١) سورة الصافات ١٠٢ . (٢) سورة القارعة ١ ، ٢ . (٣) سورة الفرقان ١٥ .

[خبر مقتل الإمام علىّ كرم الله وجهه]

ويجب أن نذكر فى هذا الموضع مقتله عليه السلام،وأصحّ ماورد فى ذلك ماذكره أبو الفرج على بن الحسين الأصفهانىّ فى كتاب " مقاتل الطالبيين " [1] .

قال أبو الفرج علىّ بن الحسين ـ بعدَ أسانيد ذكرها مختلفة متفرّقة،تجتمع على معنى واحد نحن ذاكروه : إنّ نفراً من الخوارج اجتمعوا بمكّة فتذاكروا أمرَ المسلمين،فعابوهم وعابوا أعمالهم عليهم،وذكروا أهل النّهروان ، فترحّموا عليهم،وقال بعضهم لبعض : لو أنّا شَرَيْنا أنفسنا للهِ عزّ وجلّ فأتينا أئمة الضّلال، وطلبنا غِرَّتَهم،وأرحْنامنهم العباد والبلاد ، وثأرنا بإخواننا الشُّهداء بالنهروان !

فتعاقدوا عند انقضاء الحجّ ، فقال عبد الرحمن بن ملجَم : أنا أكفيكُمْ عليًّا،وقال واحد:أنا أكفيكم معاوية،وقال الثالث:أنا أكفيكم عمرو بن العاص،فتعاقدوا وتواثقوا على الوفاء ، وألّا ينكل أحد منهم عن صاحبه الذى يتوجّه إليه ولا عن قتله ، واتّعدوا لشَهْر رمضان ، فى الليلة التى قتل فيها ابنُ ملجم عليًّا .

قال أبو الفرج : قال أبو مخنف:قال أبو زهير العبسىّ: الرجلان الآخران البُرَك بن عبدالله التميمىّ،وهو صاحب معاوية، وعمرو بن بكر التّميمىّ،وهو صاحب عمرو بن العاص.

قال : فأما صاحبُ معاوية فإنّه قصده ، فلما وقعت عينهُ عليه ضربه ، فوقعت ضربته على أليته ، وأخِذ فجاء الطبيب إليه؛ فنظر إلى الضربة فقال:إنّ السيفَ مسموم؛فاختر إمّا أن أُحمِيَ لك حديدةً فأجعلَها فى الضربة [ضبراً] [2] ، وإما أن أسقِيَك دواء فتبرأ وينقطع نسلُك.فقال:أمّا النار فلا أطيقُها،وأما النسل ففى يزيد وعبدالله ماتقرّ عينى،وحسبى بهما. فسقاه الدواء فعوفى وعالج جُرحَه حتى التأم ، ولم يولدْ له بعد ذلك .

(١) مقاتل الطالبيين ص ٢٩ وما بعدها . (٢) من مقاتل الطالبيين .

وقال له البُرَك بن عبدالله : إنّ لك عندى بشارةً ؛ قال : وماهى ؟ فأخبره خبرَ صاحبه؛ وقال له: إنّ عليا قُتل فى هذه الليلة فاحتبسْنى عندك،فإن قتل فأنت ولىّ ماتراه فى أمرى، وإن لم يقتَل أعطيتك العهود والمواثيق أنْ أمضىَ إليه فأقتله ، ثم أعود إليك فأضع يدى فى يدك ، حتى تحكم فىّ بما ترى. فحبسه عنده ، فلما أتى الخبرُ أنّ عليا قُتل فى تلك الليلة خلّى سبيله .

هذه رواية إسماعيل بن راشد . وقال غيره من الرواة : بل قتله من وقته .

وأما صاحبُ عمرو بن العاص ، فإنه وافاه فى تلك الليلة ، وقد وجد علّة فأخذ دواء، واستخلَف رجلاً يصلّى بالناس،يقال له خارجة بن أبى حبيبة،أحد بنى عامر بن لؤىّ ، فخرج للصلاة،فشدّ عمرو بن بكر فضربه بالسيف فأثبته[1] ؛ وأُخِذَ الرجل،فأُتِىَ به عمرو بن العاص فقتله،ودخل من غد إلى خارجة وهو يجودُ بنفسه؛فقال:أما والله ياأبا عبدالله ما أراد غيرك. قال عمرو : ولـكنّ الله أراد خارجة .

وأما ابن مُلْجَم فإنه قتَل عليًّا تلك الليلة .

قال أبو الفرج : وحدثنى محمد بن الحسين الأشنانداني وغيره،قال : أخبرنى علىّ بن المنذر الطريقىّ ، قال: حدثنا ابنُ فُضيل ، قال : حدثنا فِطْر[2]، عن أبى الطُّفَيل،قال: جمع علىّ عليه السلام الناسَ للبيعة ، فجاء عبدالرحمن بن ملجَم فردّه علىّ مرتين أو ثلاثا ، ثم مد يدَه فبايعه،فقال له علىّ:مايحبس أشقاها ! فوالذى نفسى بيده لتخضِبَنّ هذه من هذه، ثم أنشد :

أشْدُدْ حيازيمك للموْ ... ت فإنّ الموت لاقيكا

ولا تجزع من الموْ ... ت إذا حلّ بواديكا

قال أبو الفرج :

---

(١) أثبته : أى جرحه .

(٢) فى الأصول : « قطن » ، تصحيف ، صوابه من مقاتل الطالبيين ؛ وهو فطر بن خليفة المخزومى، ذكره صاحب التهذيب فيمن روى عن أبى الطفيل عامر بن واثلة .

وقد روى لنا من طرق غير هذه ، أن علياً أعطى الناس ، فلما بلغ ابنَ ملجم أعطاه ، وقال له :

أريــــدُ حياتهُ ويُريدُ قتْلي عذيرَكَ من خليلك من مُرادِ[1]

قال أبو الفرج : وحدّثني أحمد بن عيسى العِجْلي بإسناد ذكره في الكتاب ، إلى أبي زهير العبسي ، قال : كان ابن ملجَم من مُراد وعدادُه في كِندة ، فأقبلَ حتى قدم الكوفة ، فلقي بها أصحابه وكتمهم أمره ، وطوى عنهم ما تعاقد هو وأصحابه عليه بمكة مِنْ قتل أمراء المسلمين مخافة أن ينتشر ، وزار رجلاً من أصحابه ذات يوم من بني تيم الرّباب ، فصادف عنده قَطام بنت الأخضر ، من بني تيم الرّباب — وكان عليّ قتل أخاها وأباها بالنهروان ، وكانت من أجمل نساء أهل زمانها — فما رآها شُغِف بها ، واشتدّ إعجابه فخطبها ، فقالت له : ما الذي تُسَمّي لي من الصداق ؟ فقال : احتكمي مابدَا لك ، فقالت : أحتكم عليك ثلاثة آلاف درهم ووصيفا وخادما ، وأن تقتلَ عليّ بن أبي طالب . فقال لها : لك جميعُ ما سألتِ ، وأما قتلُ عليّ فأنى لي بذلك ! قالت : تلتمس غِرّته ، فإن أنت قتلته شفيتَ نفسي ، وهنأك العيش معي ؛ وإن قُتِلْتَ فما عند الله خير لك من الدنيا ، فقال لها : أما والله ما أقدمني هذا المصر ، وقد كنت هاربا منه لآمن أهله ، إلا ما سألتِني من قتل عليّ .

قالت له : فأنا طالبة لك بعض مَنْ يساعدك على هذا ويقوّيك ، ثم بعثت إلى وردان ابن مجالد ، أحد بني تيم الرّباب ، فخبّرته الخبر ، وسألته معاونة ابن مُلْجَم ، فتحمّل لها ذلك ، وخرج ابن مُلْجَم ، فأتى رجلاً من أشجع ، يقال له شَبيب بن بَجْرة ، وقال له : ياشبيب ؛ هل لك في شرف الدنيا والآخرة ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : تساعدُني على قتل عليّ — وكان شبيبٌ على رأي الخوارج — فقال له : هبِلَتك الهَبُول[2] ! لقد جئتَ شيئا إدًا ! وكيف تقدِر ويحك على ذلك ! قال ابن ملجم : نكمن له في المسجد الأعظم ؟

(١) البيت لعمرو بن معديكرب ، اللآلى ١٣٨ ، وروايته هناك : « أريد حباءه » .
(٢) الهبل : الثكل ، والهبول : المرأة الثكول .

فإذا خرج لصلاة الفجر فتكنّا به ، وشفينا أنفسنا منه ، وأدركنا ثأرنا . فلم يزل به حتى أجابه .

فأقبل به حتى دخلا على قَطَام ، وهى معتكفة فى المسجد الأعظم ، قد ضُربت لها قبّة ، فقالا لها : قد أجمع رأينا على قتل هذا الرجل ، قالت لهما : فإذا أردتما ذلك فالقيانى فى هذا الموضع . فانصرفا من عندها ، فلبث أياماً ثم أتياها ، ومعهما وردان بن مجالد ، الذى كلّفته مساعدةَ ابن مُلْجَم ؛ وذلك فى ليلة الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربعين .

قال أبو الفرج : هكذا فى رواية ابن مخنف ، وفى رواية[1] أبى عبد الرحمن السُّلَمىّ أنها كانت ليلة سبع عشرة من شهر رمضان ، فقال لها ابن ملجَم : هذه الليلة هى التى وعدتُ فيها صاحبىّ ووعدانى أن يقتل كلُّ واحد منا صاحبَه الذى يتوجّه إليه .

قال : إنما تواعدُوا بمكّة : عبدُ الرحمن ، والبُرَك ، وعَمْرو ؛ على هذه الليلة ؛ لأنهم يعتقدون أن قتل ولاة الجوْر قُرْبة إلى الله ، وأحْرَى القُرُبات ما تُقُرِّب به فى الأوقات الشريفة المباركة .

ولما كانت ليلة الجمعة التاسعة عشرة من شهر رمضان ليلة شريفة ، يُرجَى أن تكون ليلة القَدْر ، عيّنوها لعمل ما يعتقدونه قُرْبةً إلى الله ؛ فليَعْجَب المتعجّب من العقائد ، كيف تسرى فى القلوب ، وتغلب على العقول ، حتى ترتكب الناسُ عظائمَ الأمور ، وأهوال الخطوب لأجلها !

[2]قال أبو الفرج : فذعت لهم بحرير فعصبتْ به صدورَهم ، وتقلدوا سيوفهم ، ومضوْا فجلسوا مقابل السُّدّة التى كان يخرج منها على عليه السلام إلى الصلاة[2] .

■ ■ ■

---

(١) ا ، ج ومقاتل الطالبيين : « حديث » .

(٢ ـ ٢) ساقط من ب ، وهو فى ا ، ج ومقاتل الطالبيين .

قال أبو الفرج : وقد كان ابن ملجم أتى الأشعث بن قيس فى هذه الليلة ، فخلا به فى بعض نواحى المسجد ، ومرّ بهما حُجْر بن عدىّ ، فسمع الأشعث وهو يقول لابن ملجم: النّجاءَ النّجاءَ بحاجتك ! فقد فضحك الصبح ، قال له حُجْر : قتلته يا أعور ! وخرج مبادراً إلى علىّ[١] ، وقد سبقه ابن ملجم فضربه[٢] ، فأقبل حُجْر والناس يقولون : قُتِل أمير المؤمنين

قال أبو الفرج : وللأشعث بن قيس فى انحرافه عن أمير المؤمنين أخبارٌ يطول شرحها، منها حديثٌ حدّثنيه محمد بن الحسين الأشنانداني ، قال : حدثنى إسماعيل بن موسى : قال : حدثنا علىّ بن مسهر ، عن الأجلح ، عن موسى بن أبى النعمان قال : جاء الأشعثُ إلى علىّ يستأذن عليه ، فردّه قَنْبَر ، فأدْمَى الأشعثُ أنفه ، فخرج علىّ وهو يقول : مالى ولك يا أشعث ! أما والله لو بعبد ثقيف تمرّست لاقشعرت شعيراتك ! قيل : يا أمير المؤمنين ، ومَنْ عبد ثقيف ؟ قال : غلامٌ لهم لا يبقَى أهلَ بيت من العرب إلا أدخلهم ذلاً ، قيل : يا أمير المؤمنين ، كم يَلِي ـ أو كم يمكث ؟ قال : عشرين ، إن بلغها .

قال أبو الفرج : وحدّثنى محمد بن الحسين أيضا بإسناد ذكره ، أنّ الأشعث دخل عَلَى علىّ فكلمه فأغلظ علىّ له ، فعرّض له الأشعث ؛ أنه سيفتك به ، فقال له علىّ : أبالموتِ تخوّفنى أو تهدّدنى ! فوالله ما أبالى وقعتُ عَلَى الموتِ أو وقَعَ الموتُ علىّ !

قال أبو الفرج : قال أبو مخنف : حدّثنى أبى ، عن عبد الله بن محمد الأزدىّ ، قال : إنّى لأصلّى تلك الليلةَ فى المسجد الأعظم مع رجال من أهل المصر ، كانوا يصلّون فى ذلك الشهر من أول الليل إلى آخره ؛ إذ نظرتُ إلى رجال يصلّون قريبا من السُّدة قياما وقعوداً، وركوعا وسجودا ، ما يسأمون ؛ إذ خرج عليهم علىّ بن أبى طالب الفجر ، فأقبل ينادى : الصلاة الصلاة ! فرأيتُ بريقَ السيف ، وسمعت قائلاً يقول : الحكم لله ياعلىّ لا لك ،

---

(١) بعدها فى مقاتل الطالبيين : « وأسرج دابته » .
(٢) فى مقاتل الطالبيين : « فضرب علياً » .

ثم رأيت بريقَ سيف آخر ، وسمعت صوتَ عليّ عليه السلام ، يقول : لا يفوتنّكم الرجل.

قال أبو الفرج : فأما بريقُ السيف الأول ، فإنه كان شبيب بن بجرة ضربه فأخطأه ، ووقعت ضربته في الطّاق ، وأما بريق السيف الثاني ، فإنه ابن ملجم ، ضَرَبه فأثبت الضربة في وسط رأسه ، وشدّ الناس عليهما من كلّ ناحية ، حتى أخذوهما[1] .

قال أبو مخنف : فهمْدَان تذكر أنّ رجلا منهم ، يكنى أبا أدماء أخذ ابنَ ملجم . وقال غيرهم : بل أخذَهُ المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب ، طرحَ عليه قطيفة ثم صرَعه ، وأخذ السيف من يده وجاء به .

قال : وأما شبيب بن بجرة فإنه خرج هاربا ، فأخذه رجلٌ فصرَعه ، وجلس على صدره ، [2]وأخذ السيف من يده ليقتله ، فرأى الناسَ يقصدون نحوه ، فخشيَ أن يعجلوا عليه ، فوثب عن صدره[2] ، وخلاه وطرح السيف عن يده ؛ وأما شبيب بن بجرة ففاته ، فخرج هاربا حتى دخلَ منزله ، فدخل عليه ابنُ عمٍّ له ، [3]فرآه يَحلّ الحرير عن صدره ، فقال له[3] : ماهذا ؟ لعلّك قتلت أمير المؤمنين ؟ فأراد أن يقول: لا ، فقال : نعم ، فمضى ابنُ عمه فاشتمل على سيفه ثم دخل عليه فضربه حتى قتله .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبي ، عن عبد الله بن محمد الأزديّ ، قال : أُدخِلَ ابنُ ملجم على عليّ عليه السلام ، ودخلتُ عليه فيمن دخَل ، فسمعت عليا يقول : النّفْس بالنفس ؛ إن أنا مِتّ فاقتلوه كما قتلني ، وإن سَلِمْتُ رأيت فيه رأيي ؛ فقال ابن ملجم : ولقد اشتريتُه بألفٍ ـ يعني السيف ـ ، وسَمَمْتُه بألف ، فإن خانني فأبعده الله ! قال : فنادته أمّ كلثوم : ياعدوّ الله ، قتلتَ أمير المؤمنين ! قال : إنما قتلت أباك ، قالت : ياعدوّ الله ! إني لأرجُو

---

(١) مقاتل الطالبيين : « عليه من كل ناحية حتى أخذوه » .
(٢ ـ ٢) ساقط من ا ، ج ، وهو في مقاتل الطالبيين .
(٣ ـ ٣) ساقط من ا ، ب ، وهو في مقاتل الطالبيين .

ألا يكونَ عليه بأس ، قال : فأراك إنما تبكين عليَّ إذاً والله لقد ضربتُه ضربة لو قسِمَت بين أهل الأرض لأهلكتهم .

قال أبو الفرج : وأخرج ابن ملجم من بين يديه ، وهو يقول[1] :

نحنُ ضَرَبْنا يا بنةَ الخيرِ إذ طَغَى أبا حسنٍ مأمومةً فتفطَّرا[2]
ونحن حَلَلْنا مُلكه من نظامه بضربةِ سيفٍ إذ علا وتجبَّرا
ونحن كرامٌ في الصَّباحِ أعزةٌ إذا المرء بالموتِ ارتدى وتأزرا

قال : وانصرفَ النَّاسُ من صلاة الصبح ، فأحدقُوا بابن ملجم ، ينهشُون لحمه بأسنانهم كأنهم السباع ، ويقولون : ياعدوّ الله ، ماذا صنعت ! أهلكتَ أمةَ محمد ، وقتلت خيرَ الناس ! وإنه لصامت ما ينطق .

قال أبو الفرج : وروى أبو مخنف ، عن أبي الطُّفيل ، أنّ صعصعة بن صُوحان ، استأذنَ على عليٍّ عليه السلام ، وقد أتاه عائداً لما ضربه ابن ملجم — فلم يكن عليه إذنٌ ، فقال صعصعة للآذن : قل له : يرحمك الله يا أمير المؤمنين حيًّا وميِّتا ، فلقد كان الله في صدرك عظيما ، ولقد كنتَ بذات الله عليما . فأبلغه الآذنُ مقالتَه ، فقال : قل له : وأنت يرحمك الله ، فلقد كنتَ خفيف المؤنة ، كثير المعونة .

قال أبو الفرج : ثم جُمع له أطباء الكوفة ، فلم يكن منهم أحدٌ أعلم بجُرحه من أثير بن عمرو بن هانئ السَّكونيّ — وكان متطبِّب صاحب كرسيّ يعالج الجراحات ، وكان من الأربعين غلاماً الذين كان خالد ابن الوليد أصابهم في عين التمر فسباهم — فلما نظر أثير إلى جرح أمير المؤمنين دعا برئة شاة حارّة ، فاستخرج منها عِرقاً ، وأدخله في الجُرح ، ثم نفخه ، ثم

---

(١) الأبيات في المؤتلف والمختلف للآمدي ٢٨٥ ، ونسبها إلى ابن ميَّاس قال : وميَّاس أمه .
(٢) المأمومة : الشجة تبلغ أم الرأس .

استخرجه ، وإذا عليه بياض الدّماغ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، اعهد عهدك ؛ فإنّ عدوّ الله قد وصلت ضربتُه إلى أمّ رأسك . فدعا عليٌّ عليه السلام عند ذلك بدواة وصحيفة ، وكتب وصيّته : هذا ما أوصى به أميرُ المؤمنين عليّ بن أبي طالب ؛ أوصى بأنه يشهدُ أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كله ولو كره المشركون ؛ صلوات الله وبركاته عليه ؛ إن صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين . أوصيك يا حسن وجميعَ ولدي وأهلي بيتي ومَنْ بلغه كتابي هذا بتقوى الله ربّنا وربكم ، ولا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا ، فإني سمعتُ رسول الله يقول : « صلاح ذات البين أفضلُ من عامة الصلاة والصيام ، وإن المبيرة حالقة الدين إفساد ذات البين ، ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم . انظروا إلى ذوي أرحامكم فصِلوهم يهوّن الله عليكم الحساب . والله الله في الأيتام فلا تُغِبّنّ أفواههم بجفوتكم . والله الله في جيرانكم ، فإنها وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فما زال يُوصينا بهم حتى ظننّا أنه سيورّثهم الله ؛ والله الله في القرآن فلا يسبقنّكم بالعمل به غيرُكم . والله الله في الصلاة ، فإنها عماد دينكم . والله الله في صيام شهر رمضان فإنه جُنّة من النار . والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم ، والله الله في زكاة أموالكم ، فإنها تطفئ غضب ربكم ، والله الله في أهل بيت نبيكم فلا يظلَمُنّ بين أظهركم ، والله الله في أصحاب نبيّكم فإن رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى بهم . والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معايشكم . والله الله فيما ملكت أيمانكم فإنه كانت آخر وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله إذ قال : « أوصيكم بالضّعيفين : فيما ملكت أيمانكم » ، ثم الصلاةَ الصلاةَ لا تخافوا في الله لومة لائم يكفكم مَنْ بغى عليكم ، ومن أرادكم بسوء . قولوا للناس حسناً ، كما أمركم الله به ، ولا تتركوا الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر فيتولّى ذلك غيرُكم ، وتدعون فلا يستجابُ لكم . عليكم بالتواضُع والتباذل والتبارّ ، وإياكم والتقاطُع والتفرّق

والتدابر ، تعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب . حفظكم الله من أهل بيت ، وحفظ فيكم نبيَّهُ ؛ أستودعكم الله خير مستودَع ، وعليكم سلام الله ورحمته .

قلت : قوله : « والله الله فى الأيتام ، فلا تغبّرنّ أفواههم بجفوتكم » يحتمل تفسيرين : أحدهما لا تجيعوهم ؛ فإن الجائع يخلُف فمه ، وتتغيّر نكهته . والثانى : لاتحوجوهم إلى تكرار الطلب والسؤال ، فإن السائل ينضبُ ريقه وتنشفُ لهواته ، ويتغيّر ريح فمه .

وقوله حكاية عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « أوصيكم بالضعيفين فيما ملكت أيمانكم » ، يعنى به الحيوان الناطق والحيوان الأعجم .

قال أبو الفرج : وحدثنى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ بإسناد ذكره فى الكتاب ، عن أبى عبد الرحمن السلمىّ ، قال : قال لى الحسن بن علىّ عليه السلام : خرجتُ وأبى يصلّى فى المسجد ، فقال لى : يابنىّ إنى بت الليلة أوقظ أهلى ، لأنها ليلة الجمعة صبيحة يوم بدر لتسع[1] عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، فملكتنى عيناى ، فسنح لى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقلت : يارسول الله ؛ ماذا لقيت من أمّتك من الأوَد[2] واللَّدَد ! فقال لى : ادْعُ عليهم ؛ فقلت : اللهم أبدلنى بهم خيراً منهم ، وأبدلهم بى مَنْ هو شرٌّ منى » .

قال الحسن عليه السلام : وجاء ابنُ أبى السّاج ، فآذنه بالصلاة ؛ فخرج فخرجت خلفه ، فاعتوره الرجلان ، فأمّا أحدهما فوقعت ضربته فى الطّاق ، وأما الآخر فأثبتها فى رأسه .

قال أبو الفرج : قال : حدثنى أحمد بن عيسى ، قال : حدّثنا الحسين بن نصر ، قال :

---

(١) مقاتل الطالبيين : « لسبع عشرة » .
(٢) فى مقاتل الطالبيين : قال أبو الفرج : الأود : العوج ، واللدد : الخصومات .

حدثنا زيد بن المعدّل ، عن يحيى بن شعيب ، عن أبي مخنف ، عن فُضَيل بن خديج ، عن الأسود الكندىّ والأجلح ؛ قالا ، توفّى علىّ عليه السلام وهو ابن أربع وستين سنة في عام أربعين من الهجرة ، ليلة الإحدى وعشرين ليلة الأحد مضت من شهر رمضان ، وولِيَ غُسلَهُ ابنهُ الحسن وعبد الله بن العباس ، وكُفِّنَ في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ، وصلّى عليه ابنهُ الحسن ، فكبّر عليه خمسَ تكبيرات ، ودُفِن بالرّحبة ، مما يلي أبوابَ كِندة عند صلاة الصبح .

هذه رواية أبي مخنف .

قال أبو الفرج : وحدّثني أحمد بن سعيد ، قال : حدثنا يحيى بن الحسن العلوىّ ، قال : حدّثنا يعقوب بن زيد ، عن ابن أبي عُمَير ، عن الحسن بن على الخلال ، عن جدّه ، قال : قلت للحسين[1] بن علىّ عليه السلام : أين دفنتم أمير المؤمنين عليه السلام ؟ قال : خرجنا به ليلا من منزله حتى مررنا به على منزل الأشعث بن قيس ، ثم خرجنا به إلى الظهر بجنب الغَرِىّ .

قلت : وهذه الرواية هي الحقّ وعليها العمل ؛ وقد قلنا فيما تقدّم أن أبناء الناس أعرفُ بقبور آبائهم من غيرهم من الأجانب ؛ وهذا القبر الذى بالغرىّ ، هو الذى كان بنو علىّ يزورونه قديماً وحديثاً ؛ ويقولون : هذا قبر أبينا ، لا يشكّ أحد فى ذلك من الشيعة ولا من غيرهم ؛ أعنى بنى علىّ من ظهر الحسن والحسين وغيرهما من سلالته ، المتقدمين منهم والمتأخرين ، ما زاروا ولا وقفوا إلّا على هذا القبر بعينه .

* * *

وقد روى أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزىّ فى تاريخه المعروف « بالمنتظم »[2] وفاة

---

(١) مقاتل الطالبيين : « الحسن » .

(٢) المنتظم ٩ : ١٨٩ .

أبى الغنائم محمد بن على بن ميمون النَّرسِىّ [1] المعروف بأُبَىّ [2] ، لجودة قراءته قال :

توفى أبو الغنائم هذا فى سنة عشر وخمسمائة ، وكان محدّثًا من أهل الكوفة ثقة حافظًا ، وكان من قُوّام الليل ومن أهل السنّة ، وكان يقول : ما بالكوفة مَنْ هو على مذهب أهل السنّة وأصحاب الحديث غيرى ؛ وكان يقول : مات بالكوفة ثلاثمائة صحابىّ ليس قبر أحد منهم معروفًا إلا قبر أمير المؤمنين ، وهو هذا القبر الذى يزوره الناس الآن ؛ جاء جعفر بن محمد عليه السلام وأبوه محمد بن علىّ بن الحسين عليهم السلام إليه ، فزاراه ، ولم يكن إذ ذاك قبرًا معروفًا ظاهرًا ، وإنما كان به سَرْح عِضاه ، حتى جاء محمد بن زيد الداعى صاحب الديلم ، فأظهر القبر [3] .

وسألت بعضَ من أثق به من عقلاء شيوخ أهل الكوفة عمّا ذكره الخطيب أبو بكر فى تاريخه ، أنّ قوما يقولون : إنّ هذا القبر الذى تزورُه الشيعة إلى جانب الغرىّ هو قبر المغيرة بن شعبة ، فقال : غلطوا فى ذلك ، قبر المغيرة وقبر زياد بالثويّة [4] من أرض الكوفة ، ونحن نعرفهما وننقل ذلك عن آبائنا وأجدادنا . وأنشدنى قولَ الشاعر يرثى زيادا ، وقد ذكره أبو تمام فى الحماسة :

صلّى الإلهُ على قـــبرٍ وَطَهَّرَهُ ... عند الثويّةِ يَسْفِى فوقَه المورُ [5]

زَفّتْ إليـه قريشٌ نعشَ سيِّدها ... فالحلم والجودُ فيـه اليوم مقبُور [6]

أبا المغـــيرة والدنيـا مفجّعةٌ ... وإنّ من غرّتِ الدنيا لمغرُور

---

(١) فى الأصول : « الرسى » ، وما أثبته عن المنتظم والنجوم الزاهرة ٥ : ٢١٢ .

(٢) أُبَىّ بن كعب بن قيس سيد القراء .

(٣) فى الأصول : « القبة » ، وما أثبته من المنتظم .

(٤) الثوية : موضع قريب من الكوفة .

(٥) الأبيات فى الكامل للمبرد ١ : ٢١٧ ، ونسبها إلى حارثة بن بدر ؛ وهى أيضا فى معجم البلدان ٣ : ٧٨ بهذه النسبة . والمور : التراب ؛ يريد أن الريح تسفيه بالتراب .

(٦) قال المبرد : قوله : « نعش سيدها » يريد موضعه من النسب ؛ لأنه نسبه إلى أبى سفيان ؛ وكان رئيس قريش قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم » .

قـــــد كان عندك للمعروف معرفةٌ وكان عنـــــدك للمنكور تنكيرُ
وكنت تُغْشَى وتعطى المالَ مِنْ سَعَةٍ فاليوم قبرُك أضحى وهو مهجورُ
والنَّاسُ بعدَكَ قـــد خَفَّتْ حُلُومُهُمْ كأنما نُفِخَتْ فيـه الأعاصيرُ [1]

وسألت قطبَ الدين نقيب الطالبيين أبا عبد الله الحسين بن الأقساسيّ رحمه الله تعالى عن ذلك، فقال: صدَق من أخبرك؛ نحن وأهلها كافة نعرف مقابر ثَقِيف إلى الثَّوِيَّة، وهى إلى اليوم معروفة، وقبر المغيرة فيها، إلا أنها لا تعرف، وقد ابتلعها السَّبَخُ وَزَبَدُ الأرض وفورانُها، فطُمِسَتْ واختلط بعضها ببعض.

ثم قال: إن شئت أن تتحقق أنّ قبر المغيرة فى مقابر ثَقِيف فانظر إلى كتاب الأغانى [2] لأبى الفرج على بن الحسين، والمَحْ ما قاله فى ترجمة المغيرة، وأنه مدفونٌ فى مقابر ثقيف، ويكفيك قولُ أبى الفرج، فإنه الناقد البصير، والطبيب الخبير؛ فتصفَّحْتُ ترجمةَ المغيرة فى الكتاب المذكور، فوجدت الأمر كما قاله النقيب.

* * *

قال أبو الفرج: كان مصقلةُ بن هبيرة الشيبانى قد لاحَى المغيرةَ فى شىء كان بينهما منازعة، فضرعَ له المغيرة وتواضع فى كلامه، حتى طمع فيه مصقلة، فاستعلى عليه وشتمه، وقال: إنّى لأعرفُ شَبَهِى فى عروة ابنك، فأشهد المغيرة على قوله هذا شهوداً، ثم قدمه إلى شُرَيح القاضى، فأقام عليه البيِّنة، فضربه شريح الحدّ وآلى مصقلة ألّا يقيم ببلدة فيها المغيرة، فلم يدخل الكوفة، حتى مات المغيرة، فدخلها، فتلقاه قومُه فسلّموا عليه، فما فرغ من السلام حتى سألهم عن مقابر ثَقِيف، فأرشدوه إليها، فجعل قومٌ من مواليه

---

(١) قال المبرد: «قوله: كأنما نفخت فيه الأعاصير؛ هذا مثل؛ وإنما يريد خفة الحلوم. والإعصار — فيما ذكر أبو عبيدة — ريح تهب بشدة فيما بين السماء والأرض». هذا ولم أجد الأبيات فى الحماسة.
(٢) انظر الأغانى ١٦: ٧٩–١٠١.

يلتقطونَ الحجارة ، فقال لهم : ماهذا ؟ فقالوا : نظن أنك تريد أن ترجُم قبر العيزة ، فقال: ألقوا مافى أيديكم، فانطلق حتى وقف على قبره، ثم قال : والله لقد كنتَ ـ ماعلمت ـ مانعا لصديقك ، ضارًّا لعدوك ، ومامثلك إلا كما قال مهلهل فى كليب أخيه :

إنّ تحتَ الأحجارِ حَزْماً وعَزْماً   وَخصِيماً أَلَدَّ ذا مِغْـــلاقِ[1]

حيّـةٌ فى الوِجار أرْبد لا يـ   ـنفعُ مِنــه السليمَ نفثةُ راقِ

• • •

قال أبو الفرج : فأما ابن ملجم ، فإن الحسن بن علىّ بعد دفنه أمير المؤمنين دَعَا به وأمر بضرب عنقه ، فقال له : إن رأيت أن تأخذ علىّ العهود أن أرجعَ إليك حتى أضع يدى فى يدك ، بعد أن أمضىَ إلى الشام ، فأنظر ماصنع صاحبى بمعاوية ، فإن كان قتله وإلا قتلتُه ثم عدت إليك حتى تحكم فىّ حكمك . فقال : هيهات ، والله لاتشربُ الماء البارد حتى تلحق روحك بالنار ، ثم ضرب عنقه ، واستوهبت أم الهيثم بنت الأسود النخعية جثته منه فوهبها لها ، فأحرقتها بالنار .

وقال ابن أبى مياس الفزارىّ ، وهو من الخوارج :

فلم أرَ مَهراً ساقَهُ ذُو سماحة   كمهر قَطامٍ من غنىّ ومُعْدِم

ثلاثة آلافٍ وعبدٌ وقَيْنَةٌ   وضربُ علىّ بالحسام المصمّم

فلا مهرَ أغلى من علىّ وإن غلا   ولافتكَ إلادُون فتكِ ابن ملجم

وقال عبد الله بن العباس بن عبد المطلب[2] :

وَهَزّ علىٌّ بالعراقين لحيـةً   مصيبتُها جلّت عَلَى كل مُسْلِم

وقال سيأتيها من الله نازلٌ   ويخضِبُها أشقىَ البَرية بالدم

فعاجَلَهُ بالسيف شَلّتْ يمينُه   لشؤم قَطَام عند ذاك ابن مُلْجَم

(١) الأغانى ١٦ : ٩٢ ، والمغلاق : اللسان السمح

(٢) الأبيات فى الاستيعاب ٤٧٢ ، ونسبها ، إلى بكر بن حماد .

فياضربةً من خاسرٍ ضَلَّ سعيُه ... تبَوّأ منها مقعداً فى جهنمِ

ففاز أميرُ المؤمنين بحظه ... وإن طرقت إحدى الليالى بمعظمِ

ألا إنما الدنيا بلاء وفتنة ... حلاوتُها شيبتْ بصابٍ وعلقمِ

قال أبو الفرج: وأنشدنى عمّى الحسن بن محمد، قال: أنشدنى محمد بن سعد، لبعض بنى عبد المطلب، يرثى عليا، ولم يذكر اسمه:

ياقبرَ سيدنا المجنَّ سماحةً ... صلّى الإلهُ عليك ياقبرُ

ماضرَّ قبراً أنت ساكنُه ... ألاَّ يَحُلّ بأرضه القَطْرُ

فليندبنّ سماحُ كفّك بالثّرى ... وليورقنّ بجنبك الصَّخْرُ

والله لوبك لم أجِدْ أحداً[1] ... إلا قتلت، لفاتنى الوِتْرُ

---

(١) فى حاشية ج: «لم أدعْ أحداً».

— ٧٠ —

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فى ذم أهل العراق :

أَمَّا بَعْدُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ ، حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ وَمَاتَ قَيِّمُهَا ، وَطَالَ تَأَيُّمُهَا ، وَوَرِثَهَا أَبْعَدُهَا .

أَمَا وَاللَّهِ مَا أَتَيْتُكُمْ اخْتِيَاراً ؛ وَلَـكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ سَوْقاً . وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ : عَلِيٌّ[1] يَكْذِبُ ، قَاتَلَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى ! فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ ! أَعَلَى اللَّهِ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ ! أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَ[2] بِهِ !

كَلَّا وَاللَّهِ ! لَـكِنَّهَا لَهْجَةٌ غِبْتُمْ عَنْهَا ، وَلَمْ تَـكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا ، وَيْلُ أُمِّهِ كَيْلاً بِغَيْرِ ثَمَنٍ لَوْ كَانَ لَهُ وِعَاءٌ ؛ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ !

* * *

الشرح :

أملصت الحامل : ألقت ولدها سقاطا . وقيمها : بعلها . وتأيمها : خلوها عن الأزواج ؛ يقول : لما شارفتم استئصال أهل الشام ، وظهرت أمارات الظفر لكم ، ودلائل الفتح ، نكصتم وجنحتم إلى السلم والإجابة إلى التحكيم عند رفع المصاحف ؛ فكنتم كالمرأة الحامل لما أتمت أشهر حملها ألقت ولدها إلقاء غير طبيعى ؛ نحو أن تلقيه لسقطة أو ضربة أو عارض يقتضى أن تلقيه هالكا .

ثم لم يكتف بذلك ، حتى قال : « ومات بعلها ، وطال تأيمها ، وورثها أبعدها » أى لم يكن لها ولد وهو أقرب المخلفين إلى الميت ، ولم يكن لها بعل فورثها الأباعد عنها ؛

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .

(٢) مخطوطة النهج : « صدقه » .

كالساقلين من بنى عم ، وكالمولاة تموت من غير ولد ولامن يجرى مجراه ، فيرثها مولاها ولا نسب بينها وبينه .

ثم أقسم أنه لم يأتهم اختيارا ، ولكنّ المقاديرَ ساقته إليهم سَوْقاً ، يعنى اضطرارا . وصدقَ عليه السلام ، لأنه لولا يوم الجمل لم يحتجْ إلى الخروج من المدينة إلى العراق ، وإنما استنجد بأهل الكوفة على أهل البصرة ، اضطراراً إليهم ، لأنه لم يكن جيشُه الحجازى وافياً بأهل البصرة الذين أصفقوا على حَرْبه ونَكْث بيعته ، ولم يكن خروجه عن المدينة —وهى دار الهجرة —ومفارقته لقبر رسول الله صلى الله عليه وآله وقبر فاطمة عن إيثار ومحبة؛ ولكنّ الأحوال تحكم وتسوقُ الناس إلى مالا يختارونه ابتداء .

وقد روى هذا الكلام على وجه آخر : « ماأتيتكم اختياراً ، ولا جئت إليكم شوقاً » بالشين المعجمة .

ثم قال : « بلغنى أنكم تقولون : يكذب » ، وكان كثيرا مايخبر عن الملاحم والكائنات ويومئ إلى أمور أخبره بها رسولُ اللهُ صلى الله عليه وآله ، فيقول المنافقون من أصحابه : يكذب كما كان المنافقون الأولون فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله يقولون عنه : يكذب.

* * *

وروى صاحب كتاب "الغارات" ، عن الأعمش ، عن رجاله ، قال : خطب على عليه السلام ، فقال :

والله لو أمرتُكم فجمعتم من خياركم مائة ، ثم لو شئت لحدّثتكم من غُدوة إلى أن تغيب الشمس ، لاأخبرتُكم إلاحقّا؛ ثم لتخرُجنّ فلتزعُمنّ أنى أكْذَبُ الناس وأفجرُهم.

وقد روى صاحب هذا الكتاب وغيره من الرواة أنه قال :

إن أمرَنا صعب مستصعَب، لايحمله إلاملك مقرّب، أو نبىٌّ مرسل، أوعبدٌ امتحن الله قلبه للإيمان .

وهذا الكلام منه كلام عارف عالم بأنّ في الناس مَنْ لا يصدّقه فيما[1] يقول ؛ وهذا أمر مركوز في الجبلّة البشرية ، وهو استبعاد الأمور الغريبة ، وتكذيب الإخبار بها . وإذا تأمّلتَ أحواله في خلافته كلّها وجدتَها هي مختصرة من أحوال رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته ؛ كأنّها نسخة منتسَخة منها في حربه وسلمه، وسيرته وأخلاقه ، وكثرة شكايته من المنافقين من أصحابه والمخالفين لأمره ؛ وإذا أردت أن تعلم ذلك علماً واضحاً ، فاقرأ سورة « براءة » ففيها الجمّ الغفير من المعنى الذي أشرنا إليه .

***

[ذكر مطاعن النّظّام على الإمام عليّ والردّ عليه]

واعلم أن[2] النظّام لما تكلّم في كتاب " النَّكْت " ، وانتصر لكون الإجماع ليس بحجّة ، اضطر إلى ذكر عيوب الصحابة ، فذكر لكلّ منهم عيباً ، ووجّه إلى كلّ واحد منهم طعناً ، وقال في عليّ : إنه لما حارب الخوارج يوم النّهروان ، كان يرفع رأسه إلى السماء تارة ينظر إليها ، ثم يُطرق إلى الأرض فينظر إليها تارة أخرى ، يُوهم أصحابه أنه يُوحَى إليه ، ثم يقول : « ما كذَبت ولا كُذِبت » ، فلما فرغ من قتالهم وأديل عليهم ، ووضعت الحرب أوزارها ، قال الحسن ابنه : يا أمير المؤمنين ، أكان رسول الله صلى الله عليه وآله تقدّم إليك في أمر هؤلاء بشيء ؟ فقال : لا ، ولكنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أمرني بكلّ حقّ ، ومن الحقّ أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين .

قال النظّام[1] : وقوله : « ما كذَبت ولا كُذِبت » ، ورفعه رأسه أحياناً إلى السماء وإطراقه إلى الأرض ، إيهام ؛ إما لنزول الوحي عليه ، أو لأنه قد أُوصِيَ من قَبْل في شأن الخوارج بأمر . ثم هو يقول : ما أُوصِيَ فيهم على خصوصيّتهم بأمر ؛ وإنما أُوصِيَ بكلّ الحق ، وقتالهم من الحق .

---

(١) كذا في ج ، وفي ا ، ب : « كما » .

(٢) هو إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري أبو إسحاق النظام ، أحد أئمة المعتزلة ؛ ذكره ابن حجر في لسان الميزان ١ : ٦٧ ، وقال إنه « مات في خلافة المعتصم سنة بضع وعشرين ومائتين » .

وهذا عجيب طريف .

فنقول : إن النظام أخطأ عندنا فى تعريضه بهذا الرجل خطأً قبيحاً ، وقال قولًا منكرا ؛ نستغفر الله له من عقابه ، ونسأله عفوَه عنه ؛ وليست الرواية التى رواها عن الحسن وسؤاله لأبيه وجوابه له ، بصحيحة ولا معروفة ، والمشهور المعروف المنقولُ نقلًا يكاد يبلغ درجةَ التواتر من الأخبار ، ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله فى معنى الخوارج بأعيانهم وذكرهم بصفاتهم ، وقوله صلى الله عليه وآله لعلى عليه السلام : « إنَّك مقاتلهم وقاتلهم ، وإن المخدَّج[1] ذا الثُّدَيَّة منهم ؛ وإنك ستقاتل بعدى الناكثين والقاسطين والمارقين » ؛ فجعلهم أصنافا ثلاثة حسب ما وقعت الحال عليه . وهذا من معجزات الرسول صلى الله عليه وآله ، وإخباره عن الغيوب المفصّلة . فما أعلمُ من أىّ كتاب نقل النظّام هذه الرواية ، ولا عن أىّ مُحدّث رواها ؛ ولقد كان رحمه الله تعالى بعيداً عن معرفة الأخبار والسِّيَر منصباً فكره ، مجهدا نفسه فى الأمور النظرية الدقيقة ، كمسألة الجزء ، ومداخلة الأجسام وغيرهما ، ولم يكن الحديث والسِّيَر من فنونه ولا من علومه ؛ ولا ريب أنه سمعها ممن لا يوثق بقوله ، فنقلها كما سمعها .

فأما كونه عليه السلام كان ينظر تارةً إلى السماء ، وتارةً إلى الأرض . وقوله : « ما كَذَبت ولا كُذِبت » ، فصحيح وموثوق بنقله ، لاستقامته وشهرته وكثرة رواته ؛ والوجه فى ذلك أنه استبطأ وجود المخدَّج حيث طلبه فى جملة القتلى ، فلما طال الزمان . وأشفق من دخول شبهة على أصحابه لما كان قدّمه إليهم من الأخبار قلِق واهتمّ . وجعل يكرر قوله : « ما كَذَبت ولا كُذِبت » أى ما كذبت على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا كذَّبنى رسول الله صلى الله عليه وآله فيما أخبرنى به .

فأمّا رفعُه رأسَه إلى السماء تارةً . وإطراقُه إلى الأرض أخرى ؛ فإنّه حيث كان يرفع

---

(١) المخدج : الناقص اليد .

رأسه، كان يدعو ويتضرع إلى الله في تعجيل الظفَر بالخدَع ؛ وحيث يطرق كان ينتابه الهمّ والفكر فيُطرق .

ثم حين يقول : « ما كَذَبت ولا كُذِبت » ، كيف ينتظر نزول الوحي ، فإنّ من نزل عليه الوحي لا يحتاج أن يُسند الخبر إلى غيره ، ويقول : ما كذَبت فيما أخبرتكم به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومما طعن به النظّام عليه[1] أنه عليه السلام قال : إذا حدَّثتكم عن رسول الله صلى الله عليه وآله فهو كما حدثتكم ، فوالله لأن أخِرّ من السماء أحبُّ إليّ من أن أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا سمعتموني أحدثكم فيما بيني وبينكم ؛ فإنما الحرب خدعة » .

قال النظّام : هذا يجري مجرى التدليس في الحديث ، ولو لم يحدثهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله بالمعاريض ؛ وعلى طريق الإيهام لما اعتذر من ذلك .

فنقول في الجواب : إنّ النظّام قد وَهِم وانعكس عليه مقصد أمير المؤمنين ؛ وذلك أنه عليه السلام[1] لشدة ورعه أراد أن يفصل للسامعين بين ما يخبر به عن نفسه وبين ما يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك لأن الضرورة ربّما تدعوه إلى استعمال المعاريض، لا سيما في الحرب المبنية على الخديعة والرأي ؛ فقال لهم : كلّ أقول لكم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعلموا أنه سليمٌ من المعاريض ، خالٍ من الرّمز والكناية ، لأني لا أستجيز ولا أستحلّ أن أعَمّيَ أو ألغز في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وما حدثتكم به عن نفسي ، فربّما أستعمل فيه المعاريض ؛ لأنّ الحرب خُدْعة .

---

(١) ا ، ع : « رضي الله عنه » .

وهذا كلام رجل قد استعمل التقوى والوَرَع فى جميع أموره ، وبلغ من تعظيم أمر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، وإجلال قدره واحترام حديثه ألّا يرويَه إلّا بألفاظه لا بمعانيه ، ولا بأسٍ يقتضى فيه إلباساً وتعميةً ، ولو كان مضطرا إلى ذلك ؛ ترجيحاً للجانب الذى على جانب مصلحته فى خاصّ نفسه . فأمّا إذا هو قال كلاما يبتدئُ به من نفسه ، فإنه قد يستعملُ فيه المعاريضَ إذا اقتضتِ الحكمةُ والتدبير ذلك ؛ فقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله باتفاق الرواةِ كافّةً إذا أراد أن يغزُوَ وجهاً ورَّى عنه بغيره ، ولمّا خرج عليه السلام من المدينة لفتح مكة ، قال لأصحابه كلاما يقتضى أنه يقصِد بنى بكر بن عبد مناة من كنانة ، فلم يعلَمُوا حقيقة حاله حتى شارفَ مكة . وقال حين هاجَر وصحِبَه أبو بكر الصّدّيق لأعرابىّ لقيهما : منْ أين أنت ؟ وممن أنت ؟ فلما انتسبَ لهما ، قال له الأعرابى : أنا أما فقد أطلعتُكُما طِلْعَ أمرِى ؛ فممّن أنتَ ؟ فقال : من ماء ، لم يزده على ذلك ؛ فجعل الأعرابىّ يفكّر ، ويقول : من أىّ ماء ؟ من ماء بنى فلان ، من ماء بنى فلان ؟ فتركه ولم يفسّر له ؛ وإنما أراد عليه السلام أنه مخلوقٌ من نطفة .

فأما قول النّظام : « لو لم يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم بالمعاريض لما اعتذرَ من ذلك » ؛ فليس فى كلامه اعتذار ؛ ولكنه نفَى أن يُدْخِلَ المعاريض فى روايته ؛ وأجازها فيما يبتدئُ به عن نفسه ؛ وليس يتضمّن هذا اعتذارا . وقوله : « لأنْ أخِرّ من السماء » يدلّ على أنه ما فعل ذلك ولا يفعله .

* * *

ثم قال : « فعَلَى مَنْ أكذِب ؟ » يقول : كيف أكذب على الله وأنا أول المؤمنين به ؟ وكيف أكذب على رسول الله وأنا أول المصدّقين به ؛ أخرجه مخرج الاستبعاد لدعواهم وزعمهم . فإن قلت : كيف يمكنُ أن يكونَ للمكلّف الذى هو من أتباع الرسول كاذبا على الله إلا بواسطة إخباره عن الرسول ؛ لأنه لا وصلةَ ولا واسطة بينه وبين الله تعالى إلا الرسول ؟

وإذا لم يكن كَذِبُهُ على الله إلا كذبه على الرسول لم يَبْق لتقسيم الكذب وقوله : « أفأنا أكذب على الله أو على رسوله ؟ » معنى [١] .

قلت : يمكن أن يكذب الكاذب على الله دون أن يكون كاذباً على الرسول ؛ وإن كان من أتباع الرسول ؛ نحو أن يقول : كنت مع الرسول صلى الله عليه وآله ليلةً في مقبرة فأحيا الله تعالى فلانا الميت ؛ فقام وقال كذا . أو يقول : كنت معه يوم كذا ؛ فسمعت منادياً يناديه من السماء : افعل كذا ، أو نحو ذلك من الإخبار بأمور لا تستند إلى حديث الرسول .

• • •

ثم قال عليه السلام [٢] : « كلّا والله » ، أي لا والله . وقيل : إن « كلّا » بمعنى « حقًّا » وإنه إثبات .

قال : « ولكنها لهجة غِبْتُم عنها » ، اللهجة » بفتح الجيم ؛ وهي آلة النطق ؛ يقال له : هو فصيح اللهجة ، وصادق اللهجة . ويمكن أن يعني بها لهجة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيقول : « شهدت وغبتم » . ويمكن أن يعني بها لهجته هو ؛ فيقول : إنها لهجة غبتم عن منافعها ، وأعدمتم أنفسكم ثمن مناصحتها .

ثم قال : « ويلمّه » الضمير راجع إلى ما دلّ عليه معنى الكلام من العلم ؛ لأنه لما ذكر اللهجة وشهوده إياها وغُيُوبتهم عنها دلّ ذلك على علم له حصّه به الرسول عليه السلام . فقال : « ويلمّه » ، وهذه كلمة تقال للتعجب والاستعظام ؛ يقال : « ويلمّه فارساً ! » وتكتب موصولة كما هي بهذه الصورة ، وأصله « ويل أمّه » مرادهم التعظيم والمدح ، وإن كان اللفظ موضوعا لضد ذلك ، كقوله عليه الصلاة والسلام : « فاظفَرْ بذات الدِّين تَرِبَتْ يداك » ، وكقولهم للرجل يصفونه ويُقرّظونه : « لا أبا له » .

وقال الحسن البصريّ ؛ وهو يذكر علياً عليه السلام ، ويصف كونه على الحقّ

---

(١) ساقطة من ا ، ب وهي في ج

(٢) ج : « رضي الله عنه » .

فى جميع أموره ؛ حتى قال: « فلما شارف الظَّفرَ وافق على التحكيم ، ومالَكَ فى التحكيم والحقّ فى يديك ، لا أبا لك ! » .

قال أبو العباس المبرّد : هى[1] كلمة فيها جفاء وخشونة ؛ كانت الأعراب تستعملها فيمن يستعظمون أمرَه ، قال : ولما أنشدَ سليمانُ بن عبد الملك قول بعض الأعراب :

رَبُّ العِبادِ مالَنــا ومالَــكا قد كنتَ تسقينا فما بَدَا لَــكا

* أنزِلْ علينا الغيثَ لا أبا لَــكا *

قال : أشهدُ أنه لا أبَ له ولا صاحبة ولا ولد ، فأخرجها أحسن مخرج .

ثم قال عليه السلام : « كيْلًا بغير ثمن لو كان له وعاء » ، انتصب « كيلا » لأنه مصدر فى موضع الحال ، ويمكن أن ينتصب على التمييز ، كقولهم : لله دره فارسا ! يقول : أنا أكِيلُ لكم العلم والحكمة كيْلا ولا أطلب لذلكم ثمنا لو وجدت وعاء ! أى حاملا للعلم ؛ وهذا مثل قوله عليه السلام : ها إنّ ههنا علمًا جمًّا لو أجد له حَمَلة !

ثم ختم الفصل بقوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ؛ وهو أحسن ما خُتِم هذا الكلام به .

[خطبة الإمام علىّ بعد يوم النَّهْرَوَان]

وروى المدائنىّ فى كتاب « صِفِّين » ، قال : خطب علىّ عليه السلام بعد انقضاء أمر النَّهروان ، فذكر طرفاً من الملاحم ، قال :

إذا كثُرتْ فيكم الأخلاط ، واستولتِ الأنباطُ ؛ دنا خَرابُ العراق ؛ ذاك إذا بُنِيَتْ مدينة ذات أثْل وأنهار . فإذا علت فيها الأسعار ، وشُيِّدَ فيها البنيانُ ، وحكم فيها الفُسّاق ، واشتدَّ البلاء ، وتفاخر الغوغاء ؛ دنا خُسوف البيْداء ، وطاب الهَرَبُ والجلاء . وستكونُ قبل الجلاء أمورٌ يشيبُ منها الصغير ، ويَعْطَبُ الكبير ، ويخرَس الفصيح

(١) الكامل ص ٣ : ٢١٦

وَيبْهَتُ الأَبيبُ؛ يعاجَلون بالسيف صَلْتاً، وقد كانوا قبل ذلك في غَضَارةٍ من عَيْشهم يمرحُون. فيالَها مصيبة حينئذ ! من البلاء العَقيم، والبُكاء الطويل، والويل والعَويل، وشدّةِ الصّريخ؛ في ذلك أمرُ الله ـ وَهُوَ كائن، وفتَّاحٌ مريج[1]. فيابنَ حُرّة[2] الإماء، متى تَنْتَظرُ ! أبْشِرْ بنصرٍ قريبٍ من رَبٍّ رحيم. أَلَا فويلٌ لِلمتكبّرين؛ عند حصاد الحاصدين، وقتل الفاسقين. عصاة ذى العرش العظيم ! فبأبى وأمّى من عدة قليلة ! أسماؤهم فى الأرض مجهولة. قد دنا حينئذ ظهورُهم، ولو شئت لأخبرتُكم بما يأتى ويكون من حَوادث دَهْرِكُمْ ونوائب زمانكم، وبلايا أيامكم، وغَمَرَات ساعاتكم، ولكنه أُعْصِيه إلى مَنْ أَعْصِيه إليه، مخافةً عليكم، ونظرا لكم؛ علما منّى بما هو كائن وما يكون من البلاء الشامل؛ ذلك عند تمرّد الأشرار، وطاعة أولى الخسار، ذلك أوانُ الحَتْفِ والدمار، ذلك إدبار أمركم، وانقطاع أصْلِكم وتشتّتِ أُلفتكم؛ وإنما يكون ذلك عند ظُهور العصيان، وانتشار الفُسوق؛ حيثُ يكون الضربُ بالسَّيفِ أهونَ على المؤمنين من اكتساب درْهَمٍ حلال؛ حينَ لا تُنالُ المعيشةُ إلّا بمعصية الله فى سمائه، حينَ تَسْكَرُونَ من غير شراب، وتحلفون من غير اضطرار، وتظلِمون مِنْ غير منفعة، وتكذبون من غير إحراج. تتفكّهون بالفسوق، وتبادرون بالمعصية. قولُكم البهتان، وحديثكم الزور، وأعمالكم الغرور؛ فعندَ ذلك لا تأمنون البَيَات، فياله من بياتٍ ما أشدّ ظلمته ! ومن صائح ما أفظع صوته ! ذلك بيات لا يَنْجى صاحِبُه؛ فعند ذلك تُقتَلون، وبأنواع البلاء تُضرَبُون، وبالسَّيف تحصَدُون، وإلى النار تصيرون، ويعضّكم البلاء كما يعضّ العاربَ القَتَب[3]. ياعجبا كلَّ العجب، بين جُمادَى ورَجَب ! من جمع أشتاتٍ، وحصْدِ نبات، ومن أصوات بعدها أصوات.

ثم قال: سبق القضاء .. سبق القضاء !

---

(١) كذا وردت العبارة فى الأصول، وفيها غموض.

(٢) كذا فى ب، وفى ح: «خرت الإماء»، وفى ا كلمة غير واضحة.

(٣) الغارب هنا: كاهل البعير. والقتب: رحل صغير على قدر السنام؛ والكلام هنا جار على المثل.

قال رجل من أهل البصرة لرجل من أهل الكوفة إلى جانبه: أشهدُ أنه كاذب على الله ورسوله! قال الكوفي: وما يُدريك؟ قال: هو لله ما نزل عليّ من المنبر حتى فُلِج الرجل، فحُمل إلى منزله في شِقّ محمل، فمات من ليلته.

• • •

[من خطب الإمام عليّ أيضاً]

وروى المدائنيّ أيضاً، قال: خطب عليّ عليه السلام[1]، فقال: لو كُسِرتْ لي الوسادة لحكمتُ بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهلِ الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهلِ الفرقان بفرقانهم، وما من آية في كتاب الله أُنزلتْ في سهلٍ أو جبل إلا وأنا عالم متى أُنزلت، وفيمن أُنزلت.

فقال رجل من القُعود تحت منبره: يا لله وللدَّعوى الكاذبة! وقال آخر إلى جانبه: أشهد أنك أنت الله ربّ العالمين!

قال المدائنيّ: فانظر إلى هذا التناقض والتباين فيه!

• • •

وروى المدائني أيضاً، قال: خطب عليّ عليه السلام[1]، فذكر الملاحم، فقال: سلوني قبل أن تفقدوني، أما والله لَتَشْغَرَنّ الفتنة الصّماء برجلها، وتطأ في خِطامها.

يا لها من فِتنة[2] شُبّت نارها بالحطب الجزْل، مقبلة من شرق الأرض رافعة ذيلها، داعية ويلَها، بدجلة أو حولها. ذاك إذا استدار الفَلَك، وقلتم: مات أو هلك، بأيّ وادٍ سلك!

فقال قوم تحت منبره: لله أبوه! ما أفصحه كاذباً!

• • •

وروى صاحب كتاب «الغارات» عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث،

(١) ج: «رضي الله عنه».
(٢) ج: «فتنة» لصحيف.

قال : سمعت عليًا يقول على المنبر : ما أحدٌ جَرَتْ عليه المواسي إلّا وقد أنزل الله فيه قرآنا ؟ فقام إليه رجل ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، فما أنزل الله تعالى فيك ؟ قال : يريد تكذيبه . فقام الناس إليه يلكزونه في صدره وجنبه ، فقال : دعوه ، أقرأت سورة هود ؟ قال نعم، قال: أقرأت قوله سبحانه : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾[1] قال: نعم ، قال : صاحب البينة محمد ، والتالي الشاهد أنا .

---

(١) سورة هود ١٧

(٧١)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام علّم فيها الناس الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله :

اللَّهُمَّ دَاحِيَ الْمَدْحُوَّاتِ، ودَاعِمَ الْمَسْمُوكَاتِ ، وجَابِلَ الْقُلُوبِ عَلَى فِطَرَاتِهَا[1] شَقِيِّهَا وسَعِيدِهَا ؛ اجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ ، ونَوَامِيَ بَرَكَاتِكَ ، عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ ورَسُولِكَ. الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ ، والْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ ، والْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ ، والدَّافِعِ جَيْشَاتِ الأَبَاطِيلِ ، والدَّامِغِ صَوْلَاتِ الأَضَالِيلِ . كَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ ، قَائِماً بِأَمْرِكَ ، مُسْتَوْفِزاً فِي مَرْضَاتِكَ ، غَيْرَ نَاكِلٍ عَنْ قُدُمٍ ، ولَا وَاهٍ فِي عَزْمٍ ، وَاعِياً لِوَحْيِكَ ، حَافِظاً لِعَهْدِكَ. مَاضِياً عَلَى نَفَاذِ أَمْرِكَ ؛ حَتَّى أَوْرَى قَبَسَ الْقَابِسِ ، وأَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخَابِطِ ، وهُدِيَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ والآثَامِ[2] ، وأَقَامَ بِمُوضِحَاتِ الأَعْلَامِ ونَيِّرَاتِ الأَحْكَامِ ؛ فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ ، وخَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ ، وشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ ، وبَعِيثُكَ بِالْحَقِّ ، ورَسُولُكَ إِلَى الْخَلْقِ .

اللَّهُمَّ افْسَحْ لَهُ مَفْسَحاً فِي ظِلِّكَ ؛ وَاجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ .

اللَّهُمَّ وأَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ مَنْزِلَتَهُ ، وَأَتْمِمْ لَهُ نُورَهُ ، وَاجْزِهِ مِنَ ابْتِعَاثِكَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ ؛ مَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ ، ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ ، وَخُطْبَةٍ فَصْلٍ .

اللَّهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي بَرْدِ الْعَيْشِ وَقَرَارِ النِّعْمَةِ ، وَمُنَى الشَّهَوَاتِ ، وَأَهْوَاءِ اللَّذَّاتِ ، وَرَخَاءِ الدَّعَةِ ، وَمُنْتَهَى الطُّمَأْنِينَةِ ، وَتُحَفِ الْكَرَامَةِ .

* * *

---

(١) مخطوطة النهج : « فطرتها »

(٢) مخطوطة النهج : « بالأثم » .

الشَّرْحُ :

دَحَوْتُ الرَّغيف دَحْواً : بسطته ؛ والمدحُوّات هنا : الأرضون .

فإن قلت : قد ثبت أن الأرض كُرِيّة ؛ فكيف تكون بسيطة ، والبسيط هو المسطّح ، والكُرِيّ لا يكون مسطحا ؟

قلت : الأرض بجملتها شكل كرة ؛ وذلك لا يمنع أن تكون كلّ قطعة منها مبسوطة تصلح لأن تكون مستقراً ومجالا للبشر وغيرهم من الحيوان ؛ فإن المراد بانبساطها هاهنا ليس هو السطح الحقيقيّ الذي لا يوجد في الكرة ، بل كون كلّ قطعة منها صالحة لأن يتصرّف عليها الحيوان لا يعني به غير ذلك .

وداحي المدحُوّات ، ينتصب لأنه منادى مضاف ، تقديره : يا باسط الأرضين المبسوطات.

قوله : « وداعم المسموكات » ، أي حافظ السموات المرفوعات ؛ دعمتُ الشيء إذا حفظته من الهُوِيّ بدعامة ، والمسموك : المرفوع ، قال :

إنّ الذي سَمَكَ السّماء بَنَى لَنَا بيتاً دعائمه أعزُّ وأطولُ[1]

ويجوز أن يكون عَنَى بكونها مسموكة كونها ثخينة ، وسُمْك الجسم هو البعد الذي يعبّر عنه المتكلّمون بالعمق وهو قسيم الطول والعرض ، ولا شيء أعظم ثخنا من الأفلاك.

فإن قلتَ : كيف قال : إنه تعالى دعم السموات وهي بغير عَمَد ؟

قلت : إذا كان حافظاً لها من الهوِيّ بقدرته وقوته فقد صدق عليه كونُه داعماً لها ؛ لأن قوته الحافظة تجري مجرى الدعامة .

قوله : « وجابل القلوب » أي خالقها ، والجِبْلُ الخلق ، وجبلّة الإنسان : خِلْقته ، وفِطَراتها : بكسر الفاء وفتح الطاء : جمع فِطْرة ، ويجوز كسر الطاء ، كما قالوا في سِدْرة : سِدَرات وسِدِرات ، والفِطْرة : الحالة التي يفطر الله عليها الإنسان ، أي يخلقه عليها خالياً من الآراء

(١) البيت مطلع قصيدة للفرزدق ، ديوانه ٧١٤

والديانات والعقائد والأهوية ؛ وهي مايقتضيه محض العقل ؛ وإنما يختار الإنسان بسوء نظره مايُفْضِي به إلى الشقوة ؛ وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وآله : « كلّ مولود يُولَدُ على الفطرة ، فإنما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه » .

قوله : « شقيّها وسعيدها » بدَل من القلوب ، وتقدير الكلام : وجابل الشقىّ من القلوب والسعيد على مافُطِرت عليه .

والنواهي : الزوائد . والخاتم لما سبق ؛ أي لما سبق من المِلَل . والفاتح لما انغلق من أمر الجاهلية والمعلن الحقّ بالحقّ ، أي المظهر للحقّ الذي هو خلاف الباطل بالحقّ ، أي بالحرب والخصومة ؛ يقال: حاقّ فلان فلاناً فحقّه ، أي خاصمه فخصمه . ويقال: مافيه حقّ أي خصومة .

قوله : « والدافع جيشات الأباطيل » ، جمع جَيْشة ، من جاشت القدر إذا ارتفع غَلَيانُها .

والأباطيل : جمع باطل على غير قياس ؛ والمراد أنه قامع مانجم من الباطل .

والدامغ : المهلك ، من دمَغه أي شجّه حتى بلغ الدماغ ؛ ومع ذلك يكون الهلاك .

والصوْلات : جمع صولة وهي السطوة . والأضاليل : جمع ضلال على غير قياس .

قوله . « كما حُمّل » ، أي لأجل أنه حُمل ، والعرب تستعمل هذه الكاف بمعنى التعليل ، قال الشاعر :

فقلتُ له أبا المَلْحاء خُذْها ... كما أوسعتنا بغياً وعَدْوَا

أي هذه الضربة لبغيك علينا ، وتعدّيك .

وقوله : « كما حَمّل » يعني حَمّل أعباء الرسالة . فاضطلع ، أي نهض بها قويّاً ؛ ومن ضَلِيع أي قويّ ؛ وهي الصلاعة ، أي القوة .

مستوفزا ، أي غير بطيء ، بل يحثّ نفسه ويُجْهِدها في رضا الله سبحانه ، والوفز: العَجَلة ، والمستوفز : المستعجل .

غير ناكلٍ عن قُدُم ، أى غير جبان ولا متأخر عن إقدام ، والمقدام : المتقدّم ؛ يقال مَضَى قُدُمًا أى تقدّم وسار ولم يعرّج .

قوله : « ولا واهٍ فى عزم » ؛ وَهَى ، أى ضعف ، والواهى : الضعيف .

واعيًا لوحيك ، أى فاهما ، وَعَيْتُ الحديث ، أى فهمته وعَقَلْته .

ماضيا على نفاذ أمرك ؛ فى الكلام حذف تقديره : ماضيا مصرًّا على نفاذ أمرك ، كقوله تعالى : ﴿ فى تسع آيات إلى فِرْعَوْنَ ﴾[1] ، ولم يقل : « مرسلا » لأنّ الكلام يدلّ بعضُه على بعض .

وقوله : « حتى أَوْرَى قبسَ القابس » ؛ يقال : ورى الزَّنْدُ ، يَرِى ؛ أى خرج ناره ، وأوريته أنا . والقَبَس : شعلة من النار ؛ والمراد بالقَبَس هاهنا نور الحق ، والقابس : الذى يطلب النار ، يقال : قَبَسْت منه نارا ، وأقبسنى نارا ؛ أى أعطانيها .

وقال الراوندىّ : أقبست الرجل علما ، وقبسته نارا ؛ أعطيته ؛ فإن كنتَ طلبتَها له قلت : أقبسته نارا .

وقال الكسائىّ : أقبسته نارا وعلما سواء ؛ قال : ويجوز « قبسته » بغير همزة فيهما .

قوله : « وأضاء الطريق للخابط » ، أى جعل الطريق للخابط مضيئة ، والخابط : الذى يسير ليلا على غير جادّة واضحة .

وهذه الألفاظ كلّها استعارات ومجازات .

وخَوْضات الفتن : جمع خَوْضَة ؛ وهى المرّة الواحدة ، من خُضْتُ الماء والوحل ، أخوضهما ، وتقدير الكلام : وهديتْ به القلوبُ إلى الأعلام الموضحة بعد أن خاضَتْ فى الفتن أطوارا . والأعلام ، جمع عَلَم ، وهو ما يستدلّ به على الطريق ، كالمنارة ونحوها . والموضِحة : التى توضح للناس الأمور وتكشفها . [والنّيِّرات][2] : ذوات النور .

قوله : « فهو أمينك المأمون » أى أمينُك على وحيك ، والأمون من ألقاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال كعب بن زهير :

---

(١) سورة النمل ١٢ (٢) زيادة يقتضيها السياق

سَقَاكَ أبو بكرٍ بكأسٍ رَوِيَّةٍ　　وأنهلكَ المأمونُ منها وعلَّكا[١]

وخازن علمك ، المخزون بالجرّ صفة « علمك » والعلم الإلهى المخزون : هو ما أطلع الله تعالى عليه ورسوله من الأمور الخفية التى لاتتعلق بالأحكام الشرعية كالملاحم وأحكام الآخرة وغير ذلك ، لأنّ الأمور الشرعية لا يجوزُ أن تكون مخزونة عن المكلّفين .

وقوله : « وشهيدُك يومَ الدّين » ، أى شاهدك ، قال سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هٰؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾[٢] .

والبعيث : المبعوث « فعيل » بمعنى « مفعول » كقتيل وجريح وصريع . ومَفْسَحاً مصدر ، أى وسّع له مفسحا .

وقوله : « فى ظلك » يمكن أن يكون مجازاً ، كقولهم : فلان يشمَلُنى بظلّه ، أى بإحسانه وبرّه ، ويمكن أن يكون حقيقة ، ويعنى به الظلّ الممدود الذى ذكره الله تعالى ، فقال : ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ، وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾[٣] .

وقوله : « وأعل على بناء البانين بناءه » ، أى اجعل منزلته فى دار الثواب أعلى المنازل . وأتمم له نوره ، من قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾[٤] . وقد روى أنه تُطفأ سائر الأنوار إلا نور محمد صلى الله عليه وآله ، ثم يعطى المخلصون[٥] من أصحابه أنواراً يسيرة يبصرون بها مواطىء الأقدام ، فيدعُون إلى الله تعالى بزيادة تلك الأنوار وإتمامها . ثم إن الله تعالى يتمّ نور محمد صلى الله عليه وآله ، فيستطيلُ حتى يملأ الآفاق ، فذلك هو إتمام نوره صلى الله عليه وآله .

قوله : « من ابتعاثك له » ، أى فى الآخرة .

مقبول الشهادة ، أى مصدّقا فيما يشهد به على أمته وعلى غيرها من الأمم .

---

(١) ديوانه ٣ ، وروايته : « شربت مع المأمون » ، وقال فى شرحه : « وكانت قريش تسمى النبى صلى الله عليه وسلم المأمون الأمين » .
(٢) سورة النساء ٤١
(٣) سورة الواقعة ٣٠ ، ٣١
(٤) سورة التحريم ٨
(٥) ج « المكلفون » .

وقوله: «ذا منطق عَدْل»، أى عادل، وهو مصدر أقيم مقام اسم الفاعل؛ كقولك: رجل فِطْر وصَوْم، أى مفطر وصائم.

وقوله: «وخطبة فصل» أى يخطب خطبة فاصلة يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾[1]، أى فاصل يفصل بين الحقّ والباطل؛ وهذا هو المقام المحمود الذى ذكره الله تعالى فى الكتاب، فقال: ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾[2]، وهو الذى يشار إليه فى الدّعوات فى قولهم: «اللهم آت محمداً الوسيلة والفضيلة، والدّرجة الرفيعة، وابعثه المقام المحمود».

قوله: «فى بَرْد العيش»؛ تقول العرب: عيش بارد ومعيشة باردة، أى لاحَرْب فيها ولا نزاع، لأنّ البرد والسكون متلازمان كتلازم الحرّ والحركة.

وقرار الدمعة، أى مستقرّها، يقال: هذا قرار السَّيْل، أى مستقرّه. ومن أمثالهم: «لكلّ سائلة قرار».

ومُنَى الشهوات: ماتتعلّق به الشهوات من الأمانى. وأهواء اللذات: ماتهواه النفوس وتستلذه.

والرخاء، المصدر من قولك: رجل رخىّ البال فهو بيّن الرخاء، أى واسع الحال.

والدّعة: السكون والطمأنينة، وأصلها الواو.

ومنتهى الطمأنينة، غايتها التى ليس بعدها غاية.

والتُّحَف: جمع تحفة؛ وهى مايكرَم به الإنسان من البرّ واللّطف، ويجوز فتح الحاء.

* * *

[معنى الصلاة على النبىّ والخلاف فى جواز الصلاة على غيره]

فإن قلت: مامعنى الصلاة على الرسول صلى الله عليه وآله، التى قال الله تعالى فيها:

(١) سورة الطارق ١٣، ١٤.
(٢) سورة الإسراء ٧٩.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(١).

قلت : الصلاة من الله تعالى هي الإكرام والتبجيل ورفع المنزلة ، والصلاة منا على النبي صلى الله عليه وآله هي الدعاء له بذلك،كقوله سبحانه:﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾(٢) أي هو الذي يرفع منازلكم في الآخرة،وقوله : ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أي يدعون لكم بذلك.

وقيل : جُعِلوا لكونهم مستجابي الدعوة كأنهم فاعلون التعظيم للمؤمن ورفع المنزلة، ونظيره قوله : «حيّاك الله» أي أحياك الله وأبقاك، وحيّيتك أي دعوت لك بأن يحييك، لأنك لاعتمادك على إجابة دعوتك ووثوقك بذلك ، كأنك تحييه وتبقيه على الحقيقة ، وهكذا القول في قوله سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ .

وقد اختلف في الصلاة على النبيّ صلّى الله عليه وآله : هل هي واجبة أم لا ؟

فمن الناس من لم يَقُلْ بوجوبها ، وجعل الأمر في هذه الآية للندْب ومنهم من قال : إنها واجبة .

واختلفوا في حال وجوبها ؛ فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره ، وفي الحديث : « مَنْ ذُكِرْتُ عنده فلم يصلِّ عليّ دخل النار وأبعده الله » ؛ ومنهم من قال : تجبُ في كلّ مجلس مرّة واحدة ، وإن تكرر ذكرُه. ومنهم مَنْ أوجبها في العمر مرة واحدة ؛ وكذلك قال في إظهار الشهادتين .

واختلف أيضاً في وجوبها في الصلاة المفروضة ، فأبو حنيفة وأصحابه لا يوجبونها فيها. وروى عن إبراهيم النَّخَعيّ أنهم كانوا يكتفون ــ يعني الصحابة ــ عنها بالتشهّد ، وهو : « السّلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته»،وأوجبها الشافعيّ وأصحابه.واختلف أصحابه في وجوب الصلاة على آل محمّد صلى الله عليه وآله ، فالأكثرون على أنها واجبة ، وأنها شرط في صحة الصلاة .

---

(١) سورة الأحزاب ٥٦
(٢) سورة الأحزاب ٤٣

فإن قلت : فما تقول في الصلاة على الصّحابة والصالحين من المسلمين؟

قلت :القياس جواز الصلاة على كلّ مؤمن، لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ ، وقوله :﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾[١] ؛ وقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾[٢] ؛ ولكنّ العلماء قالوا : إذا ذُكِرَ أحدٌ من المسلمين تبعاً للنبيّ عليه السلام فلا كلام في جواز ذلك ؛ وأما إذا أفردوا أو ذُكِرَ أحد منهم ؛ فأكثر الناس كَرِهوا الصلاة عليه ؛ لأنّ ذلك شعارُ رسول الله فلا يشركه فيه غيره .

وأما أصحابُنا من البغداديين فلهم اصطلاح آخر ؛ وهو أنهم يكرهون إذا ذكروا عليّاً عليه السلام أن يقولوا : « صلّى الله عليه » ولا يكرهون أن يقولوا : « صلواتُ الله عليه » ، وجعلوا اللفظة الأولى مختصّة بالرّسول صلّى الله عليه وآله ، وجعلوا اللفظة الثانية مشتركةً فيما بينهما عليهما السلام ، ولم يطلقوا لفظ الصلاة على أحدٍ من المسلمين إلّا على عليّ وحده .

---

(١) سورة التوبة ١٠٣
(٢) سورة البقرة ١٥٧

— ٧٢ —

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام قاله لمروان بن الحكم بالبصرة .

قالوا : أُخِذَ مَرْوان بن الحكم أسيراً يوم الجمل فاستشفع الحسنَ والحسينَ عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام ؛ فكلّماه فيه فخَلَّى سبيله ،فقالا له : يُبايِعُك ياأمير المؤمنين.

قال عليه السلام :

أَوَلَمْ يُبَايِعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ ! لَا حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ ؛ إِنَّهَا كَفٌّ يَهُودِيَّةٌ ، لَوْ بَايَعَنِي بِيَدِهِ لَغَدَرَ بِسَبَّتِهِ. أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ الْكَلْبِ أَنْفَهُ ، وَهُوَ أَبُو الْأَكْبُشِ الْأَرْبَعَةِ ، وَسَتَلْقَى الْأُمَّةُ مِنْهُ وَمِنْ وَلَدِهِ يَوْماً أَحْمَرَ .

• • •

الشرح :

قد رُوِى هذا الخبر من طرق كثيرة ، ورويت فيه زيادة لم يذكرها صاحب " نهج البلاغة " ، وهي قوله عليه السلام في مروان : « يَحْمِلُ رايةَ ضلالة بعد مايَشِيبُ صُدْغاه ، وإنّ له إمْرة . . . » إلى آخر الكلام .

وقوله : « فاستشفع الحسنَ والحسينَ إلى أمير المؤمنين عليه السلام » ، هو الوجه ، يقال : استشفعتُ فلانا إلى فلان ؛ أي سألته أن يشفَع لي إليه ، وتشفّعت إلى فلان في فلان فشَفَّعني فيه تشفيعاً. وقول الناس : « استشفعتُ بفلان إلى فلان » بالباء ليس بذلك الجيِّد.

وقول أمير المؤمنين عليه السلام : « أو لم يبايعني بعد قتل عثمان ! » أي وَقَدْ غدر ؛ وهكذا لوبايعني الآن .

ومعنى قوله : « إنها كفٌّ يهوديةٌ » أى غادرة ، واليهود تنسب إلى الغدر والخبث ، وقال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ ﴾ (١) .

والسَّبَّة : الاست ، بفتح السين ، سمّه بسبّه أى طعنه فى الموضع ؛ ومعنى الكلام محمولٌ على وجهين :

أحدهما : أن يكون ذكر السّبّة إهانة له وغلظة عليه ، والعرب تسلك مثل ذلك فى خطبها وكلامها ؛ قال المتوكّل لأبى العيناء : إلى متى تمدحُ الناس وتذمّهم ؟ فقال : ماأحسنوا وأساءوا ؛ ثم قال : يأمير المؤمنين ؛ إنّ الله تعالى رَضِيَ عن واحد فمدحه ، وسخط على آخر فهجاه وهجا أمّه ؛ قال : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ (٣) ؛ والزّنيم ولد الزنا (٤) .

الوجه الثانى : أن يريد بالكلام حقيقة لا مجازاً ؛ وذلك لأنّ الغادرَ من العرب كان إذا عزم على الغدْر بعد عَهْد قد عاهده أو عَقْد قد عقده ، حبَق استهزاء بما كان قد أظهره من اليمين والعهد ؛ وسُخرية وتهكّما .

والإمْرة : الولاية ، بكسر الهمزة . وقوله : « كَلَعْقَةِ الكلب أنفَه » ، يريد قِصَر المدّة ، وكذلك كانت مدّة خلافة مرْوان ، فإنهُ ولِيَ تسعة أشهر .

والأكبُش : الأربعة بنو عبد الملك : الوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام ؛ ولم يَلِ الخلافةَ من بنى أميّة ولا من غيرهم أربعة إخوة إلا هؤلاء .

وكلّ الناس فسّرُوا الأكبُشَ الأربعة بمَنْ ذكرناه ؛ وعندى أنه يجوز أن يعنى به

---

(١) سورة المائدة ٨٢
(٢) سورة ص ٣٠ ، ٤٤
(٣) سورة القلم ١٣
(٤) الحبق : الضريط .

بنى مَرْوان لصُلبه ؛ وهم: عبد الملك ، وعبدالعزيز ، وبِشْر ، ومحمد ؛ وكانوا كباشاً أبطالاً أنجاداً ، أما عبد الملك فَوَلِيَ الخلافة ، وأما بِشْر فَوَلِيَ العراق ، وأمّا محمد فَوَلِيَ الجزيرة ، وأما عبد العزيز فَوَلِيَ مصر ، ولكلّ منهم آثار مشهورة . وهذا التفسير أولى ؛ لأن الوليد وإخوته أبناء ابنه ، وهؤلاء بنوه لصُلْبه .

ويقال لليوم الشديد : يوم أحمر ، وللسَّنة ذاتِ الجدْب : سَنة حَمْراء .

وكلُّ ما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الكلام وَقَع كما أخبر به ؛ وكذلك . قوله : « يحمل راية ضلالة بعد ما يشيب صُدغاه » ، فإنه ولِيَ الخلافة وهو ابن خمسة وستين في أعدل الروايات .

* * *

[مروان بن الحكم ونسبه وأخباره]

ونحنُ ذاكرون في هذا الموضع نَسَبَه ، وجُمَلاً من أمره وولايته الخلافة ؛ ووفاته على سبيل الاختصار :

هو مَرْوان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف ، وأمّه آمنة بنت عَلْقمة بن صفوان بن أميّة الكِنانيّ . يُكنَى أبا عبد الملك ، ولِدَ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ منذ سنة اثنتين من الهجرة ، وقيل عام الخندق ، وقيل يوم أُحُد ؛ وقيل غير ذلك . وقال قومٌ : بل ولد بمكة ، وقيل : ولد بالطائف . ذكر ذلك كلّه أبو عمر بن عبد البَرّ في كتاب " الاستيعاب "[1] .

قال أبو عُمَر : ومنْ قال بولادته يومَ أحُـد مالك بن أنس ، وعلى قوله يكونُ

---

(١) الاستيعاب ١٣٨٧ ـ ١٣٩٠ (طبعة نهضة مصر)

رسول الله صلى الله عليه وآله قد تُوُفِّيَ ، وعمره ثمان سنين أو نحوها .

وقيل : إنه لما نُفِيَ مع أبيه إلى الطائف كان طفلا لا يعقل ، وإنه لم يرَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان الحكَم أبوه قد طرده رسول الله من المدينة ، وسيّره إلى الطائف ، فلم يَزَلْ بها حتى وَلِيَ عثمان ، فردّه إلى المدينة ، فقدمها هو وولده في خلافة عثمان ، وتوفِّيَ ، فاستكتبه عثمان وضمّه إليه ، فاستولَى عليه إلى أن قتل .

والحكَم بن أبي العاص[1] هو عمّ عثمان بن عفان ، كان من مُسلمة الفتح ومن المؤلّفة قلوبُهم ، وتوفِّيَ الحكَم في خلافة عثمان قبل قتله بشهور .

واختلف في السبب الموجب لنفي رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فقيل : إنه كان يتحيّل ويستخفي ويتسمّع[2] ما يُسِرُّه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أكابر الصحابة في مُشركي قريش وسائر الكفار والمنافقين ، ويُفْشِي ذلك عنه ، حتى ظهر ذلك عنه[3] .

وقيل كان يتجسّس على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو عند نسائه ، ويسترقُ السّمع ، ويُصغِي إلى ما يجرى هناك ممّا لا يجوز الاطّلاع عليه ، ثم يحدِّث به المنافقين على طريق الاستهزاء .

وقيل : كان يحكِيه في بعض مِشْيته وبعض حركاته ، فقد قيل : إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان إذا مشى يتكفّأ[4] ، وكان الحكَم بن أبي العاص يحكِيه ، وكان شانئًا له مبغضًا حاسدًا ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وآله يومًا ، فرآه يمشي خَلْفه يحكِيه في مِشْيته ؛

---

(١) الاستيعاب ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٢) كذا في الاستيعاب ، وفي الأصول : « يسمع » .

(٣) ج : « منه » .

(٤) قال ابن الأثير في النهاية ٤ - ٢٤ في صفة مشيه عليه الصلاة والسلام : « كان إذا مشى تكفّى تكفّيًا » ؛ أي تمايل إلى قدام ؛ هكذا روى غير مهموز ، والأصل الهمز ، وبعضهم يرويه مهموزا لأنه مصدر تفعل . . . » .

فقال له : كذلك فلتكُنْ يا حكَم . فكان الحكم مُختلِجا يرتعش من[1] يومئذ ، فذكر ذلك عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ؛ فقال لعبد الرحمن بن الحكم يهجوه :

إنّ اللعين أبوك فارمِ عظامَـــهُ   إن ترمِ ترمِ مخلَّجــا مجنونا

يمشى خميصَ البطنِ مِنْ عملِ التُّقَى   ويظلُّ مِنْ عمـلِ الخبيث بطِينا

قال صاحب الاستيعاب : أما قول عبد الرحمن بن حسان « إنّ اللعين أبوك » فإنه روى عن عائشة من طرق ذكرها ابن أبي خَيْثَمة وغيره ، أنها قالت لمروان إذْ قال في أخيها عبد الرحمن أنه أنزل فيه : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[2] : أما أنت يا مروان فأشهدُ أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لعَن أباك وأنت في صُلْبه[3] .

وروى صاحب كتاب " الاستيعاب " بإسناد ذكره عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يدخل عليكم رجل لَعين » ، قال عبد الله : وكنتُ قد رأيتُ أبي[4] يلبس ثيابه ليقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلم أزل مشفقاً أن يكون أوّل مَنْ يدخل ، فدخل الحكَم بن أبي العاص .

قال صاحب " الاستيعاب " : ونظر عليّ عليه السلام يوما إلى مَرْوان ، فقال له : « ويل لك ، وويل لأمة محمد منك ومن بنيكَ[5] إذا شاب صُدغاك ! » . وكان مَرْوان يدعَى

---

(١) الخبر في النهاية لابن الأثير ١ : ٣١٠ عن عبد الرحمن بن أبي بكر : « أن الحكم بن أبي العاص ابن أبي أمية أبا مروان ، كان يجلس خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا تكلم اختلج بوجهه ، فرآه فقال له : كن كذلك ، فلم يزل يختلج حتى مات أي كان يحرك شفتيه وذقنه استهزاء وحكاية لفعل النبي صلى الله عليه وسلم فبقي يرتعد ويضطرب إلى أن مات »

(٢) سورة الأحقاف ١٧

(٣) الاستيعاب : « تركت » .

(٤) الاستيعاب : « عمراً » .

(٥) ج : « بيتك » .

خَيْط باطل ؛ قيل : لأنه كان طويلا مضطربا .

وضرب يوم الدار على قفاه فخرّ لفيه [1] فلما بُويع له بالخلافة ، قال فيه أخوه عبدُ الرحمن بن الحكم — وكان ماجنا شاعرا [مُحْسِنا] [2] ؛ وكان لا يَرى رأى مروان :

فواللهِ مَا أَدْرِى وَإِنِّى لَسَائِلٌ ... حليلةَ مَضْرُوبِ القفا كَيْفَ تَصْنَعُ

لحا اللهُ قوماً أَمَّرُوا خيطَ باطلٍ ... علَى النَّاس يُعطى مايشاء ويَمْنَعُ

وقيل : إنما قال له أخوه عبد الرحمن ذلك حينَ ولّاه معاوية إمْرَةَ المدينة ، وكان كثيرا مايهجوه ؛ ومن شعره فيه :

وهبتُ نصيبى مِنْكَ يامَرْوَ كُلَّهُ ... لعمرٍو ومروانَ الطويلِ وخالدِ

ورب ابن أمٍّ زائد غير ناقصٍ ... وأنت ابنُ أمٍّ ناقصٌ غيرُ زائدِ

وقال مالك بن الرَّيْب يهجو مَرْوان بن الحكم :

لعمْرُك مامَرْوَان يقضى أمورَنا [3] ... ولكنَّ مايقضى لنا بنت جَعْفَرِ

فياليتَها كانَتْ عَلَيْنَا أميرةً ... وليتك يامَرْوان أمسيْتَ ذا حِرِ

ومن شعر أخيه عبد الرحمن فيه :

أَلَا مَنْ يُبْلِغَنْ مَرْوَانَ عَنِّى [4] ... رَسُولًا والرَّسُولُ من البَيَانِ

بأنك لَنْ ترى طَرْداً لحُرٍّ ... كإلصاقٍ به بعضَ الهَوَانِ [5]

وهل حُدِّثْتَ قبلِى عن كريمٍ ... معينٍ فى الحوادث أو مُعانِ

يقيمُ بدار مضيعـــةٍ إذا لمْ ... يكن حيران أو خَفِقَ الجنان

(١) الاستيعاب : « لجرى لفيه » .

(٢) من الاستيعاب .

(٣) فى الأصول : « يا مروان » والصواب ما أثبته من الاستيعاب .

(٤) الاستيعاب : « من مبلغ » .

(٥) ورد البيت محرفا فى الأصول ، وما أثبته من الاستيعاب .

فلا تقذف بى الرَّجَوَيْنِ إنى ... أقلّ القوم مَنْ يُغنى مكانى[1]

سأكفيك الذى استكفيتَ منّى ... بأمرٍ لا تُخالجه اليدانِ

فلو أنّا بمنزلةٍ جَرَيْنـــا ... جَرَيْتَ وأنتَ مُضطرب العِنانِ

ولولا أنّ أمّ أبيك أمّى ... وأنّ من قد هجـاك فقد هَجَانى

لقـــد جاهرتُ بالبَغضاء إنّى ... إلى أمْرِ الجهارة والعِـــلانِ

ولما صار أمر الخلافة إلى معاوية ، ولّى مروانَ المدينة ، ثم جمع له إلى المدينة مكّة والطائف ، ثم عزله وولّى سعيدَ بنَ العاص ، فلما مات يزيد بن معاوية ، ووليَ ابنُه أبو ليلى معاوية بن يزيد فى سنة أربع وستين ، عاش فى الخلافة أربعين يوماومات ، فقالت له أمّه أم خالد بنت أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس : اجعل الخلافةَ من بعدك لأخيك، فأبى وقال : لا يكونُ لى مُرُّها ولكم حُلْوها ، فوثب مروان عليها ، وأنشد :

إنّى أرى فتنةً تَغلِى مراجِلُها ... والمُلْكُ بعد أبى ليلَى لمَنْ غَلَبا

* * *

وذكر أبو الفرج علىّ بن الحسين الأصفهانى فى كتاب " الأغانى ": أن[2] معاوية لما عَزل مَرْوان بن الحكم عن إمْرة المدينة والحجاز ، وولّى مكانه سعيد بن العاص ، وجّه مَرْوان أخاه عبد الرحمن بن الحكَم أمامه إلى معاوية ، وقال له : الْقَهْ قبلى فعاتِبْه لى واستَصْلِحه .

قال أبو الفرج : وقد رُوِى أنّ عبدَ الرحمن كان بدمشق يومئذ ، فلما بلغه خبرُ عَزْلِ مَرْوان وقدومه إلى الشام، خرج وتلقّاه ، وقال له : أقِمْ حتّى أدخلَ إلى أخيك[3] ، فإن كان عَزَلك عن مَوْجِدة دخلتَ إليه منفردا ، وإن كان عن غير مَوْجِدة دخلتَ إليه مع الناس

---

(١) الرجا : ناحية البئر من أعلاها ، إلى أسفلها ، وتثنيه رجوان ، (على البناء للمجهول) ورمى به الرجوان، أى استهين به ، فكأنه رمى به هناك ، أى طرح فى المهالك .

(٢) الأغانى ١٣ : ٢٥٩ وما بعدها (طبعة الدار) .

(٣) الأغانى : « الرجل » .

فأقام مَرْوان ومضى عبد الرحمن ، فلما قدم على معاوية دخل إليه وهو يُمَشِّي الناس ، فأنشده :

أَتتْكَ العِيسُ تَنْفَخُ في بُرَاها ... تَكَشَّفُ عن مناكِبها القُطُوعُ[1]

بِأَبْيَضَ مِنْ أُمَيَّةَ مَضْرَحِيٍّ ... كأن جبينَه سَيْفٌ صنيعُ[2]

فقال له معاوية : أزائراً جئت أم مفاخرا مكاثرا ؟ فقال : أيَّ ذلك شئت ! فقال : ماأشاء من ذلك شيئا ؛ وأراد معاوية أن يقطعه عن كلامه الذى عَنّ له ، فقال له : على أيّ ظهر جئتنا ؟ فقال : على فرس ، قال : ما صفته ؟ قال : أجشّ هَزِيم ـ يعرِّض بقول النَّجاشيّ في معاوية يوم صِفِّين :

وَنَجّى ابنَ حَرْبٍ سابحٌ ذو عُلالةٍ ... أجشُّ هزيمٌ والرماحُ دَوَانِ[3]

إذا قلت أطرافُ الرِماحِ تنالُه ... مَرَتْه له السّاقان والقَدَمان[4]

فغضِب معاوية ، وقال : إلّا إنه لايركبُه صاحبُه في الظُّلَم إلى الرِّيَب ؛ ولا هو ممن يتسوّر على جاراتِه ، ولا يتوثّب بعد هَجْعة الناس على كنائنه[5] ـ وكان عبد الرحمن يُتَّهمُ بذلك في امرأة أخيه ـ فخجل عبدُ الرحمن ، وقال : ياأميرَالمؤمنين ، ماحمَلك على عَزْل ابن عمّك؟ ألخيانةٍ أوجبتْ ذلك ، أم لرأيٍ رأيتَه وتدبير استصلحته ؟ قال : بل لتدبير استصلحته ، قال : فلا بأس بذلك . فخرج من عنده فلقيَ أخاه مَرْوان ، فأخبره بمادارَ بينه وبين معاوية ، فاستشاط غيظا وقال لعبد الرحمن : قَبَحك الله ، ماأضعفك ! عَرَّضت للرجل بما أغضبه ، حتى إذا انتصر[6]

---

(١) العيس : النوق البيض ، يخالط بياضها شقرة . والبرى ، جمع برة ، بضم ففتح ، وهي حلقة تجعل في أنف البعير . والقطوع : جمع قطع ، بالكسر ؛ وهو الطنفسة تكون تحت الرحل .

(٢) المضرحي : السيد الكريم ، والصنيع : السيف المجرب المجلو .

(٣) السابح : الفرس السريع . والعلالة : البقية من الجرى والأجش : الغليظ الصوت من الإنسان ومن الخيل ومن الرعد . والهزيم : الفرس الشديد الصوت .

(٤) مرته : استدرت جريه وفي الأغاني : « إذا حلت » .

(٥) كنائن : جمع كنة ؛ امرأة الأخ أو الابن .

(٦) الأغاني : « انتصف » .

منك أحجمت عنه . ثم لبس حُلّته ، وركب فرسَه ، وتقلّد سيفَه ، ودخلَ على مُعاوية ، فقال له حين رآه وتبيّن الغضبَ في وجهه : مَرْحَبًا بأبي عبد الملك ! لقد زرتَنا عند اشتياق منّا إليك ، فقال : [لا][1] هاالله ، مازرتُك لذلك ولا قدمتُ عليك فألفيتُك إلا عاقًّا قاطعا ؛ والله ماأنصفتَنا ولا جزيتَنا جزاءنا، لقد كانت السابقة من بنى عبد شمس لآل أبى العاص ، والصِّهر من رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ، والخلافة منهم[2] ، فوصلوكم يابنى حَرْب وشرّفوكم وولّوْكم ، فما عزلوكم ولا آثروا عليكم ؛ حتى إذا وليتم وأفضى الأمرُ إليكم أبيتم إلا أثَرة وسوء صنيعة وقبح قطيعة ، فرويدا رويدا ! فقد بلغ بنو الحكم وبنو بنيه نيّفا وعشرين ، وإنما هى أيام قلائل حتى يكملوا أربعين ، ثم يعلم امرُؤ مايكون منهم حينئذ ؛ ثم هم للجزاء بالحسنى والسوء بالمرصاد .

قال أبو الفرج : هذا رمز إلى قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا بلغ بنوأبى العاص أربعين رجلا ، اتخذوا مال الله دُوَلا وعباد الله خَوَلا » ، فكان بنو أبى العاص يذكرون أنهم سيلون أمْرَ الأمة إذا بلغوا هذه العدّة .

قال أبو الفرج : فقال له معاوية : مهلاً أبا عبد الملك ، إنّى لم أعزِلْك عن خيانة ، وإنّما عزلتُك لثلاثة لو لم يكن منهنّ إلا واحدة لأوجبتْ عَزْلَك : إحداهُنّ أنى أمّرتُك على عبد الله بن عامر ، وبينكما مابينكما ، فلن تستطيع أن تشتفىَ منه ، والثانية كراهيتُك لإمْرة زياد ، والثالثة أنّ ابنتى رَمْلة استعدتْك على زوجها عمرو بن عثمان ، فلم تُعْدِها . فقال مروان : أمّا ابن عامر فإنّى لاأنتصر منه فى سلطانى ، ولكن إذا تساوت الأقدام علم أين موقعه ، وأما كراهتى لإمْرة زياد فإنّ سائرَ بنى أمية كرهوه ؛ وجعل الله لنا فى ذلك المكروهِ خيرا كثيرا . وأما استعداء رملة على عمرو ؛ فوالله إنه ليأتى علىّ سنة أو أكثر

---

(١) من الأغانى ، وها هنا للتنبيه وبعدها حرف قسم محذوف (انظر المغنى ١ : ٣٤٩) .
(٢) الأغانى : « فيهم » .

وعندى بنت عثمان ، فما أكشف لها ثوباً – يعرض بأنّ رملة إنما تستعدى على عمرو بن عثمان طلب النكاح – فغضب معاوية ، فقال: يابن الوَزَغ[1] ؛ لستَ هناك! فقال مروان: هو ما قلت لك؛ وإنّى الآن لأبو عشرة، وأخو عشرة ، وعمّ عشرة ، وقد كاد ولدا أبى[2] أن يكملوا العِدّة – يعنى أربعين ؛ ولو قد بلغوها لعلمت أين تقع منى . فانخزل[3] معاوية ، وقال :

فإن أكُ فى شِرَارِكُمْ قليلاً فإنّى فى خيارِكُمْ كثيرُ[4]
بغاثُ الطّيْرِ أكثرُها فِرَاخاً وأمّ الصَّقْرِ مِقْلاتٌ نَزُورُ[5]

ثم استخذَى معاوية فى يد مروان[6] وخضع ، وقال : [لك][7] العُتْبَى ، وأنا رادك إلى عملك . فوثب مروان ، وقال : كلاّ وعيشِك لا رأيتَنى عائداً ! وخرج .

فقال الأحنف لمعاوية : ما رأيت قطّ لك سَقْطَةً مثلها ! ما هذا الخضوع لمروان ! وأىّ شىء يكون منه ومن بنى أبيه إذا بلغوا أربعين ؟ وما الذى تخشاه منهم ؟ فقال : ادْنُ منّى أخبرْكَ ذلك ، فدنا الأحنف منه ، فقال [له][7] : إنّ الحكَم بنَ أبى العاص كان أحدَ مَنْ قَدِم مع [أختى][7] أمّ حبيبة لما زُفّتْ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهو يتولّى نقلها إليه ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلّم يُحِدّ النظر إليه ، فلما خرج من عنده ، قيل : يارسول الله ، لقد أحدَدْتَ النظر إلى الحكم ! فقال : ابن المخزوميّة ، ذاك رجل إذا بلغ بنو[8] أبيه ثلاثين أو أربعين ، ملكوا الأمر من بعدى ، فوالله لقد تلقّاها مَرْوان من عين صافية . فقال الأحنف : رويداً يا أمير المؤمنين ؛ لا يسمعْ هذا منك أحد ؛ فإنك تضعُ من قَدْرِك وقَدْرِ ولدك بعدك ؛ وإنْ يقضِ الله أمراً يكن . فقال :

---

(١) الوزغ : جمع وزغة ، سام أبرص ، سميت بها لخفتها وسرعة حركتها .
(٢) الأغانى : « ولد » . (٣) انخزل ، أى تراجع .
(٤) البيتان من مقطوعة العباس بن مرداس – حماسة أبى تمام – بشرح المرزوقى ٣ – ١٤٥٣ ؛ ونسب صاحب اللسان فى (قلت) البيت الثانى إلى كثير عزة .
(٥) المقلات : مفعال ، من القلت ، وهو الهلاك . والنزور : القليلة .
(٦) الأغانى : « فى يد مروان » .
(٧) من الأغانى .
(٨) الأغانى : « ولد » .

معاوية : اكْتُمْها يا أبا بحر عليّ إذاً ! فقد لَعَمْرُك [١] صدقتَ ونصحت .

* * *

وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب " مفاخرة هاشم وعبد شمس "، أنّ مَرْوان كان يُصحِّف ، وأنه كان ينشد يوم مرج راهط والرءوس تُنْدَر عن كواهلها :

وما ضَرَّهُمْ غيرَ حَيْنِ النُّفوُ س أيّ غلامَي قريش غَلَبْ !

قال : وهذا حُمْق شديد ، وضعف عظيم ! قال : وإنما سادَ مَرْوان وذُكِر بابنه عبد الملك ، كما ساد بنوه ! ولم يكن في نفسه هناك .

* * *

فأمّا خلافة مروان ، فذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ في التاريخ [٢] أنّ عبد الله بن الزبير لما أخرَج بني أميّة عن الحجاز إلى الشام في خلافة يزيد بن معاوية ، خرجوا وفيهم مَرْوان ، وابنه عبد الملك ، ولم تطُلْ مدّةُ يزيد ، فتوفِّيَ ، ومات ابنُه بعده بأيام يسيرة . وكان من رَأْي مَرْوان أن يدخل إلى ابن الزّبير بمكّة فيبايعه بالخلافة ، فقدِمَ عبيدُ الله بن زياد ، وقد أخرجه أهلُ البصرة عنها بعد وفاة يزيد . فاجتمع هو وبنو أميّة ، وأخبروه بما قد أجمع عليه مروان ، فجاء إليه ، وقال : استحييت لك يا أبا عبد الملك ، فما يريد ! أنتَ كبير قريش وسيّدها تصنع ما تصنع ، وتشخص إلى أبي خُبَيْب فتبايعه بالخلافة ! فقال مَرْوان : ما فات شيء بعد ! فقام مَرْوان ، واجتمع إليه بنو أميّة ومواليهم وعُبَيد الله بن زياد وكثير من أهل اليمن وكثير من كَلْب ، فقدم دمشق وعليها الضحّاك ابن قيس الفِهْريّ ، قد بايعه النّاس على أنْ يُصَلِّيَ بهم ، ويقيمَ لهم أمرَهم ، حتى يجتمع

---

(١) الأغاني : « لعمري » .

(٢) تاريخ الطبري ٧ : ٥٣٠ وما بعدها ؛ مع تصرف واختصار .

الناس على إمام ، وكان هوى الضحاك مع ابن الزبير إلا أنه لم يبايع له بعد ، وكان زفر ابن الحارث الكلابيّ بقنّسرين يخطب لابن الزبير ، والنعمان بن بشير الأنصاري بحمص يخطب لابن الزبير ، وكان حسان بن مالك بن بحدل الكلبيّ بفلسطين يهوى هوى بني أمية ، ثم من بينهم بني حرب ، لأنه كان عاملاً لمعاوية ، ثم ليزيد بن معاوية من بعده ، وكان حسّان بن مالك مُطاعاً في قومه ، عظيما عندهم ؛ فخرج عن فِلَسْطين يريد الأردنّ ، واستخلف على فلسطين رَوْح بن زنباع الجذاميّ ، فوثب عليه بعد شُخوص حسّان بن مالك وناتل[1] بن قيس الجذاميّ أيضا ، فأخرجه من فلسطين ، وخطب لابن الزبير ، وكان له فيه هوًى ، فاستوثقت الشام كلُّها لابن الزبير ، ماعدا الأردنّ ؛ فإنّ حسان بن مالك الكلبيّ كان يهوى هوى بني أميّة ، ويدعو إليهم ؛ فقام في أهل الأردن فخطبهم ؛ وقال لهم : ماشهادتُكم على ابن الزبير وقَتْلَى المدينة بالحرّة ؟ قالوا : نشهد أنّ ابن الزبير كان منافقا ؛ وأن قَتْلَى أهل المدينة بالحرّة في النار ، قال : فما شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاكم بالحرّة ؟ قالوا : نشهد أن يزيد بن معاوية كان مؤمناً ، وكان قتلانا بالحرّة في الجنة ، قال : وأنا أشهد أنه إن كان دين يزيد ابن معاوية وهو حيّ حقا ، إنه اليوم لَعَلَى حقّ هو وشيعته ، وإن كان ابن الزبير يومئذ هو وشيعتُه على باطل ؛ إنه اليوم وشيعته على باطل ؛ قالوا : صدقت ، نحن نبايعك على أن نقاتلَ معك مَنْ خالفك من الناس وأطاع ابن الزبير ، على أن تجنّبنا ولاية هذين الغلامين ابني يزيد بن معاوية ، وهما خالد وعبد الله ، فإنهما حديثة أسنانُهما ونحن نكْرهُ أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبيّ ؛

قال : وقد كان الضحاك بن قيس يُوالى ابنَ الزبير باطنا ، ويهوى هواه ، ويمنعه إظهارَ ذلك بدمشق والبيعةَ له أنّ بني أمية وكَلْبا كانوا بحضرته ، وكلب أخوالُ يزيد

(١) في الأصول : « نائل » ، والصواب ما أثبته من تاريخ الطبري .

ابن معاوية وبنيه ، ويطلبون الإمْرةَ لهم ، فكان الضّحاك يعمل فى ذلك سرًّا ، وبلغ حسان ابن مالك بن بحدل ما أجمع عليه الضّحاك ، فكتب إليه كتابا يعظّم فيه حقّ بنى أمية ، ويذكر الطاعة والجماعة وحسن بلاء بنى أمية عنده وصنيعهم إليه ، ويدعوه إلى بيعتهم وطاعتهم ويذكر ابنَ الزبير ويقع فيه ويشتمه ، ويذكر أنّه منافق قد خلع خليفتين ، وأمره أن يقرأ كتابه على الناس ؛ ثم دعا رجلا من كلْب يقال له ناغضة ، فسرّح بالكتاب معه إلى الضحاك بن قيس ، وكتب حسّانُ نسخة ذلك الكتاب ، ودفعه إلى ناغضة ، وقال له : إنْ قرأ الضحاك كتابى على الناس ، وإلا قم أنت واقرأ هذا الكتاب عليهم ، وكتب حسان إلى بنى أمية يأمرهم أن يحضُروا ذلك ، فقدم ناغضة بالكتاب على الضّحاك ، فدفعه إليه ، ودفع كتابَ بنى أميّة إليهم سرًّا .

فلما كان يوم الجمعة ، وصَعِد الضّحاك على المنبر ، وقدم إليه ناغضة ، فقال : أصلح الله الأمير ! ادعُ بكتاب حسّان فاقرأه على الناس ، فقال له الضّحاك : اجلس ، فجلس ثم قام ثانية فتكلّم مثل ذلك ، فقال له : اجلس ، فجلس ، ثم قام ثالثة وكان كالثانية والأولى ، فلما رآه ناغضة لا يقرأ الكتاب أخرج الكتاب الذى معه ، فقرأه على الناس . فقام الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، فصدق حسّان ، وكذّب ابنَ الزّبير وشتمه ، وقام يزيد بن أبى النمس الغسّانى ، فصدّق مقالة حسان وكتابه ، وشتم ابن الزبير ، وقام سُفيان بن أبرد الكلبىّ ، فصدّق مقالة حسان وشتم ابنَ الزّبير ، وقام عمر بن يزيد الحكَمىّ ، فشتم حسان ، وأثنى على ابن الزبير ، فاضطرب الناسُ ، ونزل الضّحاك بن قيس ، فأمر بالوليد بن عُتْبة ، وسفيان ابن الأبرد ، ويزيد بن أبى النّمس الذين كانوا صدّقوا حسان ، وشتموا ابنَ الزبير . فحبسوا ، وجال الناس بعضُهم فى بعض ، ووثبت كلْب على عمر بن يزيد الحكَمىّ فضربوه ، وحرّقوا ثيابه . وقد كان قام خالد بن يزيد بن معاوية فصعد مِرْقاتَين[1] من المنبر ، وهو يومئذ غلام . والضحاك بن قيس فوق المنبر ، فتكلّم بكلام أوجَز فيه ، لم يُسْمع بمثله ، ثم نزل .

---

(١) المرقاة : الدرجة فى السلم .

فلما دخل الضحاك بن قيس داره ، جاءت كلْب إلى السجن فأخرجوا سفيان بن أبرد الكلبيّ ، وجاءت غسان ؛ فأخرجوا يزيد بن أبي النمس ؛ وقال الوليد بن عُتْبة : لو كنتُ من كلب أو غسّان ؛ لأخرجت ؛ فجاء ابنا يزيد بن معاوية : خالد وعبد الله ؛ ومعهما أخوالُهما من كَلْب ، فأخرجوه من السجن .

ثم إنّ الضّحاك بن قيس خرج إلى مسجد دمشق ، فجلس فيه ؛ وذكر يزيد بن معاوية فوقع فيه، فقام إليه شاب من كلْب ومعه عصا؛ فضربه بها؛ والناس جلوس حَلَقاً ،متقلّدي السيوف . فقام بعضُهم إلى بعض في المسجد ؛ فاقتتلوا ، فكانت قيس عَيْلان قاطبةً تدعو إلى ابن الزبير ومعهما الضحاك ، وكلْب تدعو إلى بني أمية ، ثم إلى خالد بن يزيد ، فيتعصبون له ، فدخل الضحاك دارَ الإمارة ، وأصبح الناس ، فلم يخرج الضّحاك إلى صلاة الفجر .

فلما ارتفع النهارُ بعث إلى بني أميّة، فدخلوا عليه، فاعتذر إليهم ، وذكر حسن بلائهم عنده ، وأنه ليس يهوَى شيئاً يكرهونه، ثم قال : تكتبون إلى حسّان ونكتب ، ويسير حسان من الأردنّ حتى ينزل الجابية[1] ونسير نحن وأنتم حتى توافيَه بها ؛ فيجتمع رأيُ الناس على رجل منكم ! فرضيتْ بذلك بنو أميّة ، وكتبوا إلى حسّان وهو بالأردنّ وكتب إليه الضحاك يأمره بالموافاة في الجابية ، وأخذ الناس في الجهاز للرحيل .

وخرج الضحاك بن قيس من دمشق ، وخرج الناس وخرجت بنو أمية ، وتوجّهت الراياتُ يريدون الجابية ، فجاء ثور بن معن بن يزيد بن الأخنس السُّلَميّ إلى الضحاك ؛ فقال : دعوتَنا إلى طاعة ابن الزبير فبايعناك على ذلك؛ ثم أنت الآن تسير إلى هذا الأعرابي من كَلْب لتستخلف ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية! فقال الضّحاك : فما الرأي؟ قال: الرأيُ أن

---

(١) الجابية ، بكسر الباء وياء خفيفة : من أعمال دمشق .

نظير ما كفا نُسر ، وندعو إلى طاعة ابن الزبير، وقاتل عليها . قال الضحاك بمن معه من الناس ، وانخزل من بنى أمية ومن معهم من قبائل اليمن فنزل مَرْج راهط .

قال أبو جعفر : واختلف فى أى وقت كانت الوقعة بمرج راهط فقال الواقدى : كانت فى سنة خمس وستين . وقال غيره : فى سنة أربع وستين .

قال أبو جعفر : وسارت بنو أمية ومن تبعها حتى وافوا حسان بالجابية، فصلى بهم أربعين يوماً ، والناس يتشاورون ، وكتب الضحاك بن قيس من مرج راهط إلى النعمان بن بشير الأنصارى، وهو على حمص يستنجده؛ وإلى زُفَر بن الحارث وهو فى قِنَّسرين، وإلى ناتل[1] ابن قيس وهو على فلسطين ليستمدّهم ؛ وكلهم على طاعة ابن الزبير ، فأمدوه ، فاجتمعت الأجناد إليه بمرج راهط ، وأما الذين بالجابية فكانت أهواؤهم مختلفة ، فأما مالك ابن هبيرة السكونى ، فكان يهوى هوى يزيد بن معاوية ، ويحب أن تكون الخلافة فى ولده ، وأما حصين بن نمير السكونى[2] ، فكان يهوى هوى بنى أمية ؛ ويحب أن تكون الخلافة لمروان بن الحكم ؛ فقال مالك بن هبيرة لحصين بن نمير : هلم فلنبايع لهذا الغلام الذى نحن ولدنا أباه ؛ وهو ابن أختنا ؛ فقد عرفت منزلتنا التى كانت من أبيه ؛ إنك إن تبايعه يحملك غدا على رقاب العرب - يعنى خالد بن يزيد - فقال الحصين : لا لعمر الله ؛ لا يأتينا العرب بشيخ ؛ ونأتيها بصبىّ ؛ فقال مالك : أَهْلَ هَوَاك فى مَرْوان ! والله إن استخلفت مروان ليحسدنك على سَوْطك وشِرَاك نعلك، وظلّ شجرة تستظل بها. إنّ مروان أبو عشرة ، وأخو عشرة وعم عشرة ، فإن بايعتموه كنتم عبيداً لهم، ولكن عليكم بابن أختكم خالد بن يزيد فقال الحصين : إنى رأيت فى المنام قنديلا معلقاً من السماء ، وإنه جاء كل من يمدّ عنقه إلى الخلافة ليتناوله ، فلم يصل إليه. وجاء مروان فتناوله ، والله لنستخلفنّه .

(١) فى الأصول : « نائل » وصوابه من تاريخ الطبرى .
(٢) فى الأصول : « السلولى » ، وما أثبته من تاريخ الطبرى .

فلما اجتمع رأيهم على بيعته ، واستمالوا حسان بن بحدل إليها ، قام رَوْح بن زنباع الجذاميّ ، فحمِد اللهَ وأثنى عليه ، فقال :

أيها الناس ؛ إنكم تذكرون لهذا الأمر عبدَ الله بن عمر بن الخطاب ، وتذكرون صحبتَه لرسول الله صلى الله عليه ، وقدَمه في الإسلام ، وهو كما تذكرون ؛ لكنّه رجل ضعيف ، وليس صاحبُ أمة محمد بالضعيف ؛ وأما عبد الله بن الزُّبير ومايذكر الناس من أمره ، وأنّ أباه حواريّ رسول الله صلى الله عليه ، وأمّه أسماء بنت أبي بكر ذات النِّطاقين ؛ فهو لعمري كما تذكرون ، ولكنه منافق قد خلع خليفتين : يزيد وأباه معاوية ، وسَفَكَ الدماء ، وشقّ عصا المسلمين ؛ وليس صاحبُ أمة محمد صلى الله عليه بالمنافق ؛ وأمّا مروان بن الحكم فوالله ما كان في الإسلام صَدْعٌ قطُّ إلا كان مَرْوان ممن يشعَب ذلك الصَّدْع ، وهو الذي قاتل عن عثمان بن عفان يوم الدّار ، والذي قاتل عليّ بن أبي طالب يوم الجمل ؛ وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير، ويستشبّوا[1] الصغير -يعني بالكبير مروان ، وبالصغير خالد بن يزيد .

فاجتمع رأيُ الناس على البيعة لمروان ، ثم لخالد بن يزيد من بعده ؛ ثم لعمرو بن سعيد ابن العاص بعدها ؛ على أن تكونَ في أيام خلافة مروان إمْرَة دمشق لعمرو بن سعيد ، وإمْرَة حِمْص لخالد بن يزيد . فلما استقرّ الأمر على ذلك ، دعا حسان بن بَحْدل خالد بن يزيد ؛ فقال : يابن أختي ؛ إنّ الناس قد أبوْك لحداثة سِنّك ، وإني والله ماأريدُ هذا الأمر إلا لك ولأهل بيتك ؛ وماأبايع مَرْوان إلا نظراً لكم ، فقال خالد : بل عجزت عنّا ، فقال : لا والله لم أعجزْ عنك ؛ ولكن الرأي لك مارأيت .

ثم إن حسّان دعا مرْوان بن الحكم ، فقال له : يامروان ؛ إنّ الناس كلّهم لايرضوْن

(١) في الأصول : « ويسلموا » وما أثبته من تاريخ الطبري .

بك ، فما ترى ؟ فقال مروان : إن يرد الله أن يعطيكها لم يمنعكها أحدٌ من خلقه ؛ وإن يرد أن يمنعكها لايعطيكها أحدٌ من خلقه ، فقال حسان : صدقت .

ثم صعد حسان المنبر ، فقال : أيها الناس ؛ إنى مستخلف فى غد أحدَ كم إن شاءالله؛ فاجتمع الناس بُكرةَ الغد ينتظرون ، فصعد حسان المنبر ، وبايع لمروان ، وبايع الناس ؛ وسار من الجابية حتى نزل بمرج راهط ؛ حيث الضَّحّاك بن قيس نازل ، فجعل مَرْوانُ على ميمنته عمرو بن سعيد بن العاص ، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد ؛ وجعل الضحاكُ على ميمنته زياد بن عمرو بن معاوية العتكىّ ، وعلى ميسرته ثور بن معن السُّلمىّ ؛ وكان يزيد ابن أبى النِّمس الغسّانىّ بدمشق ، لم يشهد الجابية ، وكان مريضا ؛ فلما حصل الضّحاك بمرج راهط[1] ، ثار بأهل دمشق فى عبيده وأهله ، فغلب عليها ، وأخرج عامل الضحاك منها؛ وغلب على الخزائن وبيت المال ، وبايع لمروان ، وأمدّه من دمشق بالرّجال والمال والسلاح؛ فكان ذلك أولَ فتح فُتح لمروان .

ثم وقعت الحرب بين مَرْوان والضحاك ؛ فاقتتلوا بمرج راهط عشرين ليلة؛ فهزم أصحابُ الضحاك وقتلوا ؛ وقتل أشراف الناس من أهل الشام ؛ وقُتِل قيسٌ مقتلة لم تقتل مثلها فى موطن قطّ ، وقتل ثور بن معن السُّلمىّ الذى ردّ الضحاك عن رأيه .

قال أبو جعفر : ورُوىَ أن بشر بن مروان كان صاحب الراية ذلك اليوم ، وأنه كان ينشد :

إن علَى الرئيس حَقًّـــا حقًّا أن يخضب الصَّعْدَةَ أو يندقّا

وصُرِع ذلك اليوم عبد العزيز بن مروان [2] ثم استنقذ[3] .

قال : ومرّ مروان برجل من محارب وهو فى نفر يسير من أصحاب مروان ، فقال له :

---

(١) مرج راهط : موضع فى الغوطة من دمشق ؛ بها الواقعة المشهورة بين قيس وكلب .
(٢-٣) لم يذكر فى الطبرى .

لو انضممتَ إلى أصحابك رحمك الله ! فإنى أراك فى قِلّة ، فقال : إن مَعَنا يا أمير المؤمنين من الملائكة مددا أضعاف مَنْ تأمرنا بالانضمام إليهم ؟ قال : فضحك مروان وسُرّ بذلك ، وقال للناس ممن كان حوله : ألا تسمعون !

قال أبو جعفر : وكان قاتل الضحاك رجلاً من كلب ، يقال له زَحْنة بن عبد الله ، فلما قتله وأحضِرَ الرأس إلى مروان ، ظهرت عليه كآبة ، وقال : الآن حين كَبِرَتْ سِنّى ، ودَقّ عظمى ، وصرت فى مثل ظِمْء[1] الحمار ؛ أقبلتُ أضرِب الكتائب بعضها ببعض !

قال أبو جعفر : وروى أنّ مروان أنشد لما بويع ودعا إلى نفسه :

لما رأيتُ الأمرَ أمراً نَهْبا ... سيّرتُ غسّانَ لَهُمْ وكلبا
والسَّكْسَكِيّين رجالا غُلْبا ... وطيّئاً تأباه إلا ضَرْبا
والقَيْنَ تمشى فى الحديد نُكْبا ... ومن تَنُوخَ مُشْمَخِرّا صَعْبا
لا يملكون الملك إلا غَصْبا[2] ... وإنْ دَنَتْ قيس فقل لا قُرْبا

قال أبو جعفر : وخرج الناس منهزمين بعد قتل الضحاك ؛ فانتهى أهلُ حِمص إلى حِمص ؛ وعليها النّعمان بن بشير ، فلما عرف الخبر خرج هاربا ومعه ثَقَلُه وولده ، وتحيّر ليلته كلّها ، وأصبح وهو بباب مدينة حمص ، فرآه أهلُ حِمص فقتلُوه ، وخرج زفر بن الحارث الكلابىّ من قنّسرين هاربا ، فلحق بقرقيسياء ؛ وعليها عياض بن أسْلم الجرشى[3] فلم يمكّنه من دُخُولها ، فحلف له زفر بالطلاق والعتاق أنّه إذا دخل حمّامها خرج منها ، وقال له : إنّ لى حاجةً إلى دخول الحمام ، فلما دخلها لم يدخل حمّامها وأقام بها ، وأخرج عياضا

---

(١) أى لم يبق من عمرى غير وقت قصير ، والظمء فى الأصل : ما بين الشربتين ، ويقال : إنه ليس شىء من الدواب أقصر ظمأ من الحمار .
(٢) الطبرى : « لا يأخذون الملك » .
(٣) فى الطبرى : « وهو ابن أسلم بن كعب بن مالك » .

منها، وتحصّن فيها، وثابَتْ إليه قيس عَيْلان؛ وخرج نائل بن قيس الجذاميّ من فلسطين هاربا؛ فالتحق بابن الزبير بمكة، وأطبق أهل الشام على مروان واستوثقوا له، واستعمل عليهم عُمّاله، ففي ذلك يقول زفر بن الحارث:

أرِيني سِلاحِي لَا أبَا لَكِ إنّني أرَى الحَرْبَ لَا تَزْدَادُ إلّا تَمادِيا[1]

أتانِيَ عَنْ مَرْوانَ بالغَيْبِ أنّهُ مُرِيقٌ دمِي، أو قاطِعٌ من لسانيا

وفي العِيس منجاةٌ، وفي الأرض مَهْرَبٌ إذا نحن رفّعْنا لهنّ المبانيا[2]

فقد ينبت المرعى على دِمَنِ الثّرى وتَبْقَى حَزازاتُ النُّفُوسِ كما هِيا

أتذهب كَلْبٌ لم تَنَلْها رماحُنا وتترك قَتْلَى راهِطٍ هِيَ ماهِيا

لعمري لقد أبقتْ وقيعةُ راهطٍ لحسّان صَدْعًا بيّنًا متنائيًا

أبَعْدَ ابن عمرو وابن معن تتابعا ومقتَلِ هَمّامٍ أُمَنَّى الأمانيا!

ولَمْ تُرَ مِنّي نبوةٌ قَبْلَ هذه فِرارِي وتَرْكِي صاحِبَيّ ورائيا

أيذهب يومٌ واحد إنْ أسأته بصالح أيامي وحسن بلائيا!

فلا صُلْحَ حتى تَنْحِطَ الخيلُ بالقنا وتثأرَ من نسوانِ كَلْبٍ نِسائيا[3]

وقال زُفَر بن الحارث أيضا، وهو من شعر الحماسة:

أفي اللهِ أمّا بَحْدَلٌ وابن بَحْدَلٍ فيحيا وأمّا ابنُ الزُّبَيْرِ فيقتَلُ[4]!

كَذَبْتُمْ وبيتِ اللهِ لا تقتلونَهُ ولَمّا يكن يومٌ أغرُّ محجّلُ

---

(١) الأبيات في معجم البلدان ٤ : ٢١٦، والأغاني ١٧ : ١١١ (ساسي)، مع اختلاف في الرواية بينها وبين رواية الطبري.

(٢) في الطبري: «المثانيا»، بعده:

فلا تحسبوني إن تغيّبتُ غافلاً ولا تفرحوا إن جئتُكم بلقائيا

(٣) النحط: صوت الحمل من الإعياء، بعده في الطبري:

ألا ليتَ شعري هل تُصيبنّ غارتي تنوخًا وحيّيْ طيّئٍ من شفائيا

(٤) ديوان الحماسة – بشرح المرزوقي ٢ : ٦٤٩

وَلَمَّا يكنْ للمشرفيَّة فوقَكمْ شعاعٌ كقرن الشَّمس حينَ تَرَجَّلُ (١)

* * *

وأما وفاة مروان ، والسبب فيها أنه كان قد استقرّ الأمر بعده لخالد بن يزيد بن معاوية على ماقدّمنا ذكره ، فلمّا استوثق له الأمرُ ، أحبّ أن يبايع لعبدالملك وعبدالعزيز ابنيه ، فاستشار فى ذلك ، فأشير عليه أن يتزوّج أم خالد بن يزيد ، وهى ابنة أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة ليصغِّر شأنه فلا يرشّح للخلافة ، فتزوجها . ثم قال لخالد يوما فى كلام دار بينهما والمجلس غاصّ بأهله: اسكتْ يابن الرطبة(٢)، فقال خالد: أمت لعمرى مؤتمن وخبير.

ثم قام باكيا من مجلسه ــ وكان غلاما حينئذ ــ فدخل على أمّه ، فأخبرها ، فقالت له : لا يعرفنّ ذلك فيك ، واسكتْ فأنا أكفيك أمرَه. فلما دخل عليها مروان ، قال لها: ماقال لك خالد ؟ قالت : وماعساه يقول! قال : ألم يشكُني إليك؟ قالت : إنّ خالداً أشدّ إعظاماً لك من أن يشتكيَك ، فصدّقها ، ثم مكثت أياما ، فنام عندها وقد واعدت جواريها ، فقُمْنَ إليه ، فجعلن الوسائد والبراذع عليه ، وجلَسن عليه حتى خنَقْنَه ، وذلك بدمشق فى شهر رمضان. وهو ابن ثلاث وستين سنة ، فى قول الواقدىّ .

وأما هشام بن محمد الكلبىّ ، فقال: ابن إحدى وثمانين سنة ، وقال : كان ابن إحدى وثمانين ، عاش فى الخلافة تسعة أشهر . وقيل عشرة أشهر ، وكان فى أيام كتابته لعثمان بن عفان أكثر حُكْماً ، وأشد تلطفا وتسلّطا منه فى أيام خلافته ، وكان ذلك من أعظم الأسباب الداعية إلى خلع عثمان وقتله .

وقد قال قوم : إن الضّحاك بن قيس لما نزل مَرْج راهط لم يَدْعُ إلى ابن الزُّبير ، وإنما دعا إلى نفسه ، وبويع بالخلافة ، وكان قرشيا . والأكثر الأشهر أنه كان يدعو إلى ابن الزبير .

---

(١) قرن الشمس : أول ما ظهر منها . الترجل : هو الترجح ، والترجح : قبل انتصاف النهار .
(٢) الطبرى : « يا ابن الرطبة الاست » .

(٧٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام لمّا عزموا على بيعة عثمان :

لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي؛ وَوَاللهِ لَأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً، الْتِمَاساً لِأَجْرِ ذٰلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ .

• • •

الشرح :

نافست في الشيء، مُنافسة ونِفاساً ، إذا رغبت فيه على وجه المباراة في الكرم ، وتنافسوا فيه ، أي رغبوا .

والزّخرف : الذهب ، ثم شبه به كل مموّه مزوّر ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ [1] والمزخرف : المزيّن .

والزِّبرج : الزينة من وشي أو جوهر ، ونحو ذلك . ويقال : الزبرج الذهب أيضاً .

يقول لأهل الشورى: إنكم تعلمون أنّي أحقّ بالخلافة من غيري، وتعدلون عنّي . ثم أقسم لَيُسْلِمَنَّ وليتركنّ المخالفة لهم، إذا كان في تسليمه ونزوله عن حقّه سلامةُ أمور المسلمين، ولم يكن الجورُ والحيفُ إلا عليه خاصة، وهذا كلام مثله عليه السلام، لأنه إذا علم أو غلب على ظنه أنه إن نازَع وحارَب دخل على الإسلام وَهَن وثَلْم لم يختَرْ له المنازعة ، وإن كان

---

(١) سورة يونس ٢٤ .

يطلب بالمنازعة ماهو حقّ ؛ وإن غَيم أو غُلِب على ظنّه بالإمساك عن طلب حقّه أنّما يدخل الثّلْم والوَهَن عليه خاصة ، ويسلم الإسلامُ من الفتنة ، وَجَب عليه أنْ يُغضِيَ ويصبر على ما أتوْا إليه من أخذ حقّه ، وكَفّ يده ؛ حراسة للإسلام من الفتنة .

فإن قلت : فهلّا سلّم إلى معاوية وإلى أصحاب الجمل ، وأغضَى على اغتصاب حقّه حفظاً للإسلام من الفتنة ؟

قلت : إنّ الجورَ الداخل عليه من أصحاب الجمل ومن معاوية وأهل الشام ، لم يكن مقصوراً عليه خاصّة ؛ بل كان يعمّ الإسلام والمسلمين جميعاً ؛ لأنهم لم يكونوا عنده ممن يصلح لرياسة الأمة وتحمّل أعباء الخلافة ، فلم يكن الشّرط الذى اشترطه متحقّقاً ، وهو قوله : « ولم يكن فيه جَوْر إلّا علىّ خاصة » .

وهذا الكلام يدلّ على أنه عليه السلام لم يكن يذهب إلى أنّ خلافة عثمان كانت تتضمن جَوْراً على المسلمين والإسلام ، وإنما كانت تتضمن جَوْراً عليه خاصّة ، وأنها وقعت على جهة مخالفة الأَوْلى ، لا على جهة الفساد الكلّىّ والبطلان الأصلىّ ؛ وهذا محضُ مذهب أصحابنا .

* * *

[كلام لعلىّ قبل المبايعة لعثمان]

ونحن نذكر فى هذا الموضع ما استفاض فى الروايات من مناشدته أصحابَ الشورى ، وتعديده فضائله وخصائصه التى بان بها منهم ومن غيرهم قد رَوَى الناس ذلك فأكثروا ؛ والذى صحّ عندنا أنه لم يكن الأمرُ كما رُوِى من تلك التعديدات الطويلة ؛ ولكنه قال لهم بعد أن بايع عبدُ الرحمن والحاضرون عثمانَ ، وتلكّأ هو عليه السلام عن البيعة : إنّ لنا حقّاً إن نعطَه نأخذه ، وإن نمنَعه نركب أعجاز الإبل وإن طال السُّرى ؛ فى كلام قد ذكره أهل السيرة ، وقد أوردنا بعضه فيما تقدم ، ثم قال لهم : أنشدكم الله ! أفيكم أحدٌ آخَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين نفسه ؛ حيث آخَى بينَ بعض المسلمين وبعض غيرى ؟

فقالوا: لا ؛ فقال: أفيكم أحدٌ ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مَنْ كنت مولاه فهذا مولاه » غيري ؟ فقالوا : لا ، فقال: أفيكم أحد؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أنتَ مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدى » غيري؟ قالوا : لا ، قال : أفيكم من اؤتمن على سورة براءة ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وآله إنه لا يؤدى عنّى إلا أنا أو رجل منّى غيري؟ قالوا : لا ، قال: ألا تعلمون أنّ أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فرّوا عنه في مأقِط[1] الحرب في غير موطن، وما فررت قطّ ؟ قالوا : بلى ، قال : ألا تعلمون أنى أوّل الناس إسلاما ؟ قالوا : بلى . قال : فأيّنا أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نسباً ؟ قالوا : أنت . فقطع عليه عبدُ الرحمن بن عوف كلامه ، وقال : ياعليّ ؛ قد أبَى الناس إلا على عثمان ، فلا تجعلنّ على نفسك سبيلا ، ثم قال : ياأبا طلحة ، ما الذى أمرك به عمر؟ قال : أن أقتل مَنْ شقّ عصا الجماعة ، فقال عبد الرحمن لعليّ : بايع إذن ؛ وإلا كنت متّبعاً غيرَ سبيل المؤمنين ، وأنفذْنا فيك ما أُمِرْنا به . فقال : « لقد علمتم أنى أحقُّ بها من غيري ، والله لأسْلمن . . . » الفصل إلى آخره ، ثم مدّ يده فبايع .

---

(١) المأقط : موضع القتال .

(٧٤)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام لما بلغه اتهام بنى أمية له بالمشاركة فى دم عثمان :

أَوَ لَمْ يَنْهَ بَنِى أُمَيَّةَ عِلْمُهَا بِى عَنْ قَرْفِى ! أَوَ مَا وَزَعَ الْجُهَّالَ سَابِقَتِى عَنْ تُهَمَتِى ! وَلَمَا وَعَظَهُمُ اللهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِى.

أَنَا حَجِيجُ الْمَارِقِينَ ، وَخَصِيمُ النَّاكِثِينَ الْمُرْتَابِينَ ، وَعَلَى كِتَابِ اللهِ تُعْرَضُ الْأَمْثَالُ ، وَبِمَا فِى الصُّدُورِ تُجَازَى الْعِبَادُ .

* * *

الشَّرْحُ :

القَرْف : العيب ؛ قرفته بكذا أى عبته . ووزَع : كَفّ وَرَدَع ؛ ومنه قوله : «لابدّ للناس من وَزَعة » ، جمع وازع ، أى من رؤساء وأمراء . والتُّهَمة ، بفتح الهاء ؛ هى اللغة الفصيحة ؛ وأصل التاء فيه واو .

والحجيج ، كالخصيم : ذو الحجاج والخصومة . يقول عليه السلام : أما كان فى عِلْم بنى أميّة بحالى مايَنهاها عن قَرْفى بدم عثمان ! وحاله التى أشار إليها ؛ وذَكَر أنّ عِلْمَهم بها يقتضى ألا يقرفوه بذلك ؛ هى منزلته فى الدّين التى لا منزلةَ أعلى منها ، ومانطق به الكتاب الصادق من طهارته وطهارة بنيه وزوجته ؛ فى قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾[1] . وقول النبىّ صلى الله عليه وآله : « أنتَ مِنى بمنزلة هارون من موسى » ، وذلك يقتضى عصمتَه عن الدّم الحرام ؛

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .

كما أنّ هارون معصوم عن مثل ذلك . وترادف الأقوال والأفعال من رسول الله صلى الله عليه وآله في أمره التي يضطرّ معها الحاضرون لها والشاهدون إيّاها إلى أن مثله لا يجوز أن يسعى في إراقة دم أمير مسلم ، لم يُحْدِث حدثاً يستوجب به إحلالَ دمه .

وهذا الكلامُ صحيح معقول ؛ وذاك أنّا نَرَى مَن يُظهِر ناموس الدين ، ويواظب على نوافل العبادات ، ونشاهد مِنْ وَرَعِه وتقواه ما يتقرّر معه في نفوسنا استشعارَه الدين ، واعتقاده إياه ، فيصرفنا ذلك عن قَرْفِه بالعيوب الفاحشة ، ونستبعد مع ذلك طَعْنَ مَنْ يطعن فيه ، ونُنْكِرُه ونأباه ونكذّبه ؛ فكيف ساغ لأعداء أمير المؤمنين عليه السلام ؛ مع علمهم بمنزلته العالية في الدين ، التي لم يصل إليها أحد من المسلمين ، أن يُطلِقوا ألسنتهم فيه ، وينسُبوه إلى قتل عثمان أو الممالأة عليه ؛ لا سيا وقد اتّصل بهم ، وثَبَتَ عندهم ؛ أنّه كان من أنصاره لا من المجلبين عليه ، وأنّه كان أحسنَ الجماعة فيه قولا وفعلا .

ثم قال : « ألم تَزَعِ الجهالَ وتردعْهم سابقتي عن تهمتي » ! وهذا الكلام تأكيد للقول الأولّ .

ثمّ قال : إن الذي وعظهم الله تعالى به في القرآن من تحريم الغيبة والقذف وتشبيه ذلك بأكل لحم الميت أبلغُ من وعظي لهم ، لأنه لا عظةَ أبلغُ من عظة القرآن .

ثمّ قال : « أنا حجيج المارقين ، وخَصِيم المرتابين » ، يعني يوم القيامة ؛ روى عنه عليه السلام أنه قال : « أنا أوّلُ من يجثو للحكومة بين يدي الله تعالى » ، وقد رُوِيَ عن النبيّ صلى الله عليه وآله مثل ذلك مرفوعاً في قوله تعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾[1] وأنه صلى الله عليه وآله سئل عنها ، فقال : « عليّ وحمزة وعُبيدة ، وعُتْبة وشَيْبة والوليد » ، وكانت حادثتُهم أوّلَ حادثة وقعت فيها مبارزة أهل الإيمان لأهل الشرك ، وكان المقتول الأول بالمبارزة الوليد بن عُتْبة ، قتله عليّ عليه السلام ، ضربه على رأسه فبدرَتْ عيناه على وجنته ،

(١) سورة الحج ١٩ .

فقال النبي صلى الله عليه وآله فيه وفي أصحابه ماقال ، وكان علي عليه السلام يكثر من قوله : « أنا حجيج المارقين » ، ويشير إلى هذا المعنى .

ثم أشار إلى ذلك بقوله : « على كتاب الله تعرض الأمثال » ، يريد قوله تعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ .

ثم قال : « وبما في الصدور تجازى العباد » إن كنت قتلتُ عثمان أو مالأت عليه ؛ فإنّ الله تعالى سيجازيني بذلك ، وإلا فسوف يجازى بالعقوبة والعذاب من اتّهمني به ، ونسبه إليّ .

وهذا الكلام يدلّ على مايقوله أصحابنا من تبرّؤ أمير المؤمنين عليه السلام من دم عثمان ، وفيه ردّ وإبطال لما تزعمه الإمامية ، من كونه رضيّ به وأباحه ؛ وليس يقول أصحابنا إنّه عليه السلام لم يكن ساخطا أفعال عثمان ، ولكنهم يقولون : إنه وإن سخطها وكرهها وأنكرها لم يكن مُبيحا لدمه ، ولا ممالئاً على قتله ، ولا يلزم من إنكار أعمال الإنسان إحلال دمه ، فقد لايبلغ الفعل في القبح إلى أن يستحلّ به الدم ؛ كما في كثير من المناهي .

(٧٥)

الأصْـلُ

ومن خطبة له عليه السلام :

رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ حُكْماً فَوَعَى ، وَدُعِيَ إِلَى رَشَادٍ فَدَنَا ، وَأَخَذَ بِحُجْزَةِ هَادٍ فَنَجَا . رَاقَبَ رَبَّهُ ، وَخَافَ ذَنْبَهُ ، قَدَّمَ خَالِصاً ، وَعَمِلَ صَالِحاً . اكْتَسَبَ مَذْخُوراً ، وَاجْتَنَبَ مَحْذُوراً . رَمَى غَرَضاً ، وَأَحْرَزَ عِوَضاً . كَابَرَ هَوَاهُ ، وَكَذَّبَ مُنَاهُ . جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ ، وَالتَّقْوَى عُدَّةَ وَفَاتِهِ . رَكِبَ الطَّرِيقَةَ الغَرَّاءَ . لَزِمَ الْمَحَجَّةَ الْبَيْضَاءَ . اغْتَنَمَ الْمَهَلَ ، وَبَادَرَ الأَجَلَ ، وَتَزَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ .

***

الشَّـرْحُ

الحُكْم هاهنا: الحِكْمة ، قال سبحانه : ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[1] ، ووعى: حفظ ، وعيتُ الحديث أعيه وعيا ، وأُذُنٌ واعيةٌ ، أى حافظة . ودنا : قَرُب . والحُجزة : معقِد الإزار ؛ وأخذ فلان بحجزة فلان إذ اعتصم به ولجأ إليه .

ثم حذف عليه السلام الواو فى اللفظات الأخر فلم يقل : « وراقب ربه » ، ولا « وقدّم خالصا » ، وكذلك إلى آخر اللفظات ؛ وهذا نوع من الفصاحة كثير فى استعمالهم .

واكتسب ، بمعنى كسب ، يقال : كسبت الشىء واكتسبته بمعنى .

والغَرَض : مايرمَى بالسهام ، يقول : رحِم الله امرأ رمى غرَضاً ، أى قصد الحقّ كمن يرمى غرضا يقصده ، لامن يرمى فى عمياء لايقصد شيئاً بعينه .

---

(١) سورة مريم ١٢ .

والعوض الحرّز ها هنا : هو التراب .

وقوله : « كابر هواه » أى غالبه . وروى « كاثر » بالثاء المثلثة المنقوطة بالثلاث ؛ أى غالب هواه بكثرة عقله ، يقال : كاثرناهم فكثرناهم ، أى غلبناهم بالكثرة .

وقوله : « وكذّب مُنَاه » أى أمنيَّته . والطريقة الغرّاء : البيضاء . والمَهَل : النظر والتُؤَدَة .

(٧٦)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَيُفَوِّقُونَنِي تُرَاثَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ تَفْوِيقاً ، وَاللهِ لَئِنْ بَقِيتُ لَهُمْ لَأَنْفُضَنَّهُمْ نَفْضَ اللَّحَّامِ الْوِذَامَ التَّرِبَةَ .

***

قال الرضيّ رحمه الله : وَيُرْوَى « التُّرَابَ الْوَذِمَةَ » ، وهو على القلب .

وقوله عليه السلام : « لَيُفَوِّقُونَنِي » أى يُعطُونى من المال قليلا كفُواق الناقة ، وهو الحلبة الواحدةُ من لبنها .

وَالْوِذَامُ التَّرِبَةُ : جمعُ وَذَمَةٍ ، وهى الحُزَّة من الكَرِش أو الكَبِد تقع فى التُّراب فتنفض .

***

الشّرحُ :

اعلم أنّ أصل هذا الخبر قد رواه أبو الفرج على بن الحسين الأصفهانىّ فى كتاب « الأغانى »[1] بإسناد رفعه إلى الحارث بن حبيش ، قال : بعثنى سعيد بن العاص — وهو يومئذ أمير الكوفة من قِبَل عثمان — بهدايا إلى المدينة ، وبعث معى هدية إلى علىّ عليه السلام وكتب إليه : إنى لم أبعث إلى أحدٍ أكثر مما بعثت به إليك ، إلا إلى أمير المؤمنين[2] . فلما أتيت عليا عليه السلام وقرأ كتابه[3] ، قال : « لشدّ ما يحظر علىّ بنو أمية تراث محمد صلى الله عليه وسلم ! أما والله لئن وليتُها لأنفضنّها نَفْضَ القصّاب التراب الوذمة » .

(١) الأغانى ١٢ : ١٤٤ (طبعة دار الكتب) .
(٢) الأغانى : « إلا عجباً فى خزائن أمير المؤمنين » .
(٣) الأغانى : « فأخبرته » .

قال أبو الفرج : وهذا خطأ ؛ إنما هو « الوِذام التَّرِبة » .

قال : وقد حدثني[١] بذلك أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ عن أبي زيد عمر بن شبّة، بإسناد ذكره في الكتاب ، أنّ سعيد بن العاص حيث كان أميرَ الكوفة ، بعث مع ابن أبي عائشة مولاه إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام بصِلَة ، فقال عليٌّ عليه السلام : والله لايزال غلام من غلمان بني أمية يبعث إلينا مما أفاء الله على رسوله بمثل قوت الأرملة ؛ والله لئن بقيت لأنفضنَّها نَفْض القصّاب الوِذام التَّرِبة .



(١) الخبر في الأغاني : « عن أبي زيد عن عبد الله بن محمد بن حكيم الطائي عن السعدي عن أبيه » .

(٧٧)

الأصلُ

ومن كلمات كان عليه السلام يدعو بها :

اللّهُمّ اغْفِرْ لي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنّي ؛ فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ . اللّهُمّ اغْفِرْ لي مَا وَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي ، وَلَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي .

اللّهُمّ اغْفِرْ لي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي ، ثُمّ خَالَفَهُ قَلْبِي . اللّهُمّ اغْفِرْ لي رَمَزَاتِ الْأَلْحَاظِ ، وَسَقَطَاتِ الْأَلْفَاظِ وَسَهَوَاتِ الْجَنَانِ ، وَهَفَوَاتِ اللِّسَانِ .

* * *

الشّرحُ

وأيتُ ، أي وعدت ، والوأي الوعد . ورمزات الألحاظ : الإشارة بها . والألحاظ : جمع لَحْظ ، بفتح اللام ، وهو مُؤخَّر العين . وسقَطات الألفاظ : لغوها ، وسهوات الجنان : غفلاته ، والجَنان : القلبُ . وهَفَوات اللسان : زلاّته .

وفي هذا الموضع يقال : ما فائدةُ الدعاء عندكم — والقديم تعالى إنّما يغفر الصغائر ؛ لأنها تقع مكفَّرة ، فلا حاجة إلى الدعاء بغفرانها ، ولا يؤثّر الدعاء أيضا في أفعال الباري سبحانه لأنه إنما يفعلُ بحسَب المصالح ورزق المال والولد وغير ذلك ، ويصرف المرض والجدب وغيرهما بحسب ما يعلمه من المصلحة ؛ فلا تأثير للدعاء في شيء من ذلك ؟

والجواب : أنه لا يمتنع أن يحسن الدعاء بما يعلم أنّ القديم يفعله لا محالة ، ويكون وجه حُسْنه ، صدوره من المكلَّف على سبيل الانقطاع إلى الخالق سبحانه .

ويجوز أيضا أن يكونَ في الدعاء نفسِه مصلحة ولطف للمكلّف ؛ لقد حَسُن منّا الاستغفار للمؤمنين ، والصلاة على الأنبياء والملائكة .

وأيضا فليس كلّ أفعال البارئ سبحانه واجبةً عليه ، بل معظمها ما يصدر على وجه الإحسان والتفضّل ، فيجوز أن يفعله ، ويجوز ألّا يفعله .

فإن قلت : فهل يُسمّى فعلُ الواجب الذى لابدّ للقديم — تعالى — من فعله إجابةً لدعاء المكلف ؟

قلت : لا ؛ وإنّما يسمّى إجابة إذا فعل سبحانه ما يجوز أن يفعلَه ، ويجوز ألّا يفعله كالتفضّل . وأيضا فإنّ اللطف والمصلحة قد يكون لطفا ومصلحة في كلّ حال، وقد يكون لطفاً عند الدعاء ، ولولا الدعاء لم يكن لطفاً ؛ وليس بممتنع في القِسْم الثاني أن يسمّى إجابة للدعاء ؛ لأنّ للدعاء على كلّ حال تأثيراً في فعله .

فإن قيل : أيجوز أن يدعو النبيّ صلى الله عليه وآله بدعاء فلا يستجاب له ؟

قيل : إن مِنْ شَرْط حسن الدعاء أن يعلم الداعي حُسْنَ ما طلبه بالدعاء ؛ وإنّما يَعلَمُ حسنَه ؛ بألّا يكون فيه وجه قبح ظاهر ، وماغاب عنه من وجوه القبح ؛ نحو كونه مفسدة يجب أن يشترِطه في دعائه ، ويطلب مايطلبه بشرط ألّا يكون مفسدة . وإن لم يظهر هذا الشرط في دعائه وجب أن يُضمِره في نفسه ، فمتى سأل النبيُّ ربّه تعالى أمراً فلم يفعله لم يجز أن يقال : إنه ما أجيبت دعوتهُ ؛ لأنه يكون قد سأل بشرط ألّا يكون مفسدة ؛ فإذا لم يقع ما يطلبه ، فلأنّ المطلوب قد علم الله فيه من المفسدة ما لم يعلمه النبيّ صلّى الله عليه وآله ؛ فلا يقال : إنه ما أجيب دعاؤه ؛ لأن دعاءه كان مشروطا ؛ وإنما يصدُق قولنا ما أجيب دعاؤه على مَنْ طلب أمرا طلباً مطلقاً غير مشروط فلم يقع ، والنبي صلى الله عليه وآله لا يتحقّق ذلك في حقه .

---

(١) ا : « غاية » .

[من أدعية رسول الله المأثورة]

ونحن نذكر فى هذا الموضع جملة من الأدعية المأثورة طلباً لبركتها ، ولينتفع قارى الكتاب بها :

كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أصبح أن يقول :

« أصبحنا وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والجلال والخلق والأمر والليل والنهار وما يسكن فيهما لله عزّ وجلّ وحده لاشريك له . اللهم اجعل أوّلَ يومِى هذا صلاحاً، وأوسطَه فلاحا ، وآخره نجاحا . اللهم إنى أسألُك خيرَ الدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين . اللهم اقسِمْ لنا من خشيتك مايحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتنا ما تبلّغنا به رحمتك؛ ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصيبات الدنيا . اللهم متّعنا بأسماعنا وأبصارنا ، واجعلهما الوارث منّا ، وانصرنا على مَنْ ظلمنا ، ولاتجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولاتجعل الدُّنيا أكبرَ همّنا ، ولا مَبْلَغ علمنا ، ولا تسلّط علينا مَنْ لا يرحمنا » .

[من أدعية الصحيفة]

ومن دعاء أمير المؤمنين عليه السلام ، وكان يدعُو به زينُ العابدين علىّ بن الحسين عليه السلام ؛ وهو من أدعية الصحيفة :

يامَنْ يرحَمُ من لا يرحمهُ العباد ، ويا مَن يقبل من لا تقبلُه البلاد ، ويا مَنْ لايحقِر أهلَ الحاجة إليه ؛ يا من لا يجبَهُ بالردّ أهلَ الإلحاح إليه . يامَنْ لا يخفَى عليه صغيرُ ما يُتحف به ، ولا يضيع يسيرُ ما يعمَلُ له . يا مَنْ يشكُر على القليل ، ويجازِى بالجليل . يا مَنْ يدنو إلى مَنْ دنا منه . يا من يَدْعُو إلى نفسه مَنْ أدبرَ عنه . يا مَنْ لا يغيِّر النعمة ، ولايبادِر بالنّقمة . يا مَنْ يثمِّر الحسنة حتى ينمّيها ، ويتجاوز عن السيئة حتى يعفّيها ؛ انصرفت

دون مَدَى كرمِك الحاجات ، وامتلأت ببعضِ جودك أوعيةُ الطلبات ، وتفسّخَتْ دون بلوغ نعتك الصِّفات . فلك العلوّ الأعلى فوق كل عالٍ ، والجلال الأمجد فوق كلّ جلال ؛ كلّ جليل عندك حقير ، وكلّ شريفٍ في جَنْب شرفك صغير ، خاب الوافدون على غيرك ، وخَسِر المتعرّضون إلا لك ، وضاع الملمّون إلا بك ، وأجدب المنتجعون إلا من انتجعَ فضلك ، لأنك ذو غاية قريبة من الراغبين ، وذو مجدٍ مباح للسائلين ؛ لا يخيبُ لديك الآملون ، ولا يخفق من عطائك المتعرّضون ، ولا يشقى بنقمتك المستغفرون ؛ رزقُك مبسوط لمَنْ عصاك ، وحلمُك معرّض لمن ناواك ، وعادتك الإحسان إلى المسيئين ، وسنّتك الإبقاء على المعتدين ، حتى لقد غرّتْهم أناتك عن النزوع ، وصدّهم إمهالك عن الرجوع ، وإنما تأنّيت بهم ليَفيئوا إلى أمرك ، وأمهلتهم ثقةً بدوام مُلْكك ، فمن كان من أهل السعادة ختمتَ له بها ، ومَنْ كان من أهل الشقاوة خذلته لها ،

كلهم صائر إلى رحمتك ، وأمورُهم آيلة إلى أمرك ؛ لم يَهِنْ على طول مدّتهم سلطانُك ، ولم تدحَضْ لترك معاجلتهم حججُك[1] ؛ حجّتك قائمة ، وسلطانك ثابت ، فالويل الدائم لمن جنحَ عنك ، والخيبةُ الخاذلة لمن خاب أمله منك ، والشقاء الأشقى لمن اغترّ بك . ما أكثر تقلبه في عذابك ، وما أعظم تردّده في عقابك ، وما أبعدَ غايته من الفرج ، وما أثبطه من سهولة المخرج ! عدلاً من قضائك لا تجور فيه ، وإنصافاً من حكمك لا تحيفُ عليه ؛ قد ظاهرتَ الحجج ، وأزلتَ الأعذار ، وتقدّمت بالوعيد ، وتلطّفت في الترغيب ؛ وضربت الأمثال ، وأطلتَ الإمهال ، وأخّرت وأنت تستطيع المعاجلة ، وتأنّيت وأنت مليء بالمبادرة .

لم تك أناتُك عجزاً ، ولا حِلْمك وَهْنا ، ولا إمساكك لِعلّة ، ولا انتظارك لمداراة ، بل لتكونَ حجّتك الأبلغ ، وكرمك الأكمل ، وإحسانك الأوفى ، ونعمتك الأتمّ .

(١) ج : « برهانك » .

كلّ ذلك كان ولم يزل ، وهو كائن لا يزول . نسئك أجلّ من أن توصف بكلّها ، ومجدُك أرفعُ من أن يحدّ بكنهه ، وإحسانُك أكبرُ من أن يشكَر على أقله ، فقد أقصرتُ ساكتا عن تحميدك ، وتهيّبتُ ممسكا عن تمجيدك ، لا رغبةً يا إلهى عنك بل عجزا ، ولا زهدا فيما عندك بل تقصيرا ، وها أنذا يا إلهى أؤمّل بالوفادة ، وأسألك حسنَ الرّفادة ، فاسمع ندائى ، واستجب دعائى ؛ ولا تختم عملى بخيبتى ، ولا تجبهنى بالردّ فى مسألتى ، وأكْرِم من عندك منصرَفى ؛ إنك غير ضائق عمّا تريد ، ولا عاجز عمّا تشاء ؛ وأنت على كل شىء قدير .

* * *

ومن أدعيته عليه السلام ؛ وهو من أدعية الصحيفة أيضا :

اللهمّ يامَنْ برحمته يستغيث المذنبون ، ويامَنْ إلى إحسانه يفزَعُ المضطرون ، ويامَنْ لخيفَتِه ينتحب الخاطئون ؛ يا أنس كلِّ مستوحش غريب ، يافرج كلِّ مكروب حريب . ياعونَ كلّ مخذول فريد ، ياعاضدَ كلِّ محتاج طريد ؛ أنت الذى وسعتَ كلّ شىء رحمة وعلما ، وأنتَ الذى جعلتَ لكلِّ مخلوق فى نعمتك سَهْمًا ، وأنت الذى عفوُه أعلَى من عقابه ، وأنت الذى رحمتُه أمام غضَبه ؛ وأنت الذى إعطاؤه أكبرُ من منعه ، وأنتَ الذى وَسِع الخلائق كلّهم بعفوه ، وأنت الّذى لا يرغبُ فى غنى مَنْ أعطاه . وأنت الذى لا يفرِّط فى عقاب من عصاه .

وأنا ياسيّدى عبدُك الذى أمرتَهُ بالدعاء فقال : لبَّيْك وسعدَيْك ! وأنا ياسيدى عبدُكَ الذى أوقرَتِ الخطايا ظهره ، وأنا الذى أفنتِ[1] الذنوبُ عمرَه ، وأنا الذى بجهله عصاك ؛ ولم يكن أهلا منه لذلك ؛ فهل أنتَ يامولاى راحمٌ من دعاك فاجتهد فى الدعاء ، أم أنت غافرٌ لمن بكى لك ، فأسرع فى البكاء ، أم أنت متجاوزٌ عمّن عفّر لك وجهَه ، متذلّلا ، أم أنت مُغْنٍ من شكا إليك فقره متوكّلا !

(١) ج : « وأفنت الذنوب عمره » .

اللهم فلا تخيِّب مَنْ لا يجد معطياً غيرك ، ولا تخذل من لا يستغني عنك بأحدٍ دونك .
اللهم لا تُعرِض عنّي وقد أقبلت عليك ، ولا تحرمني وقد رغبتُ إليك ، ولا تجبهني بالردّ وقد انتصبتُ بين يديك . أنت الذي وصفتَ نفسَك بالرحمة ، وأنت الذي سمّيتَ نفسك بالعفو ، فارحمني واعفُ عنّي ؛ فقد ترى ياسيدي فيضَ دموعي من خيفتك ، ووجيبَ قلبي من خشيتك ، وانتفاضَ جوارحي من هيبتك ، كلُّ ذلك حياء منك بسوء عملي ، وخجلاً منك لكثرة ذنوبي ؛ قد كَلَّ لساني عن مناجاتك ، وخمد صوتي عن الدعاء إليك !

يا إلهي ، فكَمْ من عيبٍ سترتَه عليّ فلم تفضحني ، وكَمْ من ذنبٍ غطّيتَ عليه فلم تشهِّر بي ! وكَمْ من عائبةٍ ألممتُ بها فلم تهتِكْ عني سترَها ، ولم تقلّدني مكروه شَنارها ، ولم تبدِ عليّ محرّمات سوآتها . فمن يلتمسُ معايبي من جيرتي وحسَدةِ نعمتك عندي ، ثم لم ينهني ذلك حتى صرتُ إلى أسوإ ما عهدتَ مِنّي ! فمن أجهلُ مِنّي ياسيدي برشدك ؟ ومَنْ أغفلُ مِنّي عن حظّه منك ! ومَنْ أبعدُ مِنّي من استصلاحِ نفسه حين أنفقت ما أجريتَ عليّ من رزقك فيما نهيتَني عنه من معصيتك ! ومَنْ أبعدُ غوراً في الباطل ، وأشدّ إقداماً على السوء منّي حين أقِفُ بين دعوتك ودعوة الشيطان ، فأتّبع دعوته على غير عمًى عن المعرفة به ، ولا نسيانٍ من حفظي له ؛ وأنا حينئذٍ موقنٌ أنّ منتهى دعوتك الجنّة ، ومنتهى دعوته النار !

سُبحانَك فما أعجب ما أشهد به على نفسي ، وأعدّده من مكنون أمري ! وأعجبُ منْ ذلك أناتك عنّي ، وإبطاؤك عن معاجلتي ؛ وليس ذلك من كرمي عليك ، بل تأنّياً منك بي وتفضُّلاً منك عليّ ؛ لأن ارتدعَ عن خطئي ، ولأنّ عفوك أحبُّ إليك من عقوبتي .
بل أنا يا إلهي أكثرُ ذنوباً ، وأقبح آثاراً ، وأشنع أعمالاً ، وأشدّ في الباطل تهوّراً ، وأضعف عند طاعتك تيقّظاً ، وأغفل لوعيدك انتباهاً ؛ مِنْ أنْ أحصيَ لك عيوبي ، وأقدر على تعديد

ذنوبى ؛ وإنما أوبّخ بهـذا نفسى طمعاً فى رأفتك التى بها إصلاح أمر المذنبين ، ورجاء لعصمتك التى بها فَـكاكُ رقاب الخاطئين . اللهمّ وهذه رقبتى قد أرقّتْها الذنوب فأعتِقْها بعفوك ؛ وقد أثقلتْها الخطايا فخفّف عنها بمَنّك . اللهمّ إنى لو بكيت حتى تسقط أشفارُ عينى ؛ وانتحبتُ حتى ينقطع صوتى ، وقمتُ لك حتى تنتشرَ قدمايَ ، وركعتُ لك حتى ينخلِع صُلْبى ، وسجدْتُ لك حتى تتفقأ حَدَقَتَاى ، وأكلْتُ التراب طولَ عمرى ، وشربت ماء الرماد آخر دهرى ؛ وذكرتُك فى خلال ذلك حتى يكِلّ لسانى ؛ ثم لم أرفع طرفى إلى آفاق السماء استحياء منك ؛ لما استوجبتُ بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتى ؛ فإن كنتَ تغفرُ لى حين أستوجب مغفرتَك ، وتعفو عنى حين أستحقُّ عفوك ؛ فإنّ ذلك غير واجب لى بالاستحقاق ، ولا أنا أهلٌ له على الاستيجاب ؛ إذ كان جزائى منك من[1] أوّل ما عصيتُك النار ؛ فإن تعذّبنى فإنك غير ظالم .

إلهى فإن تَغمّدْتنى بسترك فلم تفضحنى ، وأمهلْتنى بكرمك فلم تعاجِلْنى ، وحلُمتَ عنى بتفضّلك فلم تغيّر نعمك علىّ ، ولم تُـكدِّر معروفَكَ عندى ، فارحم طول تضرُّعى ، وشدةَ مسكنتى ، وسوء موقفى .

اللهم صلّ على محمد وآل محمد ، وأنقذنى من المعاصى ، واستعملنى بالطاعة ، وارزقنى حسنَ الإنابة ، وطهّرنى بالتوبة ، وأيّدنى بالعصمة ، واستصلِحْنى بالعافية ، وارزقنى حلاوة المغفرة ، واجعلنى طليقَ عفوك ، واكتب لى أماناً من سَخَطك ، وبشّرْنى بذلك فى العاجل دون الآجل[2] ؛ بشرى أعرفها ، وعرّفنى له علامةً أتبيّنها ؛ إن ذلك لا يضيقُ عليك فى وُجْدك ، ولا يتكاءدك فى قدرتك ، وأنت على كلّ شىء قدير .

• • •

ومن أدعيته عليه السلام ؛ وهو من أدعية الصحيفة :

---

(١) ب : « لى » . (٢) ب : « والعاجل » .

اللهم يا ذا الملك المتأبّد بالخلود والسلطان ، الممتنع بغير جنود ، والعزّ الباقى على مرّ الدهور ؛ عزّ سلطانك عزّاً لا حدّ له ولا منتهى لآخره ، واستعلى ملكك علوّاً سقطت الأشياء دونَ بلوغ أمده،ولا يبلغ أدنى ما استأثرت به من ذلك نعوتُ أقصى نعت الناعتين ضلّت فيك الصفات ، وتفسّخت دونك النعوت ، وحارت فى كبريائك لطائف الأوهام.

كذلك أنت الله فى أوّليتك ، وعلى ذلك أنت دائم لا تزول ، وكذلك أنت الله فى آخريتك ؛ وكذلك أنت ثابت لا تحوّل .

وأنا العبد الضعيف عملًا ، الجسيم أملا ، خرجتْ من يدىّ أسبابُ الوصلات إلى رحمتك ، وتقطّعت عنّى عِصَمُ الآمال إلا ما أنا معتصم به من عفوك.قلّ عندى ما أعتدّ به من طاعتك، وكثُر عندى ما أبوء به من معصيتك ؛ ولن يفوتك[1] عفوٌ عن عبدك وإن أساء ؛ فاعف عنّى .

اللهم قد أشرف على كلّ خفايا الأعمال علمُك،وانكشف كلّ مستورعند خُبْرك؛ فلا ينطوى عنك دقائق الأمور ، ولا يعزُب عنك خفايا السرائر[2]؛وقد هربتُ إليك من صغائر ذنوب موبقة ، وكبائر أعمال مردية ، فلا شفيعَ يشفع لى إليك ، ولا خفير يؤمننى منك ، ولا حصن يحجبنى عنك ، ولا ملاذ ألجأ إليه غيرك .

هذا مقامُ العائذ بك ، ومحلّ المعترف لك ، فلا يضيقنّ عنّى فضلُك ، ولا يقصُرنّ دونى عفوك ، ولا أكون أخيبَ عبادك التائبين ، ولا أقنط وفودك الآملين ؛ واغفر لى إنك خير الغافرين .

اللهمّ إنك أمرتنى فتَركت ، ونهيتَنى فرَكبت ، وهذا مقام من استحيا لنفسه منك، وسخِط عليها ورضىَ عنك؛وتلقّاك بنفس خاشعة،وعين خاضعة،وظهر مثقل من الخطايا، واقفا بين الرغبة إليك والرهبة منك ؛ وأنت أولَى مَنْ رجاه ، وأحقّ مَنْ خشيَه واتقاه؛

(١) ج : « يفوتك » .
(٢) ج : « خفايا الأعمال » .

فأعطني يارب ما رجوتُ ، وأمِنِّي ما حَذِرت ، وعُدْ عليّ بفضلك ورحمتك ؛ إنك أكرمُ المسئولين .

اللهمّ وإذْ سترتَني بعفوك ، وتغمّدْتَني بفضلك في دار الفناء، فأجِرْني من فضيحات دار البقاء عند مواقف الأشهاد ؛ من الملائكة المقربين ، والرسل المكرّمين ، والشهداء الصالحين ؛ مِنْ جارٍ كنتُ أكاتمه سيّئاتي، ومن ذي رحِمٍ كنت أحتشم منه لسريراتي؛ لم أثق بهم في السّتر[1] عليّ، ووثقت بك في المغفرة لي، وأنت أولى مَنْ وُثِق به، وأعطى مَنْ رُغِب إليه ، وأرأف من استرحم ؛ فارحمني .

اللهم إني أعوذُ بك مِنْ نار تغلّظتَ بها على مَنْ عصاك ، وأوعدْتَ بها من صدف عن رضاك . ومن نارٍ نورها ظلمة، وهيّنُها صعب ، وقريبها بعيد. ومِنْ نارٍ يأكل بعضُها بعضاً ، ويصول بعضها على بعض ؛ ومن نارٍ تذَرُ العظام رميماً ، وتسقي أهلها حميا ، ومن نارٍ لاتبقي على من تضرّع ، ولا ترحم مَنِ استعطفها ، ولا تقدر على التخفيف عمّن خشع لها ، واستسلم إليها ، تلقى سكانَها بأحرّ مالديها من أليم النكال ، وشديد الوبال .

اللهم بك أعوذ من عقاربها الفاغرة أفواهها، وحيّاتها الناهشة بأنيابها، وشرابها الذي يقطّع الأمعاء ، ويذيب الأحشاء ؛ وأستهديك لما باعد عنها ، وأنقذ منها ، فأجرني بفضل رحمتك ؛ وأقِلْني عثرتي بحسن إقالتك ، ولا تخذُلني ياخير المجيرين .

اللهم صلّ على محمد وآل محمد إذا ذُكِر الأبرار، وصلّ على محمد وآل محمد ما اختلف الليل والنهار ، صلاةً لا ينقطع مددها ، ولا يحصى عددُها ، صلاة تشحن الهواء ، وتملأ الأرض والسماء .

صلّ اللهم عليه وعليهم حتى ترضى ، وصلّ عليه وعليهم بعد الرضا صلاةً لاحدّ لها، ولا منتهى ؛ يا أرحم الراحمين !

* * *

(١) ب : « السرّ » وما أثبته من ج .

ومن دعائه عليه السلام ، وهو من أدعية الصحيفة :

اللهم إني أعوذ بك من هَيَجان الحرص وسَوْرة الغضب ، وغلبة الحسد وضعف الصبر ، وقلة القناعة ، وشكاسة الخُلق ، وإلحاح الشهوة ، وملكة الحمية ، ومتابعة الهوى ، ومخالفة الهدى وسِنَة الغفلة ، وتعاطي الكُلْفة ، وإيثار الباطل على الحق ، والإصرار على المأثم ، والاستكثار من المعصية ، والإقلال من الطاعة ، ومباهاة المكثرين ، والإزراء على المقلّين ، وسوء الولاية لمَن تحت أيدينا ، وترك الشُكر لمن اصطنع العارفة عندنا ، وأن نعضُد ظالماً ، أو نخذل ملهوفاً ، أو نروم ما ليس لنا بحق ، أو نقول في العلم بغير علم ، ونعوذ بك أن ننطوي على غِشّ لأحد ، وأن نُعجَب بأموالنا وأعمالنا ، وأن نمُدّ في آمالنا ، ونعوذ بك من سوء السريرة ، واحتقار الصغيرة ، وأن يستحوذ علينا الشيطان ، أو ينكبنا الزمان ، أو يتهضّمنا السلطان ، ونعوذ بك من حب الإسراف ، وفقدان الكفاف ، ومن شماتة الأعداء ، والفقر إلى الأكفاء ، ومن عيشة في شدّة ، أو موت على غير عُدّة .

ونعوذ اللهم بك من الحسرة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، ومن سوء المآب ، وحرمان الثواب ، وحلول العقاب .

اللهم أعذنا من كل ذلك برحمتك ومَنّك وجودك ، إنك على كل شيء قدير .

* * *

ومن دعائه عليه السلام وتحميده ، وذكره النبي صلى الله عليه وآله ، وهو من أدعية الصحيفة أيضاً :

الحمد لله بكل ما حمده به أدنى ملائكته إليه ، وأكرم خليقته عليه ، وأرضى حامديه لديه ؛ حمداً يفضُل سائر الحمد ، كفضل ربنا — جل جلاله — على جميع خلقه .

ثم له الحمد مكان كل نعمة له علينا ، وعلى جميع عباده الماضين والباقين ، عدد ما أحاط به علمه ، ومن جميع الأشياء أضعافاً مضاعفة ، أبداً سرمداً إلى يوم القيامة ، وإلى ما لانهاية له

من بعد القيامة ؛ حمداً لا غايةَ لحدّه ، ولا حساب لعدّه ، ولا مبلغَ لأعداده ، ولا انقطاع لأماده ؛ حمداً يكون وُصْلَةً إلى طاعته ، وسبباً إلى رضوانه ، وذريعةً إلى مغفرته ، وطريقاً إلى جنته ، وخفيراً من نقمته وأمْناً من غَضَبه ، وظهيراً على طاعته ، وحاجزاً عن معصيته ؛ وعوناً على تأدية حقه ووظائفه ؛ حمداً نسعَدُ به في السعداء من أوليائه ، وننتظم به في نظام الشهداء بسيوف أعدائه .

والحمد لله الذي منّ علينا بنبيّه محمد صلى الله عليه وآله دون الأمم الماضية ، والقرون السالفة ؛ لقدرته التي لا تعجز عن شيء وإن عَظُم ، ولا يفوتها شيء وإن لَطُف

اللهم فصلّ على محمد أمينك على وحيك ، ونجيك من خَلْقك ، وصفيك من عبادك . إمام الرحمة وقائد الخير ، ومفتاح البركة ، كما نصب لأمرك نفسه ، وعرض فيك للمكروه بدَنه ، وكاشف في الدعاء إليك حامَّته ، وحارب في رضاك أسرته ، وقطع في نُصره دينك رَحِمَهُ ، وأقصى الأدنين على عنودهم عنك ، وقرّب الأقصين على استجابتهم لك ؛ ووالَى فيك الأبعدين ، وعاند فيك الأقربين ، وأدأب[1] نفسه في تبليغ رسالتك ، وأتعبها في الدعاء إلى ملّتك ، وشغلها بالنصح لأهل دعوتك ، وهاجر إلى بلاد الغربة ومحلّ النأى عن موطن رحله ، وموضع رجله ، ومسقط رأسه ، ومأنَس نفسه ؛ إرادة منه لإعزاز دينك ، واستنصاراً على أهل الكفر بك ؛ حتى استتب له ما حاول في أعدائك ، واستتمّ له ما دبّر في أوليائك ، فنهد إلى المشركين بك ، مستفتحاً بعونك ، ومتقوياً على ضعفه بنصرك ، فغزاهم في عُقْر ديارهم ، وهجم عليهم في بُحبوحة قرارهم ؛ حتى ظهر أمرُك ، وعلَتْ كلمتك ؛ ولو كره المشركون .

اللهم فارفعْه ـ بما كدَح فيك ـ إلى الدرجة العليا من جنتك ؛ حتى لا يساوَى في منزلة ، ولا يكافأ في مرتبة ، ولا يوازيه لديك ملَك مقرّب ، ولا نبيّ مرسَل ، وعرّفه في أمته من

(١) ج : « وأدّب » .

حسن الشفاعة أجلَّ ما وعدته ؛ يا نافذ العِدّة ، يا وافيَ القول ، يا مبدِّل السيئات بأضعافها من الحسنات ؛ إنك ذو الفضل العظيم .

***

[من الأدعية المأثورة عن عيسى عليه السلام]

ومن الأدعية المروية عن عيسى بن مريم عليهما السلام :

اللهم أنت إله مَنْ في السماء ، وإله من في الأرض ، لا إله فيهما غيرك ، وأنت حكيم مَنْ في السماء ، وحكيم من في الأرض ؛ لا حكيم فيهما غيرك ؛ وأنت مَلِك من في السماء ، وملك من في الأرض ، لا ملك فيهما غيرك ؛ قدرتك في السماء كقدرتك في الأرض ، وسلطانك في السماء كسلطانك في الأرض ؛ أسألك باسمك الكريم ، ووجهك المنير ، وملكك القديم أن تفعل بي كذا وكذا .

***

[من الأدعية المأثورة عن بعض الصالحين]

وكان بعض الصالحين يدعو فيقول :

اللهم لا تدخلنا النارَ بعد أن أسكنت قلوبَنا توحيدك ، وإني لأرجو ألا تفعل ؛ وإن فعلت لتجمعنّ بيننا وبين قوم عاديْناهم فيك .

ومن دعاء بعضهم :

اللهمّ إنك لم تشرك في خلقنا غيرَك ، فلا تشرك في الإحسان إلينا غيرَك ؛ اللهمّ لا ربّ لنا غيرك ؛ فلا تجعل حاجتَنا عند غيرك . اللهم إنّا لا نعبدُ غيرك ، فلا تسلّط علينا غيرَك .

قام أعرابيّ على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله فقال :

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ! قلت فقبلنا ، وتلوت فوعينا ، ثم ظلمنا أنفسنا ، وقرأنا فيما أتيتنا به عن ربنا : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا[١] ﴾ . اللهم إنا قد جئنا رسولك ونحن نستغفرك ونسأل رسولك أن يستغفر لنا خطايانا ، فاغفر لنا وتُبْ علينا .

فيقال : إن إنساناً حضر ذلك الدعاء ، فرأى تلك الليلة رسول الله صلى الله عليه وآله فى منامه يقول له : أبلغ الأعرابىّ أنّ الله قد غفر له .

ومن أدعية بعض الصالحين :

اللّهمّ إنى لم آتِكَ بعمل صالح قدّمتُه ، ولا شفاعة مخلوق رجوتُه ؛ أتيتُك مقرًّا بالظلم والإساءة على نفسى ؛ أتيتك بلا حجّة ، أتيتك أرجو عظيمَ عفوك الذى عدتَ به على الخاطئين ؛ ثم لم يمنعك عكوفُهم على عظيم الجُرْم أن جُدْتَ لهم بالمغفرة ، فياصاحب العفو العظيم اغفرِ الذنب العظيم ، برحمتكَ يا أرحم الراحمين .

وروى أنّ علياً عليه السلام اعتمر ، فرأى رجلاً متعلقًا بأستار الكعبة ، وهو يقول : يامَنْ لايشغَلُه سمع عن سمع ؛ يامن لاتغلطه[٢] المسائل ولا يبرمه إلحاح الملحّين ؛ أذقنى بَرْدَ عفوك ، وحلاوة مغفرتك ؛ وعذوبة عافيتك ؛ والفوزَ بالجنة ، والنجاة من النار .

فقال علىٌّ عليه السلام : والذى نفسى بيده إن قالها وعليه مثل السموات والأرض من الذنوب قولا مخلصا ليغفرنّ له .

ودعا أعرابىٌّ عند الملتزَم ، فقال :

اللّهم إن لك على حقوقا فتصدّقْ بها علىّ ، وإنّ للناس قِبَلى تبِعاتٍ فتحمّلْها عنى ؛ وقد أوجبتَ لكلّ ضيفٍ قِرًى وأنا ضيفُك الليلة ، فاجعل قِراىَ الجنة .

(١) سورة النساء ٦٤ .
(٢) ب : « تغلطه » ، وما أثبته من ج .

ودعا بعض الأعراب أيضاً ، وقد خرج حاجّاً، فقال : اللّهم إليك خرجْتُ ؛ وما عندك طلبت، فلا تحرمني خيرَ ما عندك ، لشرِّ ما عندي؛ اللهم إن كنتَ لم ترحَمْ تعبي ونصَبي؛ فلا تحرمني أجرَ المصاب على المصيبة ، فإنّها لمصيبة أصِبْتُ بها .

ودعا بعضهم فقال : اللّهمّ إنك سترتَ علينا في الدنيا ذنوباً كثيرة ؛ ونحن إلى سترها في الآخرة أحوجُ ؛ فاغفر لنا .

ومن دعاء بعضهم : اللّهمّ اجعل الموتَ خيرَ غائب ننتظره ، واجعل القبرَ خيرَ بيت نعمره ؛ واجعل ما بعدَه خيراً لنا منه. اللهمّ إليك عجّت الأصوات بصنوف اللغات تسألكُ الحاجات ، وحاجتي إليك أن تذكرني عند طول البِلَى ، إذا نسيني أهلُ الدنيا .

وقال بعضهم : كنتُ أدعو اللهَ بعد وفاة مالك بن دينار أن أراه في منامي،فرأيتُه بعد سنة، فقلت : يا أبا يحيى ، علِّمني كيف أدعو ؟ قال: قل : اللّهم يسّر الجواز، وسهل المجاز.

وقال الشعبي : سمعتُ عبد الملك بن مروان على دعاء كان يدعو به على المنبر يقول: اللهمّ إن ذنوبي كثيرة جلّت أن توصَف ، وهي صغيرة في جَنْب عفوك ، فاعفُ عني .

ومن دعاء بعض الزهاد: اللهمّ إنّي أعوذ بك من أهل يُلهيني ، ومن هوًى يُرديني، ومن عمل يُخزيني ، ومن صاحب يُغويني ، ومن جارٍ يؤذيني ؛ ومن غِنًى يُطغيني ، ومن فقر ينسّيني. اللهمّ اجعلنا نستحييك ونتقيك، ونخافك ونخشاك، ونرجوك ونطيعك في السرّ والعلانية . اللهمّ استرنا بالمعافاة والغنى ؛ أستعين الله على أموري ، وأستغفر اللهَ لذنوبي ، وأعوذ بك من شرّ نفسي .

ويروى أنّ رجلاً أعمى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فشكا إليه ذهابَ بصره ، فقال صلى الله عليه وآله له : قل : يا سبّوح يا قدّوس ، يا نور الأنوار ، يا نورَ السموات والأرض ، يا أوّل الأولين ، ويا آخر الآخرين ، ويا أرحم الراحمين ، أسألك

أنْ تغفرَ لي الذنوب التي تغيّر النعم ، والذنوب التي تنزل النقم ، والذنوب التي تهتك العِصَم ، والذنوب التي توجب البلاء ، والذنوب التي تقطع الرجاء ، والذنوب التي تحبس الدعاء ، والذنوب التي تكشف الغطاء ، والذنوب التي تعجّل الفناء ، والذنوب التي تظلم الهواء ، وأسألك باسمك العظيم ، ووجهك الكريم ، أن تردّ عليَّ بصري .

فدعا بذلك فردّ عليه بصره .

ومن الآثار المأثورة ، أن الله تعالى غضب على أمة فأنزل عليهم العذاب ، وكان فيهم ثلاثة صالحون ، فخرجوا وابتهلوا إلى الله سبحانه ، فقام أحدهم فقال : اللهمّ إنك أمرتنا أن نعتق أرقاءنا ونحن أرقاؤك ، فاعتقنا ، ثم جلس . وقام الثاني فقال : اللّهمّ إنك أمرتنا أن نعفوَ عمّن ظلمنا ، وقد ظلمنا أنفسنا فاعفُ عنّا ، ثم جلس . وقام الثالث فقال : اللهمّ إنا على ثقة أنك لم تخلق خلقاً أوسعَ من مغفرتك ، فاجعل لنا في سعتها نصيباً ! فرفع عنهم العذاب .

قيل لسفيان بن عُيينة : ما حديث رويته عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « أفضل دعاء أعطيته أنا والنبيون قبلي : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت ، وهو حيّ لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير » ، كأنهم لم يروهُ دعاء ! فقال : ماتنكرون من هذا ! ثم روى لهم قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَنْ تشاغل بالثناء على الله ، أعطاه الله فوق رغبة السائلين » . ثم قال : هذا أمية بن أبي الصَّلْت يقول لابن جُدْعان :

أأذكرُ حاجتي أمْ قد كفاني ... حَيَاؤك ؟ إنّ شيمتَك الحياء[1]

إذا أثنى عليـــك المرء يوماً ... كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاء

وقال : هذا مخلوق يقول لمخلوق ، فما ظنّكم برب العالمين !

---

(١) شعراء النصرانية ٢٢٠

ومن دعائه صلى الله عليه وآله : « اللهمّ إنّى أعوذُ بك من الفقر إلا إليك ، ومن الذلّ إلا لك » .

ومن دعائه عليه السلام : « اللهمّ ارزقنى عينين هطّالتين تسقيان القلوبَ بذروف الدموع ، قبل أن يكون الدمع دماً ، والضرس جمراً » .

ومن دعائه عليه السلام : « اللهمّ طهّر لسانى من الكذب ، وقلبى من النفاق ، وعملى من الرياء ، وبصرى من الخيانة ، فإنك تعلم خائنةَ الأعين وماتخفى الصدور » .

ومما رواه أنس بن مالك : « لا تعجزوا عن الدعاء فإنّه لن يهلك مع الدعاء أحد » .

ومن رواية جابر بن عبد الله : « لقد بارك الله للرجل فى الحاجة بكثرة الدعاء فيها ، أعطيها أو مُنِعَها » .

أبو هريرة يرفعه : « اللهمّ أصلح لى فى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كلّ خير ، والموت راحة لى من كلّ شرّ » .

قيل لأعرابىّ : أتحسنُ أن تدعوَ ربَّك ؟ فقال : نعم ، ثم دعا فقال : اللهمّ إنّك مننْتَ علينا بالإسلام من غير أن نسألك ، فلا تحرمنا الجنّة ونحن نسألك .

سُمِعَتْ أعرابية تقول فى دعائها : ياعريضَ الجَفْنة ، ياأبا المكارم ، ياأبيض الوجه ؛ فزجرها رجل ، فقالت : دعونى أصف ربى بما يستحقّه .

وكان موسى بن جعفر عليه السلام يقول فى سجوده آخر الليل : إلهى عَظُم الذنبُ من عبدك ، فليحسُن العفوُ من عندك .

ذُكِرَ عند بعض الصالحين رجلٌ قد أصابه بلاء عظيم ، وهو يدعو فتبطىء عنه الإجابة ، فقال : بلغنى أنّ الله تعالى يقول : كيف أرحم المبتلَى من شىء أرحمه به !

قال طاوس : إنى لفى الحِجْر ليلةً إذ دخل علىّ بن الحسين عليه السلام ، فقلت : رجل صالح من أهل بيتٍ صالح ؛ لأسمعن دعاءه ! فسمعتُه يقول فى أثناء دعائه : عُبَيْدُكَ بفنائك ، سائلك بفنائك ، مسكينك بفنائك . فما دعوت بهنّ فى كَرْب إلا وفرّج عنى .

عمر بن ذَرّ : اللهم إن كنّا عصيناك فقد تركنا من معاصيك أبغضَها إليك ؛ وهو الإشراك ، وإن كنّا قصّرنا عن بعض طاعتك ، فقد تمسكنا منها بأحبّها إليك ، وهو شهادة أن لا إله إلا أنت ، وأنّ رسلك جاءت بالحقّ من عندك .

أعرابىّ : اللهمّ إنّا نبات نعمتك ، فلا تجعلْنا حصائدَ نقمتك .

بعضهم : اللهمّ إن كنتَ قد بلّغت أحداً من عبادك الصالحين درجة ببلاء ، فبلّغنيها بالعافية .

حجّ أعرابىّ ، فكان لا يستغفر إذا صلّى كما يستغفر الناس، فقيل له ، فقال : كما أنّ تركى الاستغفار مع ما أعلم من عَفْوِ الله ورحمته ضَعْف ، فكذلك استغفارى مع ما أعلم من إصرارى لؤم .

لما صافّ قتيبة بن مسلم الترك وهاله أمرهم ، سأل عن محمد بن واسع ، فقيل : هو فى أقصى الميمنة جانحاً على سِيَةِ[1] قوسه ، مبصبصاً بإصبعه نحو السماء ، فقال قتيبة : لتلك الأصبع الفارورة ، أحبّ إلىّ من مائة ألف سيف شهير ، ورمح طَرِير[2] .

سمع مطرِّف بن الشِّخِّير ضجّة الناس بالدعاء ، فقال : لقد هممتُ أن أحلف أن الله غفر لهم ، ثم ذكرت أنى فيهم فكففت .

كان المأمون إذا رفعت المائدة من بين يديه يقول : الحمد لله الذى جعل أرزاقنا أكثر من أقواتنا .

الحسن البصرىّ : مَنْ دخل المقبرة فقال : اللهمّ ربّ الأرواح العالية ، والأجساد البالية ،

---

(١) سية القوس : ما عطف من طرفيها .   (٢) رمح طرير : محدد .

والعظام النَّخِرة التي خرجت من الدنيا وهي مؤمنة بك ؛ أدخِلْ عليهم رَوْحاً منك وسلاماً مني ؛ كتب الله له بعدد مَنْ ولد — منذ زمن آدم إلى أن تقومَ الساعة — حسنات .

عليّ عليه السلام : الدّعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض .

قيل : إنّ فيما أنزله الله تعالى من الكتب القديمة : إن الله يبتلى العبد وهو يحبّه ؛ ليسمعَ دعاءه وتضرُّعَه .

أبو هريرة : اطلبُوا الخيرَ دهرَكم كلّه ، وتعرّضوا لنفحاتٍ مِنْ رحمة الله تعالى ، فإنّ لله تعالى نفحاتٍ من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوا الله أن يستر عوراتِكم ، ويؤمّن روعاتكم .

صلّى رجل إلى جَنْب عبد الله بن المبارك ، فلما سلّم الإمام سلّم وقام عجِلا ، فجذب عبدُ الله بثوبه ، وقال : أمالكَ إلى ربِّكَ حاجة !

قيل لعمر بن عبد العزيز : جزاك الله عن الإسلام خيرا ! فقال : لا ، بل جزى الله الإسلام عنّي خيرا .

عليّ عليه السلام : الداعي بغير عمل كالرامي بغير وَتَر .

كان الزهريّ إذا فرغ من الحديث تلاه ، فدعا : للهمّ إني أسألُك خيرَ ما أحاط به علمُك في الدنيا والآخرة ، وأعوذ بك من شرّ ما أحاط به علمُك في الدنيا والآخرة .

كان زيد الشاميّ يستتبع الصبيان إلى المسجد ، وفي كمّه الجوزُ ، ويقول : مَن يتبعني منكم أعطيه خمس جوزات ؛ فإذا دخلوا المسجد ، قال ارفعوا أيديكم وقولوا : اللهمّ اغفر لزيد ، فإذا دَعَوْا قال : اللهم استجِبْ لهم ، فإنهم لم يذنبوا .

عليّ عليه السلام : جعلَ في يديك مفاتيح خزائنه بما أذِنَ لك فيه من مسألته ، فمتى شئتَ استفتحتَ بالدعاء أبوابَ نعمته ، واستمطرت شآبيبَ رحمته ، فلا يُقنطنّك إبطاء

إجابته ، فإن العطية على قدر النية ، وربما أخِّرت عنك الإجابة ، ليكون ذلك أعظم لأجر السائل ، وأجزلَ لعطاء الآمل ؛ وربما سألت الشيء فلا تؤتاه ، وأوتيتَ خيراً منه ، أو صُرف عنك بما هو لك خير . واعلم أنه رُبَّ أمر قد طلبتَ ؛ فيه هلاكُ دينك لو أوتيتَه .

ومن الدعاء المرفوع : اللهمّ مَنْ أراد بنا سوءاً فأحِطْ به ذلك السوء كإحاطة القلائد بترائب الولائد ، وأرسخْه على هامته كرسوخ السِّجِّيل[1] على هَامِ أصحاب الفيل .

سمع عمر رجلا يقول في دعائه : اللهم اجعلني من الأقلِّين ! فقال : ما أردتَ بهذا ؟ قال : قول الله عز وجل : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[3] ، فقال : حسبكم من الدعاء بما عُرِف .

قال سعيد بن المسيَّب : مرّ بي صلة بن أشيم ، فقلت له : ادع لي ، فقال : رغّبك الله فيما يبقى ، وزهّدك فيما يفنى ، ووهب لك اليقين الذي لا تسكُنُ النفوس إلا إليه ، ولا تعوّل إلا عليه .

كان عليّ بن عيسى بن ماهان صاحبَ خراسان ، وفي أيامه عصام بن يوسف الزاهد فلقيه في الطريق ، وسلّم عليه عليّ ، فأعرض عنه ولم يردّ عليه ، فوقف عليّ ، ورفع يديه وأسبل عينيه ، وقال : اللهمّ إنّ هذا الرجل يتقرّب إليك ببغضي ، وأنا أتقرّب إليك بحبّه ، فإن كنت غفرتَ له ببغضي ، فاغفرْ لي بحبّه ، يا كريم ! ثم سار .

قال الأصمعيّ : سمعتُ أعرابيا يدعو ويقول : اللهمّ إن كان رزقي في السماء فأنزله ، وإن كان في الأرض فأخرجه ، وإن كان بعيداً فقرّبه ، وإن كان قريبا فيسرّه ، وإن كان قليلا فكثّره ، وإن كان كثيرا فبارك لي فيه .

---

(١) السجيل : حجارة من مدر .
(٢) سورة هود ٤٠ (٣) سورة سبأ ١٣

من دعاء عمرو بن عُبَيْد [١] : اللهمّ أغْنِني بالافتقار إليك ، ولا تُفقِرْني بالاستغناء عنك ؛ اللهم أعِنّي عَلَى الدنيا بالقَناعة ؛ وعلى الدين بالعصمة .

شكا رجل إلى الحسن رحمه الله تعالى رجلًا يظلمه ، فقال له : إذا صلَّيت الركعتين بعد المغرب ، فاسجد وقل : ياشديدَ القوى ، ياشديد المِحَال ، ياعزيز ، أذللتَ بعزّك جميعَ مَنْ خلقت ، فصلّ على محمد وآل محمد ، واكْفِني مؤنة فلان بما شئت . فدعا بها فلم يرعْهُ إلا الواعية [٢] بالليل ، فسأل ، فقيل : مات فلان فجأة .

قال موسى عليه السلام : يارب إنك لتعطيني أكثر من أملي ، قال : لأنك تكثر من قول : ماشاء الله ؛ لا قوة إلا بالله .

كان بعض الصالحين يقول قبل الصلاة : يامحسن ، قد جاءك المسيء ، وقد أمرت المحسن أن يتجاوز عن المسيء ، فتجاوزْ عن قبيح ماعندي بجميل ماعندك . اللهمّ ارزقني عَمَلَ الخائفين وخوف العاملين ؛ حتى أنعم بتركِ [٣] التنعّم طمعا فيما وعدت ، وخوفا مما أوعدت .

ومن الأدعية الجامعة : اللهمّ أغْنِني بالعلم ، وزيّنّي بالحلم ، وجَمّلني بالعافية ، وكَرِّمني بالتقوى .

أحمد بن يوسف كاتب المأمون : إذا دخل عليه حيّاه بتحيّة أبرويز الملك : عشت الدهر ، ونلت المنى ، وجُنِّبْت طاعة النساء .

ومن الدعاء المرويّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « اللهمّ اغفر لي ذنوبي وخطاياي كلّها . اللهم أنْعِشْني واجْبُرْني واهدني لصالح الأعمال والأخلاق ؛

(١) في الأصول : « عبيدة » تحريف .
(٢) الواعية : الصراخ .
(٣) في الأصول : « بترة » ، تحريف .

إنه لايهدى لصالحها ، ولا يصرف عن سيئها إلا أنت . اللهمّ إنى أسألك الثباتَ فى الأمر ، والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكرَ نعمتك وحسنَ عبادتك ، وأسألك قلباً سليماً ، ولساناً صدقاً ، وأسألك من خير ما تعلم ؛ وأعوذ بك من شرّ ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب .

* * *

[آداب الدعاء]

قالوا : ومن آداب الدعاء أن ترصد له الأوقات الشريفة ، كما بين الأذان والإقامة ، وكوقت السجود ووقت السَّحر ؛ ويستحبّ أن يدعُوَ مستقبل القبلة رافعاً يديه ؛ لما روى سلمان عن النبيّ صلى الله عليه وآله : « إنّ ربّكم كريم يستحى من عَبْده إذا رفع إليه يديه أن يردّهما صِفْراً » ، ويستحبّ أن يمسح بهما وجهه بعد الدعاء ، فإنّ ذلك قد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله .

ويكره أن يرفع بصرَه إلى السماء ، لقوله عليه السلام : « لَينتهِينّ أقوامٌ عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء ، أو لَتُخطَفَنّ أبصارُهم » ، وقد رُخّص فى ذلك للصديقين والأئمة العادلين ويستحبّ أن يخفض صوته ، لقوله تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾[1] . وقد روى أن عمر سمع رجلاً يجهر بالدعاء ، فقال : لكن زكريا نادى ربه نداء خفيًّا .

ويكره أن يتكلّف[2] الكلام المسجوع ، ويستحبّ الإتيان بالمطبوع منه ، لقوله صلى الله عليه وآله : « إيّاكم والسجع فى الدعاء ، بحسْبِ أحدكم أن يقول : اللهمّ إنى أسألك الجنّة وما قرّب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النّار وما قرّب إليها من قول أو عمل » .

---

(١) سورة الأعراف ٥٥ .
(٢) ب : « يتكلم » ، وما أثبته من ا ، ج .

وقيل فى الوصية الصالحة : ادعُ ربَّك بلسان الذّلة والافتقار ، لا بلسان الفصاحة والتشدّق .

وقال سفيان بن عُيينة : لا يمنعنّ أحدَكم من الدعاء مايعلمُه من نفسه ، فإنّ الله تعالى أجابَ دعاء شرّ خلقه إبليس حيث قال : ﴿ أَنظِرْنِي ﴾[1].

النبي صلى الله عليه وآله : « إذا سأل أحدُكم ربه مسألة [فتعرّف الإجابة][2] ، فليقل : الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات . ومَنْ أبطأ عنه شيء من ذلك فليقل : الحمد لله على كل حال » .

ومن الآداب أن يَفْتتح بالذّكر وألاّ يَبتدئ بالمسألة ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن يدعو يقول : « سبحان ربّيَ العليِّ الوهاب » .

أبو سليمان الداراني : مَنْ أراد أن يسأل الله تعالى حاجته فليبدأ بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم يسألُ حاجتَه ، ثم يختم بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإنّ الله تعالى يقبَلُ الصلاتين ، وهو أكرم من أن يَدَع ما بينهما .

ومن دعاء عليّ عليه السلام : « اللّهمّ صنْ وجهي باليسار ، ولا تبذل جاهي بالإقتار ، فأسترزقَ طالبي رزقك ، وأستعطِفَ شرار خلقك ، وأبتلي بحمد مَنْ أعطاني ، وأفتتنَ بذمّ مَنْ منعني ، وأنت من وراء ذلك كلّه وليّ الإعطاء والمنع ، إنك على كل شيء قدير » .

ومن دعاء الحسن رحمه الله تعالى : « اللهمّ إنى أعوذُ بك من قَلْب يعرف ، ولسان يصف ، وأعمال تخالف » .

ومن دعاء أهل البيتِ عليهم السلام ، وفيه رائحة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذى نحن فى شرحه : اللّهم إنى أستغفرُك لما تبتُ منه إليك ثم عدت فيه ، وأستغفرك

---

(١) سورة الأعراف ١٤ .
(٢) من ج .

لما وعدتك من نفسي ثم أخلفتك ، وأستغفرك للنعم التي أنعمتَ بها عليّ ، فتقوّيتُ على معصيتك ، وأستغفرك من كل ذنب تمكنتُ منه بعافيتك ، ونالته يدي بفضل نعمتك ، وانبسطتُ إليه بسعة رزقك ، واحتجبتُ فيه عن الناس بسترك ، واتكلت فيه على أكرم عفوك . اللهم إني أعوذ بك أن أقولَ حقًّا ليس فيه رضاك ، ألتمس به أحداً سواك ، وأعوذ بك أن أتزيّن للناس بشيء يَشِينني عندك ، وأعوذ بك أن أكونَ عِبْرةً لأحد من خلقك ، وأن يكون أحدٌ من خلقك أسعدَ بما علّمتني مني ، وأعوذ بك أن أستعينَ بمعصية لك على ضُرٍّ يصيبني .

كان أبو مسلم الخولانيّ إذا أهمّه أمر قال : يامالكَ يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين .

ومن دعاء عليّ عليه السلام : اللهمّ إن نَبَهتُ عن مسألتي وأعييتُ عن طلبتي ، فدلّني على مصالحي ، وخُذْ بقلبي إلى مَراشدي ، اللهم احملني على عفوك ، ولا تحملني على عدلك

(٧٨)

الأصـــلُ :

ومن كلام له عليه السلام قاله لبعض أصحابه لما عزم على السير إلى الخوارج ، وقد قال له : إن سرت يا أمير المؤمنين فى هذا الوقت ، خشيت ألا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم ، فقال عليه السلام :

أَتَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِى إِلَى السَّاعَةِ الَّتِى مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوء، وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِى مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ ! فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهٰذَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ ، وَاسْتَغْنَى عَنِ الاسْتِعَانَةِ بِاللهِ فِى نَيْلِ الْمَحْبُوبِ وَدَفْعِ الْمَكْرُوهِ . وَتَبْتَغِى فِى قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُولِيَكَ الْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ ؛ لأَنَّكَ - بِزَعْمِكَ - أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِى نَالَ فِيهَا النَّفْعَ ، وَأَمِنَ الضُّرَّ .

ثم أقبل عليه السلام على الناس فقال :

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ النُّجُومِ إِلاَّ مَا يُهْتَدَى بِهِ فِى بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الْكَهَانَةِ ؛ الْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ ، وَالْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ ، وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ ، وَالْكَافِرُ فِى النَّارِ ؛ سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللهِ .

* * *

الشـــرْحُ :

حاق به الضر:أى أحاط به؛قال تعالى : ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[1].

ويوليك الحمد ، مضارع « أولاك »؛وأولاك معدًّى بالهمزة من « وَلِىَ »،يقال : ولِىَ

---

(١) سورة فاطر ٤٣ .

الشىء ولايةً وأوليته ذلك؛أى جعلته والياً له ومتسلطاً عليه.والكاهن : واحد الكُهّان وهم الذين كانوا يخبرون عن الشياطين بكثير من الغائبات .

* * *

[القول فى أحكام النجوم]

واعلم أنّ الناس قد اختلفوا فى أحكام النجوم ، فأنكرها جمهورُ المسلمين والمحقّقون من الحكماء ؛ ومن تكلّم هاهنا فى ذلك وبحث فيه بحثَين : بحثا كلاميا ، وبحثا حُكْميًّا .

أمّا البحثُ الكلاميّ ؛ هو أن يقال : إمّا أن يذهب المنجمون إلى أنّ النجوم مؤثرة ، أو أمارات .

والوجه الأول ينقسم قسمين : أحدهما أن يقال : إنها تفعل بالاختيار ، والثانى أن تفعلَ بالإيجاب .

والقول بأنّها تفعل بالاختيار باطل ؛ لأنّ المختار لا بدّ أن يكونَ قادراً حيًّا،والإجماع من المسلمين حاصلٌ علىأنّ الكواكب ليستْ حيّة ولاقادرة ، والإجماع حجّة،وقد بيّن المتكلّمون أيضا أنّ مِنْ شرط الحياة الرطوبة، وأن تكون الحرارة على قَدْر مخصوص ؛ متى أفرط امتنع حلول الحياة فى ذلك الجسم ؛ فإنّ النار على صرافتها يستحيل أن تكون حيّة ؛ وأن تحلّها الحياة لعدم الرطوبة وإفراط الحرارة فيها واليبس،والشّمسُ أشدُّ حرارةً من النار ؛ لأنّها على بُعْدها تؤثّر مالاتؤثره النّار على قُرْبها ؛ وذلك دليل على أنّ حرارتها أضعافُ حرارة النار ؛ وبينوا أيضا أنّها لو كانت حيّة قادرة لم يجز أن تفعلَ فى غيرها ابتداء ؛ لأنّ القادر بقدرة لا يصحّ منه الاختراع ؛وإنما يفعل فى غيره على سبيل التوليد ؛ ولا بدّ من وصلة بين الفاعل والمفعول فيه،والكواكب غير مماسّة لنا ، فلا وُصلة بينها وبيننا ؛ فيستحيل أنْ تكون فاعلة فينا .

فإن ادّعى مدّعٍ أنّ الوصلة هي الهواء ، فمن ذلك أجوبة :

أحدُها : أنّ الهواء لا يجوز أن يكون وصلة وآلةً في الحركات الشديدة وحمل الأثقال ، لاسيما إذا لم يتموّج .

والثاني : أنه كان يجب أن نحسّ بذلك ، ونعلم أنّ الهواء يحرّكنا ويصرّفنا ؛ كما نعلم في الجسم إذا حرّكنا وصرّفنا بآلة موضع تحريكه لنا بتلك الآلة .

والثالث : أنّ في الأفعال الحادثة فينا ما لا يجوز أن يفعل بآلة ، ولا يتولّد عن سبب ؛ كالإرادات والاعتقادات ونحوها .

وقد دلّ أصحابنا أيضاً على إبطال كون الكواكب فاعلة للأفعال فينا ، بأنّ ذلك يقتضي سقوط الأمر والنهي ، والمدح والذم ، ويلزمهم ما يلزم المجبرة ، وهذا الوجهُ يبطل كونَ الكواكب فاعلة فينا بالإيجاب ، كما يبطل كونها فاعلة بالاختيار .

وأما القول بأنها أمارات على ما يحدُث ويتجدّد ؛ فيمكن أن يُنصر بأن يقال : لم لا يجوزُ أن يكون الله تعالى أجرَى العادة ، بأن يفعل أفعالا مخصوصة عند طلوع كوكب أو غروبه أو اتصاله بكوكب آخر .

والكلام على ذلك بأن يقالَ : هذا غير ممتنع لو ثبت سمع مقطوع به يقتضي ذلك ؛ فإنّ هذا مما لا يعلم بالعقل .

فإن قالوا : نعلم بالتجربة .

قيل لهم : التجربة إنما تكون حُجّةً إذا استمرّت واطّردت ؛ وأنتم خطؤكم فيما تحكمون به أكثرُ من صوابكم ، فهلّا نسبتُم الصّواب الذى يقع منكم إلى الاتفاق والتخمين ! فقد رأينام أصحاب الزَّرْق[1] والتخمين مَنْ يصيب أكثرَ مما يصيب المنجِّم ، وهو من غير أصل صحيح ولا قاعدة معتمدة ومتى قلتم : إنما أخطأ المنجِّم لغلطه في تسيير الكواكب ؛

(١) الزرق : الحدس .

قيل لكم: ولم لا يكون سبب الإصابة اتفاقاً؟ وإنما يصحّ لكم هذا التأويل والتخريج لو كان على صحة أحكام النجوم دليل قاطع ، هو غير إصابة المنجّم .

فأما إذا كان دليل صحّة الأحكام الإصابة ، فهلّا كان دليلُ فسادها الخطأ ، فما أحدُهما إلا في مقابلة صاحبه !

ومما قيل على أصحاب الأحكام ، إن قيل لهم في شيء بعينه : حدّدوا الطالع واحكموا ، أيؤخذ أم يترك ؟ فإن حكموا بأحدهما خولفوا ، وفُعِل خلاف ما أخبروا به ؛ وهذه المسألة قد أعضل عليهم جوابها .

وقال بعض المتكلّمين لبعض المنجّمين : أخبرْني ، لو فرضنا جادّة مسلوكة ، وطريقاً يمشي فيها الناس نهاراً وليلاً ؛ وفي تلك الجادّة آبار متقاربة ، وبين بعضها وبعض طريق يحتاج سالكه إلى تأمّل وتوقّف ، حتى يتخلّص من السقوط في بعض تلك الآبار ؛ هل يجوز أن تكون سلامة مَنْ يمشي بهذا الطريق من العميان كسلامة من يمشي فيه من البُصَراء ، والمفروض أنّ الطريق لا يخلو طَرْفةَ عين من مشاة فيها عميان ومبصرون ؟ وهل يجوز أن يكون عَطَبُ البُصَراء مقارباً لعَطَب العميان ؟

فقال المنجّم : هذا مما لا يجوزُ ، بل الواجب أن تكون سلامةُ البصراء أكثرَ من سلامة العميان .

فقال المتكلّم : فقد بطل قولكم ؛ لأن مسألتنا نظير هذه الصورة ، فإن مثال البُصَراء هُم الذين يعرفون أحكامَ النجوم ، ويميّزون مَساعدها من مَناحسها ، ويتوقّون بهذه المعرفة مضارّ الوقت والحركات ويتخطّونَها ويتعمدون مناقبَها ويقصدونَها ؛ ومثال العميان كلّ من لا يحسِنُ علم النجوم ؛ ولا يقولون به من أهل العلم والعامة ، وهم أضعاف أضعاف عدد المنجمين .

ومثال الطريق الذى فيه الآبار ، الزمان الذى مضى ومرّ على الخلق أجمعين ، ومثال آباره مصائبه ومحنُه .

وقد كان يجب ـ لوصح علم أحكام النجوم ـ أن سلامة المنجّمين أكثرُ ، ومصائبهم أقلّ ؛ لأنهم يتوقّون المحن ويتخطّونها لعلمهم بها قبل كونها ، وأن تكون محنُ المعرضين عن علم أحكام النجوم على كثرتهم أوفر وأظهر ؛ حتى تكون سلامة كلّ واحد منهم هى الطريقة الغريبة ؛ والمعلومُ خلاف ذلك ، فإنّ السلامة والمحن فى الجميع متقاربة متناسبة غير متفاوته .

* * *

وأما البحث الحكمىّ فى هذا الموضع ؛ فهو أنّ الحادث فى عالم العناصر عند حلول الكوكب المخصوص فى البرج المخصوص ؛ إمّا أن يكون المقتضِى له مجرّد ذلك الكوكب أو مجرد ذلك البرج ، أو حلول ذلك الكوكب فى ذلك البرج . فالأولان باطلان ؛ وإلّا لوَجب أن يحدث ذلك الأمر قبل أن يحدث ، والثالثُ باطل أيضاً ؛ لأنه إمّا أن يكون ذلك البرج مساوياً لغيره من البروج فى الماهيّة ، أو مخالفاً . والأول يقتضى حدوثَ ذلك الحادث حالَ ما كان ذلك الكوكب حالًّا فى غيره من البروج ؛ لأنّ حكم الشىء حكم مثله ، والثانى يقتضى كونَ كُرَة البروج متضادّة الأجزاء فى أنفسها ؛ ويلزم فى ذلك كونها مركّبة ، وقد قامت الدلالة على أنه لا شىء من الأفلاك بمركّب .

وقد اعتُرِض على هذا الدليل بوجهين :

أحدهما : أنّه لِمَ لا يجوز أن تختلف أعمالُ الكواكب المتحيّرة عند حلولها فى البروج ، لا لاختلاف البروج فى نفسها ، بل لاختلاف مافى تلك البروج من الكواكب الثابتة المختلفة الطبائع !

الوجه الثانى : لِمَ لا يجوزُ أن يقال : الفلَك التاسع مكوكَب بكواكب صغار لا نراها

لغاية بعدها عنا ، فإذا تحركت فى كرات تداويرها سامتتْ مواضعَ مخصوصة من كرة الكواكب الثابتة ؛ وهى فلك البروج ، فاختلفت آثار الكواكب المتحيرة عند حلولها فى البروج ، باعتبار اختلاف تلك الكواكب الصغيرة ؟ ولِمَ لا يجوزُ إثبات كرة بين الكرة الثامنة ، وبين الفلك الأطلس المدبّر لجميع الأفلاك من المشرق إلى المغرب ، وتكون تلك الكرة المتوسطة بينهما بطيئة الحركة بحيث لا تفى أعماراً بالوقوف على حركتها ؛ وهى مكوكبة بتلك الكواكب الصغار المختلفة الطبائع ؟

وأجيب عن الأول ، بأنّه لو كان الأمر كما ذُكر ، لوجب أن تختلف بيوتُ الكواكب وإشرافها وحدودها عند حركة الثوابت بحركة فلكها ، حتى إنها تتقدّم على مواضعها فى كلّ مائة سنة على رأى المتقدمين ، أو فى كلّ ست وستين سنة على رأى المتأخرين درجة واحدة ؛ لكنّ ليس الأمرُ كذلك ، فإنّ شرف القمر ، كما أنه فى زماننا فى درجة الثالثة من الثور ، فكذلك كان عند الذين كانوا قبلنا بألف سنة وبألفى سنة .

وأما الوجه الثانى فلا جواب عنه .

* * *

واعلم أنّ الفلاسفة قد عوّلت فى إبطال القول بأحكام النجوم على وجهٍ واحد ، وهو أن مبنى هذا العلم على التجربة ، ولم توجد التجربة فيما يدّعيه أربابُ علم النجوم ، فإنّ ها هنا أموراً لا تتكرر إلا فى الأعمار المتطاولة مثل الأدوار والألوف التى زعم أبو معشر أنها هى الأصل فى هذا العلم ، ومثل مماسة جُرْم زُحَل الكرة المكوكبة ، ومثل انطباق معدّل النهار على دائرة فلك البروج ، فإنهم يزعمون أنّ ذلك يقتضى حدوثَ طوفان الماء وإحاطتَه بالأرض من جميع الجوانب ، مع أن هذه الأمور لا توجد إلّا فى ألوف الألوف من السنين ؛ فكيف تصحّ أمثالُ هذه الأمور بالتجربة !

وأيضاً ، فإنّا إذا رأينا حادثاً حدَثَ عند حلول كوكب مخصوص فى برج مخصوص

فكيف نعلم استناد حدوثه إلى ذلك الحلول ! فإنّ فى الفلك كواكبَ لاتحصى ، فما الذى خصّص حدوثَ ذلك الحدوث بحلول ذلك الكوكب فى ذلك البرج لاغيره ! وبتقديرأن يكون لحلوله تأثير فى ذلك ، فلا يمكن الجزم قبل حلوله بأنه إذا حلّ فى البرج المذكور لابدّ أن يحدث ذلك الحادث ، لجواز أن يوجدمايبطل تأثيره ؛ نحو أن يحلّ كوكبٌ آخر فى برج آخر ، فيدفع تأثيرَه ، ويبطل عمله ؛ أولعلّ المادة الأرضيّة لاتكون مستعدّة لقبول تلك الصورة ، وحدوثُ الحادث ، كمايتوقّف على حصول الفاعل يتوقفّ على حصول القابل ، وإذا وقع الشكُّ فى هذه الأمور بطل القولُ بالجزم بصحة أحكام النجوم ؛ وهــذه الحجّة جيّدة إن كان المنجّمون يطلبون القطع فى علمهم .

فأما إن كانوا يطلبون الظنّ فإن هذه الحجة لاتفسد قولهم .

* * *

فأما أبو البركات بن مَلْكا البغدادى صاحب كتاب " المعتبر " فإنه أبطل أحكام النجوم من وجه وأثبته من وجه .

قال : أما مَنْ يريدتطبيقَ علم أحكام النجوم على قاعدة العلم الطبيعى فإنّه لاسبيلَ له إلى ذلك ؛ فإنّا لانتحقّق من أقوالهم إلا بأحكام يحكمُون بها من غير دليل ؛ نحو القول بحرّ الكواكب وبردها أو رطوبتها ، ويبوستها واعتدالها ، كقولهم : إنّ زُحَل بارد يابس ، والمشترى معتدل ؛ والاعتدال خير والإفراط شرٌّ ، ويفتحون من ذلك أنّ الخيرَ يوجب سعادة ، والشرّ يوجب مَنْحَسَة ، وما جانَس ذلك مما لم يقل به علماء الطبيعيين ولم تتجه مقدّماتهم فى أنظارهم ؛ وإنما الذى أتجهتْ هو أنّ الأجرام السماوية فعّالة فيما تحويه وتشتمل عليه وتتحرّك حوله فعلا على الإطلاق غير محدود بوقت ؛ ولا مقدّر بتقدير ، والقائلون بالأحكام ادّعَوا حصولَ علمهم بذلك ؛ من توقيف وتجربة لايطابق نظر الطبيعى .

وإذا قلت بقول الطبيعى بحسب أنظاره أنّ المشترى سَعْد ، والمرّيخ نحس ، أو أنّ زحل

بارد يابس ، والمريخ حارّ يابس ؛ والحارّ والبارد من المحسوسات ؛ وما دلّ على هذا الحسّ وما استدل عليه بلمس كتأثيره فيما يلمسه ؛ فإن ذلك لم يظهر للحسّ في غير الشمس ، حيث تسخّن الأرض بشعاعها ؛ ولو كان في السمائيات شيء من طبائع الأضداد ؛ لكان الأولى أن تكون كلّها حارّة ؛ لأنّ كواكبها كلّها منيرة .

ومتى يقول الطبيعي بتقطيع الفلك وتقسيمه إلى أجزاء ، كما قسمه المنجمون قسمة وهمية إلى بروج ودَرَج ودقائق؛ وذلك جائز لمتوهّم ، كحوازغيره ، وليس بواجب في الوجود ولا حاصل ، فنقلوا ذلك التوهم الجائز إلى لوجود الواجب في أحكامهم ، وكان الأصل فيه على زعمهم حركة الشمس والأيام والشهور ، فحصّلوا منها قسمة وهمية ، وجعلوها كالحاصلة الوجودية المثمرة بحدود وخطوط ، كأن الشمس بحركتها من وقت إلى مثله خطّت في السماء خطوطا ، وأقامت فيها جُدُراً أو جلودا، أو غيرت في أجزائها طباعا تسيرا يبقى ، فيبقى به القسمة إلى تلك الدَّرَج والدقائق، مع حوار الشمس عنها ، وليس في جوهر الفلك اختلاف يتميز به موضع عن موضع سوى الكواكب، والكواكب تتحرك عن أمكنتها ، فبقيت الأمكنة على التشابه ، فهذا تقسيم بروجه ودرجه ، ويبقى اختلافها بعد حركة المتحرك في تميّها ؟ وكيف يقيس الطبيعيّ على هذه الأصول، وينتج منها نتائج ويحكم بحسبها أحكاما؟ وكيف له أن يقول بالحدود ويجعل خمس درجات من برج الكوكب وستّا لآخر ، وأربعا لآخر ، ويختلف فيها البابليون والمصريون ، وجعلوا أرباب البيوت كأنّها ملّاك ، والبيوت كأنها أملاك تثبت لأربابها كملوك وأحكام الأسد للشمس والسرطان للقمر !

وإذا نظر الناظر وجد الأسد أسداً من جهة كواكب شكّلوها بشكل الأسد ، ثم انقلبت عن مواضعها وبقي الموضع أسداً وجعلوا الأسد للشمس . وقد ذهبتْ منه الكواكبُ التي كأنّ بها أسدا كأنّ ذلك الملك بيت للشمس ، مع انتقال الساكن ، وكذلك السّرطان للقمر .

• • •

ومن الدقائق فى العلم النجومىّ الدرجات المدّارة والعربيّة والمظلمة والنيّرة والزائدة فى السعادة ودرجات لآثار ؛ من جهة أنها أجزاء الفلك ؛ إن قطعوها وما انقطعت ؛ ومع انتقال ماينتقل من الكواكب إليها وعنها ، ثم أنتجوا من ذلك نتائج أنظارهم ؛ من أعداد الدرج وأقسام الفلك ، فقالوا : إنّ الكوكب ينظر إلى الكواكب من ستين درجة نظر تسديس لأنه سُدْس من الفلك ، ولا ينظر إليه من خمسين ولا من سبعين ، وقد كان قبل الستين بعشر دَرَج ، وهو أقرب من ستين ، وبعدها بعشر دَرَج ، وهو أبعد من ستين لا ينظر .

فليت شعرى ماهذا النظر ! أترى الكواكب تنظر الكوكب ثم تحتجب عنه، ثم شعاعه يختلط بشعاعه عند حدّ لا يختلط به قبله ولا بعده !

وكذلك التربيع ، من الرُّبع الذى هو تسعون درجة ، والتثليث ، من الثلث الذى هو مائة وعشرون درجة ، فلم لا يكون التخميس والتسبيع والتعشير على هذا القياس ! ثم يقولون : الحَمَل حارّ يابس نارىّ ، والثور بارد يابس أرضىّ ، والجوزاء حارّ رطب هوائىّ ، والسرطان بارد رطب مائىّ ! ماقال الطبيعى هذا قطّ ، ولا يقول به .

وإذا احتجّوا وقاسوا كانت مبادئ قياسهم الحَمَل بُرْج ينقلب ؛ لأن الشمس إذا نزلت فيه ينقلب الزمان من الشتاء إلى الربيع ، والثور برج ثابت ؛ لأنّ الشمس إذا نزلت فيه ثبت الربيع على ربيعيّته .

والحقّ أنه لاينقلب الحمل ولا يثبت الثور ؛ بل هما على حالهما فى كلّ وقت . ثم كيف يبقى دهره منقلبا مع خروج الشمس منه وحلولها فيه ! أتراها تخلّف فيه أثرا أو تحيل منه طباعا ؛ وتبقى تلك الاستحالة إلى أن تعود فتجدّدها ! ولم لايقول قائل : إن السّرطان حارّ يابس ، لأن الشمس إذا نزلت فيه يشتدّ حرّ الزمان ؛ وما يحاسن هذا مما لايلزم ؛ لاهو ولا ضدّه ؛ فليس فى الفلك اختلاف يعرفه الطبيعىّ ، إلا بما فيه من الكواكب ، وهو فى نفسه

واحد متشابه الجوهر والطبع ؛ ولكنها أقوالٌ قال بها قائل فقبلها قائل ، ونقلها ناقل ، فحسُن فيها ظنّ السامع ، واغترّ بها مَنْ لا خبْرة له ولا قدرة له على النظر .

ثم حَكَم بها الحاكمون بجيد ورديء ، وسلْب وإيجاب ، وبتّ وتجوز ، فصادف بعضُه موافقة الوجود فصدّق ، فيعتبر به المعتبرون ، ولم يلتفتوا إلى ما كذب منه فيكذّبوه؛ بل عذروا وقالوا : إنما هو منجِّمٌ ؛ وليس بنبيٍّ حتى يصدق فى كلّ مايقول ؛ واعتذَرُوا له بأنّ العلم أوسعُ من أن يحيط به أحد ، ولو أحاط به أحدٌ لصدق فى كلّ شيء ! ولعمر الله أنه لو أحاط به علماً صادقاً لصدّق ، والشأن فى أن يحيطَ به على الحقيقة ، لا أن يفرِض فرضاً ، ويتوهم وهماً ، فينقله إلى الوجود وينسب إليه ، ويقيس عليه .

قال : والذى يصحّ من هذا العلم ويلتفتُ إليه العقلاء ؛ هى أشياء غير هذه الخرافات التى لا أصل لها ؛ فما حصل توقيف أو تجربة حقيقة كالقرانات والمقابلة ، فإنها أيضاً من جملة الاتصالات ؛ كالمقارنة من جهة أنّ تلك غاية القُرْب ؛ وهذه غاية البعد ؛ وكحصول كوكب من المتحيرة ، تحت كوكب من الثابتة ، ونحوه مايعرض للمتحيِّرة من رجوع واستقامة وارتفاع فى شمال ، وانخفاض فى جنوب ، وأمثال ذلك .

فهذا كلام ابن ملكا كما تراه يبطلُ هذا الفنّ من وجه ، ويقول به من وجه .

* * *

وقد وقفت لأبى جعفر محمد بن الحسين الصنعانىّ المعروف بالخازن ، صاحب كتاب "زيج الصفائح" على كلام فى هذا الباب مختصر له سماه "كتاب العالمين" أنا ذاكرهُ فى هذا الموضع على وجهه . لأنه كلامٌ لا بأس به ، قال : إنّ بعضَ المصدّقين بأحكام النجوم وكلّ المكذّبين بها ، قد زاغوا عن طريق الحقّ والصواب فيها . فإنّ الكثير من المصدّقين بها قد أدخلوا فيها ماليس منها ، وادّعَوْا مالم يمكن إدراكه بها ، حتى كثُرفيها خطؤهم ، وظهر كذبهم ، وصار ذلك سبباً لتكذيب أكثر الناس بهذا العلم .

فأما المكذّبون به فقد بلغوا من إنكار صحيحه وردّ ظاهره إلى أن قالوا : إنه لا يصحّ منه شيء أصلاً، ونسبوا أهله إلى الرزق والاحتيال والخداع والتمويه ، فلذلك رأينا أن نبتدئ بتبيين صحّة هذه الصناعة ،ليظهر فسادُ قول المكذّبين لها بأمرها ، ثم نبيّن ما يمكن إدراكه بها ليبطل دعوى المدّعين فيها ما يمتنع وجودُه بها .

أما الوجوه التى بها تصحّ صناعة الأحكام فهى كثيرة ، منها ما يظهر لجميع الناس من قِبَل الشمس ، فإنّ حدوث الصيف والشتاء وما يعرض فيهما من الحرّ والبرد والأمطار والرياح ونبات الأرض ،وخروج وقت الأشجار وحملها الثمار ، وحركة الحيوان إلى النسل والتوالد وغير ذلك ،مما يشاكله من الأحوال، إنما يكون أكثر ذلك بحسب دنوّ الشمس من سَمْت الرءوس فى ناحية الشمال ، وتباعدها منه إلى ناحية الجنوب ، وبفضل قوّة الشمس على قوة القمر ، وقُوَى سائر الكواكب ظهر ماقلنا لجميع الناس .

وقد ظهر لهم أيضاً من قبل الشمس فى تغير الهواء كلّ يوم؟ عند طلوعها، وعند توسّطها السماء ، وعند غروبها مالا خفاء به من الآثار .

ومن هذه الوجوه ما يظهر للفلّاحين وللّاحين بأدنى تفقّد للأشياء التى تحدث .فإنّهم يعلمون أشياء كثيرة من الآثار التى يؤثّرها القمر وأنوار الكواكب الثابتة، كالمدّ والجزر، وحركات الرياح والأمطار وأوقاتها عند الحدوث ، وما يوافق من أوقات الزراعات ومالا يوافق ، وأوقات اللّقاح والنتاج .

وقد يظهر من آثار القمر فى الحيوان الذى يتوالد فى الماء والرّطوبات ماهو مشهور لا ينكر .

ومنها جهات أخرى يعرفها المدّعون فقط على حَسَب فضل علمهم ، ودقّة نظرهم فى هذا

العلم . وإذ قد وصفنا على سبيل الإجمال مايوجب حقيقة هذا العلم ، فإنّا نصف مايمكن إدراكه به أو لايمكن ، فنقول : لما كانت تغيرات الهواء ، إنما تحدث بحسب أحوال الشمس والقمر والكواكب المتحيرة والثابتة ، صارت معرفة هذه التغيرات قد تدرك من النجوم مع سائر مايتبعها من الرياح والسحاب والأمطار والثلج والبرد والرعد والبرق ؛ لأن الأشياء التي تلي الأرض وتصل إليها هذه الآثار من الهواء المحيط بها ، كانت الأعراض العامية التي تعرض في هذه الأشياء تابعة لتلك الآثار ؛ مثل كثرة مياه الأنهار وقلتها ، وكثرة الثمار وقلتها وكثرة خِصْب الحيوان وقلّته ، والجدوبة والقحط ، والوباء ، والأمراض التي تحدث في الأجناس والأنواع ، أو في جنس دون جنس ، أو في نوع دون نوع ، وسائر مايشاكل ذلك من الأحداث .

ولما كانت أخلاقُ النفس تابعةً لمزاج البدن ، وكانت الأحداث التي ذكرناها مميّزة لمزاج البدَن ، صارت أيضاً مميِّزة للأخلاق ، ولأنّ المزاج الأول الأصليّ هو الغالب على الإنسان في الأمر الأكثر ، وكان المزاج الأصليّ هو الذي طُبع عليه الإنسان في وقت كونه في الرَّحِم ، وفي وقت مولده وخروجه إلى جوّ العالم ـ صار وقت السكون ووقت المولد أدلّ الأشياء على مزاج الإنسان ، وعلى أحواله التابعة للمزاج ، مثل خِلقة البدن ، وخُلق النفس والمرض والصحّة ، وسائر مايتبع ذلك ، فهذه الأشياء وما يشبهها من الأمور التي لاتشارك شيئاً من الأفعال الإرادية فيه ممايمكن معرفتُه بالنجوم ، وأما الأشياء التي تشارك الأمور الإرادية بعضَ المشاركة ، فقد يمكن أن يصدقَ فيها هذا العلم على الأمر الأكثر ، وإذا لم يستعمل فيه الإرادة جرَى على ماتقود إليه الطبيعة .

على أنه قد يعرض الخطأ والغلط لأصحاب هذه الصناعة من أسباب كثيرة ، بعضها يختصّ بهذه الصناعة دون غيرها ، وبعضها يعمُّها وغيرها من الصنائع .

فأمّا ما يعمّ فهو من قصور طبيعة الناس فى معرفة الصنائع أبدًا كانت عن بلوغ الغاية فيها ، حتى لا يبقى وراءها غاية أخرى، فكثرة الخطأ وقلّته على حسب تقصير واحد واحد من الناس .

وأما ما يخصّ هـذه الصناعة فهو كثير ما يحتاج صاحبها إلى معرفته ، مما لا يمكنه أن يعلم كثيراً منه إلا بالحدس والتخمين ، فضلا عن لطف الاستنباط وحسن القياس، ومما يحتاج إلى معرفة علم أحوال الفلك ، ومما يحدث فى كل واحد من تلك الأحوال ، فإنّ كل واحد منها له فعل خاص ، ثم يؤلف تلك الأحوال بعضها مع بعض على كثرة فنونها واختلافها، ليحصل من جميع ذلك قوّة واحدة ، وفعلٌ واحد ، يحكون عنه الحادث فى هذا العالم ، وذلك أمر عسير ، فمتى أغفل من ذلك شيء كان الخطأ الواقع بحسب الشيء الذى سها عنه وترك استعماله .

ثم من بعد تحصيل ما وصفناه ينبغى أن يعلم الحال التى عليها يُوافى فى تلك القوة الواحدة الأشياء التى تعرض فيها تلك الأحداث ، كأنه مثلا إذا دل مافى الفلك على حدوث حرّ ، وكانت الأشياء التى يعرض فيها ما يعرض قد مرّ بها قبل ذلك حرّ ، فحميت وسخنت أثّر ذلك فيها أثراً قويًّا ، فإن كان قد مرّ بها برْد قبل ذلك ، أثّر ذلك فيها أثراً ضعيفاً ، وهذا شيء يحتاج إليه فى جميع الأحداث التى تعمل فى غيرها مما يناسب هذه المعرفة .

وأما الأحداثُ التى تخصّ ناحيةً ناحية ، أو قوماً قوماً ، أو جنساً جنساً ، أو مولوداً واحداً من الناس، فيحتاج مع معرفتها إلى أن يعلم أيضاً أحوالَ البلاد والعادات ، والأغذية والأوباء وسائر ما يشبه ذلك ، مما له فيه أثر وشركة ، مثل ما يفعل الطبيب فى المعالجة ، وفى تقدمة المعرفة ، ثم من بعد تحصيل هذه الأشياء كلّها ينبغى أن ينظر فى الأمر الذى قد استدلّ على حدوثه ، هل هو مما يمكن أن يرد أو يتلافى بما يبطله أو يغيره من جهة

الطبّ والحيل أم لا؟ كأنه مثلا استدلّ على أنه يصيب هذا الإنسان حرارة يحمّ منها ، فينبغي أن يحكم بأنه يحمّ إن لم يتلاف تلك الحرارة بالتبريد ، فإنه إذا فعل ذلك أنزل الأمور منازلها ، وأجراها مجاريها .

ثم إن كان الحادث قويًّا لا يمكن دفعه ببعض ما ذكرنا ، فليس يلزم الحاجة إلى ما قلنا ، فإن الأمر يحدث لامحالة ، وما قوى وشمل الناس فإنه لا يمكن دفعه ولا فسخه ، وإن أمكنَ فإنما يمكنُ في بعض الناس دون بعض .

وأما أكثرهم فإنه يجرى أمره على ما قد شمل وعمّ ، فقد يعمّ الناسَ حرّ الصيف ، وإن كان بعضهم يحتال في صرفه بالأشياء التي تبرد وتنفي الحرّ .

فهذه جملة ما ينبغي أن يعلم ويعمل عليه أمور هذه الصناعة .

* * *

قلت : هذا اعتراف بأن جميع الأحداث المتعلقة باختيار الإنسان وغيره من الحيوان لا مدخلَ لعلم أحكام النجوم فيه ، فعلى هذا لا يصحّ قولُ من يقول منهم لزيد مثلا : إنك تتزوّج أو تشترى فرساً ، أو تقتل عدوّا أو تسافر إلى بلد ونحو ذلك ، وهو أكثر ما يقولونه ويحكمون به .

وأما الأمور الكليّة الحادثة لا بإرادة الحيوان واختياره ، فقد يكون لكلامهم فيه وجهٌ من الطريق التي ذكرها ، وهي تمثّل كثير من الأحداث بحركة الشمس والقمر ، إلا أن المعلومَ ضرورة من دين رسول الله صلى الله عليه وآله إبطال حكم النجوم وتحريم الاعتقاد بها والنهى والزجر عن تصديق المنجّمين ، وهذا معنى قول أمير المؤمنين في هذا الفصل : « فمن صدقك بهذا فقد كذّب القرآن ، واستغنى عن الاستعانة بالله » . ثم أردف

ذلك وأكّده بقوله : كان يجب أن يحمَد المنجم دون البارى تعالى ؛ لأن المنجم هو الذى هدى الإنسان إلى الساعة التى ينجح فيها، وصدَّه عن الساعة التى يخفق ويُكدِى فيها فهو المحسن إليه إذاً ، والمحسن يستحقّ الحمد والشكر، وليس للبارئ سبحانه إلى الإنسان فى هذا الإحسان المخصوص ؛ فوجب ألّا يستحقّ الحمد على ظَفَر الإنسان بطلبه؛ لكنّ القول بذلك والتزامه كفر محْضٌ.

———

(٧٩)

الأصـلُ:

ومن كلام له عليه السلام بعد فراغه من حرب الجمل في ذمّ النساء:

مَعَاشِرَ النَّاسِ! إِنَّ النِّسَاءَ نَوَاقِصُ الْإِيمَانِ، نَوَاقِصُ الْحُظُوظِ، نَوَاقِصُ الْعُقُولِ، فَأَمَّا نُقْصَانُ إِيمَانِهِنَّ فَقُعُودُهُنَّ عَنِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ، وَأَمَّا نُقْصَانُ عُقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ مِنْهُنَّ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ، وَأَمَّا نُقْصَانُ حُظُوظِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلَى الْأَنْصَافِ مِنْ مَوَارِيثِ الرِّجَالِ.

فَاتَّقُوا شِرَارَ النِّسَاءِ، وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَى حَذَرٍ، وَلَا تُطِيعُوهُنَّ فِي الْمَعْرُوفِ حَتَّى لَا يَطْمَعْنَ فِي الْمُنْكَرِ.

* * *

الشَّـرْحُ:

جعل عليه السلام نقصان الصلاة نقصاناً في الإيمان، وهذا هو قولُ أصحابنا: إنّ الأعمال من الإيمان، وإنّ المقرّ بالتوحيد والنبوّة، وهو تارك للعمل ليس بمؤمن.

وقوله عليه السلام «ولا تطيعوهنّ في المعروف»، ليس بنهي عن فعل المعروف؛ وإنما هو نهي عن طاعتهن، أي لا تفعلوه لأجل أمرهنّ لكم به، بل افعلوه لأنه معروف، والكلام ينحو نحو المثل المشهور: «لا تعط العبد كُراعا فيأخذ ذراعا».

وهذا الفصل كلّه رمز إلى عائشة، ولا يختلفُ أصحابنا في أنها أخطأتْ فيما فعلتْ ثم تابت وماتت تائبة، وأنّها من أهل الجنة.

قال كلّ من صنف فى السير والأخبار : إن عائشة كانتْ من أشدّ الناس على عثمان ؛ حتى إنها أخرجتْ ثوباً من ثياب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فنصبتْه فى منزلها ، وكانت تقول للداخلين إليها : هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يَبْلَ ، وعثمان قد أبلَى سنّته .

قالوا : أولُ مَنْ سمى عثمان نعثلا عائشة ؛ والنّعثل : الكثير شعر اللحية والجسد ، وكانت تقول : اقتلوا نعثلا ، قتل الله نعثلا !

وروى المدائنىّ فى كتاب " الجمل " ، قال : لما قتل عثمان ، كانت عائشة بمكّة ، وبلغ قتلُه إليها وهى بشَراف ، فلم تشكّ فى أنّ طلحة هو صاحب الأمر ، وقالت : بُعْداً لنعثل وسحقاً ! إيهِ ذا الإصبع ! إيه أبا شِبْل ! إيه يابن عمّ ! لكأنى أنظرُ إلى إصبعه وهو يبايَع له : حثّوا الإبل ودعدعوها[1] .

قال : وقد كان طلحةُ حين قتلَ عثمان أخذ مفاتيحَ بيت المال ، وأخذ نجائبَ كانت لعثمان فى داره ، ثم فسد أمرُه ، فدفعها إلى علىّ بن أبى طالب عليه السلام

[أخبار عائشة فى خروجها من مكة إلى البصرة بعد مقتل عثمان]

وقال أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدىّ فى كتابه : إنّ عائشة لما بلغها قتلُ عثمان وهى بمكة ، أقبلتْ مسرعة ، وهى تقول : إيه ذا الإصبع ! لله أبوك ! أما إنهم وجدوا طلحة لها كُفْواً . فلما انتهت إلى شَراف استقبلها عبيد بن أبى سلمة الليثىّ ، فقالت له : ماعندك ؟ قال : قُتِل عثمان ، قالت : ثم ماذا ؟ قال : ثم حارتْ بهم الأمور إلى خير مَحَار ؛ بايعوا عليا ، فقالت : لوددتُ أنّ السماء انطبقتْ على الأرض إن تمّ هذا ، وَيْحك ! انظر ماتقول ! قال : هو ماقلتُ لك ياأمّ المؤمنين ، فولولت ، فقال لها : ماشأنُك ياأمّ المؤمنين !

---

(١) الدعدعة : الزجر .

والله ما أعرف بين لابتيها أحداً أولى به منه ولا أحق ؛ ولا أرى له نظيراً في جميع حالاته ، فلماذا تكرهين ولايته ؟ قال : فما ردّت عليه جواباً .

قال : وقد رُوى من طرق مختلفة أنّ عائشة لما بلغها قتلُ عثمان وهى بمكة ، قالت : أبعده الله ! ذلك بما قدّمت يداه ، وما الله بظلام للعبيد .

قال : وقد روَى قيس بن أبى حازم أنّه حجّ فى العام الذى قُتِل فيه عثمان وكان مع عائشة لما بلغها قتله ، فتحمّل إلى المدينة ، قال : فسمعها تقول فى بعض الطريق : إيه ذا الإصبع ! وإذا ذكرت عثمان قالت : أبعده الله ! حتى أتاها خبرُ بيعة علىّ ، فقالت : لوددتُ أنّ هذه وقعت على هذه ، ثم أمرت بردّ ركائبها إلى مكة فردّت معها ، ورأيتها فى سيرها إلى مكة تخاطب نفسها ، كأنها تخاطبُ أحداً : قتلوا ابن عفان مظلوماً ، فقلت لها : يا أمّ المؤمنين ، ألمْ أسمعكِ آنفاً تقولين : أبعده الله ، وقد رأيتك قبلُ أشدّ الناس عليه وأقبحهم فيه قولاً ! فقالت : لقد كان ذلك ، ولكنى نظرت فى أمره ، فرأيتهم استتابوه حتى إذا تركوه كالفضة البيضاء أتوه صائماً محرماً فى شهر حرام فقتلوه .

قال : وروى من طرق أخرى أنّها قالت لما بلغها قتله أبعده الله ! قتله ذنبُه ، وأقاده الله بعمله ! يا معشرَ قريش لا يسومنّكم قتلُ عثمان ، كما سامَ أحمرُ ثمود قومَه ، إنّ أحقّ الناس بهذا الأمر ذو الإصبع ، فلما جاءت الأخبار ببيعة علىّ عليه السلام ، قالت : تعسُوا تعسُوا ! لا يردُّون الأمر فى تيم أبداً .

كتب طلحة والزبير إلى عائشة وهى بمكة كتاباً : أن خذِّلى الناس عن بيعة علىّ ، وأظهرى الطلب بدم عثمان ، وحمّلا الكتاب مع ابن أختها عبد الله بن الزبير ، فلما قرأت الكتاب كاشفتْ وأظهرت الطلب بدم عثمان ؛ وكانت أمّ سلمة رضى الله عنها بمكة فى ذلك العام ؛ فلما رأتْ صنع عائشة ، قابلتْها بنقيض ذلك ، وأظهرت موالاةَ علىّ عليه السلام ونصرته على مقتضى العدارة المركوزة فى طباع الضّرتين .

قال أبو مخنف : جاءت عائشةُ إلى أمّ سلمة تخادعُها على الخروج للطّلب بدم عثمان ، فقالت لها : يا بنتَ أبي أميه ، أنتِ أوّلُ مهاجرة من أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وأنتِ كبيرة أمّهات المؤمنين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله يقسم لنا من بيتك، وكان جبريل أ كثرَ ما يكون في منزلك ، فقالت أم سلمة : لأمرٍ ما قلت هذه المقالة ، فقالت عائشة : إنّ عبدالله أخبرني أن القوم استتابوا عثمان، فلما تاب قتلوه صائمًا في شهر حرام، وقد عزمتُ على الخروج إلى البصرة ومعي الزبير وطلحةُ ، فاخرجي معنا ، لعلّ الله أن يصلح هذا الأمر على أيدينا وبنا ، فقالت أمّ سلمة : إنّكِ كنت بالأمس تحرّضين على عثمان ، وتقولين فيه أخبثَ القول ، وما كان اسمُه عندك إلا نَعْثَلاً ، وإنّك لتعرفين منزلة عليّ بن أبي طالب عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، أفأذكّرك ؟ قالت : نعم ، قالت : أتذكرين يومَ أقبل عليه السلام ونحن معه ، حتى إذا هبط من قُدَيد ذات الشمال ، خلا بعليّ يناجيه فأطال ، فأردت أن تهجمي عليهما ، فنهيتُك فعصيتني ، فهجمتِ عليهما ، فما لبثتِ أن رجعتِ باكية ، فقلت : ماشأنك ؟ فقالت : إني هجمتُ عليهما وهما يتناجيان فقلت لعليّ : ليس لي من رسول الله إلا يومٌ من تسعة أيام ، أفما تدعني يابن أبي طالب ويومى ! فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ ، وهو غضبان محمرّ الوجه ، فقال : ارجعي وراءك ، والله لا يبغضه أحدٌ من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان ، فرجعت نادمةً ساقطة ! قالت عائشة : نعم أذكر ذلك .

قالت : وأذكّرك أيضا ، كنت أنا وأنتِ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت تغسلين رأسَه ، وأنا أحيسُ له حيْساً ، وكان الحَيْس[1] يعجبه ، فرفع رأسه ، وقال : « ياليت شعري ، أيتُـكنّ صاحبة الجمل الأدنب ، تنبحُها كلاب الحوءب ، فتكون ناكبةً

---

(١) الحيس : تمر يخلط بسمن وأقط فيعجن ويدلك حتى تخرج ثم يندر نواه .

عن الصراط ! » فرفعت يدى من الحيْس ، فقلت : أعوذُ بالله وبرسوله من ذلك ، ثم ضربَ على ظهرك ، وقال : « إياك أن تكونيها » ثم قال : يا بنت أبى أمية ؛ إياك أن تكونيها يا حُمَيراء ، أما أنا فقد أنذرتك » ، قالت عائشة : نعم أذكر هذا .

قالت : وأذكرك أيضاً كنتُ أنا وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سَفَر له ، وكان علىّ يتعاهد نَعْلَىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخصفهما[1] ، ويتعاهد أثوابه فيغسلها ، فنَقِبت[2] له نعلٌ ، فأخذها يومئذ يخصفها ، وقعد فى ظلّ سَمُرة ، وجاء أبوك ومعه عمر ، فاستأذنا عليه ، فقمنا إلى الحجاب ، ودخلا يحادثانه فيما أراد ، ثم قالا : يا رسول الله إنا لا ندرى قدر ما تصحبنا ، فلو أعلمتنا مَنْ يستخلف علينا ، ليكون لنا بعدك مفزعا ؟ فقال لهما : أما إنى قد أرى مكانه ، ولو فعلت لتفرّقتم عنه ، كما تفرّقت بنو إسرائيل عن هارون بن عمران ، فسكتا ثم خرجا ، فلما خرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلتِ له ، وكنتِ أجرأ عليه منّا : مَنْ كنتَ يارسول الله مستخلفا عليهم؟ فقال : خاصف النّعل ، فنظرنا فلم نر أحدا إلا عليا ، فقلت : يا رسول الله ، ما أرى إلا عليًّا ، فقال : هو ذاك ، فقالت عائشة : نعم أذكر ذلك ، فقالت : فأىّ خروج تخرجين بعد هذا ؟ فقالت : إنما أخرج للإصلاح بين الناس وأرجو فيه الأجر إن شاء الله ، فقالت : أنت ورأيك ، فانصرفت عائشة عنها ، وكتبتْ أمّ سلمة بما قالت وقيل لها إلى علىّ عليه السلام .

فإن قلت : فهذا نصٌّ صريح فى إمامة علىّ عليه السلام ، فما تصنعُ أنت وأصحابك المعتزلة به ؟

قلت : كلاّ إنه ليس بنصّ كما ظننت ، لأنه صلى الله عليه وآله لم يقل : قد استخلفته ، وإنما قال : « لو قد استخلفتُ أحداً لاستخلفته » ، وذلك لا يقتضى حصول الاستخلاف ؛

---

(١) خصف النعل : خرزها

(٢) نقبت النعل : ثقبت .

ويجوز أنْ تكونَ مصلحةُ المكلَّفين متعلقة بالنصّ عليه لو كان النبيّ صلى الله عليه وآله مأموراً بأنْ ينصّ على إمام بعينه من بعده ، وأن يكون من مصلحتهم أن يختارُوا لأنفسهم من شاءوا إذا تركهم النبي صلى الله عليه وآله وآراءهم ولم يعين أحدا .

• • •

وروى هشام بن محمد الكلبي فى كتاب " الجمل " أن أمّ سلمة كتبت إلى عليّ عليه السلام من مكة : أما بعد، فإنّ طلحة والزبير وأشياعهم أشياع الضلالة ، يريدون أن يخرجُوا بعائشة إلى البصرة ومعهم عبد الله بن عامر بن كُرَيز ؛ ويذكرون أنّ عثمان قُتِل مظلوما ، وأنهم يطلبون بدمه ؛ والله كافيهم بحوله وقوته ؛ ولولا مانهانا الله عنه من الخروج ، وأمرنا به من لزوم البيت لم أدَعِ الخروجَ إليك ، والنُّصرة لك ؛ ولكنّي باعثة نحوك ابنى ، عَدْل [1] نفسى عمر بن أبى سلمة ، فاستوصِ به يا أمير المؤمنين خيرا .

قال : فلما قدم عمر على عليّ عليه السلام أكرمه ، ولم يزل مقيما معه حتى شهد مشاهده كلّها ، ووجّهه أميرا على البحرين . وقال لابن عمّ له : بلغني أن عمر يقول الشعر ، فابعث إلىّ من شعره ، فبعث إليه بأبيات له أولها :

جزتْك أميــرَ المؤمنين قرابةٌ   رفعتَ بهــا ذكرى جزاء موفَّرا

فعجب عليّ عليه السلام من شعره واستحسنه .

• • •

ومن الكلام المشهور الذى قيل : إن أمّ سلمة رحمها الله ، كتبتْ به إلى عائشة : إنكِ جُنّة بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين أمته ، وإن الحجابَ دونك لمضروب على حُرمته ، وقد جمع القرآن ذيلك فلا تَنْدَحيه ، وسكّن عُقَيْراك فلا تُصْحِريها ، لو أذكرتُكِ قولةً مِنْ رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرفينَها لنهشتْكِ نَهْش الرّقشاء المطرقة . ما كنت

(١) عدل نفسى : مثلها .

قائلة لرسول الله صلى الله عليه وآله لو لقيك ناصّة قَلُوص قَعُودك من مَنْهَل إلى منهل قد تركت عُهَيداه ، وهتكت ستره ، إنّ عمود الدين لا يقومُ بالنساء ، وصَدْعه لا يُرأب بهنّ، حُماديات النساء خفض الأصوات وخفر الأعراض ، اجعلى قاعدة البيت قبرك حتى تلقينه ، وأنت على ذلك .

فقالت عائشة : ما أعرفنى منصحك ، وأقبلنى لوعظك ! وليس الأمر حيث تذهبين ! ما أنا بعميّة عن رأيك ، فإن أُقِمْ ففى غير حرج ، وإن أخرج ففى إصلاح بين فئتين من المسلمين .

وقد ذكر هذا الحديث أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة فى كتابه المصنف فى " غريب الحديث " فى باب أم سلمة ، على ما أوردنا عليك ، قال :

لما أرادت عائشة الخروج إلى البصرة ، أتتها أم سلمة ، فقالت لها : إنّك سُدّة بين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم وبين أمته ، وحجابك مضروب على حُرْمته ، قد جَمع القرآن ذيلك فلا تَنْدَحيه ، وسكّن عُقَيْراك فلا تُصْحِريها ، الله من وراء هذه الأمة ، لو أراد رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن يعهد إليك عَهْداً عُلْت عُلْت ؛ بل قد نهاك عن الفَرْطة فى البلاد ؛ إنّ عمود الإسلام لا يُثابُ بالنساء إن مال ، ولا يُرْأبُ بهنّ إن صُدِع ، حُمادَيات النساء غَضّ الأطراف وخَفَر الأعراض وقِصَر الوهازة ؛ ما كنتِ قائلة لو أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عارضك ببعض الفلوات ، ناصّة قَلُوصاً من منهل إلى آخر ، إنّ بعين الله مَهْواك ، وعلى رسوله تَرِدين ؛ وقد وجّهتِ سِدَافته ـ ويروى سَجافته ـ وتركت عُهَيْدَاه . لو سرتُ مسيرك هذا ثم قيل لى : ادخلى الفردوس لاستحييت أنْ ألقى محمدا صلى الله عليه وسلّم هاتكةً حجابا ، وقد ضربه علىّ ، اجعلى حِصْنَك بيتك ، ووقاعةَ الستر قبرك ؛ حتى تلقَيْنه ، وأنت على تلك أطوع ما تكونين لله

بالرقبة ، وأنْصَر ما تَكُونَ للدين ماحلت عنه . لو ذكّرتك قولًا تعرفينه لنهشت به نَهْشَ الرَّقْشاء المطرقة .

فقالت عائشة : ماأقبلَني لوعظك اوليس الأمر كما تظنّين ، ولنعمَ المسيرُ مسير فزعتُ فيه إلىّ فئتان متناجزتان ــ أو قالت متناحرتان ــ إن أقعد ففي غير حرج ، وإن أخرج فإلى مالا بدّ لي من الازدياد منه .

تفسير غريب هذا الخبر

السُّدّة : الباب ؛ ومنه حديث رسول الله صلى الله عليه وآله أنه ذكر أول مَنْ يردُ عليه الحوض ، فقال : الشُّعْثُ رءوسا ، الدُّنْس ثيابا ، الذين لا تفتح لم السُّدد ، ولا ينكحون المتنعمات ؛ وأرادت أمّ سلَمة أنّكِ بابٌ بين النبيّ صلى الله عليه وآله وبين النـاس ، فمتى أصيب ذلك الباب بشيء فقد دُخل على رسول الله صلى الله عليه وآله في حرَمه وحوزته ، واستبيح ماحماه ، تقول : فلا تكوني أنتِ سببَ ذلك بالخروج الذي لا يجب عليكِ ، فتحوجي الناس إلى أن يفعلوا ذلك . وهذا مثلُ قول نعمان بن مُقَرّن للمسلمين في غزاة نَهَاوَنْد : ألا وإنكم باب بين المسلمين والمشركين ، إن كُسِر ذلك الباب دُخل عليهم منه .

وقولها : « قد جمع القرآن ذيلك فلا تَنْدَحيه » ، أي لا تفتحيه ولا توسِّعيه بالحركة والخروج ؛ يقال : ندحتُ الشيء إذا وسَّعتَه ، ومنه يقال : فلان في مَنْدوحة عن كذا،أي في سعة ؛ تريد قول الله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾[1] . ومن روى « تبدحيه » بالباء فإنه من البَدَاح وهو المتسع من الأرض ؛ وهو معنى الأول .

وسكن عُقَيْرَاكِ ، من عُقْر الدار وهو أصلها ؛ أهل الحجاز يضمّون العَين ؛ وأهل نجد يفتحونها . وعُقَيْرى اسم مبنيٌّ من ذلك على صيغة التصغير ؛ ومثله ممّا جاء مصغرا « الثريّا » و« الحُمَيّا » وهو سَوْرة الشراب . قال ابن قتيبة : ولم أسمع « بعُقيرا » إلا في هذا الحديث .

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .

قولها : « فلا تُصْحِرِيها » ، أى لاتُبْرِزيها وتجعليها بالصحراء ، يقال : أَصْحَر ، كما يقال : أنجد وأسْهَل وأحزن .

وقولها : « الله من وراء هذه الأمة » ، أى محيط بهم وحافظ لهم وعالم بأحوالهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ [١] .

قولها : « لو أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم » الجواب محذوف ، أى لفعل ولعَهِد ؛ وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ ﴾ [٢] ، أى لكان هذا القرآن .

قولها : « عُلْتِ عُلْت » ؛ أى جرْت فى هذا الخروج ، وعدلت عن الجواب ، والعول : الميل والجور ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [٣] ـ ومن الناس من يرويه « عِلْت عِلْت » بكسر العين ، أى ذهبت فى البلاد وأبعدت السير ، يقال : عال فلان فى البلاد ، أى ذهب وأبعد ؛ ومنه قيل للذئب : عيال .

قولها : « عن الفَرْطة فى البلاد » ، أى عن السفر والشُّخوص ، من الفَرْط وهو السَّبْق والتقدّم ، ورجل فارط : أى للماء ، أى سابق .

قولها : « لا يُثَأب بالنساء » ، أى لا يردّ بهن إن مال إلى استوائه ؛ من قولك : ثاب فلان إلى كذا ، أى عاد إليه .

قولها : « ولا يرأب بهن إن صَدع » ، أى لا يسدّ بهن ، ولا يجمع ، والصَّدْع : الشق ، ويروى : « إن صَدَع » بفتح الصاد والدال أجروْه مجرى قولهم : جبرت العظم فجبر .

قولها : « حمادَيات النساء » يقال : حَمادَاك أن تفعل كذا مثل قُصارك أن تفعل كذا ، أى جهدك وغايتك .

---

(١) سورة البروج ٨٥ .
(٢) سورة الرعد ٣١ .
(٣) سورة النساء ٣ .

وغض الأطراف؛ جمعها، وخَفَرَ الأعراض، الخفَر: الحياء، والأعراض، جمع عِرْض، وهو الجسد، يقال: فلان طيّب العِرْض، أى طيب ريح البدن؛ ومن رواه «الإعراض» بكسر الهمزة جعلَه مصدرا؛ من أعرضَ عن كذا.

قولها: و« قِصَر الوِهازة » ، قال ابن قتيبة: سألت عَنْ هذا فقال لى مَنْ سألته: سألتُ عنه أعرابيًّا فصيحا فقال: الوَهَازَة: الخطوة، يقال للرجل: إنه لمتوهِّز ومتوهّر، إذا وطئ وطئاً ثقيلا.

قولها: « ماصَّة قلوصا » ، أى رافعة لها فى السير، والنصّ: الرفع، ومنه يقال: حديث منصوص، أى مرفوع، والقَلوص من النوق: الشابّة وهى بمنزلة الفتاة من النساء.

والمَنهل: الماء ترده الإبل.

قولها: « إنّ بعين الله مَهْواك » ، أى إن الله يرى سيرك وحركتك، والهُوِىّ: الانحدار فى السير من النّجد إلى الغَوْر.

قولها: « وعلى رسوله تَرِدين » ، أى تقدمين فى القيامة.

قولها: « وقد وجَّهت سِدَافته » ، السِّدافة: الحجاب والستر، هى من أسْدَف الليل إذا ستر بظلمته، كأنه أرخى سُتورا من الظلام، ويروى بفتح السين، وكذلك القول فى سِجافته؛ إنه يروى بكسر السين وفتحها، والسدافة والسِّجافة بمعنى.

ووجَّهت، أى نظمتْها بالخرز، والوجيهة: خرزة معروفة، وعادة العرب أن تنظم على المحمَل خرزات إذا كان للنساء.

قولها: « وتركت عُهَيْداه » ، لفظة مصغّرة مأخوذة من العَهْد، مشابهة لما سلف من قولها: « عُقَيراك » و « حادِيات النساء » .

قولها: « ووقاعة السّتر » أى موقَّعه على الأرض إذا أرسلته، وهى الوقعة أيضا، وموقعة الطائر .

قولها : « حتى تلقيْنه وأنت على تلك » ، أى على تلك الحال ، فحذف .

قولها: «أطوع ماتكونين لله إذا لزمته» ، أطوع :مبتدأ، وإذا لزمته: خبر المبتدأ، والضمير في لزمته راجع إلى العهد والأمر الذى أمرتُ به .

قولها : « لَنَهَشَتْ به نَهْشَ الرقشاء المطرقة » ، أى لعضّك ونهشك ما أذكره لك وأذكرك به كما تنهشك أفعى رقشاء ، والرَّقَش فى ظهرها ، هو النقط، والجرادة أيضاً رقشاء ، قال النابغة :

فبتّ كأنى ســاورتنى ضئيلةٌ من الرُّقْش فى أنيابها السُّمُّ ناقع[1]

والأفعى يوصف بالإطراق ؛ وكذلك الأسد والنمر والرجل الشجاع ؛ وكان معاوية يقول فى علىّ عليه السلام : الشجاع المطرق ، وقال الشاعر وذكر أفعى :

أصمّ أعمى مايجيب الرُّقَى من طول إطراق وإسبـاتِ[2]

قولها: « فئتان متناجزتان » ، أى تسرع كلّ واحدة منهما إلى نفوس الأخرى، ومن رواه « متناحرتان » أراد الحربَ وطَعْنَ النحور بالأسنة ، ورشقها بالسهام .

وفزعت إلى فلان فى كذا ، أى لذتُ به والتجأت إليه .

وقولها : « إن أقعد ففى غير حَرَج » أى فى غير إثم ، وقولها : « فإن أخرج فإلى مالابدّ لى من الازدياد منه» ، كلام مَن يعتقد المصلحة فى الخروج ، أو يعرف موقع الخطإ ويصرّ عليه.

* * *

لما عزمت عائشة على الخروج إلى البصرة طلبوا لها بعيراً أيّداً يحمل هَوْدجها ، فجاءهم يعلَى بن أمية ببعيره المسمى عَسْكراً ، وكان عظيم الخلق شديداً ، فلما رأته أعجبها ، وأنشأ الجمّال يحدّثها بقوته وشدته ، ويقول فى أثناء كلامه : « عسكر » ، فلما سمعت هذه اللفظة ، استرجعت ، وقالت: ردّوه لاحاجة لى فيه ، وذكرت حيث سئلت أن رسول الله

(١) ديوانه : ٥١ .

(٢) اللسان ٢ : ٣٤٣ ، من غير نسبة .

صلى الله عليه وآله ذكر لها هذا الاسم ، ونهاها عن ركوبه ، وأمرتْ أن يطلَب لها غيرُه فلم يوجد لها مايشبهه ، فغيِّر لها بجلال غير جلاله ، وقيل لها : قد أصبْنالك أعظم منه خَلْقا ، وأشدّ قوة ، وأُتِيَتْ به فرضيت .

قال أبو مخنف : وأرسلت إلى حَفْصة تسألها الخروجَ والمسير معها[1] ، فبلغ ذلك عبدَ الله ابن عمر ، فأتى أخته فعزم عليها ، فأقامت وحطّت الرحال بعد ماهمّت .

كتب الأشتر من المدينة إلى عائشة وهي بمكة ، أما بعد : فإنّكِ ظعينة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد أمرك أن تقرّى في بيتك ، فإنْ فعلتِ فهو خيرٌ لك ، فإن أبيتِ إلاّ أن تأخذى مِنْسأتَكِ ، وتُلْقِ جلبابك ، وتبدى للناس شعيراتك ، قاتلتُك حتى أردّكِ إلى بيتك ، والموضع الذى يرضاه لك ربّك .

فكتبت إليه فى الجواب : أما بعد ، فإنّك أولُ العرب شَبّ الفتنة ، ودعا إلى الفرقة وخالف الأئمة ، وسعى فى قتل الخليفة ، وقد علمتَ أنك لن تُعجِزَ الله حتى يصيبك منه بنقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم ، وقد جاءنى كتابُك ، وفهمت مافيه ؛ وسيكفينيك الله ؛ وكلّ من أصبح مماثلا لك فى ضلالك وغيّك ، إن شاء الله .

وقال أبو مخنف : لما انتهت عائشةُ فى مسيرها إلى الحوأب ، وهو ماء لبنى عامر بن صعصعة، نبحتها الكلاب ؛ حتى نفرت صِعاب إبلها ، فقال قائل من أصحابها : ألا ترون ، ما أكثر كلاب الحوأب ، وما أشد نُباحها ! فأمسكت زمام بعيرها ، وقالت : وإنها لكلاب الحوأب ! ردّونى ردّونى ؛ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول ... وذكرت الخبر ، فقال لها قائل : مهلا يرحمك الله ؛ فقد جُزْنا ماء الحوأب ؛ فقالت : فهل من شاهد ؟ فلفّقوا لها خمسين أعرابيا ، جعلوا لهم جُعْلا ، فحلفوا لها[2] : إن هذا ليس بماء الحوأب ، فسارت لوجهها.

لما انتهت عائشة وطلحة والزبير إلى حَفَر[3] أبى موسى قريباً من البصرة ، أرسل

---

(١) ساقطة من ب .

(٢) ضبطه صاحب مراصد الاطلاع بالفتح ثم السكون ، وقال : على جادّة البصرة إلى مكة

عثمان بن حُنيف — وهو يومئذ عامل على عليه السلام على البَصرة — إلى القوم أبا الأسود الدؤلىّ يعلّم له[1] علمهم، فجاء حتى دخل على عائشة، فسألها عن مسيرها، فقالت: أطلب بدم عثمان، قال: إنه ليس بالبَصرة مِنْ قَتَلة عثمان أحدٌ، قالت: صدقت؛ ولكنّهم مع علىّ بن أبى طالب بالمدينة، وجئت أستنهضُ أهلَ البصرة لقتاله. أنغضب لكم من سَوْط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم! فقال لها: ما أنت مِن السَّوْط والسيف! إنما أنت حَبِيس رسول الله صلى الله عليه وآله، أمرك أن تقرّى فى بيتك، وتتلى كتاب ربك، وليس على النساء قتال، ولا لهنّ الطلب بالدماء؛ وإن عليّاً لأولى بعثمان منك، وأمسُّ رحما؛ فإنهما ابنا عبد مناف، فقالت: لست بمنصرفة حتى أمضىَ لما قدمتُ له، أفتظنّ يا أبا الأسود أنّ أحداً يقدمُ على قتالى! قال: أما والله لتقاتلنّ قتالا أهونه الشديد.

ثم قام فأتى الزبير، فقال. يا أبا عبد الله، عهدُ الناس بك، وأنت يوم بويع أبو بكر آخذٌ بقائم سيفك، تقول: لا أحدَ أولى بهذا الأمرِ من ابن أبى طالب؛ وأين هذا المقام من ذاك! فذكر له دمَ عثمان، قال: أنت وصاحبك وليتماه فيما بلغنا! قال: فانطلقْ إلى طلحة فاسمع مايقول، فذهب إلى طلحة، فوجده سادراً فى غَيّه، مصِرًّا على الحرب والفتنة، فرجع إلى عثمان بن حُنيف، فقال: إنها الحرب، فتأهّبْ لها!

لما نزل علىّ عليه السلام بالبَصرة، كتبت[2] عائشة إلى زيد بن صُوحان العبدىّ:

من عائشة بنت أبى بكر الصديق زوج النبى صلى الله عليه وسلم إلى ابنها الخالص زيد ابن صُوحان؛ أما بعدُ فأقِمْ فى بيتك، وخذّل الناسَ عن علىّ، وليبلغْنى عنك ما أحبّ؛ فإنك أوثق أهلى عندى، والسلام.

فكتب إليها: من زيد بن صُوحان إلى عائشة بنت أبى بكر؛ أما بعدُ فإن الله أمَرَكِ بأمر وأمرَنا بأمرٍ؛ أمرَكِ أن تَقَرّى فى بيتك، وأمرَنا أن نجاهدَ، وقد أتانى كتابُكِ،

(١) كذا فى ا، وفى ب: «لهم».
(٢) كذا فى ا، وفى ب: «فكتبت».

فأمرتنى أنْ أصنعَ خِلاف ما أمرَنى الله فأكون قد صنعتُ ما أمرَكَ الله به، وصنعتِ ما أمرنى الله به، فأمرُكِ عندى غير مطاع، وكتابك غير مجاب، والسلام.

روى هذين الكتابين شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر، عن شيخنا أبى سعيد الحسن البصرىّ.

* * *

وركبت عائشة يوم الحرب الجملَ المسمَّى عسكرا فى هَوْدج، قد ألبس الرفْرَف، ثم ألبِس جلود النمِر، ثم ألبِس فوق ذلك دروع الحديد.

الشعبىّ، عن مسلم بن أبى بَكْرة، عن أبيه أبى بَكْرة، قال: لما قدم طلحة والزبير البصرة، تقلَّدتُ سيفِى، وأنا أريد نصرَهما، فدخلت على عائشة، وإذا هى تأمر وتنهى، وإذا الأمر أمرُها، فذكرتُ حديثاً كنت سمعته عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لن يفلِح قومٌ تدبِّرُ أمرَهم امرأة»، فانصرفت واعتزلتهم.

وقد رُوِىَ هذا الخبر على صورة أخرى: «إنّ قوما يخرجُون بعدى فى فئة، رأسها امرأة، لا يفلحون أبداً».

كان الجمل لواء عسكر البصرة لم يكن لواء غيره.

* * *

خطبت عائشة والناس قد أخذوا مصافّهم للحرب، فقالت:

أما بعد فإنا كنا نقَمْنا على عثمان ضربَ السوط، وإمْرة الفتيان، وموقع السحابة المحمِيّة، ألا وإنكم استعتبتموه فأعتبكم، فلما مُصْتُموه[1] كما يُماص الثوب الرحيض[2]، عدَوْتم عليه فارتكبتم منه دماً حراما، وايمُ الله إن كان لأحصنَكم فَرْجا، وأتقاكم لله.

* * *

(١) الموص: الغسل؛ كذا فسره صاحب اللسان، واستشهد بكلام عائشة.
(٢) الرحيض: المغسول؛ وانظر النهاية لابن الأثير ١: ٧٢

خطب على عليه السلام لما تواقف الجمعان ، فقال :

لا تقاتلوا القومَ حتى يبدءوكم ، فإنكم بحمد الله على حُجّة ، وكفُّكم عنهم حتى يبدءوكم حجة أخرى ، وإذا قاتلتموهم فلا تُجهزوا على جريح ، وإذا هزمتموهم فلا تتبعوا مُدْبراً ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثّلوا بقتيل ، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سِتْراً ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئا ، ولا تَهيجوا امرأةً بأذًى ، وإن شتمْنَ أعراضكم وسبَبْنَ أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعافُ القوى[1] ، والأنفس والعقول ؛ لقد كنّا نؤمَر بالكفّ عنهنّ وإنهنّ لمشركات ، وإن كان الرجل ليتناولُ المرأة بالهراوة والجريدة ، فيعيَّر بها وعقبه من بعده .

* * *

قُتِل بنو ضَبَّة حول الجمل فلم يَبْقَ فيهم إلّا مَنْ لا نفع عنده ، وأخذت الأزد بخطامه ، فقالت عائشة : مَنْ أنتم ؟ قالوا : الأزد ، قالت : صبراً ، فإنما يصبر الأحرار ؛ مازلت أرى النّصر مع بنى ضَبّة ؛ فلما فقدتُهم أنكرته . فحرّضت الأزْد بذلك ؛ فقاتلوا قتالا شديدا ، ورُمِى الجملُ بالنَّبْل حتى صارت القبة عليه كهيئة القنفذ .

* * *

قال علىّ عليه السلام : لما فنِىَ الناس على خِطام الجمل ، وقطعت الأيدى ، وسالت النفوس : ادعُوا لى الأشتر وعمّاراً ، فجاءا ، فقال : اذهبا فاعقرا هذا الجمل ؛ فإن الحرْب لا يبوخ[2] ضِرامها مادام حَيًّا ؛ إنهم قد اتخذوه قبلة ، فذهبا ومعهما فتَيان من مُراد ، يعرَف أحدهما بعمر بن عبد الله ، فما زالا يضربان الناسَ حتى خلَصا إليه ، فضربه المُرادىّ على عرقوبيه ، فأقعى وله رُغاء ، ثم وقع لجنبه ، وفرّ الناس من حوله ، فنادى علىّ عليه السلام : اقطعوا

---

(١) فى ب : « القوم » ، وما أثبته من ا .

(٢) لا يبوخ : لا يخمد .

أنساع الهودج ، ثم قال لمحمد بن أبي بكر : اكفنى أختك ، فحملها محمد حتى أنزلها دار عبد الله بن خلف الخزاعي .

• • •

بعث علىّ عبد الله بن عباس إلى عائشة يأمرها بالرحيل إلى المدينة ، قال : فأتيتُها[1] ، فدخلت عليها ، فلم يوضع لى شىء أجلس عليه ، فتناولت وسادة كانت فى رَحْلها ، فقعدت عليها ، فقالت : يابن عباس ، أخطأتَ السنّة ، قعدت على وسادتنا فى بيتنا بغير إذننا ! فقلت : ليس هذا بيتكِ الذى أمرك الله أن تقرّى فيه ، ولو كان بيتك ما قعدتُ على وسادتك إلا بإذنك ، ثم قلت : إن أمير المؤمنين أرسلنى إليك يأمُرك بالرحيل إلى المدينة ، فقالت : وأين أمير المؤمنين ! ذاك عمر ، فقلت : عمر وعلىّ ، قالت : أبيت ! قلت : أما والله ما كان أبوك إلا قصيرَ المدّة ، عظيم المشقة ، قليل المنفعة ، ظاهر الشؤم بيّن النكد ، وما عسى أن يكون أبوك ! والله ما كان أمرُكِ إلا كحلب شاة حتى صرت لا تأمرين ولا تنهين ، ولا تأخذين ولا تعطين ، وما كنت إلا كما قال أخو بنى أسد :

ما زال إهداء الصغائر بيننا نثُّ الحديث وكثرة الألقاب[2]

حتى تركت كأن صوتك بينهم فى كلّ نائبة طنينُ ذبابِ

قال : فبكت حتى سُمع نحيبُها من وراء الحجاب ، ثم قالت : إنى معجّلة الرحيل إلى بلادى إن شاء الله تعالى ، والله ما من بلدٍ أبغضَ إلىّ من بلد أنتم فيه ، قلت : ولِمَ ذاك ! فو الله لقد جعلناكِ للمؤمنين أمًّا ، وجعلنا أباك صدّيقا ، قالت : يابن عباس ، أتمنّ علىّ برسول الله ؟ قلت : مالى لا أمنّ عليك بمَنْ لو كان منك لمننتِ به علىّ !

ثم أتيت عليا عليه السلام فأخبرته بقولها وقولى ، فسرّ بذلك ، وقال لى : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[3] ؛ وفى رواية : أنا كنت أعلم بك حيث بعثتك.

---

(١) ب « فلقيتها » ، وما أثبته من ا .

(٢) البيتان فى ثمار القلوب ٥٠٢ ، ونسبهما إلى حضرمى بن عامر ، وهما أيضاً فى الحيوان ٣ : ٣١٥

(٣) سورة آل عمران ٣٤ .

(٨٠)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ ! الزَّهَادَةُ قِصَرُ الْأَمَلِ ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ ، وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ ، فَإِنْ عَزَبَ ذَلِكَ عَنْكُمْ فَلَا يَغْلِبِ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ ، وَلَا تَنْسَوْا عِنْدَ النِّعَمِ شُكْرَكُمْ ؛ فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ ؛ وَكُتُبٍ بَارِزَةِ الْعُذْرِ وَاضِحَةٍ .

* * *

الشَّـرْحُ :

فسّر عليه السلام لفظ الزّهادة ، وهى الزّهد ، بثلاثة أمور وهى : قصر الأمل ، وشكر النعمة ، والورَع عن المحارم ، فقال : لا يسمّى الزّاهد زاهداً حتى يستكمل هذه الأمور الثلاثة ، ثم قال : « فإن عزب ذلك عنكم » ، أى بَعُدَ ، فأمران من الثلاثة لابدّ منهما ؛ وهما الورع وشكر النعم ، جعلهما آكد وأهمّ من قصر الأمل .

واعلم أنّ الزهد فى العُرْف المشهور هو الإعراض عن متاع الدنيا وطيباتها ، لكنه لما كانت الأمور الثلاثة طريقاً موطئة إلى ذلك أطلق عليه السلام لفظ الزهد عليها على وجه المجاز .

وقوله : « فقد أعذر الله إليكم » أى بالغ ؛ يقال : أعذَر فلان فى الأمر أى بالغ فيه ، ويقال : ضُرِب فلان فأعذر ، أى أشرف على الهلاك ؛ وأصل اللفظة من العذر ؛ يريد أنه

قد أوضحَ لكم بالحجج النيّرة المشرقة مايجب اجتنابُه، ومايجب فعله ؛ فإن خالفتُم استوجبتُم العقوبة ؛ فكان له فى تعذيبكم العذر .

* * *

[الآثار والأخبار الواردة فى الزهد]

والآثار الواردة فى الزهد كثيرة :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أفلح الزاهد فى الدنيا ، حَظِيَ بعزّ العاجلة وبثواب الآخرة » .

وقال صلى الله عليه وآله : « مَن أصبحتْ الدنيا همّه وسَدَمه، نزع الله الغنى من قلبه وصيّر الفقر بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِب له ، ومن أصبحت الآخرة همّه وسَدَمه ، نزع الله الفقر عن قلبه ، وصيّر الغنى بين عينيه ، وأتته الدنيا وهى راغمة » .

وقال عليه السلام للضحّاك بن سفيان : ماطعامُك ؟ قال : اللحم واللبن ، قال : ثم يصير إلى ماذا ؟ قال : إلى ماعلمت ، قال : فإن الله ضرب مايخرج من ابن آدم مثلا للدنيا .

وكان الفُضَيْل بن عِياض يقول لأصحابه إذا فرغ من حديثه : انطلقوا حتى أريَكم الدنيا ، فيجيء بهم إلى المزبلة ، فيقول : انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم ! صار إلى ماترون .

ومن الكلام المنسوب إلى المسيح عليه السلام : الدنيا قنطرة فاعبروها ولاتعمروها.

سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن قوله سبحانه : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ

يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾[1] فقال : إذا دخل النّور القلبَ انفسح، فذلك شرح الصدر، قيل: أفلذلك علامة يعرف بها ؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغُرور، والاستعداد للموت قبل نزوله .

قالوا : أوحى الله تعالى إلى نبيّ من الأنبياء : اتخذِ الدّنيا ظِئْراً ، واتخذ الآخرة أمًّا .

الشعبيّ : ما أعلم لنا وللدنيا مثلا إلا قول كُثَيِّر :

أسيئي بنا أو أحسِني لا ملومةٌ لدَيْنا ولا مقليّـــة إن تقلّتِ[2]

بعض الصالحين : المستغني عن الدّنيا بالدّنيا ، كالمطفِئ النارَ بالتبن .

وفي بعض الكتب القديمة الإلهية : قال الله للدنيا : مَنْ خدَمني فاخدميه ، ومن خدَمكِ فاستخدميه .

دخل محمد بن واسع على قُتيبة بن مسلم ، وعليه مدرعة من صُوف ، فقال : ماهذه ؟ فسكت ، فأعاد عليه السؤال ، فقال : أكره أن أقولَ زهداً فأزكّيَ نفسي ، أو فقرا فأشكوَ ربّي .

قيل في صفة الدنيا والآخرة : هما كضَرّتين إن أرضيتَ إحداهما أسخطتَ الأخرى.

قيل لمحمد بن واسع: إنك لترضَى بالدُّون، قال : إنّما رضيَ بالدُّون مَنْ رضيَ بالدنيا .

خطب أعرابيٌّ كان عاملاً لجعفر بن سليمان على ضَرِيّة يوم جُمعة خطبةً لم يُسمعْ أوجزَ منها ولا أفصح ، فقال : إنّ الدنيا دارُ بلاغ ، وإنّ الآخرةَ دار قرار ؛ فخذُوا من ممرّكم لمُستقرّكم ، ولا تهتِكوا أستارَكم عند مَنْ لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرِجُوا من الدنيا قلوبَكم قبل أن تخرُجَ منها أبدانُكم ؛ ففيها جئتم ، ولغيرها خُلقتم ؛ إنّ المرء إذا هلك قال الناس : ماترك؟ وقالت الملائكة: ماقدّم ؟ فلِلّه آثاركم ! قدّموا بعضاً يكن لكم،

---

(١) سورة الأنعام ١٢٥ .

(٢) من قصيدته التائية المشهورة ؛ في أمالي القالي ٢ : ١٠٧ — ١١٠

ولا تؤخِّروا كُلًّا فيكون عليكم ؛ أقول قولي هذا ؛ وأستغفر الله ، والدعوة له الخليفة ، ثم الأمير جعفر . ونزل .

أبو حازم الأعرج : الدُّنيا كلُّها غموم ، فما كان فيها سرورا فهو ربْح .

محمد بن الحنفيّة : مَنْ عزّتْ عليه نفسُه هانتْ عليه الدنيا .

قيل لعليّ بن الحسين عليه السلام : مَنْ أعظمُ الناس خَطَراً ؟ قال : مَنْ لم يَرَ الدنيا لنفسه خطراً .

قال المسيح عليه السلام لأصحابه : حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة ، واقتناء المال فيها داء عظيم ، قالوا له : كيف ذلك ؟ قال : لايسلم صاحبه من البغي والكبر ؛ قيل : فإن سَلِمَ منهما ؟ قال : يشغلُه إصلاحه من ذكر الله.

أشرف أبو الدرداء على أهل دمشق فقال: ياأهلَ دمشق، تبنونَ مالا تسكنون، وتجمعون مالا تأكلون، وتأمُلُون مالا تدركون! أينَ مَن كان قبلكم؟ بنوا شديداً ، وأمّلوا بعيداً، وجمعوا كثيراً ، فأصبحتْ مساكنُهم قبوراً ، وجَمْعُهم بُوراً ، وأملُهم غروراً .

قال المأمون : لوسئلت الدُّنيا عن نفسها لم تستطعْ أن تصفَ نفسها بأحسنَ من قول الشاعر :

إذا امتحنَ الدُّنيا لبيبٌ تكشَّفَتْ   لَهُ عن عَدُوٍّ في ثياب صديق[1]

وقال رجل : يارسول الله ، كيف لي أن أعلم أمري ؟ قال : « إذا أردتَ شيئاً من أمور الدنيا فعُسِّر عليك ؛ فاعلم أنك بخير ، وإذا أردتَ شيئاً من أمر الدنيا فيُسِّر لك ؛ فاعلم أنه شرٌّ لك » .

قال رجل ليونس بن عبيد : إنّ فلانا يعمل بعمل الحسن البصريّ ، فقال : والله ماأعرف أحداً يقول بقوله ، فكيف يعمل بعمله ؟ قيل : فصِفْه لنا ، قال : كان إذا أقبَلَ

(١) لأبي نواس ، ديوانه ١٩٢ .

فكأنّه أقبل من دفنِ حبيب ، وإذا جلس فكأنّه أسيرٌ أجلس لضرْب عنقه ، وإذا ذُكرتِ النار فكأنّها لم تخلق إلّا له .

وقال بعض الصالحين لرجل : يافلان، هلْ أنت على حال أنتَ فيها مستعدٌّ للموت ؟ قال : لا ، قال : فهل أنت عالم بأنّك تنتقل إلى حال ترضى به ؟ قال : لا ، قال : أفتعلم بعد الموت داراً فيها مستعتَب[1] ؟ قال : لا ، قال : أفتأمن الموت أن يأتيك صباحاً أو مساء ؟ قال : لا ، قال : أفيرضى بهذه الحال عاقل !

وقال أبو الدَّرْداء : أضحكتني ثلاثٌ ، وأبكتني ثلاث : أضحكني مؤمّل الدنيا والموت يطلبه ، وغافلٌ وليس بمغفول عنه ، وضاحكٌ ملء فيه لايدري أراضٍ عنه الله أمْ ساخطٌ ! وأبكاني فراقُ محمد وحزبه ، وأبكاني هولُ الموت ، وأبكاني هولُ الموقف ، يومَ تبدُو السرائر حين لاأدرى أيؤخذ بي إلى جنّة أم إلى نار !

وكان عبد الله بن صبير يقول : أتضحكُ ولعلّ أكفانك قد خرجت من عند القصّار !

وكان يقال : مَنْ أتى الذنبَ ضاحكاً دخل النار باكياً .

وكان مالك بن دينار يقول: وددت أنْ رزقي في حصاة أمصّها حتى أبول، فلقد اختلفت إلى الخلاء حتى استحييتُ من ربّي .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لايبلغ العبدُ أن يكونَ من المتّقين حتى يدَعَ ماليس به بأس حذراً ممّا به البأس » .

وقال المسيح عليه السلام : بحقّ أقول لكم ! إنّ مَنْ طلب الفِرْدَوس ، فخبزُ الشعير، والنوم على المزابل مع الكلاب ، له كثير .

وأوصى ابن محرز رجلًا فقال : إن استطعتَ أن تعرِف ولا تعرَف ،وتسأل ولاتُسْأل، وتمشى ولا يُمشَى إليك ، فافعل .

---

(١) مستعتب : رضا .

وقال علىّ عليه السلام : طوبى لمن عَرَف الناس ولم يعرفوه ، تعجّلتْ له منيَّتُه، وقلّ تراثه ، وفقد باكياته .

وكان يقال : فى الجوع ثلاث خصال : حياةُ القلب ، ومذلّة النفس ، ويورث العقل الدقيق [من المعانى] (١) .

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: أريدُ أن تقبل منى دراهم، قال: إن كنت غنيًّا قبلتُهامنك، وإن كنتَ فقيرا لم أقبلْها ، قال : فإنى غنىّ ، قال : كم تملك ؟ قال ألفى درهم ، قال : أفيسرُّك أن تكون أربعة آلاف ؟ قال : نعم ، قال : لست بغنىّ ودراهمك لا أقبلها .

وكان أبو حازم الأعرج إذا نظر إلى الفاكهة فى السوق ، قال : موعدك الجنة إن شاء الله تعالى .

ومرّ أبو حازم بالقصابين ، فقال له رجل منهم : يا أبا حازم ؟ هذا سمين فاشتر منه ، قال : ليس عندى دراهم ، قال: أنا أنظِرُك ، قال: فأفكر ساعة ، ثم قال : أنا أنظرُ نفسى.

نزل الحجّاج فى يوم حارّ على بعض المياه ، ودعا بالغداء ، وقال لحاجبه : انظر مَنْ يتغدّى معى ، واجهدْ ألّا يكون من أهل الدنيا ، فرأى الحاجبُ أعرابيًّا نائما ، عليه شملة من شَعْر ، فضربه برجله ، وقال: أجب الأمير ، فأتاه، فدعاه الحجّاج إلى الأكل ، فقال: دعانى مَنْ هو خير من الأمير فأجبته ؟ قال : مَنْ هو ؟ قال: الله، دعانى إلى الصوم فصمت ؟ قال : أفى هذا اليوم الحارّ ؟ قال : نار جهنّم أشدُّ حرًّا ، قال : أفطِر وتصومُ غدا ، قال : إن ضمنتَ لى البقاء إلى غد ، قال : ليس ذاك إلىّ ، قال : فكيف أدَعُ عاجلًا لآجل لا تقدر عليه ! قال : إنه طعام طيِّب ، قال : إنك لم تطيّبه ولا الخبّاز ، ولكنّ العافية طيّبته لك .

وقال شبيب : كنّا سنة فى طريق مكّة ، فجاء أعرابىّ فى يوم صائف شديد الحرّ ،

---

(١) بالأصول غموض ، ولعل الصواب ما أثبته أو قريب منه .

ومعه جارية سوداء ، وصحيفة ؛ فقال : أفيكم كاتب ؟ قلنا : نعم ، وحضر غداؤنا،فقلنا له : لو دخلتَ فأصبتَ من طعامنا ! قال : إني صائم ، قلنا : الحر وشدته ، وجفاء البادية ، فقال: إنّ الدنيا كانت ولم أكنْ فيها ، وستكون ولا أكونُ فيها ، ومأحبّ أن أغبن أيامي، ثم نبذ إلينا الصحيفة ، فقال للكاتب: اكتُب ولا تزدْ على ماأمليه عليك : هذا ماأعتق عبدالله بن عقيل الكلبيّ ، أعتق جارية له سوداء اسمها لؤلؤة ، ابتغاء وجهِ الله وجواز العقبة ، وإنه لا سبيلَ له عليها إلا سبيل الولاء ، والمنّة لله علينا وعليها واحدة .

قال الأصمعيّ : فحدَّثْتُ بذلك الرشيد ، فأمر أن يعتَق عنه ألف نسمة ، ويكتب لهم هذا الكتاب .

وقال خالد بن صفوان : متُّ ليتي هذه أتمنّى ، فكبست البحر الأحمر بالذهب الأحمر ، فإذا الذي يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطمران [١] .

ورأى رجلٌ رجلا من ولد معاوية يعمل على بعير له ، فقال : هذا بعد ما كنتم فيه من الدنيا ! قال : رحمك الله يابن أخي ، ما فقدنا إلا الفضول .

وقال الحسن : يابن آدم ، إنما أنت أيام مجموعة ، كلما ذهب يوم ذهب بعضُك .

قال يونس الكاتب : لو قيل بيت دريد في زاهدٍ كان به جديرا :

قليلُ التشكّي للمصيبات ذاكرٌ من اليوم أعقابَ الأحاديث في غد [٢]

وقال الحسن : ما أطال عبد الأملَ إلا أساء العمل .

وقال رجل للفضيل بن عياض : ماأعجب الأشياء ؟ قال : قلبٌ عرف الله ثم عصاه .

قال وكيع : ما أحسنتُ قطّ إلى أحد ، ولاأسأت إليه ، قيل : كيف ؟ قال : لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [٣] .

---

(١) الطمر : الثوب الخلق .
(٢) من كلمة له في ديوان الحماسة ٢ : ٣٠٨ يرثي أخاه عبد الله .
(٣) سورة الإسراء ٧ .

وقال الحسن لرجل : إن استطعتَ ألّا تسيء إلى أحدٍ ممن تحبّه فافعل ، قال الرجل : ياأبا سعيد [١] ، أوَ يسيء المرء إلى مَنْ يحبّه ؟ قال : نعم ، نفسُك أحبُّ النفوس إليـك ، فإذا عصيتَ الله فقد أسأتَ إليها .

وكان مالك بن دينار إذا مَنَع نفسَه شيئاً من الشهوات ، قال : اصبرى ، فوالله ما منعُك [٢] إلا لـكرامتك علىّ .

قام رسول الله صلى الله عليه وآله الليل ، حتى تورّمت قدماه ، فقيل له : يارسول الله ، أتفعل هذا ، وقد غفرَ الله ما تقدّم مِنْ ذنبك وما تأخر ! قال : « أفلا أكونُ عبداً شكوراً ! » .

وقال عبد الله بن مسعود : لا يكونَنّ أحدكم جيفة ليله ، قُطْرُب [٣] نهاره .

وكان يقال . مَنْ كثُرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار .

وكان مالك بن دينار يقول فى قصصه : ما أشقر قطام الـكبر ! وينشدُ :

أتروضُ عِرْسك بعد ما هرِمَتْ [illegible] ومن العنـاء رياضةُ الهرِمِ

وقال آخر :

إن كنت تؤمن بالقيـــــامة واجـترأت على الخطيّـــة
فلقـــــد هلـكتَ وإن جَحَدْتَ فذاك أعظمُ البليّـة

---

(١) كنية الحسن البصرى . (٢) ج : « ما منعك » .
(٣) القطرب : دويبة لا تستريح نهارها سعياً .

(٨١)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فى صفة الدنيا :

مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ ، أَوَّلُهَا عَنَاءٌ ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ ! فِى حَلَالِهَا حِسَابٌ ، وَفِى حَرَامِهَا عِقَابٌ .

مَنِ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ ، وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ وَمَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ ، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ .

* * *

قال الرضىّ رحمه الله :

أقول : وإذا تأمّل المتأمّل قوله عليه السلام : « ومن أبصر بها بصّرته » ، وجد تحته من المعنى العجيب ، والغرض البعيد ، مالا يبلغ غايته ولا يدرك غوره ، لاسيما إذا قرن إليه قوله : « وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ » ، فإنه يجد الفرق بين « أبصر بها » و« أبصر إليها » واضحاً نيّراً ، وعجيباً باهراً .

الشرح :

العناء : التعب . وساعاها : جاراها سعياً . وواتته : طاوعته .

ونظر الرضىّ إلى قوله . « أولها عناء وآخرها فناء » ، فقال .

وأوّلنا العناء إذا طَعَمْنا   إلى الدنيا وآخرنا الذهابُ [1]

---

(١) ديوانه ١ : ١٠٦ .

ونظر إلى قوله عليه السلام « فى حلالها حساب ، وفى حرامها عقاب » بعضُ الشعراء ، فقال :

الدهر يومان فيومٌ مضَى   عنك بمـا فيه ويومٌ جديدْ

حلالُ يوميك حسابٌ وفى   حرام يوميكَ عذابٌ شديدْ

تجمعُ ما يأكلهُ وارثٌ   وأنت فى القبر وحيدٌ فريدْ

إنى لغيرى واعظٌ تاركٌ   نفسى وقولى من فعالى بعيدْ

حـــــلاوةُ الدنيا ولذّاتُها   تـكلّف العاقلَ ما لا يريدْ

ومن المعنى أيضا قول بعضهم :

حَلَالُهَا حَسْرَةٌ تُفْضِى إلىَ نَدَمٍ   وَفِى الحَارِمِ مِنْهَا النَّمِ مَحْزُورُ

ونظر الحسن البصرىّ إلى قوله عليه السلام : « من استغنى فيها فُتِن ، ومن افتقرَ فيها حزن » ، فقال ، وقد جاءه إنسان يبشّره بمولود له ذَكَر : ليهنك الفارس يا أبا سعيد ، فقال : بل الراجل ! ثم قال : لا مرحباً بمن إنْ كان غنيًّا فتنَنى ، وإن كان فقيراً أحزننى ، وإن عاش كدّنى ، وإن مات هدّنى ، ثم لا أرضى بسعيى له سعيا ، ولا بـكدحى له كدحا ؛ حتى أهتمّ بمـا يصيبه بعد موتى ، وأنا فى حالٍ لا ينالُنى بمساءته حزْنٌ ، ولا بسروره جذَل .

ونظر ابن المعتزّ إلى قوله عليه السلام : « مَنْ ساعاها فاتتْهُ ، ومن قعد عنها واتته » فقال : الدنيا كظلّك ، كلّما طلبته زاد منك بعدا .

ونظرتُ إلى قوله عليه السلام : « ومَنْ أبصر بها بصرته ، ومن أبصر إليها أعمته » ، فقلت :

دُنْيَاكَ مثلُ الشَّمْسِ تُدْنى إليـ   ـك الضوء لـكن دعوة الْمُهْلِكْ

إن أنت أبصرتَ إلى نورِها   تَعْشَ ، وإن تبصرْ به تدركْ

فإن قلت : المسموع : أبصرت زيدا ، ولم يسمع أبصرت إلى زيد ، قلت : يجوز أن يكون قوله عليه السلام : « ومن أبصر إليها » ، أىْ ومن أبصر متوجها إليها ، كقوله : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾[1] ولم يقل « مرسلا » ؛ ويجوز أن يكون أقام ذلك مقام قوله « نظر إليها » لمـا كان مثله ، كما قالوا فى « دخلت البيت » ، « ودخلت إلى البيت » أجروْه مجرَى « ولجت إلى البيت » لمّا كان نظيره .

---

(١) سورة النمل ١٢ .

(٨٢)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام ؛ وتسمى بالغراء ؛ وهي من الخطب العجيبة :

اَلْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي عَلَا بِحَوْلِهِ ، وَدَنَا بِطَوْلِهِ ؛ مَانِحِ كُلِّ غَنِيمَةٍ وَفَضْلٍ ، وَكَاشِفِ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَأَزْلٍ . أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ ، وَسَوَابِغِ نِعَمِهِ ، وَأُومِنُ بِهِ أَوَّلًا بَادِيًا ، وَأَسْتَهْدِيهِ قَرِيبًا هَادِيًا ، وَأَسْتَعِينُهُ قَاهِرًا قَادِرًا ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كَافِيًا نَاصِرًا ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ؛ أَرْسَلَهُ لِإِنْفَاذِ أَمْرِهِ ، وَإِنْهَاءِ عُذْرِهِ ، وَتَقْدِيمِ نُذُرِهِ .

•••

الشرح :

الحول:القوة . والطَّول : الإفضال ، والمانح : المعطي . والأزْل ، بفتح الهمزة : الضيق والحبس. والعواطف : جمع عاطفة وهي مايعطفك على الغير ، ويدنيه من معروفك ، والسوابغ: التوام الكوامل ؛ سبَغ الظلُّ ؛ إذا عمّ وشمل .

و « أولا » هاهنا منصوب على الظرفية؛ كأنه قال :قبل كلّ شيء . والأوّل نقيض الآخر أصله « أوْءل » على « أفعل » مهموز الوسط ،قلبت الهمزة واوا وأدغم ، يدلّ على ذلك قولهم: « هذا أوّلُ منك » والإتيان بحرف الجرّ دليل على أنه « أفعل » ، كقولهم :هذا أفضل منك؛ وجمعه على أوائل وأوالٍ أيضا على القلب .وقال قوم: أصله « ووْل » على « فوْعل » فقلبت الواو الأولى همزة؛ وإنما لم يجمع على « ووالٍ » لاستثقالهم اجتماع الواوين وبينهما ألف الجمع.

(١) ب : « أوال » تصحيف

وإذا جعلت « الأول » صفة لم تصرفه ، تقول: لقيته عاماً أوّلَ ،لاجتماع وزن الفعل،وتقول: ما رأيته مذ عامٍ أوّلَ ، كلاهما بغير تنوين ؛ فمن رفع جعله صفة لعام ؛ كأنه قال : أوّل من عامنا ، ومَنْ نصب جعله كالظرف، كأنه قال : مذ عام قبل عامنا . فإن قلت : « ابدأ بهذا أوّلُ » ، ضممته على الغاية .

والإنهاء : الإبلاغ ، أنهيتُ إليه الخبرَ فانتهى ؛ أى بلغ ؛ والمعنى أنّ الله تعالى أعذر إلى خلقه وأنذرهم ؛ فإعذارُه إليهم أنْ عرّفهم بالحجج العقليّة والسمعية أنّهم إنْ عصوْه استحقّوا العقاب؛ فأوضح عذرَه لهم في عقوبته إيّاهم على عصيانه . وإنذارهلم : تخويفه إياهم من عقابه. وقد نظر البحتريّ إلى معنى قوله عليه السلام : « علا بحوله، ودنا بطوله »،فقال:

دَنَوْتَ تَوَاضُعاً وَعَلَوْتَ قَدْراً فَشَأْنَاكَ انْخِفَاضٌ وارْتِفاعُ[1]
كَذَاكَ الشمس تبعُدُ أنْ تُسَامَى وَيَدْنُو النُّورُ مِنْهـا والشُّعَاعُ

• • •

وفى هذا الفصل ضروب من البديع ؛فمنها أنّ « دنا » فى مقابلة « علا » لفظا ومعنى؛ وكذلك « حوله » و « طوله » .

فإن قلت : لاريبَ فى تقابل « دنا » و « علا » من حيث المعنى واللفظ؛ وأما « حوله » و « طوله » فإنهما يتناسبان لفظا ؛ وليسا متقابلين معْنى ، لأنهما ليسا ضدّين ، كالعلوّ والدنوّ .

قلت : بل فيهما معنى التضادّ ،لأنّ الحول هو القوّة ،وهى مشعرة بالسَّطْوة والقهر،ومنه منشأ الانتقام ، والطَّوْل : الإفضال والتكرّم ، وهو نقيض الانتقام والبطش .

فإن قلت : أنت وأصحابُك لاتقولون إنّ الله تعالى قادرٌ بقدرة ، وهو عنـدكم قادر

(١) ديوانه ١ : ٨٢ ، يمدح إبراهيم بن المدبر .

ذاته ، فكيف تتأولون قوله عليه السلام : « الذى علا بحوله » ؟ أليس فى هذا إثبات قدرة له زائدة على ذاته ، وهذا يخالف مذهبكم !

قلت : إن أصحابنا لا يمتنعون من إطلاق قولهم : إن لله قوة وقدرة وحولا ، وحاش لله أن يذهب ذاهب منهم إلى منع ذلك ! ولكنهم يطلقونه ويعنون به حقيقته المرئية ، وهى كون الله تعالى قويًّا قادراً ، كما نقول نحن والمخالف : إن لله وجوداً وبقاء وقدماً ، ولا نعنى بذلك أن وجوده أو بقاءه أو قدمه معان زائدة على نفسه ، لكنا نعنى كلنا بإطلاق هذه الألفاظ عليه كونه موجودا أو باقيا أو قديما ، وهذا هو العرف المستعمل فى قول الناس : « لا قوة لى على ذلك » و « لا قدرة لى على فلان » لا يعنون نفى المعنى ، بل يعنون كون الإنسان قادرا قويا على ذلك .

ومنها أن « مانحا » فى وزن « كاشف » و « عظيمة » بإزاء « عظيمة » فى اللفظ ، وضدها فى المعنى ؛ وكذلك « فضل » و « أزل » .

ومنها أن « عواطف » بإزاء « سوابغ » و « نعمه » بإزاء « كرمه » .

ومنها — وهو ألطف ما يستعمله أرباب هذه الصناعة : أنه جعل « قريباً هادياً » مع قوله : « أستهديه » ؛ لأن الدليل القريب منك أجدر بأن يهديك من البعيد النازح ، ولم يجعله مع قوله : « وأستعينه » ؛ وجعل مع الاستعانة « قاهرا قادرا » لأن القادر القاهر يليق أن يستعان ويستنجد به ؛ ولم يجعله قادرا قاهرا مع التوكل عليه ، وجعل مع التوكل « كافيا ناصرا » ؛ لأن الكافى الناصر أهل لأن يتوكل عليه .

وهذه اللطائف والدقائق من معجزاته عليه السلام التى فات بها البلغاء ، وأخرس الفصحاء .

● ● ●

الأصلُ :

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي ضَرَبَ لَكُمُ الْأَمْثَالَ ، وَوَقَّتَ لَكُمُ الآجالَ، وَأَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ ، وَأَرْفَغَ لَكُمُ المَعَاشَ ، وَأَحَاطَ بِكُمُ الإِحْصَاءَ ، وَأَرْصَدَ لَكُمُ الْجَزَاءَ ، وَآثَرَكُمْ بِالنِّعَمِ السَّوَابِغِ ، وَالرِّفَدِ الرَّوَافِغِ ، وَأَنْذَرَكُمْ بِالْحُجَجِ الْبَوَالِغِ ؛ فَأَحْصَاكُمْ عَدَدًا، وَوَظَّفَ لَكُمْ مُدَدًا ، فِي قَرَارِ خِبْرَةٍ ، وَدَارِ عِبْرَةٍ ، أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فِيهَا ، وَمُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا .

• • •

الشرحُ :

وقّت وأقّت بمعنى ؛ أى جعل الآجال لوقتٍ مقدر .

والرياش والريش واحد ؛ وهو اللباس ، قال تعالى : ﴿ يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ﴾[1].
وقرئ : « ورياشا » ، ويقال : الرياش : الخِصْب والغنى ، ومنه ارتاش فلان ، حَسُنت حاله ، ويكون لفظ « ألبسكم » مجازا إن فُسِّر بذلك .

وأرفغَ لكم المعاش ؛ أى جعله رفيغا ، أى واسعا مخصِبا ؛ يقال : رفُغ - بالضم - عيشُه رَفاغة ، اتسع ، فهو رافغ ورفيغ ، وترفّغ الرجل، وهو فى رفاغيَة من العيش ، مخففا ، مثل « رَفاهِيَة » و « ثمانية » .

وقوله : « وأحاط بكم الإحصاء » ، يمكن أن ينصَب الإحصاء على أنّه مصدر فيه اللام ، والعامل فيه غير لفظه ، كقوله : « يعجبه السُّخون » ، ثم قال : « حُبًّا[2] » ، وليس

---

(١) سورة الأعراف ٢٦ .
(٢) أصله قول الراجز ، وأورده صاحب اللسان فى (سخن) :

يُعْجِبُهُ السُّخُونُ وَالْعَصِيدُ   وَالتَّمْرُ حُبًّا مَالَهُ مَزِيدُ

دخول اللام بمانع من ذلك ؛ تقول : ضربتُه الضربة ، كما تقول : ضربته ضربا . ويجوز أن ينصب بأنّه مفعول به ، ويكون ذلك على وجهين :

أحدهما : أن يكون من « حاط » ثلاثي ، تقول : حاط فلان كرْمَه ، أى جعل عليه حائطا، فكأنه جعل الإحصاء والعدّ كالحائط المدار عليهم ؛ لأنّهم لا يعدون منه ولا يخرجون عنه.

والثانى : أن يكون من حاط الحمرُ عانته يحُوطها ؛ بالواو أى جمعها ؛ فأدخل الهمزة ؛ كأنه جعل الإحصاء يحوطهم ويجمعهم ؛ تقول : ضربتُ زيداً وأضربته أى جعلته ذا ضَرْب ، فلذلك كأنه جعل عليه السلام الإحصاء ذ تحويط عليهم بالاعتبار الأول ، أو جعله ذا جمع لهم بالاعتبار الثانى .

ويمكن فيه وجه آخر ، وهو أن يكون الإحصاء مفعولا له ويكون فى الكلام محذوف تقديره : وأحاط بكم حفظته وملائكته للإحصاء ودخول اللام فى المفعول له كثير ، كقوله :

« والهَوْل مِن تَهَوُّلِ الهُبُورِ[1] »

قوله : « وأرصد » يعنى أعدّ ، وفى الحديث : « إلّا أن أرصُدَه لدين علىّ » .

وآثركم ، من الإيثار ، وأصله أن تقدّم غيرك على نفسك فى منفعة أنت قادرٌ على الاختصاص بها وهو فى هذا الموضع مجاز مستحسَن .

والرِّفَد : جمع رِفْدَة ، مثل كِسْرة وكِسَر ، وفِدْرة وفِدَر . والرِّفدة والرِّفْد واحد ، وهى العطيّة والصِّلَة ورَفدت فلانا رَفْداً بالفتح ، والمضارع أرفِده بكسر الفاء ، ويجوز « أرفدته » بالهمزة .

والروافغ : الواسعة . والحجج البوالغ : الظاهرة المبينة، قال سبحانه : ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾[2] .

---

(١) العجاج وقد ورد البيت محرفا فى الأصول ، وصوابه من الديوان ٤٨

(٢) سورة الأنعام ١٤٩ .

ووظّف لكم مدداً ، أى قدّر ، ومنه وظيفة الطعام .

وقرار خِبْرة بكسر الخاء ، أى دار ملاء واختبار ، تقول : خبرت زيدا أخبُره خُبْرة، بالضم فيهما ، وخِبْرة بالكسر إذا بلوته واختبرته ، ومنه قولهم : صغّر الخُبْرُ الخبرَ .

ودار عِبْرة أى دار اعتبار واتّعاظ ، والضمير فى « فيها » و « عليها » ليس واحداً ، فإنه فى « فيها » يرجع إلى الدار ، وفى « عليها » يرجع إلى النعم والرّفد ، ويجوز أن يكون الضمير فى « عليها » عائدا إلى الدار على حذف المضاف ، أى على سكانها .

* * *

الأصـل :

فَإِنَّ الدُّنْيَا رَنِقٌ مَشْرَبُهَا ، رَدِغٌ مَشْرَعُهَا ، يُونِقُ مَنْظَرُهَا ، وَيُوبِقُ مَخْبَرُهَا . غُرُورٌ حَائِلٌ ، وَضَوْءٌ آفِلٌ ، وَظِلٌّ زَائِلٌ ، وَسِنَادٌ مَائِلٌ ، حَتَّى إِذَا أَنِسَ نَافِرُهَا، وَاطْمَأَنَّ نَاكِرُهَا ، قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا وَقَنَصَتْ بِأَحْبُلِهَا ، وَأَقْصَدَتْ بِأَسْهُمِهَا ، وَأَعْلَقَتِ الْمَرْءَ أَوْهَاقَ الْمَنِيَّةِ ، قَائِدَةً لَهُ إِلَى ضَنْكِ الْمَضْجَعِ ، وَوَحْشَةِ الْمَرْجِعِ، وَمُعَايَنَةِ الْمَحَلِّ وَثَوَابِ الْعَمَلِ .

وَكَذَلِكَ الْخَلَفُ بِعَقْبِ السَّلَفِ ؛ لَا تُقْلِعُ الْمَنِيَّةُ اخْتِرَاماً ، وَلَا يَرْعَوِى الْبَاقُونَ اجْتِرَاماً ، يَحْتَذُونَ مِثَالاً ، وَيَمْضُونَ أَرْسَالاً ، إِلَى غَايَةِ الانْتِهَاءِ ، وَصَيُّورِ الْفَنَاءِ .

* * *

الشّـرْح :

يقال : عيش رنِق، بكسر النون، أى كدر، وماء رنْق بالتسكين ، أى كدر والرّنَق بفتح النون مصدر قولك : « رنِق الماء » بالكسر ورنّقته أنا ترنيقا، أى كدّرته والرواية

المشهورة فى هذا الفصل «ربق مشربُها» بالكسر أقامه مقام قولهم : «عيش رَنِق» ،ومن رواه « رَنْق مشربها » بالسكون ــ وهم الأقلون ــ أجرى اللفظ على حقيقته .

ويقال: مشرع رَدِغ:ذو طين ووحَل،روى «الرَّدَغَة»بالتحريك،ويجوز تسكين الدال ؛ والجمع رِداغ ورَدْغ[1] .

ويونق منظرُها : يعجب الناظر ؛ آنقنى الشىءُ أعجبنى . ويُوبق مخبرها:يُهلك،وَبَق الرجلُ يبِق وبُوقا ، هلك ؛ والموبق « مفعل » منه كالموعد « مَفعل » ، من وعَد يعد ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾[2] . وقد جاء وَبِق يبق ، بالكسر فيهما ، وهو نادر ، كورِثَ يرِث ، وجاء أيضا وبق يوبق وبَقًا .

والغُرور ، بضم الغين : ما يغترّ به من متاع الدنيا ، والغَرور ، بالفتح : الشيطان . والحائل : الزائل ، والآفل : الغائب ، أفل غاب يأفُلُ ويأفِل أفولا .

والسِّناد : دِعامة يُسنَدبها السقف ، ومائل ، من نكرت كذا،أى أنكرته .

وقمصت بأرجلها ، قَمَصَ الفرسُ وغيره يقمِص ويقمُص قَمْصا وقِماصا، أى استن ؛ وهو أن يرفع يديه ويطرحهما معا ، ويعجن برجليه ، وفى المثل المضروب لمن ذلّ بعد عزة : « ما للعَيْر من قِماص » .

وجمع فقال : « بأرجلها » وإنما للدابة رجلان ، إمّا لأنّ المثنى قد يطلق عليه صيغة الجمع ؛ كما فى قولهم : امرأة ذات أوراك ومآكم ؛ وهما وَرِكان ، وإمّا لأنه أجرى اليدين والرجلين مجرى واحد ، فسماها كلّها أرجلا . ومن رواه « بالحاء » فهو جمع رَحْل الناقة .

وأقصدت : قتلت مكانها من غير تأخير .

---

(١) وردوغ ، كخدم أيضاً . (٢) سورة الكهف ٥٢

والأوهاق: جمع وَهَق بالتحريك، وهو الحبل، وقد يسكن مثل نَهْر ونَهَر. وأعلقتُ المرء الأوهَاق: جعلتُ الأوهاق عالقة به. والضنك: الضيق.

والضجع: المصدر أو المكان، والفعل ضَجَع الرجل جنبه بالأرض، بالفتح، يضجَع ضجوعا وضجْعا، فهو ضاجع؛ ومثله أضجع.

والمرجع: مصدر رَجَع، ومنه؛ قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ ﴾؛[1] وهو شاذ، لأن المصادر من فَعَل يفعِل بكسر العين؛ إنما يكون بالفتح.

قوله: «ومبابنة المحل»، أي الموضع الذي يحُلُّ به المكلَّف بعد الموت؛ ولابدّ لكل مكلف أن يعلم عَقِيب الموت مصيره؛ إما إلى جنة وإما إلى نار.

وقوله: «ثواب العمل» يريد جزاء العمل، ومراده الجزاء الأعمُّ الشامل للسعادة والشقاوة، لا الجزاء الأخصّ الذي هو جزاء الطاعة، وسمّى الأعمّ ثوابا على أصل الحقيقة اللغوية؛ لأنّ الثواب في اللغة الجزاء؛ يقال: قد أثابَ فلان الشاعر لقصيدة كذا، أي جازاه.

وقوله: «وكذلك الخلف يعقُب السلف» الخلَف المتأخرون، والسلَف المتقدمون؛ وعقْب هاهنا بالتسكين؛ وهو بمعنى بَعْد، جئت بعقْب فلان أي بعده، وأصله جَرْي الفرس بعد جَرْيه، يقال: لهذا الفرس عَقْب حسن. وقال ابن السكيت: يقال جئت في عُقْب شهر كذا، بالضم، إذا جئت بعد ما يمضي كلّه، وجئت في عَقِب، بكسر القاف إذا جئت وقد بقيت منه بقية. وقد روى: «يَعقُب السلف»، أي يتبع.

وقوله: «لا تُقلع المنية»، أي لا تكفّ، والاخترام: إذهاب الأنفس واستئصالها.

---

(١) سورة الأنعام ١٦٤

وارعوى : كفّ عن الأمر وأمسك ، وأصل فعله الماضي رَعَى يرعو ، أى كفّ عن الأمر ، وفلان حسن الرِّعوة والرُّعوة والرَّعْوَة والرُّعوى والارعواء . والاجترام ، افتعال من الجرم ، وهو الذنب ، ومثله الجريمة ، يقال : جَرَم وأجْرَم بمعنى .

قوله : «يحتذون مثالا» أى يقتدون ، وأصله من « حذوت النعل بالنعل حَذْواً » ، إذا قدّرت كلّ واحدة على صاحبها .

قوله : «ويمضون أرسالا» ، بفتح الهمزة ، جمع رَسَل ، بفتح السين ، وهو القطيع من الإبل أو الغنم ، يقال : جاءت الخيل أرسالا ، أى قطيعا قطيعا .

وصَيّور الأمر : آخره وما يؤول إليه .

• • •

الأصل :

حَتَّى إِذَا تَصَرَّمَتِ ٱلْأُمُورُ ، وَتَقَضَّتِ ٱلدُّهُورُ ، وَأَزِفَ ٱلنُّشُورُ ، أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَائِحِ ٱلْقُبُورِ ، وَأَوْكَارِ ٱلطُّيُورِ ، وَأَوْجِرَةِ ٱلسِّبَاعِ ، وَمَطَارِحِ ٱلْمَهَالِكِ ؛ سِرَاعاً إِلَى أَمْرِهِ ، مُهْطِعِينَ إِلَى مَعَادِهِ رَعِيلًا صُمُوتاً ، قِيَاماً صُفُوفاً ، يَنْفُذُهُمُ ٱلْبَصَرُ ، وَيُسْمِعُهُمُ ٱلدَّاعِي ؛ عَلَيْهِمْ لَبُوسُ ٱلِاسْتِكَانَةِ ، وَضَرَعُ ٱلِاسْتِسْلَامِ وَٱلذِّلَّةِ . قَدْ ضَلَّتِ ٱلْحِيَلُ ، وَٱنْقَطَعَ ٱلْأَمَلُ ، وَهَوَتِ ٱلْأَفْئِدَةُ كَاظِمَةً ، وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ مُهَيْنِمَةً ، وَأَلْجَمَ ٱلْعَرَقُ ، وَعَظُمَ ٱلشَّفَقُ ، وَأُرْعِدَتِ ٱلْأَسْمَاعُ ، لِزَبْرَةِ ٱلدَّاعِي إِلَى فَصْلِ ٱلْخِطَابِ وَمُقَايَضَةِ ٱلْجَزَاءِ ، وَنَكَالِ ٱلْعِقَابِ ، وَنَوَالِ ٱلثَّوَابِ .

• • •

الشرح

تصرمت الأمور: تقطعت، ومثله «تقضّت الدهور» وأزف: قَرُبَ ودَنا، يأزف أزفاً؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ [١] أي القيامة، الفاعل «آزف».

والضرائح: جمع ضريح وهو الشَّقّ في وسط القبر. واللَّحد: ما كان في جانب القبر، وضرحت ضَرْحاً، إذا حفرت الضريح.

والأوكار: جمع وَكْر بفتح الواو، وهو عشّ الطائر، وجمع الكثرة وُكور، ووَكَرَ الطائر يكِرُ وَكْراً، أي دخل وَكْره، والوَكْن بالفتح مثل الوكر، أي العُشّ.

وأوجِرَة السِّباع: جمع وِجار بكسر الواو، ويجوز فتحها، وهو بيت الضَّبُع والضَّبُع ونحوها.

مهطعين: مسرعين. والرَّعيل: القطعة من الخيل.

قوله عليه السلام: «ينفذهم البَصَر ويسمعهم الداعي»، أي هم مع كثرتهم لا يخفى منهم أحد عن إدراك الباري سبحانه، وهم مع هذه الكثرة أيضاً لا يبقى منهم أحد إلّا إذا دعا داعي الموت سمع دعاءه ونداءه.

واللَّبوس، بفتح اللام: ما يلبس، قال:

البَسْ لِكُلِّ حالةٍ لَبُوسَها إمّا نعيمَها وإمّا بُوسَها [٢]

ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ [٣] يعني الدُّروع.

والاستكانة: الخضوع. والضَّرع: الخشوع والضعف، ضَرَعَ الرجل يضرَع، وأضرعه غيره.

وكاظمة: ساكتة، كَظَمَ يكظِم كُظوماً أي سكتَ، وقوم كُظَّم، أي ساكتون.

---

(١) سورة النجم ٥٧.
(٢) أنشده ابن السكيت لبيهس الفزاري، في خبر ذكره صاحب اللسان ٨ : ٨٧.
(٣) سورة الأنبياء ٨١.

ومهينمة: ذات هَيْنَمة، وهى الصوت الخفىّ . وأُلجِم العرقُ: صار لجاماً. وفى الحديث،
« إنّ العرق ليَجْرى منهم حتى إنّ منهم من يبلغ رُكبتيه ، ومنهم من يبلغ صَدْرَه ، ومنهم من يبلغ عنقه ، ومنهم من يُلجمه ، وهم أعظمهم مشقةً » .

وقال لى قائل : ما أرى لقوله عليه السلام: « المؤذّنون أطولُ الناس أعناقاً يوم القيامة » ، كثير فائدة ، لأنّ طولَ العنق جداً ليس مما يرغب فى مثله، فذكرت له الخبر الوارد فى العَرَق وقلتُ: إذا كان الإنسان شديد طول العنق كان عن إلجام العرق أبعدَ، فظهرت فائدة الخبر.
ويروى « وأثجم العرق » ، أى كثر ودام .

والشَّفق والشفقة، بمعنى، وهو الاسم من الإشفاق، وهو الخوف والحذر. قال الشاعر:
تَهْوَى حَيَاتِى وأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقاً والموتُ أكرمُ نَزَّالٍ على الحُرَمِ [1]

وأرعدت الأسماع : عرتها الرِّعدة . ودَبْرة الداعى : صدته ، ولا يقال الصوت زَبْرة إلا إذا خالطه زجر وانتهار ، يريد أَزْبَرُه ، الصَّمّ .

وقوله : « إلى فصل الخطاب » ، إلى هداية من الداعى وفصل الخطاب: بتّ الحكومة التى بين الله وبين عباده فى الموقف، رزقنا الله المسامحة فيها عنه! وإنما خص الأسماع بالرعدة، لأنها تحدُث من صوت الملك الذى يدعو النّاس إلى محاسبته .

والمقايضة : المعاوضة ، قايضت زيداً بالمتاع ، وهما قِيْضان ، كما قالوا : بِيِّعان .

فإن قلت : كيف يصحّ ما ذكره المسلمون من حَشْر الأجساد ! وكيف يمكن ما أشارَ إليه عليه السلام من جَمْع الأجزاء البدنية من أوكار الطيور وأوجرة السباع ، ومعلوم أنه قد يأكلُ الإنسانَ سَبُع ، ويأكل ذلك السبُعَ إنسان آخر ، ويأكل هذا الإنسانَ طائر ، ثم يأكل الطائرَ إنسان آخر، والمأكول يصير أجزاء من أجزاء بدن الآكل ، فإذا حشرت

(١) لإسحاق بن خلف ، من أبيات له فى ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٢٧٥ .

الحيوانات كلِّها على ما تزعم المعتزلة ، فتلك الأجزاء المفروضة ، إما أن تحشر أجزاء من بنية الإنسان ، أو بنية السبع ، أو منهما معا ، فإنْ كان الأول وجب ألّا يحشر السبع ، وإن كان الثاني وجبَ ألّا يحشر الإنسان ، والثالث محال عقلا ، لأنّ الجزء الواحد لا يكون فى موضعين .

قلت : إن فى بدن كلّ إنسان وكلّ حيوان أجزاء أصلية وأجزاء زائدة ، فالأجزاء الزائدة يمكن أن تصير أجزاء بدن حيوان إذا اغتذى بها ، والأجزاء الأصلية لا يمكن ذلك فيها ، بل يحرسها الله تعالى من الاستحالة والتغيير ، وإذا كان كذلك ، أمكن الحشر بأن تعادَ الأجزاء الأصلية إلى موضعها الأول ، ولا فساد فى استحالة الأجزاء الزائدة ، لأنه لا يجب حشرُها ، لأنّها ليست أصل بنْية المكلّف ، فيندفع الإشكال . وأما من يقول بالنفس الناطقة من أهل الملّة ، فلا يلزمه الجواب عن السؤال ، لأنه يقول : إنّ الأنفس إذا أزِف يوم القيامة ، خلقت لها أبدان غير الأبدان الأولى ؛ لأن المكلف المطيع والعاصى المستحق الثواب والعقاب عندهم ، هو النفس ، وأما البدن فآلة لها تستعمله استعمال الكاتب القلم ، والنجار الفأس .

• • •

الأصلُ

عِبادٌ مَخْلُوقُونَ اقْتِداراً ، وَمَرْبُوبُونَ اقْتِساراً ، وَمَقْبُوضُونَ احْتِضاراً ، وَمُضَمَّنُونَ أَجْداثاً ؛ وَكائِنُونَ رُفاتاً ، وَمَبْعُوثُونَ أَفْراداً ، وَمَدِينُونَ جَزاءً ، وَمُمَيَّزُونَ حِساباً . قَدْ أُمْهِلُوا فِي طَلَبِ الْمَخْرَجِ ، وَهُدُوا سَبِيلَ الْمَنْهَجِ ، وَعُمِّرُوا مَهَلَ الْمُسْتَعْتَبِ ، وَكُشِفَتْ عَنْهُمْ سُدَفُ الرِّيَبِ ، وَخُلُّوا لِمِضْمارِ الْجِيادِ ، وَرَوِيَّةِ الارْتِيادِ ، وَأَناةِ الْمُقْتَبِسِ لِلْمُرْتادِ ، فِي مُدَّةِ الأَجَلِ ، وَمُضْطَرَبِ الْمَهَلِ .

• • •

الشرح :

مربوبون : مملوكون . والاقتسار : الغَلَبة والقهر .

والاحتضار : حضور الملائكة عند الميت ؛ وهو حينئذ محتضَر ، وكانت العرب تقول: لبن محتضَر : أى فاسد ذو آفة ؛ يعنون أنّ الجنّ حضرته ؛ يقال: اللبن محتضَر فغطِّ إناءك.

والأجداث : جمع جَدَث ، وهو القبر ؛ واجتدث الرجل ؛ اتخذ جَدَثاً ، ويقال : « جَدَف » بالفاء .

والرُّفات : الحطام ؛ تقول منه رَفَتَ الشىء فهو مرفوت .

ومدينون ، أى مجزيّون . والدِّين : الجزاء ؛ ومنه ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [(١)] .

ومميَّزون حسابا ، من قوله تعالى: ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ [(٢)] ، ومن قوله تعالى: ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً ﴾ [(٣)] ؛ كان قوله: « ومبعوثون أفرادا » ، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ ﴾ [(٤)] وأصل التمييز على الفصل والتبيين .

قوله : « قد أمهلوا فى طلب المخرج » ، أى أُنظروا ليفيئوا إلى الطاعة ويخلصوا التوبة ، لأنّ إخلاصَ التوبة هو المخرج الذى مَن سلكه خرج من رِبقَة المعصية . ومثله قوله: « وهُدُوا سبيل المنهج » ، والمنهج : الطريق الواضح .

والمستعتَب : المسترضَى ؛ استعتبت زيدا إذا استرضيته عنّى ؛ فأنا مستعتِب له ، وهو مستعتَب . وأعتبنى ، أى أرضانى ، وإنما ضرب المثل بمهل المستعتَب ، لأنّ مَنْ يُطلب رضاه فى مجرى العادة لا يُرهَق بالتماس الرضا منه ؛ وإنما يمهل ليرضى بقلبه لا بلسانه .

والسُّدَف : جمع سُدْفة ؛ هى القطعة من الليل المظلم ، هذا فى لغة أهل نجد ؛ وأما غيرهم

---

(١) سورة الفاتحة ٣

(٢) سورة يس ٥٩

(٣) سورة الواقعة ٧

(٤) سورة الأنعام ٩٤

فيجعل السدْفة الضوء ، وهذا اللفظ من الأضداد، وكذلك السَّدَف، بفتح السين والدال.
وقد قيل : السُّدفة: اختلاط الضوء والظلمة كوقت مابين طلوع الفجر إلى الإسفار، والسَّدَف: الصبح وإقباله ، وأسدف الليل ، أظلم ؛ وأسدف الصبح أضاء ، يقال: أسدِف الباب ، أى افتحه حتى يضىء البيت؛ وفى لغة هوازن وأسدفوا؛ أى أسرجوا، من السراج والرِّيَب : الشبهة ، جمع ريبة .

والمضمار : الموضع الذى تضمَّر فيه الخيل ، والمِضمار أيضا المدة التى تضمَّر فيها . والتضمير: أن تعلفَ الفرس حتى يسمن، ثم تردّه إلى قوته الأولى؛ وذلك فى أربعين يوما، وقد يطلَق التَّضْمير على نقيض ذلك ؛ وهو التجويع حتى يهزل ويخفّ لحمُه. ضَمَر الفرسُ بالفتح، يضمُر بالضم، ضمورا، وجاء «ضَمُر الفرس» بالضم، وأضمرته أنا، وضمَّرته فاضطمر هو، ولؤلؤ مضطمر : فى وسطه بعض الانضمام. رجل لطيف الجسم ، ضمير البطن، وناقة ضامر وضامرة أيضاً . يقول : مكَّنهم الحكيم سبحانه، وعلَّام وأعلام ، كما تمكَّن الخيل التى تستبق فى المِضمار ليعلم أيُّها أسبق .

والروِيّة : الفكرة، والارتياد: الطلب، ارتاد فلان الكلأ يرتاده ارتيادا : طلبه، ومثله راد الكلأ يروده رَوْداً ورياداً ؛ وفى الحديث: « إذا بال أحدُكم فليرتدْ لبوله »، أى فليطلب مكانا ليّنا أو منحدرا ، والرائد: الذى يرسله القوم فى طلب الكلأ ؛ وفى المثل : «الرائد لا يكذب أهله » . والأناة : التؤدة والانتظار ، مثل القناة

وتأنّى فى الأمر: ترفّق، واستأنى فلان بفلان، أى انتظر به، وجاء الأناء ، بالفتح والمدّ، على « فَعَال » قال الحطيئة :

وَآكَرَيْتُ العَشَاءَ إلى سُهَيْلٍ   أو الشِّعْرى فطال بِيَ الأنَاءُ[1]

والقبس : متعلِّم العلم هاهنا، ولا بدّ له من أناة وتمَهّل ليبلغ حاجتَه، فضرب مثلا، وجاء

---

(١) ديوانه ٢٥

في بعض الروايات: « ومقبوضون اختضارا » بالخاء المعجمة؛ وهو موت الشاب غضًّا أخضر، أي مات شابا ، وكان فتيان يقولون لشيخ: أجززت يا أبا فلان، فيقول: أي بني، وتختضرون! أجزّ الحشيش: آن أن يجزّ، ومنه قيل للشيخ كاد يموت: قد أجزّ ، والرواية الأولى أحسن، لأنها أعمّ .

وفي رواية « لمضمار الخيار » ، أي للمضمار الذي يستبق فيه الأبرار الأتقياء إلى رضوان الله سبحانه .

● ● ●

الأصلُ

فيالها أمثالًا صائبةً ، ومواعِظَ شافيةً ، لو صادفتْ قلوبًا زاكيةً ، وأسماعًا واعيةً ، وآراءً عازمةً ، وألبابًا حازمةً !

فاتقوا اللهَ تقيّةَ من سمِع فخشع ، واقترف فاعترف ، ووجِل فعمِل ، وحاذر فبادر ، وأيقن فأحسن ، وعُبِّر فاعتبر ، وحُذِّر فحذِر ، وزُجِر فازدجر ، وأجاب فأناب ، وراجع فتاب ، واقتدى فاحتذى ، وأُرِيَ فرأى ، فأسرع طالبًا ، ونجا هاربًا ؛ فأفاد ذخيرةً ، وأطاب سريرةً ، وعمّر معادًا ، واستظهر زادًا ، ليوم رحيله ، ووجه سبيله ، وحال حاجته ، وموطن فاقته ، وقدّم أمامه لدار مُقامه .

فاتقوا اللهَ عبادَ اللهِ جِهةَ ما خلقكم له ، واحذروا منه كُنْهَ ما حذّركم من نفسه ، واستحقّوا منه ما أعدّ لكم بالتنجّز لصدق ميعاده ، والحذر من هول معاده .

● ● ●

الشرحُ :

صائبة : غير عادلة عن الصواب ، صاب السهم يصوب صَوْبةً ، أي قصد ولم يجُزْ ،

وصاب السهمُ القرطاسَ يَصِيبه صَيْبًا لغة في « أصابه » ، وفي المثل :مع الخواطيء سهم صائب .

وشافية: تبرىءُ من مرض الجهل والهوى . والقلوب الزاكية :الطاهرة ، والأسماع الواعية : الحافظة . والآراء العازمة : ذات العزم . والألباب : العقول ، والحازمة : ذات الحَزْم ، والحزْم : ضبط الرجُل أمرَه .

وخشع الرجل ، أي خضع واقترف : اكتسب ، ومثله قرَف يقرِف بالكسر ، يقال : هو يقرِفُ لعياله ، أي يكسب .

ووجِل الرجل خاف ، وَجَلاً ، بفتح الجيم ، ومستقبله يَوْجَل وياجَل وييجَ وبيجَل ، بكسر الياء للمضارعة .

وبادر : سارع وعُبِّر : أي أُرِيَ العِبَرَ مرارا كثيرة ، لأنّ التشديد هاهنا دليل التكثير . فاعتبر ، أي اتّعظ . والزَّجْر : النهي والمنع ، زجر أي منع ، وازدجر مطاوع ازدجر ؛ اللفظ فيهما واحد ، تقول : ازدجرت زيدا عن كذا فازدجر هو ، وهذا غريب ؛ وإنما جاء مطاوع ازدجر في « زجر » لأنهما كالشيء الواحد ؛ وفي بعض الروايات « ازدُجر فازدجر » فلا يحتاج مع هذه الرواية إلى تأويل .

وأناب الرجل إلى الله ، أي أقبل وتاب . واقتدى بزيد ؛ عمل مثل فعله ، واحتذى مثله .

قوله عليه السلام : « فأفاد ذخيرة » ، أي فاستفاد ؛ وهو من الأضداد ، أفدت المال زيدا أعطيته إياه ؛ وأفدت أنا مالا ؛ أي استفدته واكتسبته .

قوله عليه السلام : « فاتقوا اللّه عبادَ اللّه جهة ما خلقكم له » . نصب « جهة » بفعل مقدر ، تقديره : « واقصدوا جهة ما خلقكم له » يعني العبادة ، لأنه تعالى قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] . فحذف الفعل ، واستغنى عنه بقوله : « فاتقوا الله » لأنّ التقوى

---

(١) سورة الذاريات ٥٦ .

ملازمة لقصد المكلّف العبادة ، فدلّت عليه واستغنى بها عن إظهاره .

والكُنْهُ : الغاية والنهاية ؛ تقول : أعرفه كُنْهَ المعرفة ؛ أي نهايتها .

ثم قال عليه السلام : « واستحقّوا منه ما أعدّ لكم » ، أي اجعلوا أنفسكم مستحقين لثوابه الذي أعدّه لكم إن أطعتم .

والباء في « بالتنجّز » متعلق بـ « استحقوا » ويقال : فلان يتنجّز الحاجة ، أي يستنجحها ويطلب تعجّلها ، والناجز : العاجل ؛ يقال : « ناجزاً بناجز » ؛ كقولك : « يداً بيد » أي تعجيلا بتعجيل ؛ والتنجّز من المكلّفين بصدق ميعاد القديم سبحانه ؛ وهو مواظبتهم على فعل الواجب ، وتجنّب القبيح . و « والحذر » مجرور بالعطف على « التنجّز » ؛ لا على « الصدق » ؛ لأنه لا معنى له .

* * *

الأصْلُ :

ومنها :

جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعاً لِتَعِيَ مَا عَنَاهَا ، وَأَبْصَاراً لِتَجْلُوَ عَنْ عَشَاهَا ، وَأَشْلاَءً جَامِعَةً لِأَعْضَائِهَا ، مُلاَئِمَةً لِأَحْنَائِهَا ، فِي تَرْكِيبِ صُوَرِهَا ، وَمُدَدِ عُمُرِهَا ، بِأَبْدَانٍ قَائِمَةٍ بِأَرْفَاقِهَا ، وَقُلُوبٍ رَائِدَةٍ لِأَرْزَاقِهَا ، فِي مُجَلِّلاَتِ نِعَمِهِ ، وَمُوجِبَاتِ مِنَنِهِ ، وَحَوَاجِزِ عَافِيَتِهِ .

وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرَهَا عَنْكُمْ ، وَخَلَّفَ لَكُمْ عِبَراً مِنْ آثَارِ الْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ ، مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلاَقِهِمْ ، وَمُسْتَفْسَحِ خَنَاقِهِمْ . أَرْهَقَتْهُمُ الْمَنَايَا دُونَ الآمَالِ ، وَشَذَّبَهُمْ عَنْهَا تَخَرُّمُ الآجَالِ ، لَمْ يَمْهَدُوا فِي سَلاَمَةِ الْأَبْدَانِ ، وَلَمْ يَعْتَبِرُوا فِي أُنُفِ الْأَوَانِ .

* * *

الشرح :

قوله : « لتعى ما عناها » ، أى لتحفظ وتفهم ما أهمّها ؛ ومنه الأثر المرفوع : « مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .

وانجلو ، أى انكشف .

وعن ها هنا زائدة ؛ ويجوز أن تكون بمعنى « بَعْد » كما قال :

* لَقِحَتْ حَرْبُ وائِلٍ عَنْ حِيَالِ[1] *

أى بعد حيال ، فيكون قد حذف المعول ، وحذفه جائز ، لأنه فضلة ؛ ويكون التقدير : انجلو الأذى بعد عشاها ، والعشا ، مقصور : مصدر عَشِيَ ، بكسر الشين ، يَعْشَى ؛ فهو عَشٍ ، إذا أبصر نهارا ولم يبصر ليلا .

والأشلاء : جمع شِلْو ، وهو العضو .

فإن قلت : فأىّ معنى فى قوله : أعضاء تجمع أعضاء تجمع أعضاءها ؟ وكيف يجمع الشيء نفسه ؟ قلت : أراد عليه السلام بالأشلاء هاهنا الأعضاء الظاهرة ، وبالأعضاء الجوارح الباطنة ؛ ولا ريب أنّ الأعضاء الظاهرة تجمع الأعضاء الباطنة وتضمها . والملائمة : الموافقة والأحناء : الجوانب والجهات . ووجه الموافقة والملاءمة أنّ كون اليد فى الجانب أوْلَى من كونها فى الرأس أو فى أسفل القدم ؛ لأنها إذا كانت فى الجانب كان البطش وتناول ما يراد ودَفْع ما يؤذى أسهل ؛ وكذلك القول فى جعل العين فى الموضع الذى جعلت به ، لأنها كَدَيْدَبَان السفينة البحرية ، ولو جعلت فى أمّ الرأس لم ينتفع بها هذا الحدّ من الانتفاع الآن ؛ وإذا تأملت سائر أدوات الجسد وأعضائه وجدتها كذلك .

---

(١) للحارث بن عباد ؛ وأوله :

* قرِّبا مَرْبَطَ النعامة منِّى *

ثم قال: «في تركيب صورها»، كأنه قال: مركبة أو مصورة، فأتى بلفظة «في» كا تقول: ركب بسلاحه وفي سلاحه، أي متسلحا.

وقوله: «بأرماقها» أي بعنافها جمع رفق، بكسر الراء، مثل حِمْل وأحمال، وأرفقت فلاناً أي نفعته والمِرْفق من الأمر: ما ارتفقت به وانتفعت، ويروى: «بأرماقها» والرَّمَق: بقية الروح.

ورائدة: طالبة. ومجلَّلات النعم، تجلّل الناس، أي تعمهم؛ من قولهم: «سحاب مجلِّل» أي يطبّق الأرض، وهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، كقولك: أنا في سابغ ظلّك وعميم فضلك، كأنه قال: في نعمه المجلّلة؛ وكذلك القول في موجبات مننه، أي في مننه التي توجب الشكر.

وفي ها هنا متعلقة بمحذوف، والموضع نصب على الحال.

ثم قال: «وحواجز عافيته»، الحواجز: الموانع، أي في عافية تحجز وتمنع عنكم المضار. ويروى «وحواجز بليّته»، وقد فسر قوله: «حواجز عافيته» على أن يراد به ما يحجز العافية ويمنعها عن الزوال والعدم.

قوله عليه السلام: «من مستمتع خلاقهم»، الخلاق: النصيب، قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ (1)، وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ ﴾ (2)، وتقدير الكلام: خلّف لكم عبراً من القرون السالفة، منها تمتعهم بنصيبهم من الدنيا ثم فناؤهم، ومنها فسحة خناقهم (3) وطول إمهالهم، ثم كانت عاقبتهم الهلكة.

وأرهقتهم المنايا: أدركتهم مسرعة.

---

(1) سورة البقرة ٢٠٠ (2) سورة التوبة ٦٩

(3) الخناق، بالفتح: حبل يختنق به.

والرهَق : الذى أدرك ليقتل . وشذَّبهم عنها : قطعهم وفرقهم ؛ من تشذيب الشجرة؛ وهو تقشيرها .

واخترمت زيدا المنية : استأصلته واقتطعته .

ثم قال : « لم يمهدوا فى سلامة الأبدان »، أى لم يمهدوا لأنفسهم ؛ من تمهيد الأمور وهو تسويتها وإصلاحها .

وأُنُف الأوان : أوله، يقال: روضةٌ أُنُف لم تُرْعَ قبل، وكأسٌ أُنُف : لم يُشْرَب بها قبلُ .

• • •

الأصْـلُ :

فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضَاضَةِ الشَّبَابِ إِلَّا حَوَانِيَ الْهَرَمِ ، وَأَهْلُ غَضَارَةِ الصِّحَّةِ إِلَّا نَوَازِلَ السَّقَمِ ، وَأَهْلُ مُدَّةِ الْبَقَاءِ إِلَّا آوِنَةَ الْفَنَاءِ ، مَعَ قُرْبِ الزِّيَالِ ، وَأُزُوفِ الِانْتِقَالِ ، وَعَلَزِ الْقَلَقِ ، وَأَلَمِ الْمَضَضِ ، وَغُصَصِ الْجَرَضِ ، وَتَلَفُّتِ الِاسْتِغَاثَةِ بِنُصْرَةِ الْحَفَدَةِ وَالْأَقْرِبَاءِ ، وَالْأَعِزَّةِ وَالْقُرَنَاءِ ، فَهَلْ دَفَعَتِ الْأَقَارِبُ ، أَوْ نَفَعَتِ النَّوَاحِبُ ، وَقَدْ غُودِرَ فِي مَحَلَّةِ الْأَمْوَاتِ رَهِيناً ، وَفِي ضِيقِ الْمَضْجَعِ وَحِيداً ، قَدْ هَتَكَتِ الْهَوَامُّ جِلْدَتَهُ ، وَأَبْلَتِ النَّوَاهِكُ جِدَّتَهُ ، وَعَفَتِ الْعَوَاصِفُ آثَارَهُ ، وَمَحَا الْحَدَثَانُ مَعَالِمَهُ ، وَصَارَتِ الْأَجْسَادُ شَحِبَةً بَعْدَ بَضَّتِهَا ، وَالْعِظَامُ نَخِرَةً بَعْدَ قُوَّتِهَا ، وَالْأَرْوَاحُ مُرْتَهَنَةً بِثِقَلِ أَعْبَائِهَا ، مُوقِنَةً بِغَيْبِ أَنْبَائِهَا، لَا تُسْتَزَادُ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهَا، وَلَا تُسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّئِ زَلَلِهَا .

• • •

الشَّرح :

البَضاضة : مصدر، من بَضَضت يا رجُل ، بضِضت ، بالفتح والكسر بضاضةً وبضُوضة ، ورجل بَضّ ، أى ممتلئ البدن رقيق الجلد ، وامرأة بَضَّة .

وحوانى الهرم : جمع حانية ؛ وهى الدالّة التى تَحْنِى شِطاط[1] الجسد ، وتميله عن الاستقامة .

والهَرَم : الكِبَر . والغضارة : طيب العيش ، ومنه المثل : أباد الله غضراءهم ، أى خيرهم وخِصْبهم .

وآونة الفناء جمع أوان ؛ وهو الحِين ، كزمان وأزمنة ، وفلان يصنع ذلك الأمر آونة كقولك : تارات ، أى يصنعه مراراً ويدَعه مراراً .

والزِّيال : مصدر زايله مزايلة وزيالاً ، أى فارقه .

والأزوف : مصدر أزِف ، أى دنا .

والعَلَز : قلق وخِفّة وهلع يصيب الإنسان ، وقد عَلِز بالكسر ، ومات عَلِزاً ، أى وجعا قلقا . والمضض : الوجع ، أمضّني الجرح ومَضّني ؛ لغتان ، وقد مَضِضْت يا رجل ، بالكسر .

والغُصَص : جمع غُصّة ، وهى الشجا ، والغَصَص بالفتح : مصدر قولك غَصِصت يا رجل تَغَصّ بالطعام ، فأنت غاصٌّ وغصّان ، وأغصصتُه أنا .

والجريض : الرِّيق يغصّ به ؛ جَرَض بريقه بالفتح ، يَجْرِض بالكسر ، مثل كَسَر يكسِر ؛ وهو أن يبلع ريقه على همّ وحزن بالجهد . والجريض : الغُصّة ، وفى المثل : « حال

[1] الشطاط ، بالفتح والكسر : الطول واعتدال القوام .

الجريض دون القريض » ؛ وفلان يجرّض بنفسه إذا كان يموت ، وأجرضه الله بريقه أغصّه .

والحَفَدة : الأعوان والخدم ، وقيل : ولد الولد ، واحدهم حافد ؛ والباء في « بنُصرة الحفدة » متعلّق بالاستعانة ؛ يقول : إن الميّت عند نزول الأمر به يتلفّت مستغيثاً بنصرة أهله وولده ، أي يستنصر يستصرخ بهم .

والنّواحب : جمع ناحبة ، وهي الرافعة صوتها بالبكاء ، ويروى : « النوادب » .

والهوام : جمع هامّة ؛ وهي ما يخاف ضرره من الأحناش ؛ كالعقارب والعناكب ونحوها

والنواهك : جمع ناهكة وهي ما ينهَك البدن ، أي يبليه .

وعَفَتْ : دَرَست ، ويروى بالتشديد ، وشَجِبة : هالكة ، والشَّجَب : الهلاك ، شجِب الرجل بالكسر ، يَشْجَب ، وشَجَب بالفتح يشجُبُ بالضم ؛ أي هلك ؛ وشَجَبه الله يشجُبه ، يتعدّى ولا يتعدى ؛

ونَخِرَة : بالية . والأعباء : الأثقال ، واحدها عِبْء .

وقال : « موقنة بغيب أنبائها » ، لأنّ الميت يعلم بعد موته ما يصير إليه حاله من جنة أو نار .

ثم قال : إنها لا تكلف بعد ذلك زيادة في العمل الصالح ، ولا يطلب منها التوبة من العمل القبيح ؛ لأن التكليف قد بطل .

• • •

الأصْـلُ :

أَوَلَسْتُمْ أَبْنَاءَ الْقَوْمِ وَالْآبَاءَ ، وَإِخْوَانَهُمْ وَالْأَقْرِبَاءَ ، تَحْتَذُونَ أَمْثِلَتَهُمْ ، وَتَرْكَبُونَ قِدَّتَهُمْ وَتَطَئُونَ جَادَّتَهُمْ ؛ فَالْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ عَنْ حَظِّهَا ، لَاهِيَةٌ عَنْ رُشْدِهَا ،

سالِكَةٌ في غَيْرِ مِضْمارِها ، كَأَنَّ الْمَعْنِيَّ سِوَاهَا ، وَكَأَنَّ الرُّشْدَ فِي إِحْرَازِ دُنْيَاهَا .

* * *

الشَّـرْحُ :

القِدّة ، بالدال المهملة وبكسر القاف : الطريقة ، ويقال لكل فرقة من الناس إذا كانت ذات هَوًى على حدة : قِدّة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾[1] ، ومن رواه : « ويركبون قُذَّتهم » بالذال المعجمة وضم القاف أراد الواحدة من قُذَذ السهم ؛ وهي ريشه ، يقال : حذوَ القُذّة بالقُذّة ، ويكون معنى : « ويركبون قُذّتهم » ؛ تقتفون آثارهم وتشابهون بهم في أفعالهم .

ثم قال · وتطئون جادّتهم ؛ وهذه لفظة فصيحة حداً .

ثم ذكر قساوة القلوب وضلالها عن رشدها ، وقال : « كأنّ المعنيّ سواها » ؛ هذا مثل قول النبيّ صلى الله عليه وآله : « كأنّ الموت فيها على غيرنا كُتِب ، وكأنّ الحق فيها على غيرنا وجب » .

* * *

الأَصْـلُ :

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ وَمَزَالِقِ دَحْضِهِ ، وَأَهَاوِيلِ زَلَلِهِ ، وَتَارَاتِ أَهْوَالِهِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ ؛ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ ، وَأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ ، وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ ، وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ ، وَظَلَفَ الزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ ،

(١) سورة الجن ١١ .

وَأَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ ، وَقَدَّمَ الْخَوْفَ لِأَمَانِهِ ، وَتَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ السَّبِيلِ ، وَسَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسَالِكِ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ؛ وَلَمْ تَفْتِلْهُ فَاتِلَاتُ الْغُرُورِ ، وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الْأُمُورِ ؛ ظَافِراً بِفَرْحَةِ الْبُشْرَى ، وَرَاحَةِ النُّعْمَى، فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ وَآمَنِ يَوْمِهِ .

قَدْ عَبَرَ مَعْبَرَ الْعَاجِلَةِ حَمِيداً ، وَقَدَّمَ زَادَ الْآجِلَةِ سَعِيداً ، وَبَادَرَ عَنْ وَجَلٍ ، وَأَكْمَشَ فِي مَهَلٍ، وَرَغِبَ فِي طَلَبٍ ، وَذَهَبَ عَنْ هَرَبٍ، وَرَاقَبَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ، وَنَظَرَ قُدُماً أَمَامَهُ .

فَكَفَى بِالْجَنَّةِ ثَوَاباً وَنَوَالاً ، وَكَفَى بِالنَّارِ عِقَاباً وَوَبَالاً ! وَكَفَى بِاللهِ مُنْتَقِماً وَنَصِيراً ! وَكَفَى بِالْكِتَابِ حَجِيجاً وَخَصِيماً !

* * *

الشَّرْحُ :

وقال أصحابنا رحمهم الله تعالى : الصراط الوارد ذكره في الكتاب العزيز؛ هو الطريق لأهل الجنة إلى الجنة ، ولأهل النار إلى النار بعد المحاسبة ، قالوا : لأنّ أهلَ الجنة ممرّهم على باب النار ، فمن كان من أهل النار عُدِل به إليها ، وقذف فيها ، ومَنْ كان من أهل الجنّة مرّ بالنار مرورا نجا منها إلى الجنة ، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾[1]؛ لأنّ ورودها هو القرب منها ، والدنوّ إليها ، وقد دلّ القرآن على سُور مضروب بين مكان النار وبين الموضع الذى يجتازون منه إلى الجنة في قوله: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾[2].

---

(١) سورة مريم ١٩ (٢) سورة الحديد ١٣

قالوا: ولا يصح ماروى فى بعض الأخبار أن الصراط أدقّ من الشّعر وأحدّ من السيف، وأنّ المؤمن يقطعه كرور البرق الخاطف ، والكافر يمشى عليه حَبْواً ، وأنّه ينتقص بالذين عليه حتى تتزايل مفاصلهم . قالوا : لأنّ مثل ذلك لايكون طريقاً للماشى ، ولا يتمكّنُ من المشى عليه ؛ ولو أمكن لم يصحّ التكليف فى الآخرة ، ليؤمر العُقلاء بالمرور عليه على وجه التعبّد .

ثم سأل أصحابنا أنفسهم ، فقالوا : أىّ فائدة فى عمل هذا السور ؟ وأىّ فائدة فى كون الطريق الذى هو الصراط منتهياً إلى باب النار منفرجاً منها إلى الجنة ؟ ألستمْ تعللون أفعال البارئ تعالى بالمصالح ، والآخرة ليست دارَ تكليف ليفعل فيها هذه الأفعال للمصالح !

وأجابوا بأنّ شعورَ المكلّفين فى الدنيا بهذه الأشياء مصالح لهم ، وألطاف فى الواجبات العقليّة ، فإذا أعْلِم المكلفون بها وجب إيقاعُها على حسب ماوعدوا وأخبروا به ، لأنّ الله صادق لاخُلْف فى أخباره .

وعندى أنه لايمتنع أن يكونَ الصراط على ماوردت به الأخبار ، ولا مانع من ذلك قولهم : لايكون طريقاً للماشى ، ولا يتمكن من المشى عليه مسلم ، ولكنْ لم لايجوزُ أن يكونَ فى جعله على هذا الوجه والإخبار عن كيفيته هذه مصلحة للمكلّفين فى الدنيا ؟ وليس عدم تمكُّن الإنسان من المشى عليه بمانع من إيقاعه على هذا الوجه ، لأنّ المراد من هذا وأمثاله هو التخويف والزجر .

وأما قولهم : الآخرة ليست دار تكليف ، فلقائل أن يقول لهم : لم قلتم : إنّه تكليف؟ ولم لايجوز أن يكونَ المكلّفونَ مضطرين إلى سلوكه اضطراراً ؟ فالمؤمن يخلُق الله فيه الثبات والسكينة ، والحركة السريعة فينجُو ويسلم ، والكافر يخلق فيه ضدّ ذلك فيهوى ويعطب ولا مانع من ذلك .

يقال : مكان دَحْض ودَحَض ، بالتحريك ، أى زَلَق ، وأدحضتُه أنا أزلقْتُه فدحَض هو .

والأهاويل : الأمور المفزعة . وتارات أهواله ، كقوله :دفَعات أهواله ؛ وإنما جعل أهواله تاراتٍ ؛ لأنّ الأمور الهائلة إذا استمرّت لم تسكن فى الإرعاج والترويع ، كالتكون إذا طرأت تارة ، وسكنت تارة .

وأنصب الخوف بدنه :أتعب ؛ والنَّصَب :التعب .والتهجّد هنا: صلاة الليل،وأصلُه: السهر ؛ وقد جاء التهجّد بمعنى النوم أيضا ؛ وهو من الأضداد .

الغِرار : قلّة النوم ؛وأصله قلّة لبن الناقة ؛ ويقال : غارتِ الناقة تغار غِرارا قل لَبَنُها.

فإن قلت : كيف توصف قِلّةُ النوم بالسهر ؛ وإنما يوصف بالسَّهَرِ الإنسان نفسه ؟

قلت : هذا من مجازات كلامهم ؛ كقولهم ليل ساهر ، وليل نائم .

والهواجر : جمع هاجِرة ؛ وهى نصف النهار عند اشتداد الحرّ ، يقال : قد هَجّر النهار، وأتينا أهلنا مُهَجِّرِينَ ، أى سائرين فى الهاجرة .

وظلَف : منع ، وظلِفت نفسُ فلان ، بالكسر عن كذا ؛ أى كفَّتْ .

وأَوْجَف : أسرع ، كأنّه جعل الذِّكْر لشدّة تحريكه اللسان مُوجفا به ، كما توجف الناقة براكبها ، والوجيف : ضربٌ من السَّيْر .

ثم قال : « وقدم الخوف لأمانه » ، اللام هاهنا لام التعليل ، أى قدّم خوفه ليأمن.

والخالج : الأمور المختلجة ، أى الجاذبة ، خَلَجه واختلجه ، أى جذَبه .

وأقصد المسالك : أقومها . وطريق قاصد ، أى مستقيم .

وفَلَذه عن كذا ، أى ردّه وصرفه ، وهو قلب « لفت » .

ويروى : « فقد عبَر مَعْبَر العاجلة حميدا ، وقدم زاد الآجلة سعيدا » .

وأكش : أسرع ، ومثله اسكمش ورجل كِمِش أى سريع ، وقد كَمُشَ الضم كَماشةً فهو كَمِش وكَمِيش ، وكَمَّشته تكميشا : أعجلته .

قوله : « ورغب فى طلب ، وذهب عن هرب » ، أى ورغب فيما يطلب مثله ، وقَرّعها يهرب من مثله ، فأقام المصدر مقام ذى المصدر .

ونظر قُدُمًا أمامه ، أى ونظر ما بين يديه مقـــدما لم يَنْثَنِ ولم يعرِّج ، والدال مضمومة ها هنا .

قال الشاعر يذم امرأة :

تمضى إذا زُجِرَتْ عَنْ سوأةٍ قُدُمًا كأنها هَدَمٌ فى الجفْرِ منقاضُ[1]

ومن رواه بالتسكين ، جاز أن يعنى به هذا ويكون قد خفف ، كما قالوا : حُلْم وحُلُم .
وجاز أن يجعله مصدرا ، من قَدَمَ الرجل بالفتح ، يقدَم قَدْماء أى تقدم ، قال الله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ﴾[2] ، أى يتقدمهم إلى ورودها ؛ كأنه قال : « ونظر بين يديه متقدما لغيره وسائقا إياه إلى ذلك » . والباء فى « بالجنة » و « بالنار » و « بالله » و « بالكتاب » زائدة ، والتقدير : كفى الله ، وكفى الكتاب !

* * *

(١) الهدم بالتحريك : ما تهدم من نواحى البئر فسقط فى جوفها . والجفر : البئر الواسعة لم تطو . والبيت أنشده ابن السيرافى عن ابن دريد مع أبيات هى :

قد رابنى مِنْكِ يا أسماء إعراضُ فدام منّا لكم مقتٌ وإنغاضُ
إن تبغضينى فـــــا أحببتُ عانيةً يروضُها من لئام الناسِ روّاضُ
تمضى إذا زُجِرَتْ عن سوأة قُدُمًا كأنها هَدَمٌ فى الجفْرِ منقاضُ
قُلْ للغوانى أما فيكُنَّ فاتكةٌ تعلو اللئيمَ بضربٍ فيـــه إمحاضُ

وانظر اللسان ١٥ : ٣٧٠

(٢) سورة هود ٩٨ .

الأصْلُ :

أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي أَعْذَرَ بِمَا أَنْذَرَ ، وَاحْتَجَّ بِمَا نَهَجَ ، وَحَذَّرَكُمْ عَدُوًّا نَفَذَ فِي الصُّدُورِ خَفِيًّا ، وَنَفَثَ فِي الآذَانِ نَجِيًّا ؛ فَأَضَلَّ وَأَرْدَى ، وَوَعَدَ فَمَنَّى ، وَزَيَّنَ سَيِّئَاتِ الْجَرَائِمِ ، وَهَوَّنَ مُوبِقَاتِ الْعَظَائِمِ ، حَتَّى إِذَا اسْتَدْرَجَ قَرِينَتَهُ ، وَاسْتَغْلَقَ رَهِينَتَهُ ؛ أَنْكَرَ مَا زَيَّنَ ، وَاسْتَعْظَمَ مَا هَوَّنَ ، وَحَذَّرَ مَا أَمَّنَ .

• • •

الشَّرْحُ

« أعذَر بما أنذر » ، ما هاهنا مصدرية ، أى أعذر بإنذاره . ويجوز أن تكونَ بمعنى « الذى » .

والعدوّ المذكور : الشيطان .

وقوله : « نَفَذ فى الصدور » و « نفَث فى الآذان » كلام صحيح بديع . وفى قوله : « نفذ فى الصدور » ، مناسبة لقوله صلى الله عليه وآله : « الشيطان يجرى من بنى آدم مجرى الدم » ، والنجىّ : الذى يسارّهُ ، والجمع الأنجية ، قال .

* إنّى إذا ما القومُ كانُوا أنْجِيَهْ [1] *

وقد يكون النجىّ جماعة مثل الصديق ، قال الله تعالى : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [2] ، أى متناجين .

القرينة هاهنا : الإنسان الذى قارنه الشيطان ، ولفظه لفظ التأنيث ؛ وهو مذكّر ، أراد القرين ، قال تعالى : ﴿ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ [3] ، ويجوز أن يكون أراد بالقرينة النفس ، ويكون

---

(١) بعده :

واضطربَ القومُ اضطرابَ الأرْشِيَهْ   هُنَاكَ أوصِينى ولا تُوصِى بِيَهْ

والرجز لسحيم بن وثيل اليربوعى . اللسان ٢٠ : ١٧٩

(٢) سورة يوسف ٨٠   (٣) سورة الزخرف ٣٨ .

الضمير عائداً إلى غير مذكور لفظا لما دلّ المعنى عليه ؛ لأن قوله : « فأخلف وأردى » ووعد فمنّى » معناه أخلّ الإنسان وأردى ، ووعده فمنّى ، فالمفعول محذوف لفظا ؛ وإليه رجع الضمير على هذا الوجه ؛ ويقال : غَلِق الرّهن إذا لم يفتكّه الراهن في الوقت المشروط ، فاستحقه المرتهن .

وهذا الكلام مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ . . . ﴾ الآية[1] .

* * *

الأصْلُ

ومنها في صفة خلق الإنسان :

أَمْ هَذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ ، وَشُغُفِ الْأَسْتَارِ ، نُطْفَةً دِهَاقاً ، وَعَلَقَةً مِحَاقاً ، وَجَنِيناً وَرَاضِعاً ، وَوَلِيداً وَيَافِعاً ؛ ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً ، وَلِسَاناً لَافِظاً ، وَبَصَراً لَاحِظاً ، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً ، وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِراً ؛ حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتِدَالُهُ ، وَاسْتَوَى مِثَالُهُ ؛ نَفَرَ مُسْتَكْبِراً ، وَخَبَطَ سَادِراً ؛ مَاتِحاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ ، كَادِحاً سَعْياً لِدُنْيَاهُ ؛ فِي لَذَّاتِ طَرَبِهِ ، وَبَدَوَاتِ أَرَبِهِ ؛ ثُمَّ لَا يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً ، وَلَا يَخْشَعُ تَقِيَّةً ؛ فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيراً ، وَعَاشَ فِي هَفْوَتِهِ يَسِيراً ، لَمْ يُفِدْ عِوَضاً ، وَلَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضاً .

دَهَمَتْهُ فَجَعَاتُ الْمَنِيَّةِ فِي غُبَّرِ جِمَاحِهِ ، وَسَنَنِ مِرَاحِهِ ، فَظَلَّ سَادِراً ، وَبَاتَ سَاهِراً ، فِي غَمَرَاتِ الْآلَامِ ، وَطَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ وَالْأَسْقَامِ ؛ بَيْنَ أَخٍ شَقِيقٍ ، وَوَالِدٍ شَفِيقٍ ،

(١) سورة إبراهيم ٢٢

وَدَاهِيَةٍ بِالْوَيْلِ حَزَمًا ، وَلَا دِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَنْقًا ؛ وَالْمَرْءُ فِي سَكْرَةٍ مُلْهِثَةٍ ، وَغَمْرَةٍ كَارِثَةٍ ، وَأَنَّةٍ مُوجِعَةٍ ، وَجَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ ، وَسَوْقَةٍ مُتْعِبَةٍ .

ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِساً ، وَجُذِبَ مُنْقَاداً سَلِساً ؛ ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى الْأَعْوَادِ ، رَجِيعَ وَصَبٍ ، وَنِضْوَ سَقَمٍ ، تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ الْوِلْدَانِ ، وَحَشَدَةُ الْإِخْوَانِ ؛ إِلَى دَارِ غُرْبَتِهِ ، وَمُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ ؛ وَمُفْرَدِ وَحْشَتِهِ ؛ حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ الْمُشَيِّعُ ، وَرَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ ، أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ نَجِيّاً لِبَهْتَةِ السُّؤَالِ ، وَعَثْرَةِ الِامْتِحَانِ .

وَأَعْظَمُ مَاهُنَالِكَ بَلِيَّةً نُزُولُ الْحَمِيمِ ، وَتَصْلِيَةُ الْجَحِيمِ ، وَفَوْرَاتُ السَّعِيرِ ، وَسَوْرَاتُ الزَّفِيرِ ؛ لَا فَتْرَةٌ مُرِيحَةٌ ، وَلَا دَعَةٌ مُزِيحَةٌ ، وَلَا قُوَّةٌ حَاجِزَةٌ ، وَلَا مَوْتَةٌ نَاجِزَةٌ ، وَلَا سِنَةٌ مُسْلِيَةٌ ؛ بَيْنَ أَطْوَارِ الْمَوْتَاتِ ، وَعَذَابِ السَّاعَاتِ ! إِنَّا بِاللهِ عَائِذُونَ !

***

الشرح :

أم هنا إما استفهامية على حقيقتها ؛ كأنه قال : أعظكم وأذكركم بحال الشيطان وإغوائه ، أم بحال الإنسان منذ ابتدأ وجوده إلى حين مماته ، وإما أن تكون منقطعة بمعنى « بل » كأنه قال : عادلا وتاركا لما وعظهم به ؛ بل أتلو عليكم نبأ هذا الإنسان الذي حاله كذا .

الشُّغُف بالغين المعجمة : جمع شَغاف ، بفتح الشين ، وأصله غلاف القلب ، يقال : شغفه الحبّ ، أي بلغ شغافه ، وقرئ : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾[1] .

والدِّهاق : المملوءة ، ويروى « دفاقا » من دَفَقت الماء أي صببته .

قال : « وعلقة محاقا » ، المحاق : ثلاث ليال من آخر الشهر ، وسميت محاقا لأنّ القمر يمتحق فيهنّ ، أي يمحى وتبطل صورته ، وإنما جعل العلقة محاقا ها هنا ، لأنها لم تحصل لها الصورة الإنسانية بعد ؛ فكانت ممحوّة ممحوقة .

---
(١) سورة يوسف ٣٠

واليافع : الغلام المرتفع ، أيفع وهو يافع ؛ وهذا من النوادر . وغلام يَفَع ويَفَعة وغلمان أيفاع ويَفَعة أيضا .

قوله : « وخَبَط سادرا » ؛ خبط البعير إذا ضرب بيديه إلى الأرض ، ومشى لا يتوقى شيئا. والسادر : المتحيّر ، والسادر أيضا : الذى لا يهتمّ ولا يبالى ماصنع ، والموضع يحتمل كلا التفسيرين .

والماتح : الذى يستقى الماء من البئر وهو على رأسها . والمائح : الذى نزل البئر إذا قلّ ماؤها ، فيملأ الدلاء . وسُئل بعض أئمة اللغة عن الفرق بين الماتح والمائح ، فقال : اعتبِرْ نقطتَى الإعجام ، فالأعلى للأعلى ، والأدنى للأدنى .

والغَرْب : الدلو العظيمة . والكدْح : شدّة السعى والحركة ، قال تعالى : ﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ [1] .

قوله : « وبَدَوات » ، أى ما يخطر له من آرائه التى تختلف فيها دواعيه ، فتقدم وتحجم ، ومات غريرا ، أى شابا ، ويمكن أن يُراد به أنه غيرُ مجرّب للأمور .

والعفوة : الزّلة ، عفا يعفو . لم يُفِدْ عوضا ، أى لم يكتسب .

وغُبّر جاهلة : بقاياه ، قال أبو كبير الهذلىّ :

وَمُبَرَّإٍ مِنْ كُلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ ... وَفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغْيِلِ [2]

والجماح الشِّرّة وارتكاب الهوى . وسَنَن مِرَاحه ، السَّنَن : الطريقة ، والمِرَاح : شدّة الفرح والنشاط .

قوله : « فظلّ سادراً » ، السادر هاهنا غير السادر الأول ، لأنه هاهنا المُغمى عليه كأنه

---

(١) سورة الانشقاق ٦

(٢) ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ١ : ٨٤ والمغيل ، من الغيل ؛ وهو أن تسقى المرأة وهى ترضع ؛ فذلك اللبن الغيل .

سكران ؛ وأصله من سدر البعير من شدة الحر وكثرة الطِّلاء بالقَطِران ، فيكون كالنائم لايحسّ ، ومراده عليه السلام هاهنا أنه تَدَاً به المرض . ولادمة الصدر : ضاربة له ، والتدام النساء : ضربهنّ الصدور عندالنياحة . سكرة مُلهثة : تجعل الإنسان لاهثاً لشدّتها لهثَ يَلْهَثُ لهَاثاً ولهاثا ، ويروى « ملهية » بالياء ، أي تُلهي الإنسان وتشغله .

والـكارثة « فاعلة » من كرثه الغم يكرُثه بالضمّ ، أى اشتدّ عليه وبلغ منه غاية المشقة .

الجذبة : جذب الملك الرُّوح من الجسد أو جذب الإنسان إذا احتضر ليُسَحَّى .

والسَّوْقة : من سياق الرُّوح عند الموت والمُبلِس : الذى يَيئس من رحمة الله ، ومنه سُمّيَ إبليس . والإبلاس أيضا :الانكسار والحزن . والسَّلِس : السَّهْلُ القيادة . والأعواد خشب الجنازة،ورَجِيع وَصِب :الرَّجيع المُنْ الـكالّ . والوصب :الوجع ،وصِبِ الرجل يوْصَب، فهو واصب ، وأوصبه الله فهو مُوصَب .والمُوصَّب بالتشديد : الـكثير الأوجاع .والنضْو: المزيل . وحشَدة الإخوان : جمع حاشد ؛ وهو المتأهّب المستعدّ . ودار غربته : قبره . وكذلك منقطَع زورته ، لأنّ الزيارة تنقطع عنده .

ومفرد وَحشته نحو قالت ،لانفراده بعمله ، واستيحاش الناس منه ؛ حتى إذا انصرف المشيّع وهو الخارج مع جنازته ، أقعِد فى حفرته . هذا تصريح بعذاب القبر ، وسنذكر مايصلح ذكره فى هذا الموضع .

والنجيّ :المناجى .ونُزُول الحميم وتَصْلية الجحيم ،من الألفاظ الشريفة القرآنية[1] .

ثم نفى عليه السلام أن يكون فى العذاب فتور يجد الإنسان معه راحة ، أو سكون يزيح عنه الألم أى يزيله ، أو أنّ الإنسان يجد فى نفسه قوة تحجز بينه وبين الألم ، أى تمنع ويموت موتاً ناجزاً معجّلا ، فيستريح ، أو ينام فيسلو وقتَ نومه عمّا أصابه من الألم فى اليقظة كما فى دار الدنيا .

(١) وهو قوله تعالى فى سورة الواقعة : ﴿ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ .

ثم قال : « بين أطْوَار الموتات » ، وهذا فى ظاهره متناقض ، لأنه نفى الموتَ مطلقاً، ثم قال : « بين أطوار الموتات » ، والجواب أنّه أراد بالموتات الآلام العظيمة ؛ فإنّها موتات ؛ لأنّ العرب تسمّى المشقة العظيمة موتا ، كما قال :

• إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ[1] •

ويقولون : الفقر الموت الأحمر ، واستعمالهم مثل ذلك كثير جدا .

ثم قال : « إنّا بالله عائذون » ؛ عُذْتُ بفلان واستعذت به ؛ أى التجأت إليه .

* * *

[فصل فى ذكر القبر وسؤال منكَر ونَكِير]

واعلم أنّ لقاضى القضاة فى كتاب " طبقات المعتزلة " فى باب « القبر وسؤال منكر ونكير » ؛ كلاما أنا أورد هاهنا بعضه ؛ قال رحمه الله تعالى :

إنّ عذابَ القبر إنما أنكره ضرار بن عمرو ، ولما كان ضرارٌ من أصحاب واصل بن عطاء ، ظنّ كثيرٌ من الناس أنّ ذلك مما أنكرته المعتزلة ؛ وليس الأمر كذلك ؛ بل المعتزلة رجلان : أحدهما يجوز عذابَ القبر ، ولا يقطع به ؛ وهم الأقلون ، والآخر يقطع على ذلك ؛ وهم أكثر أصحابنا لظهور الأخبار الواردة فيه ؛ وإنما تنكر المعتزلة قول طائفة من الجهلة أنّهم يعذبون وهم موتى ، لأنّ العقل يمنعُ من ذلك ؛ وإذا كان الإنسان مع قُرْب العهد بموته ؛ ولمّا يدفن يعلمون أنّه لا يسمع ولا يبصر ولا يدرك ، ولا يألم ولا يلتذّ ، فكيف يجوز عليه ذلك وهو ميت فى قبره ! وما رُوِى من أنّ الموتى يسمعون لا يصحّ إلا أن يُرادبه أنّ الله تعالى أحياهم ، وقوّى حاسة سمعهم ، فسمعوا وهم أحياء .

---

(١) صدره :

• لَيْسَ مَنْ مَاتَ فاستراحَ بميْتٍ •

من أبيات لعدى بن الرعلاء الغسانى فى يوم عين أباغ . الكامل فى التاريخ لابن الأثير ١ : ٣٢٦ (١٨ — نهج ٦)

قال رحمه الله تعالى : وأنكر أيضاً مشايخُنا أن يكونَ عذابُ القبر دائماً في كلِّ حال، لأنّ الأخبار إنما وردت بذلك في الجملة، فالذي يقال به هو قدر ما تقتضيه الأخبار دون ما زاد عليه مما لا دليلَ عليه ، ولذلك لسنا نوقِّت في التعذيب وقتا ، وإن كان الأقرب في الأخبار أنّها الأوقات المقارنة للدفن ، وإن كان لا نعينها بأعيانها .

هكذا قال قاضي القضاة ، والذي أعرفه أنا من مذهب كثير من شيُوخنا قبْل قاضي القضاة أنّ الأغلبَ أن يكونَ عذاب القبر بين النَّفختَيْن .

ثم إن قاضيَ القضاة سأل نفسه ، فقال : إذا كانت الآخرة هي وقت المجازاة ، فكيف يعذّب في القبر في أيام الدنيا ؟

وأجاب بأن القليل من العقاب المستحَقّ قد يجوز أن يجعلَه الله في الدنيا لبعض المصالح، كما قيل في تعجيل إقامة الحدود على من يستحقها، فلا يمتنع منه تعالى أنْ يفعل ذلك بالإنسان إذا كان من أهل النار .

ثم سأل نفسه ، فقال : إذا كان بالموت قد زالَ عنه التكليف ، فكيف يقولون يكون ذلك من مصالحه !

وأجاب بأنا لم نقل : إنّ ذلك من مصالحه وهو ميّت ؛ وإنما نقول إنه مصلحة أنْ نعلم في الدنيا ذلك من حال الموتى ؛ لأنه إذا تصوَّر أنه إذا مات عُوجل بضرب من العقاب في القبر ، كان أقرب إلى أن ينصرف عن كثير من المعاصي . وقد يجوز أن يكون ذلك لطفاً للملائكة الذين يتولّوْن هذا التعذيب .

* * *

فأمّا القول في منكَر ونكير ، فإنه سأل نفسَه رحمه الله تعالى ، وقال : كيف يجوز أن يسمَّوْا بأسماء الذمّ ، وعندكم أن للملائكة أفضلُ من الأنبياء ؟

وأجاب ، فقال : إنّ التسمية إذا كانت لقباً لم يقع بها ذم ، لأنّ الذمّ إنما يقع لفائدة الاسم ، والألقاب كالإشارات لا فائدة تحتها ؛ وقد يلقب الرجل المسلم بظالم وكلب ونحو ذلك ؛ فيجوز أن يكون هذان الاسمان من باب الألقاب ، ويجوز أنْ يسمّيا بذلك من حيث يهجُمان على الإنسان عند إكمال الله تعالى عقله على وجه ينكره ويرتاع منه ، فسمّيا منكرا ونكيرا .

قال : وقد روى فى المسألة فى القبر أخبار كثيرة وكلّ ذلك مما لا قبحَ فيه ، بل يجوز أن يكون من مصالح المكلّفين فلا يصحّ المنع منه .

وجملة الأمر أنّ كلّ ماثبت من ذلك بالتواتر والإجماع ، وليس بمستحيل فى القدرة ، ولا قبيح فى الحكمة يجب القول به ، وما عداه مما وردت به آثار وأخبار آحاد يجب أن يجوز ؛ ويقال : إنه مظنون ليس بمعلوم ، إذا لم يمنع منه الدليل .

* * *

الأصْلُ :

عِبادَ ٱللهِ ، أَيْنَ الّذِينَ عُمِّرُوا فَنَعِمُوا ، وَعُلِّمُوا فَفَهِمُوا ، وَأُنْظِرُوا فَلَهَوْا ، وَسُلِّمُوا فَنَسُوا ! أُمْهِلُوا طَوِيلاً ، وَمُنِحُوا جَمِيلاً ، وَحُذِّرُوا أَلِيماً ، وَوُعِدُوا جَسِيماً .

أحْذَرُوا الذُّنُوبَ الْمُوَرِّطَةَ ، وَالْعُيُوبَ الْمُسْخِطَةَ . أُولِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ ، وَالْعَافِيَةِ وَالْمَتَاعِ ، هَلْ مِنْ مَنَاصٍ أَوْ خَلَاصٍ ، أَوْ مَعَاذٍ أَوْ مَلَاذٍ ، أَوْ فِرَارٍ أَوْ مَحَارٍ ! فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ، أَمْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ ، أَمْ بِمَاذَا تَغْتَرُّونَ !

وَإِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ مِنَ الأَرْضِ ، ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ ، قِيدُ قَدِّهِ ؛ مُتعفِّراً عَلَى خَدِّهِ .

الآنَ عِبادَ ٱللهِ ، وَالْخِنَاقُ مُهْمَلٌ ، وَالرُّوحُ مُرْسَلٌ ، فِي فَيْنَةِ الْإِرْشَادِ ، وَرَاحَةِ

الْأَجْسَادِ ، وَبَاحَةِ الِاحْتِشَادِ، وَمَهَلِ الْبَقِيَّةِ، وَأُنُفِ الْمَشِيَّةِ، وَإِنْظَارِ التَّوْبَةِ ، وَانْفِسَاحِ الْحَوْبَةِ ، قَبْلَ الضَّنْكِ وَالْمَضِيقِ ، وَالرَّوْعِ وَالزُّهُوقِ ، وَقَبْلَ قُدُومِ الْغَائِبِ الْمُنْتَظَرِ ، وَأَخْذَةِ الْعَزِيزِ الْمُقْتَدِرِ .

• • •

قال الرضي رحمه الله :

وفي الخبر أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا خطب بِهَذِهِ الْخُطْبَةِ اقْشَعَرَّتْ لَهَا الْجُلُودُ، وَبَكَتِ الْعُيُونُ ، وَرَجَفَتِ الْقُلُوبُ ؛ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُسَمِّي هَذِهِ الْخُطْبَةَ الْغَرَّاءَ .

• • •

الشَّرْحُ :

تَهِم الرجل يَتْهَم ضِدّ قولك : « نَجِس » وجاء شاذا تَهِم يتهِم بالكسر. وأنظروا: أمهلوا. والقنوب للورطة : التي تُلقِي أصحابَها في الورطة ؛ وهي الهلاك ؛ قال رؤبة [1] :

• فأصبَحُوا في ورطة الأَوْرَاطِ [2] •

وأصله أرض مطمئنة لا طريق فيها ، وقد أورطت زيدا وورّطته توريطا فتورّط. ثم قال عليه السلام: « أولى الأبصار والأسماع » ، ناداهم نداء ثانيا بعد النداء الذي في أول الفصل، وهو قوله : « عباد الله » ؛ فقال: يا مَنْ منحهم الله أبصارا وأسماعا، وأعطاهم عافية، ومتّعهم معاشا هل من مناص ؛ وهو الملجأ والمفرّ؟ يقال : ناصَ عن قرْنه مناصا ، أي فرّ وراوغ، قال سبحانه : ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ [3] .

---

(١) قبله :

• نَحْنُ جَمَعْنَا النَّاسَ بِالْمِلْطَاطِ •

(٢) اللسان ١٠ : ٣٠٤

(٣) سورة ص ٣

والحار : المرجع ، من حارَ يحور أى رجع ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾[1] .

ويؤفكون : يقلبون ، أفكه يأفكه عن كذا ، قلبه عنه إلى غيره ، ومثله « يُصْرَفون » .

وقِيد قدّه : مقدار قدّه ، يقال : قرب منه قِيدَ رمح وقادَ رُمْح ، والمراد هاهنا هو القبر ، لأنه بمقدار قامة الإنسان .

والمُنعفِرُ : الذى قد لامس العَفَر ، وهو التراب .

ثم قال عليه السلام : « الآن والخناق مُهْمَل » ؛ تقديره : اعملوا الآن وأنتم مخلَّوْنَ متمكّنون لم يعقد الحبل فى أعناقكم ، ولم تقبض أرواحكم .

والرَّوح يُذكّر ويؤنث . والفَيْنة : الوقت ، ويروى « وفَيْنة الارتياد » ؛ وهو الطَّلب .

وأنفُ المشيّة : أول أوقات الإرادة والاختيار .

قوله : « وانفساح الحَوْبة » ، أى سعة وقت الحاجة ، والحَوْبة : الحاجة والأَرَب ، قال الفرزدق :

فَهَبْ لِي خُنَيْساً واتَّخِذْ فِيهِ مِنَّةً لحَوْبَةِ أُمٍّ ما يَسُوغُ شَرَابُها[2]

والغائب المنتظر ؛ هو الموت .

قال شيخنا أبو عثمان رحمه الله تعالى : حدّثنى ثُمامة ، قال : سمعتُ جعفر بن يحيى ـ وكان من أبلغ الناس وأفصحهم ـ يقول : الكتابة[3] ضمّ اللفظة إلى أختها ، ألم تسمعوا قول شاعر لشاعر ؛ وقد تفاخرا : أنا أشعرُ منك لأنى أقول البيت وأخاه ، وأنت تقول البيت وابنَ عمّه ! ثم قال : وناهيك حسنا بقول علىّ بن أبى طالب عليه السلام : « هَلْ من مناص أو خلاص ، أو معاذ أو ملاذ ، أو فرار أو محار ! » .

---

(١) سورة الانشقاق ١٤

(٢) ديوانه ١ : ٩٤ . الحوبة : الحاجة ، وخنيس : فتى كان بالجيش فى السند ، مجمّر ـ والتجمير : أن يطول فى البعث ولا يرد ـ وكانت أمه امرأة من الشام ؛ تشفعت بالفرزدق فى شأنه ، فكتب إلى العامل أبياتاً ، ومنها هذا البيت ؛ والخبر مذكور فى الديوان .

(٣) ب : « بضم » ، وما أثبته من ا .

قال أبو عثمان : وكانَ جعفر يُعجب أيضا بقول علىّ عليه السلام : أين من جدَّ واجتهد، وجَمّع واحتشد ، وبنَى فشيَّد ، وفرش فمَهّد [١] ، وزخرف فنجَّد ، قال : ألا ترى أن كلّ لفظة منها آخذةٌ بعُنق قرينتها ، جاذبة إياها إلى نفسها ، دالّةٌ عليها بذاتها !

قال أبو عثمان : فكان جعفر يسمّيه فصيح قريش .

* * *

واعلم أننا لا يتخالجنا الشكّ فى أنه عليه السلام أفصحُ من كلّ ناطق بلغة العرب من الأولين والآخرين ، إلّا من كلام الله سبحانه ، وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وذلك لأنّ فضيلَة الخطيب والكاتب فى خطابته وكتابته تعتمد على أمرين ؛ هما : مفردات الألفاظ ومركّباتها .

أما المفردات فأنْ تكون سهلةً سَلِسة غيرَ وحشيّة ولا معقّدة ، وألفاظه عليه السلام كلها كذلك ؛ فأما المركّبات فحُسْنُ المعنى وسرعة وصوله إلى الأفهام ، واشتماله على الصفات التى باعتبارها فُضِّل بعضُ الكلام على بعض ، وتلك الصفات هى الصناعة التى سمّاها المتأخرون البديع ، من المقابلة ، والمطابقة ، وحسن التقسيم ، وردّ آخر الكلام على صَدْره ، والترصيع ، والتسهيم ، والتوشيح ، والمماثلة ، والاستعارة ، ولطافة استعمال المجاز ، والموازنة ، والتكافؤ ، والتّسميط والمشاكلة .

ولا شبهةَ أن هذه الصفات كلّها موجودة فى خُطَبِه وكتبه ، مبثوثة متفرقة فى فرش كلامه عليه السلام ، وليس يوجد هذان الأمران فى كلام أحد غيرِه فإن كان قد تعمّلها وأفكر فيها ، وأعمل رويّته فى رَصْفها [٢] ونثرها ، فلقد أتى بالعجب العُجاب ، ووجبَ

(١) ب : « ومهد » .
(٢) ب : « فى « صنعها » .

أن يكون إمام الناس كلِّهم في ذلك ؛ لأنّه ابتكره ولم يعرف من قبله وإن كان اقتضها ابتداء ، وفاضت على لسانه مرتجلة ، وجاش بها طبعه بديهةً ، من غير رويّةٍ ولا اعتمال ، فاعجب واعجب !

وعلى كلا الأمرين فلقد جاء مجلّياً والفصحاء تنقطع أنفاسهم على أثره . ويحقّ ما قال معاوية لمحقن الضبّي ، لمّا قال له : جئتك من عند أعيا الناس : يابن اللخناء ، ألعليّ[1] تقول هذا ؟ وهل سنّ الفصاحة لقريش غيره !

واعلم أن تكلّف الاستدلال على أن الشمس مضيئة يتعب ، وصاحبه منسوب إلى السَّفَه ، وليس جاحد الأمور المعلومة علماً ضرورياً بأشدّ سفهاً ممّن رام الاستدلال بالأدلة النظرية عليها .

---

(١) ب : « لعلي » .

(٨٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فى ذكر عمرو بن العاص :

عَجَباً لِابْنِ النَّابِغَةِ ! يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً ، وَأَنِّي امْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ ، أُعَافِسُ وَأُمَارِسُ ! لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً ، وَنَطَقَ آثِماً . أَمَا ـ وَشَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ ـ إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ ، وَيَعِدُ فَيُخْلِفُ ، وَيُسْأَلُ فَيَبْخَلُ ، وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ ، وَيَخُونُ الْعَهْدَ ، وَيَقْطَعُ الْإِلَّ ؛ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ وَآمِرٍ هُوَ ! مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَآخِذَهَا ؛ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقَوْمَ سَبَّتَهُ .

أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ نِسْيَانُ الْآخِرَةِ . وَإِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ لَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً ، وَيَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً .

• • •

الشرح :

الدُّعابة : المُزاح ، دَعَب الرجل ، بالفتح . ورجل تِلْعابة ، بكسر التاء : كثير اللعب ، والتَّلْعاب ، بالفتح : مصدر « لعب » .

والمعافسة : المعالجة والمصارعة ، ومنه الحديث : « عافَسْنا النساء »[1] . والممارسة نحوه .

يقول عليه السلام : إن عَمْراً يقدح فىّ عند أهل الشام بالدُّعابة واللعب ، وأنى كثير

(١) النهاية لابن الأثير فى حديث حنظلة الأسدى وروايته : « فإذا رجعنا عافسنا الأزواج » ٣ : ١١٠

المازحة ، حتى أبى ألاعب النساء وأعازلهنّ ، فعلَ المترَف الفارغ القلب، الذى تنقضى[1] أوقاته بلذاذ نفسه .

ويُلحِف: يلحّ فى السؤال ؛ قال تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾[2]؛ ومنه المثل: « ليس للملحِف مثل الردّ » .

والإلّ : العهد ، ولمّا اختلف اللفظان حَسُن التقسيم بهما ، وإن كان المعنى واحداً.

ومعنى قوله : « ما لم تأخذ السيوف مآخذها » ؛ أى ما لم تبلغ الحرب إلى أن تخالط الرءوس ، أى هو ملىء بالتحريض والإغراء قبل أن تلتحم الحرب ، فإذا التحمت واشتدّت فلا يمكث ، وفعل فَعلته التى فعل .

والسَّبَّة : الاست ، وسبّه يَسُبّه : طعنه فى السَّبّة .

ويجوز رفع « أكبر » ونصبه ، فإن رفعتَ فهو الاسم ، وإن نصبتَ فهو الخبر .

والأتيّة: العطية، والإيتاء: الإعطاء ، ورضخ له رضخاً : أعطاه عطاء بالكثير ، وهى الرضيخة ؛ لما يعطى .

• • •

[نسب عمرو بن العاص وطرف من أخباره]

ونحن نذكر طرفاً من نسب عمرو بن العاص وأخباره إلى حين وفاته إن شاء الله .

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سَهْم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب بن لُؤَىّ بن غالب بن فِهر بن مالك بن النَّضر . يكنى أبا عبدالله ، ويقال : أبو محمد .

---

(١) ب : « تنقضى » .

(٢) سورة البقرة ٢٧٣ .

أبوه العاص بن وائل ، أحد المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وآله ، والمكاشفين له بالعداوة والأذى، وفيه وفي أصحابه أنزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾[1] .

ويلقب العاصُ بن وائل في الإسلام بالأبتر، لأنه قال لقريش : سيموتُ هذا الأبتر غداً ، فينقطع ذكرُه ، يعني رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه لم يكن له صلى الله عليه وآله ولدٌ ذكَر يُعقِبُ منه ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾[2] .

وكان عمرو أحد مَنْ يؤذي رسولَ الله صلى الله وآله بمكّة ، ويشتمه ويضع في طريقه الحجارة ؛ لأنّه كان صلى الله عليه وآله يخرج من منزله ليلاً فيطوف بالكعبة،وكان عمرو يجعل له الحجارة في مسلكه ليعثُرَ بها . وهو أحدُ القوم الذين خرجوا إلى زينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا خرجت مهاجرة من مكة إلى المدينة ، فروّعوها وقرَعوا هَوْدَجها بكعوب الرماح ، حتى أجْهَضَتْ جنيناً ميتاً من أبي العاص بن الربيع بعلها، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، نال منه وشقّ عليه مشقّة شديدة ولعنهم . روى ذلك الواقديّ .

وروى الواقديّ أيضاً وغيره من أهل الحديث؛ أن عمرو بن العاص هجا رسولَ الله صلى الله عليه وآله هجاء كثيرا ، كان يعلّمه صبيانَ مكة ، فيُنشدونه ويَصيحون برسول الله إذا مرّ بهم ، رافعين أصواتهم بذلك الهجاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يصلّي بالحِجْر : « اللهمّ إنّ عمرو بن العاص هَجَاني ، ولستُ بشاعر ؛ فالعنْه بعدد ما هجاني » .

وروى أهل الحديث أنّ النَّضر بن الحارث وعُقبة بن أبي مُعَيط وعمرو بن العاص ، عهدوا إلى سَلَى[3] جَمل فرفعوه بينهم ووضعُوه على رأس رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ساجد بفناء الكعبة ، فسال عليه ، فصبَر ولم يرفَعْ رأسه ، وبكى في سجوده ودعا عليهم ،

(١) سورة الحجر ٩٥ . (٢) سورة الكوثر ٣ .

(٣) السلى : جلدة فيها الولد من الناس والمواشي .

فجاءت ابنتُه فاطمة عليها السلام وهي باكية ، فاحتضنت ذلك السَّلا فرفعته عنه فألقته وقامت على رأسه تبكي ، فرفع رأسه صلى الله عليه وآله ؛ وقال : « اللهمّ عليك بقريش » ، قالها ثلاثاً ؛ ثم قال رافعاً صوته : « إنِّي مظلوم فانتصر » ؛ قالها ثلاثا ، ثم قام فدخل منزله ؛ وذلك بعد وفاة عمّه أبي طالب بشهرين .

ولشدّة عداوة عمرو بن العاص لرسول الله صلى الله عليه وآله ، أرسله أهلُ مكّة إلى النّجاشيّ ليزهِّدَه في الدّين، وليطرد عن بلاده مهاجرة الحبشة، وليقتل جعفر بن أبي طالب عنده ، إن أمكنه قتلُه ، فكان منه في أمر جعفر هناك ماهو مذكور مشهور في السِّيَر ، وسنذكر بعضه .

فأمّا النابغة فقد ذكر الزمخشريّ في " كتاب ربيع الأبرار " قال : كانت النابغة أم عمرو بن العاص أمَةً لرجل من عَنَزة ، فسُبيت ، فاشتراها عبد الله بن جُدْعان التيميّ بمكة ، فكانت بَغِيًّا ، ثم أعتقها ، فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب، وأميّة بن خلَف الجمحيّ ، وهشام بن المغيرة المخزوميّ، وأبو سفيان بن حَرْب، والعاص بن وائل السّهميّ، في طُهْرٍ واحد ؛ فولدت عَمْراً، فادّعاه كلُّهم ، فحكّمَتْ أمُّه فيه، فقالت: هو من العاص بن وائل، وذلك لأن العاص بن وائل كان يُنفق عليها كثيراً، قالوا : وكان أشبه بأبي سفيان؛ وفي ذلك يقول أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب في عمرو بن العاص :

أبوكَ أبو سفيانَ لاشكَّ قد بَدَتْ ... لنا فيكَ منــــه بيِّناتُ الشَّمائلِ

***

وقال أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب " الاستيعاب " [1] : كان اسمها سلمى — وتلقّبت بالنابغة — بنت حَرْمَلة [2] من بني جلّان بن عَنَزة بن أسد بن ربيعة بن نزار ،

---

(١) الاستيعاب ص ٤٣٤ .
(٢) الاستيعاب : « سبية بني جلان » .

أصابها سِباء ، فصارت إلى العاص بن وائل بعد جماعة من قريش ، فأولدها عمراً .

قال أبو عمر : يقال إنه جُعِل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمراً وهو على المنبر: مَنْ أمه ؟ فسأله،فقال : أمّى سلمى بنت حرملة،تُلقّب بالنابغة،من بنى عَنَزة ثم أحد بنى جِلاّن وأصابتها رماح[1] العرب فبيعت بعُكاظ،فاشتراها الفاكه بن المغيرة،ثم اشتراها منه عبدالله ابن جُدْعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل،فولدت فأنجبت، فإن كان جُعِل لك شىء،فخذ

* * *

وقال المبرّد فى كتاب " الكامل "[2] : اسمُها ليلى . وذكر هذا الخبر وقال : إنّها لم تكن فى موضع مَرْضِىّ ،قال المبرّد:وقال المنذر بن الجارود مرة لعمرو بن العاص :أىّ رجل أنت لولا أن أمّك أمّك ! قال : إنى أحمَد الله إليك ، لقد فكّرت البارحة[3] فيها فأقبلت أنْقُلُها فى قبائل العرب[4]ممن أحِبّ أن تكون[4] منها ، فما خطرت لى عَبْدالقيس على بال !

وقال المبرّد : ودخل عمرو بن العاص مكة،فرأى قوما من قريش قد جلسوا حَلْقة ، فلما رأوه رَمَقُوه بأبصارهم ، فعدل إليهم فقال : أحسبكم كنتم فى شىء من ذكرى؟قالوا: أجل ؛ كنا نمثّل بينك وبين أخيك هشام بن العاص، أيّكما أفضل ؟ فقال عمرو:إن لهشام علىّ أربعة : أمه بنت هشام بن المغيرة ، وأمى مَن قد عرفتم ؛ وكان أحبّ إلى أبيه منى ، وقد علمتم معرفة الوالد بولده ، وأسْلَمَ قبْلِى ، واستشهد وبقيت .

* * *

وروى أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتاب " الأنساب " أن عمرا اختصم فيه يوم

---

(١) الاستيعاب « رماح » .
(٢) الكامل ٤ : ٧٩ .
(٣) الكامل : « فى هذا » .
(٤ — ٤) ليس فى نسخة الكامل المطبوعة .

ولادته رجلان : أبو سفيان بن حرب ، والعاص بن وائل ؛ فقيل : لِتَحْكُم أمُّه ؛ فقالت أمّه : إنه من العاص بن وائل ؛ فقال أبو سفيان : أما إنى لا أشك أنى وضعته فى رَحِم أمه ، فأبت إلا العاص .

فقيل لها : أبو سفيان أشرف نسباً ؛ فقالت : إن العاص بن وائل كثير النفقة علىّ وأبو سفيان شَحِيح .

ففى ذلك يقول حسان بن ثابت لعمرو بن العاص حيث هجاه مكافئاً له عن هجاء رسول الله صلى الله عليه وآله :

أبوك أبو سفيان لاشكّ قد بَدَتْ ... لنا فيك منه بيِّنَاتُ الدلائلِ
فَفَاخِرْ به إمَّا فَخَرْتَ ولا تكن ... تفاخرُ بالعاص الهجين بن وائلِ
وإن التى فى ذاك ياعمرو حَكَّمَتْ ... فقالت رجاء عند ذاك لنائلِ
مِنَ العاص عمرو تخبر الناس كلَّما ... تَجَمَّعَتِ الأقوامُ عندَ المحافلِ

[مفاخرة بين الحسن بن علىّ ورجالات من قريش]

وروى الزبير بن بكار فى كتاب " المفاخرات " ؛ قال : اجتمع عند معاوية عمرو ابن العاص ، والوليد بن عُقْبة بن أبى مُعَيْط ، وعُتْبة بن أبى سفيان بن حرب ، والمغيرة ابن شعبة ، وقد كان بلغهم عن الحسن بن علىّ عليه السلام قوارصُ ، وبلغه عنهم مثل ذلك ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ؛ إن الحسن قد أحيا أباه وذكره ، وقال فصُدِّق ، وأمر فأُطيع ، وخَفَقَتْ له النعال ، وإنّ ذلك لرافعه إلى ما هو أعظم منه ، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوءنا .

قال معاوية : فما تريدون ؟ قالوا : ابعث عليه فليحضُر لنَسُبّه ونَسُبَّ أباه ، ونعيِّره ونوبخه ، ونخبره أن أباه قتل عثمان ونقرّره بذلك ، ولا يستطيع أن يغيِّر علينا شيئاً ، من ذلك .

قال معاوية : إني لا أرى ذلك ولا أفعله ؛ قالوا : عزمنا عليك يا أمير المؤمنين لتفعلنّ ؛ فقال : ويحكم لا تفعلوا ! فو الله ما رأيته قطّ جالساً عندي إلا خفت مقامه وعيبَه لي ، قالوا : ابعث إليه على كلّ حال ؛ قال : إن بعثت إليه لأنصفنّه منكم .

فقال عمرو بن العاص : أتخشى أن يأتيَ باطلُه على حقنا ، أو يُرْبِي قولُه على قولنا ! قال معاوية : أما إني إن بعثت إليه لآمرنّه أن يتكلّم بلسانه كلّه ، قالوا : مُرْه بذلك .

قال : أما إذْ عصيتموني ، وبعثتم إليه وأبيتم إلا ذلك فلا تُمرضوا[1] له في القول ، واعلموا أنهم أهل بيتٍ لا يعيبهم العائب ، ولا يَلْصَق بهم العار ؛ ولكن اقذفوه بحجَرِه ؛ تقولون له : إن أباك قتل عثمان ، وكره خلافة الخلفاء من قبله .

فبعث إليه معاوية ، فجاءه رسوله ، فقال : إن أمير المؤمنين يدعوك .

قال : مَنْ عنده ؟ فسماهم له ؛ فقال الحسن عليه السلام : ما لهم خرّ عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . ثم قال : يا جارية ، ابغيني[2] ثيابي ، اللهم إني أعـوذُ بك من شرورهم ، وأدْرَأ بكَ في نحورهم ، وأستعين بك عليهم ، فاكْفِنيهم كيف شئتَ وأنّى شئت ، بحَوْلٍ منك وقوة ، يا أرحم الراحمين !

ثم قام ، فلما دخل على معاوية ، أعظمه وأكرمه ، وأجلسه إلى جانبه ، وقد ارتاد القوم ، وخطروا خَطَران الفحول ، بغْياً في أنفسهم وعُلُوّاً ، ثم قال : يا أبا محمد ؛ إن هؤلاء بعثوا إليك وعَصَوْني .

فقال الحسن عليه السلام : سبحان الله ! الدّار دارُك ، والإذنُ فيها إليك ، والله إن كنتَ أجبتَهم إلى ما أرادوا وما في أنفسهم إني لأستحيي لك من الفُحْش ، وإن كانوا غلبوك على رأيك إني لأستحيي لك من الضعف ؛ فأيهما تُقَرِّر ، وأيهما تنكر ؟ أما إني

---

(١) فلا تمرضوا له : أي لا تجعلوا قولكم مريضاً .

(٢) ابغيني ثيابي ، أي أعينيني على إحضارها .

لو علمتُ بمكانهم جئتُ معى بمثلهم من بنى عبد المطّلب ، ومالى أن أكون مستوحشا منك ولا منهم ! إن وليِّىَ الله ، وهو يتولّى الصالحين .

فقال معاوية : يا هذا ، إنّى كرهتُ أن أدعوَك ، ولكن هؤلاء حملونى على ذلك مع كراهتى له ، وإن لك منهم النّصَف ومنّى ، وإنما دَعَوْناك لنقرِّرَك أن عثمان قُتل مظلوما ، وأن أباك قتله ، فاستمِع منهم ثم أجِبْهم ، ولا تمنعك وَحْدتك واجتماعُهم أن تتكلم بكلّ لسانك .

فتكلم عمرو بن العاص ، فحمِد الله وصلى على رسوله ، ثم ذكر عليًّا عليه السلام ، فلم يترك شيئاً يعيبه به إلا قاله ، وقال : إنه شتم أبا بكر وكره خلافته ، وامتنع مِنْ بيعته ، ثم بايعه مكرَهاً ، وشَرِك فى دم عمر ، وقتل عثمان ظلماً . وادّعى من الخلافة ما ليس له .

ثم ذكر الفتنة يعيِّره بها ، وأضاف إليه مساوى[1] وقال : إنكم يا بنى عبد المطلب لم يكن الله ليعطيَكم الملك على قتلكم الخلفاء ، واستحلالكم ما حرّم الله من الدماء ، وحِرْصكم على الملك ، وإتيانكم ما لا يحلّ . ثم إنك يا حسن ، تحدّث نفسك أن الخلافة صائرة إليك ، وليس عندك عقلُ ذلك ولا لُبّه ، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلَك ، وتركك أحمقَ قريش ، يُسخر منك ويُهزأ بك ، وذلك لسوء عمل أبيك ! وإنما دعوناك لنسبّك وأباك ، فأما أبوك فقد تفرّد الله به وكفانا أمره ، وأما أنت فإنك فى أيدينا نختار فيك الخصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إثم من الله ، ولا عيب من الناس ، فهل تستطيع أن تردّ علينا وتكذّبنا؟ فإن كنت ترى أنّا كذبنا فى شىء فاردُده علينا فيما قلنا ، وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان .

ثم تكلم الوليد بن عُقْبة بن أبى مُعَيط ، فقال : يا بنى هاشم ، إنكم كنتم أخوال عثمان ؛ فنِعم الولد كان لكم ؛ فعَرف حقكم ، وكنتم أصهاره فنعم الصِّهْر كان لكم ، يكرمكم فكنتم

---

(١) ج : « وعيره »

أول من حسده ، فقتله أبوك ظلما ، لا عذرَ له ولا حجة ، فكيف ترون الله طلب بدمه، وأنزلـكم منزلتكم ! والله إن بنى أمية خير لبنى هاشم من بنى هاشم لبنى أمية،وإن معاوية خيرٌ لك من نفسك .

ثم تكلم عُتبة بن أبي سفيان، فقال : ياحسن، كان أبوك شرَّ قريش لقريش،أسفكها لدمائها ، وأقطعها لأرحامها ، طويلَ السيف واللسان ، يقتل الحىَّ ويعيب الميت ، وإنك ممّن قتل عثمان ، ونحن قاتلوك به ، وأما رجاؤك الخلافة فلست فى زَنْدها قادحا ، ولا فى ميزانها راجحا ، وإنكم يابنى هاشم قتلتم عثمان ، وإنَّ فى الحق أن نقتلك وأخاك به ؛ فأما أبوك فقد كفانا الله أمرَه وأقادَ منه ، وأما أنت ، فوالله ما علينا لو قتلناك بعثمان إثم ولا عدوان .

ثم تـكلم المغيرة بن شعبة ، فشتم عليا، وقال : والله ماأعيبه فى قضية يخون، ولافى حكم يميل ، ولكنه قتل عثمان . ثم سكتوا .

فتكلم الحسن بن علىّ عليه السلام ؛ الحمد لله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله ، ثم قال : أما بعد يا معاوية ، فما هؤلاء شتمونى ولكنك شتمتنى ، فحُشاً ألفته ؛ وسوء رأى عُرفتَ به ، وخُلُقاً سيئا ثبتَّ عليه ، وبغيا علينا ؛ عداوةً منك لمحمد وأهله ، ولـكن اسمع يا معاوية ، واسمعوا فلأقولنَّ فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم .

أنشدُكم الله أيها الرَّهط ، أتعلمون أن الذى شتمتموه منذ اليوم ، صلَّى القبلتين كلتيهما وأنت يامعاوية بهما كافر ؛ تراها ضلالة ، وتعبد اللات والعزى غواية !

وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كلتيهما : بيعة الفتح وبيعة الرضوان ، وأنت يا معاوية بإحداهما كافر ، وبالأخرى ناكثٌ !

وأنشدُكم الله هل تعلمون أنه أولُ الناس إيمانا ، وأنك يا معاوية وأباك

من المؤلفة قلوبهم تُسِرُّون الكفر ، وتظهرون الإسلام ، وتُستمالون بالأموال !

وأنشدكم الله ، ألستم تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وأنّ راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه ، ثم لقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب ، ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعك ومع أبيك راية الشرك ؛ وفي كلّ ذلك يفتح الله ويُفلج حُجّته ، وينصر دعوته ، ويصدّق حديثه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله في تلك المواطن كلّها عنه راضٍ ، وعليك وعلى أبيك ساخط ! وأنشدك الله يا معاوية ، أتذكر يوماً جاء أبوك على جمل أحمر ، وأنت تسوقه ، وأخوك عتبة هذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فقال : « اللهمّ العن الراكب والقائد والسائق ! » .

أتنسى يا معاوية الشعر الذي كتبته إلى أبيك لما همّ أن يُسلم ، تنهاه عن ذلك :

يا صخر لا تُسلمنْ يوماً فتفضحنا بعد الذين ببدرٍ أصبحوا فِرَقا
خالى وعمّى وعمّ الأمّ ثالثهم وحنظلُ الخير قد أهدى لنا الأرَقا
لا تَرْكَنَنَّ إلى أمرٍ تكلّفنا والراقصات به في مكة الخُرُقا
فالموتُ أهون من قول العداة : لقد حاد ابن حربٍ عن العُزّى إذاً فَرِقا[1]

والله لما أخفيتَ من أمرك أكبر مما أبديت !

وأنشدكم الله أيها الرهط ؛ أتعلمون أن عليّاً حرّم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فأنزل فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾[2] ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أكابر أصحابه إلى بنى قُرَيظة فنزلوا من حصنهم فهُزموا ، فبعث عليّاً بالراية ، فاستنزلهم على حكم الله وحكم رسوله ، وفعل في خيبر مثلها !

(١) فرق ، كفرح : فزع واضطرب . (٢) سورة المائدة ٨٧ .

ثم قال : يامعاوية أظنُّك لاتعلم أنى أعلم مادعا به عليك رسول الله صلى الله عليه وآله لما أراد أن يكتبَ كتابا إلى بنى خزيمة ، فبعث إليك [ابن عباس، فوجدك تأكل، ثم بعثه إليك مرة أخرى فوجدك تأكل ، فدعا عليك الرسول بجوعك][1] ونهمك إلى أن تموت.

وأنتم أيها الرهط : نشدتُكم الله ، ألاتعلمون أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أبا سفيان فى سبعة مواطن لاتستطيعون ردّها :

أوّلها: يوم لَقِىَ رسول الله صلى الله عليه وآله خارجا من مكّة إلى الطائف ، يدعو ثقيفا إلى الدِّين ، فوقع به وسبَّه وسفَّههُ وشتَمه وكذّبه وتوعّده ، وهمّ أن يَبْطش به، فلعنه الله ورسوله وصُرِف عنه .

والثانية يوم العِير ؛ إذ عرض لها رسول الله صلى الله عليه وآله وهى جائيةٌ من الشام، فطردها أبو سفيان ، وساحَل بها، فلم يظفر المسلمون بها، ولعنه رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا عليه ، فكانت وقعة بدر لأجلها .

والثالثة يوم أُحُد ، حيث وقف تحت الجبل ، ورسول الله صلى الله عليه وآله فى أعلاه ، وهو ينادى : اعْلُ هُبَل ! مرارا ، فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله عشر مرات ، ولعنه المسلمون .

والرابعة يوم جاء بالأحزاب وغَطفَان واليهود ، فلعنه رسول الله وابتهل .

والخامسة يوم جاء أبو سفيان فى قريش فصدُّوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسجد الحرام « والهدْىَ معكوفًا أن يبلغ مَحِلّه » ذلك يوم الحدَيبية ، فلعن رسول الله صلى الله عليه وآله أباسفيان ، ولعن القادة والأتباع ، وقال : «ملعونون كلُّهم ، وليس فيهم من يؤمن » ، فقيل : يارسول الله ، أفما يُرْجَى الإسلام لأحد منهم فكيف باللعنة ؟ فقال : « لا تصيب اللعنة أحدا من الأتباع ، وأما القادة فلا يفلح منهم أحد » .

(١) زيادة يقتضيها السياق ، أخذت عن قصة جاءت فى ترجمة معاوية فى أسد الغابة ٤ : ٣٨٦ نقلا عن صحيح مسلم .

والسادسة يوم الجمل الأحمر .

والسابعة يومَ وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله في العَقَبة ليستنفروا ناقته ، وكانوا اثنى عشر رجلا ، منهم أبو سفيان .

فهذالك يامعاوية؛ وأما أنت يابنَ العاص؛ فإنّ أمرَك مشترَك، وضعتْك أمك مجهولا؛ من عُهْر وسِفاح ، فيك أربعة من قريش ، فغلب عليك جزّارُها ، ألأمُهم حَسبًا، وأخبثُهم منصبًا ؛ ثم قام أبوك فقال : أنا شانِئ محمد الأبتر ، فأنزل الله فيه ما أنزل .

وقاتلتَ رسولَ الله صلى الله عليه وآله في جميع المشاهد ، وهجوتَه وآذيته بمكة وكِدته كيدَك كلَّه ، وكنتَ من أشدّ الناس له تكذيبا وعداوةً .

ثم خرجتَ تريد النجاشيّ مع أصحاب السفينة ، لتأتيَ بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة، فلما أخطأك ما رجَوْت ورجّعك الله خائبا ، وأكدَبك واشيًا ، جعلت حدَّك على صاحبك عُمارة بن الوليد ، فوشَيْت به إلى النجاشيّ ، حسدًا لما ارتكبَ مع حليلتك ، ففضحك الله وفضحَ صاحبك .

فأنت عدوّ بني هاشم في الجاهلية والإسلام . ثم إنك تعلم وكلّ هؤلاء الرَّهْط يعلمون أنك هجوتَ رسول الله صلى الله عليه وآله سبعين بيتا من الشِّعر ، فقال رسول الله صلى عليه وآله : «اللّهمّ إني لاأقول الشِّعر ولا ينبغي لي، اللّهمّ العنه بكل حرفٍ ألفَ لعنة »؛ فعليك إذًا من الله مالا يُحصَى من اللعن .

وأما ماذكرتَ من أمر عثمان ، فأنت سعَّرتَ عليه الدّنيا نارا ، ثم لحقت بفلسطين، فلمّا أتاك قتلُه ، قلت: أنا أبو عبد الله إذا نكأتُ قَرْحة أدميتُها . ثم حبستَ نفسك إلى معاوية ، وبعتَ دينك بدنياه ، فلسنا نلومك على بُغض ، ولا نعاتبك على ودّ ، وبالله

مانصرت عثمان حيًّا ولا غضبت له مقتولا ، ويحك يابن العاص ! ألستَ القائل فى بنى هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشىّ :

تقول ابنتى أين هـذا الرحيل ... ومـــا السَّيْرُ مِنِّى بمستنكَرِ
فقلت : ذرينى فـــإنِّى امرؤٌ ... أريدُ النجـــاشِىَّ فى جعفَرِ
لأ كْوِيَهُ عنـــــده كيَّةً ... أُقِيمُ بهــــا نخوةَ الأصعَرِ
وشانئُ أحمــدَ من بينهمْ ... وأقوَلُهم فيــه بالمنكَرِ
وأجرى إلى عتبةٍ جاهــداً ... ولو كانَ كالـذَّهَبِ الأحمرِ
ولا أنثنى عن بَنِى هــاشمٍ ... ومـا اسطعتُ فى الغَيْبِ والمَحْضَرِ
فــإنْ قَبِـل العَتْبَ منِّى لهُ ... وإلا لَوَيْتُ له مِشْفَرى

فهذا جوابك ، هل سمعته !

وأما أنت ياوليد ؛ فوالله ماألومك على بغض علىّ ، وقد جلدك ثمانين فى الخمر ، وقتل أباك بين يدىْ رسول الله صبرا ، وأنت الذى سمّاه الله الفاسق ، وسمّى عليا المؤمن ، حيث تفاخرتما فقلتَ له : اسكت ياعلىّ ، فأنا أشجع منك جنانا ، وأطول منك لسانا ، فقال لك علىّ : اسكتْ ، ياوليد فأنامؤمن وأنت فاسق ؛ فأنزل الله تعالى فى موافقة قوله : ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾[1] ، ثم أنزل فيك على موافقة قوله أيضا : ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[2] .

ويحك ياوليد ! مَهْمَا نسيتَ ، فلا تنسَ قول الشاعر فيك وفيه :

أنزل الله والـكتاب عزيزٌ ... فى علىّ وفى الوليــــد قرآنا

---

(١) سورة السجدة ١٨ .
(٢) سورة الحجرات ٦ .

فتبوّأ الوليــــد إذ ذاك فسقاً وعليٌّ مبــــوّأٌ إيمانا
ليس من كان مؤمناً ـ عمرَك اللهُ ـ كمَن كان فاسقاً خــــوّانا
سوف يُدعَى الوليد بعد قليل وعليٌّ إلى الحساب عيانا
فعليٌّ يُجــــــزى بذاك جناناً ووليــــدٌ يُجزى بذاك هَوانا
رُبَّ جَــــدٍّ لِعُقْبة بن أبانٍ لابس في بلادنا تُبّانا[1]

وما أنت وقريش؟ إنما أنت عِلْج من أهل صَفّورية، وأقسم بالله لأنت أكبر في الميلاد، وأسنّ ممّن تدعى إليه.

وأما أنت ياعتبة؛ فوالله ما أنت بحصيف فأجيبك، ولا عاقل فأحاورك وأعاتبك، وما عندك خير يُرْجَى، ولا شرّ يتقى، وما عقلك وعقل أمَتِك إلا سواء، وما يضرّ عليًّا لو سبَبْتَه على رءوس الأشهاد!

وأما وعيدك إيّاى بالقتل؛ فهلّا قتلت اللحيانيّ إذ وجدته على فراشك! أما تستحي من قول نصر بن حجاج فيك:

يالَلرجال وحادثِ الأزمان ولَسُبَّــــةٍ تُخزى أبا سفيانِ
نُبِّئتُ عتبةَ خانه في عِرْسِه جِبْسٌ لئيمُ الأصــل من لِحْيانِ

وبعدَ هذا، ما أربأ بنفسي عن ذكره لفحشه! فكيف يخاف أحدٌ سيفَك، ولم تقتلْ فاضحَك! وكيف ألومك على بغض عليّ، وقد قتلَ خالك الوليد مبارزةً يوم بدْر، وشَرِكَ حمزة في قتل جدّك عتبة، وأوْحَدك من أخيك حنظلة في مقام واحد!

وأما أنت يامغيرة؛ فلم تكن بخليقٍ أن تقع في هذا وشِبْهه، وإنما مَثَلُك مثَلُ البعوضة إذ قالت للنخلة: استمسكي؛ فإني طائرة عنك، فقالت النخلة: وهل علمتُ بكِ واقعة عليّ فأعلم بكِ طائرةً عني!

(١) التبان: سراويل صغيرة (معرب: تبن بالفارسية) يكون للملاحين.

والله ما تضرُّ بعداوتك إيانا، ولا اغتممنا إذ علمنا بها، ولا يشقّ علينا كلامُك، وإن حدَّ الله في الزّنا لثابت عليك، ولقد درأ عمرُ عنك حقًّا؛ اللهُ سائله عنه!

ولقد سألتَ رسول الله صلى الله عليه وآله: هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها؟ فقال: «لا بأس بذلك يا مغيرة مالم ينو الزنا»، لعلمه بأنك زانٍ.

وأما فخركم علينا بالإمارة، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (١).

ثم قام الحسن فنفضَ ثوبه، وانصرف؛ فتعلّق عمرو بن العاص بثوبه، وقال: يا أمير المؤمنين، قد شهدتَ قوله فيّ وقذفه أمّي بالزنا، وأنا مطالب له بحدِّ القذف.

فقال معاوية: خلِّ عنه لا جزاك الله خيراً. فتركه.

فقال معاوية: قد أنبأتكم أنه ممّن لا تُطاق عارضته، ونهيتكم أن تسبّوه فعصيتموني، والله ما قام حتى أظلم عليّ البيت، قوموا عني، فلقد فضحكم الله وأخزاكم بترككم الحزم، وعدولكم عن رأي الناصح المشفق؛ والله المستعان.

[عمرو بن العاص ومعاوية]

وروى المدائنيّ، قال: دخل عمرو بن العاص على معاوية يسأله حاجة، وقد كان بلغ معاوية عنه ما كرهه، فكره قضاءها وتشاغل، فقال عمرو: يامعاوية؛ إنّ السخاء فطنة، واللؤمَ تغافل، والجفاء ليس من أخلاق المؤمنين. فقال معاوية: ياعمرو؛ بماذا تستحقّ منّا قضاء الحوائج العظام؟ فغضب عمرو وقال: بأعظم حقّ وأوجبه، إذ كنتَ في بحر لجّاج، فلولا عمرو لغرقتَ في أقلّ مائه وأرقّه، ولكنّي دفعتُك فيه دفعةً فصرتَ في وسطه، ثم دفعتك فيه أخرى فصرت في أعلى المواضع منه، فمضى حكمُك، ونفذ أمرُك، وانطلق

---

(١) سورة الإسراء ١٦.

لسانُك بعد تلجلجه ، وأضاء وجهك بعد ظلمته ، وطمستُ لك الشمسَ بالعِهْن المنفوش ، وأظلمت لك القمر بالليلة المدلهمّة .

فتناوم معاوية ، وأطبق جفنيه مليًّا ، فخرج عمرو ، فاستوى معاوية جالساً وقال لجلسائه : أرأيتم ما خرج من فم ذلك الرجل ؟ ما عليه لو عرَّض ؟ ففي التعريض ما يكفي ؛ ولكنه جَبَهني [1] بكلامه ، ورماني بسموم سهامه .

فقال بعض جلسائه : يا أميرَ المؤمنين ؛ إن الحوائج لتُقضى على ثلاث خصال : إمّا أن يكون السائلُ لقضاء الحاجة مستحقاً فتُقضى له بحقه ، وإمّا أن يكون السائل لئيماً فيصونَ الشريف نفسَه عن لسانه فيقضيَ حاجته ، وإمّا أن يكون المسئول كريماً فيقضيها لكرمه ؛ صغُرتْ أو كبرتْ .

فقال معاوية : لله أبوك ! ما أحسن ما نعتّ ! ثم بعث إلى عمرو فأخبره ، وقضى حاجته ووصله بصلة جليلة ، فلما أخذها ولّى منصرفاً ، فقال معاوية : ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [2] فسمعها عمرو ، فالتفت إليه مغضباً وقال : والله يا معاوية ، لا أزال آخذ منك قهراً ، ولا أطيع لك أمراً ، وأحفر لك بئراً عميقاً ، إذا وقعت فيه لم تدرك إلا رميماً [3] . فضحك معاوية ، فقال : ما أريدك يا أبا عبد الله بالكلمة ، وإنما كانت آية تلوتها من كتاب الله عرَضَتْ بقلبي ، فاصنع ما شئت .

[عبد الله بن جعفر وعمرو بن العاص في مجلس معاوية]

وروى المدائنيّ قال : بينا معاوية يوماً جالساً عنده عمرو بن العاص ، إذ قال الآذن : قد جاء عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فقال عمرو : والله لأسوءنه اليوم ، فقال معاوية : لا تفعل يا أبا عبد الله ، فإنك لا تنتصف منه ، ولعلك أن تُظهرَ لنا من منقبته ما هو خفيّ عنّا ، وما لا نحبُّ أن نعلمَه منه .

---

(١) جبهه : لقيه بما يكره من الكلام . (٢) سورة التوبة ٥٨ .

(٣) الرميم : البالي من العظام .

وفيهم عبدالله بن جعفر ؛ فأدناه معاوية وقرّبه ، فمال عمرو إلى بعض جلساء معاوية ، فنال من عليّ عليه السلام جِهاراً غير ساتر له ، وثلبه ثلباً قبيحاً .

فالتمع لونُ عبد الله بن جعفر واعتراه أفْكَل حتى أرْعِدت خصائله [١] ، ثم نزل عن السرير كالفَنِيق [٢] ، فقال عمرو : مَهْ يا أبا جعفر ! فقال له عبد الله : مه لا أمّ لك ! ثم قال :

أظنّ الحِلمَ دلّ عليّ قومي ... وقد يُستجهَلُ الرجلُ الحليم [٣]

ثم حَسَر عن ذراعيه ، وقال : يامعاوية ، حتّامَ نتجرّع غيظَك ؟ وإلى كم الصبرُ على مكروه قولك ، وسيّئ أدبك ، وذميم أخلاقك ! هَبِلتك الهَبُول [٤] ! أمايزجرك ذِمامُ المجالسة عن القَذْع لجليسك إذا لم تكن لك حُرْمة مِنْ دينك تنهاك عما لا يجوز لك ! أما والله لو عطفتك أواصرُ الأرحام ، أو حاميتَ على سهمك من الإسلام ، ما أرعيت بني الإماء المُتك [٥] ، والعبيد الصُّكّ أعراضَ قومك .

وما يجهل موضعَ الصَّفْوة [٦] إلا أهل الجفوة ، وإنك لتعرف وشائظ [٧] قريش وصَبوة غرائزها ، فلا يدعونك تصويبُ ما فرّط من خطئك في سفك دماء المسلمين ، ومحاربة أمير المؤمنين ، إلى التمادى فيما قد وضح لك الصواب في خلافه . فاقصِدْ لمنهج الحقّ ، فقد طال تَعَمُّهك [٨] عن سبيل الرُّشد ، وخَبْطُك في بحور ظلمة الغيّ .

---

(١) الأفكل : الرعدة ، والخصائل : كل لحمة فيها عصب .
(٢) الفنيق : الفحل المكرم الذى لا يؤذى لكرامته .
(٣) من أبيات لقيس بن زهير ، وقوله : « يستجهل الرجل الحليم » أى إذا أحرج الحليم ، فقد يتكلف مالا يكون معهوداً فى طبعه .
(٤) الهبول ، بالفتح : المرأة الثكول .
(٥) المتك : جمع متكاء ؛ وهى الجارية البظراء وهو مما يسب به والرجل الأمتك : المضطرب الرجلين ، وجمع الأمتك متك .
(٦) صفوة القوم : خيارهم .
(٧) يقال : هو وشيظة فى قومه ، وجمعه وشائظ ، أى حشو فيهم . (٨) ب : « تماثك » .

فإن أبيت ألّا تتابعنا فى قبح اختيارك لنفسك ، فأعفنا من سوء القالة فينا إذا ضمنا وإياك الندىّ ، وشأنك وما تريد إذا خلوت ؛ والله حسيبك ، فو الله لولا ماجعل الله لنا فى يديك لما أتيناك .

ثم قال : إنك إن كلفتنى ما لم أطِقْ ساءك ما سَرّك منّى من خُلُق .

فقال معاوية : يا أبا جعفر ، أقسمت عليك لتجلسنّ ، لعن الله مَنْ أخرج ضَبّ صَدْرك من وجاره ؛ محمولٌ لك ما قلت ، ولك عندنا ما أمّلت ، فلو لم يكن محمدك ومنصبك لكان خُلُقك وخَلْقك شافعين لك إلينا ، وأنت ابنُ ذى الجناحين وسيّد بنى هاشم .

فقال عبد الله : كلاّ ، بل سيّد بنى هاشم حسن وحسين ، لاينازعهما فى ذلك أحد .

فقال : أبا جعفر ، أقسمت عليك لمّا ذكرتَ حاجة لك إلا قضيتُها كائنة ما كانت ، ولو ذهبتْ بجميع ما أملك ، فقال : أما فى هذا المجلس فلا ، ثم انصرف .

فأتبعه معاوية بصرَه ، وقال : والله لكأنه رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، مشيُه وخُلُقه وخَلْقه ، وإنه لمن مِشْكاته ، ولوددت أنه أخى بنفيس ما أملك .

ثم التفت إلى عمرو ، فقال : أبا عبد الله ، ما تراه منعه من الكلام معك ؟ قال : ما لا خفاء به عنك ، قال : أظنّك تقول : إنه هابَ جوابك ؛ لا والله ، ولكنّه ازدراك واستحقرك ، ولم يرك للكلام أهلاً ، أما رأيتَ إقباله عليّ دونك ذاهبا بنفسه عنك !

فقال عمرو : فهل لك أن تسمع ما أعددتُه لجوابه ؟ قال معاوية : اذهب إليك أبا عبد الله ، فلات حين جوابٍ سائرَ اليوم .

ونهض معاوية وتفرّق الناس .

* * *

[عبد الله بن العباس ورجالات قريش فى مجلس معاوية]

وروى المدائنى أيضاً قال : وَفَدَ عبد الله بن عباس على معاوية مرّة ، فقال معاوية لابنه يزيد ، ولزياد بن سُمية ، وعتبة بن أبى سفيان ، ومَرْوان بن الحكم ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن أمّ الحكم : إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس ، وما كان شَجَر بيننا وبينه وبين ابن عمّه ، ولقد كان نَصَبه للتحكيم فدُفع عنه ، فحرّكوه على الكلام لنبلُغَ حقيقة صفته ، ونقِفَ على كُنْه معرفته ، ونعرف ما صُرِف عنا من شَبَا حَدّه ، ووُرِيَ عنّا من دهاء رأيه ، فربما وُصِف المرء بغير ما هو فيه ، وأُعْطِيَ من النعت والاسم ما لا يستحقه

ثم أرسل إلى عبد الله بن عباس ، فلما دخل واستقرّ به المجلس ، ابتدأه ابن أبى سفيان فقال : يابن عباس ، ما منعك أن توجِّه إلينا حكماً ؟ فقال : أما والله لو فعل لقرن عزماً عَصَبْة من الإبل ، يوجع كفّه[1] مِراسُها ، ولأذهلتُ عقله ، وأجرضته بريقه ، وقدحت فى سويداء قلبه ، فلم يبرمْ أمراً ، ولم ينقض تراباً ، إلا كنت منه بمرأى ومسمع ، فإن انكَفأ أدميت قواه ، وإن أدْبرَ قصَمت عراه ، بغَرْب مِقْوَل لا يُفَلّ حدُّه ، وأصالة رأى كمتاح الأجل لا وَزَر منه ، أصدع به أديمَه ، وأفلُّ به شَبا حَدّه ، وأشحَذُ به عزائم المتقين ، وأزيح به شُبَه الشاكين .

فقال عمرو بن العاص : هذا والله يا أمير المؤمنين نجومُ أوّل الشرّ ، وأفولُ آخر الخير ، وفى حَسْمِه قطع مادّته ، فبادرْه بالحملة ، وانتهز منه الفرصة ، واردَع بالتنكيل به غيرَه ، وشرِّد به مَنْ خَلْفَه .

فقال ابن عباس : يا بنَ النابغة ! ضلّ والله عقلُك ، وسَفُهَ حِلْمك ، ونطق الشيطانُ على لسانك ! هلاّ توليتَ ذلك بنفسك يوم صِفِّين حين دُعيتَ نَزَالِ[2] ، وتكافح الأبطال ،

(١) ا : « كفيه » . (٢) نزال هنا بمعنى المنازلة .

وكثرت الجراح ، وتقصّفتِ الرّماح ، وبرزتَ إلى أمير المؤمنين مصاوِلا ، فانكفأ نحوك بالسيف حاملا ؛ فلما رأيت الكواشرَ من الموت ؛ أعددت حيلةَ السلامة قبل لقائه ، والانكفاء عنه بعد إجابة دعائه، فمنحته — رجاء النجاة — عورتك، وكشفت له — خوف بأسه — سوأتك ، حذَرًا أن يصطلمك بسطوته ، ويلتهمك بحملته ، ثم أشرت على معاوية كالناصح له بمبارزته ، وحسَّنْت له التعرُّض لمكافحته ، رجاء أن تكتفى مؤنته ، وتعدم صورته ، فعلم غِلّ صدرك ، وما انحنت عليه من النفاق أضلُعُك ، وعرَفَ مَقرّ سهمك في غَرَضك .

فاكفف غَرْبَ لسانِك ، واقمَع عوراء لفظك؛ فإنك لمن أسدٍ خادرٍ[1]، وبحر زاخر، إن تبرّزت للأسد افترسك ؛ وإن عُمت في البحر قمسك[2] .

فقال مروان بن الحكم: يابن عباس، إنك لتصرف أنيابك، وتُورى نارك، كأنك ترجو الغلبة وتؤمّل العافية ، ولولا حلم أمير المؤمنين عنكم لتناولكم بأقصرِ أنامله، فأوردكم منهلاً بعيداً صدَرُه ، ولعمرى لئن سَطَا بكم ليأخذنَّ بعضَ حقّه منكم، ولئن عفَا عن جرائركم فقديمًا مانُسب إلى ذلك .

فقال ابن عباس : وإنك لتقول ذلك ياعدوّ الله ، وطريد رسول الله ، والمباح دمه ، والداخل بين عثمان ورعيّته، بما حملهم على قطع أوداجه، وركوب أثباجه ! أما والله لو طلب معاوية ثأره لأخذك به ، ولو نظر في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره .

وأما قولك لى: «إنك لتصرف أنيابك، وتورى نارك»؛ فسَلْ معاوية وعمرًا يخبراك ليلة الهرير ، كيف ثباتنا للمَثُلات، واستخفافنا بالمعضلات، وصدقُ جلادنا عند المصاولة ، وصبرُنا

---

(١) أسد خادر : مقيم في خدره .
(٢) قمسك : غمسك ، وفى « ا » : « غمسك » .

على اللأْواء والمطاولة،ومصافحتنا بجباهنا السيوف المرهفة،ومباشرتنا بنحورنا حدّ الأسنّة، هل خِمنا[1] عن كرائم تلك المواقف ، أم لم نبذل مُهجنا للمتالف؟ وليس لك إذ ذاك فيها مقامٌ محمود ، ولا يومٌ مشهودٌ ، ولا أثر معدود ، وإنهما شهدا مالو شهدتَ لأقلقك؛فاربَعْ على ظَلْعِك ، ولا تتعرّض لما ليس لك ، فإنك كالمغروز فى صَفَد ، لا يهبط برجل ، ولا يرقى بيد .

فقال زياد : يابن عباس ، إنى لأعلم مامنع حسَنا وحسينا من الوفود معك على أمير المؤمنين إلا ماسوّلت لهما أنفسهما ، وغرّهما به مَنْ هو عند البأساء سلّمهما، وايم الله لو وَلِيتُهما لأذأبا فى الرّحلة إلى أمير المؤمنين أنفسَهما ، ولقلّ بمكانهما لبثُهما .

فقال ابن عباس : إذن والله يقصرُ دونهما باعُك ، ويضيق بهما ذراعك ، ولو رُمتَ ذلك لوجدت من دونهما فئة صُدُقا ، صُبُرا على البلاء، لا يخيمون عن اللقاء ، فلعرّكوك بكلاكلهم ، ووطئوك بمناسمهم ،وأوجروك مُشَقَ رماحهم،وشِفار سيوفهم ووخز أسنّتهم، حتى تشهد بسوء ماأتيت ، وتتبيّن ضياع الحزم فيما جنيت.فحذار حذار من سوء النية فتكافأ برد الأمنيّة ، وتكون سببا لفساد هذين الحيّين بعد صلاحهما ، وسعياً فى اختلافهما بعد ائتلافهما ، حيث لا يضرّهما إبساسُك ، ولا يغنى عنهما إيناسك .

فقال عبد الرحمن بن أم الحكم : لله درُّ ابن مُلجم ! فقد بلغ الأمل ، وأمِن الوجل ، وأحدّ الشّفرة وألانَ المَهرة ، وأدرك الثار ، ونفى العار ، وفاز بالمنزلة العليا ، ورقى الدرجة القصوى .

فقال ابن عباس : أما والله؛ لقد كرع كأسَ حتفه بيده،وعجّل الله إلى النار بروحه،

---

(١) خمنا : ضعفنا .

ولو أبدى لأمير المؤمنين صفحته لنا له الفحل القَطِم[1] والسيف الخذِم[2]، ولألفه صابا، وسقاه سماً، وألحقه بالوليد وعُتبة وحنظلة، فكلّهم كان أشدّ منه شكيمة، وأمضى عزيمة، ففرى بالسيف هامَهم، ورمّلهم[3] بدمائهم؛ وقرى الذئاب أشلاءهم، وفرّق بينهم وبين أحبائهم: ﴿أولئك حَصَبُ جهنمَ هم لها واردونَ﴾[4]، و﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أحدٍ أوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكزا[5]﴾، ولا غَرْو إن ختِل، ولا وصمةَ إن قُتل؛ فإنّا لكما قال دُرَيد ابن الصمّة:

فإنا لَلَحْمُ السيف غيرَ مكرَّهٍ ونلحمه طوراً وليس بذي نُكرِ[6]

يُغار علينـــا واترين فيُشتفَى بنا إن أُصِبنا، أو نُغير على وِتْرِ

فقال المغيرة بن شُعبة: أما والله لقد أشرت على عليّ بالنصيحة فآثر رأيه، ومضى على غُلَوائه، فكانت العاقبة عليه لا له، وإني لأحسَب أن خلَفه يقتدون بمنهجه.

فقال ابن عباس: كان والله أمير المؤمنين عليه السلام أعلمَ بوجوه الرأي، ومعاقد الحزم، وتصريف الأمور، من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه، وعنّف عليه، قال سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ..﴾[7]؛ ولقد وقفك على ذِكْر مبين، وآية متلوّة قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ

---

(١) القطم: الفحل الصئول.

(٢) الخذم: القاطع. (٣) رملهم: لطخهم.

(٤) سورة الأنبياء ٩٨. (٥) سورة مريم ٩٨.

(٦) من كلمة له في الأغاني ١٠: ٥ (طبعة الدار)، وفي الأغاني:

● غير نكيرة ... ونلحمه حينا ●

ولحمه: أي أطعمه اللحم.

(٧) سورة المجادلة ٢٢.

عَضُداً ﴾ [1] ، وهل كان يسوغ له أن يحكّم في دماء المسلمين وفَيْء المؤمنين ، من ليس بمأمون عنده ، ولا موثوق به في نفسه؟ هيهات هيهات! هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله أن يُبطِن خلاف ما يظهر إلّا للتقيّة ، ولات حين تَقِيّة ! مع وضوح الحق، وثبوت الجنان، وكثرة الأنصار ، يمضي كالسيف للصّلت في أمر الله ، مؤثرًا لطاعة ربّه ، والتقوى على آراء أهل الدنيا .

فقال يزيد بن معاوية : يابن عباس ، إنك لتنطق بلسان طَلْق يُنْبِئ عن مكنون قلب حُرِق ، فاطْوِ ما أنتَ عليه كَشْحاً ، فقد محا ضوءُ حقنا ظلمةَ باطلكم .

فقال ابن عباس : مهلًا يزيد ، فوالله ما صفَتِ القلوبُ لكم منذ تكدّرت بالعداوة [2] عليكم ، ولا دَنَتْ بالمحبة إليكم مذ نأت بالبغضاء عنكم ، لا رضيت اليوم منكم ما سخطت بالأمس من أفعالكم ، وإن تُدَلِ [3] الأيام نستقض ما سُدّ عنا ، ونسترجع ما ابتُزّ منا، كيلًا بكيل، ووزنًا بوزن ، وإن تكن الأخرى فكفى بالله وليًا لنا ، ووكيلًا على المعتدين علينا .

فقال معاوية : إنّ في نفسي منكم لحزازاتٍ يا بني هاشم ، وإني لخليقٌ أن أدرك فيكم الثار ، وأنفي العار ، فإن دماءنا قِبلكم ، وظلامتنا فيكم .

فقال ابن عباس : والله إن رُمْتَ ذلك يامعاوية لتثيرنّ عليك أُسْدًا مُخْدِرة [4] ، وأفاعيَ مطرقة ، لا يفثؤها كثرة السلاح ، ولا يعضّها نكاية الجراح ، يضعون أسيافهم على عواتقهم ، يضربون قدُمًا قدُمًا مَن ناوأهم ، يهون عليهم نُباح الكلاب وعُواء الذئاب ،

---

(١) سورة الكهف ٥١ .   (٢) ساقطة من ب .

(٣) يقال: دالت الأيام ، أي دارت ، وهو من قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ .

(٤) الأسد الخادر والمخدر : المقيم في الخدر ؛ وهو العرين .

لا يُفاتون بوِتر ، ولا يُسبَقون إلى كريم ذِكر، قد وَطَّنُوا على الموت أنفسَهم، وسَمَتْ بهم إلى العَلْياء هِمَمُهم ؛ كما قالت الأزدية :

قومٌ إذا شهدوا الهِيَاج فلا ضربٌ يُنَهْنِهُهمْ ولا زَجْرُ

وكأنَّهم آساد غِيضَــــةَ قَدْ غَرِثَتْ وبلَّ متونَها القطرُ[1]

فلتكونَنَّ منهم بحيث أعددتَ ليلةَ الهرير للهرب فرسَك، وكان أكبر هَمّك سلامة حُشاشةِ نفسك ، ولولا طغامٌ من أهل الشام وقَوْك بأنفسهم ، وبذلوا دونك مُهَجَهم ، حتى إذا ذاقوا وَخْز الشِّفار، وأيقنوا بحلول الدَّمار، رفعوا المصاحف مستجيرين بها، وعائذين بعصمتها ـ لكنتَ شِلْواً[2] مطروحاً بالعَراء ، تَسْفِي عليك رياحُها ، ويعتورُكَ ذُبابها .

وما أقول هذا أريد صرفَك عن عزيمتك ، ولا إزالتَك من معقود نيتك ، لكنَّ الرَّحِم التي تعطف عليك ، والأوامر التي توجب صرف النصيحة إليك .

فقال معاوية : لله درّك يابن عباس ! ما تكشف الأيام منك إلا عن سيف صقيل ، ورأي أصيل! وبالله لو لم يلد هاشمٌ غيرَك لما نقص عددُهم، ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثّرهم .

ثم نهض ، فقام ابن عباس وانصرف .

* * *

وروى أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب في أماليه ، أن عمرو بن العاص قال لعُتبة ابن أبي سفيان يوم الحكمين: أما ترى ابنَ عباس قد فتح عينيه ، ونشَر أذنيه، ولو قدر أن يتكلّم بهما فعل ، وإن غَفْلة أصحابه لمجبورة بفطنته ، وهي ساعتنا الطُّولى فاكفنيه .

قال عتبة : بجهدي .

---

(١) الغيضة : الأشجار الملتفة في الجبال وفي السهول بلا ماء ؛ فإذا كانت بماء فهي الغيضة . والغيضة أيضاً : موضع باليمن .   (٢) الشلو : العضو من أعضاء اللحم .

قال : فقمت فقعدت إلى جانبه ، فلما أخذ القومُ في الكلام أقبلت عليه بالحديث ، فقرَع يدىّ ، وقال : ليست ساعة حديث ؛ قال : فأظهرتُ غضبا ، وقلت : يابن عباس، إن ثقتك بأحلامنا أسرعتْ بك إلى أعراضنا، وقد والله تقدّم من قَبْلُ العذر ، وكثُر منّا الصبر ؛ ثم أقذعتُه فعاش لى مِرْجله وارتفعت أصواتنا، فجاء القوم فأخذوا بأيدينا فنحّوْه عنى ونحّوْنى عنه ، فجئت فقرُبت من عمرو بن العاص ، فرمانى بمؤخر عينيه وقال : ماصنعت؟ فقلت : كفيتك التَّقوالة، فحَمْحَمَ كما يُحمحِم الفرس للشعير . قال: وفات ابن عباس أوّل الكلام ، فكره أن يتكلم فى آخره .

وقد ذكرنا نحن هذا الخبر فيما تقدم فى أخبار صِفِّين على وجه آخر غير هذا الوجه .

* * *

[عُمارة بن الوليد وعمرو بن العاص فى الحبشة]

فأما خبر عُمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومى، أخى خالد بن الوليد مع عمرو بن العاص فقد ذكره ابن إسحق فى كتاب " المغازى " قال :

كان عُمارة بن الوليد بن المغيرة وعمرو بن العاص بن وائل، بعد مَبْعث رسول الله صلى الله عليه وآله ، خرجا إلى أرض الحبشة على شِرْكهما ، وكلاهما كان شاعراً عارماً فاتِكاً . وكان عُمارة بن الوليد رجلا جميلا وَسيماً تهواه النساء ، صاحبَ محادثة لهن ؛ فركبا البحر ومع عمرو بن العاص امرأته ، حتى إذا صاروا فى البحر ليالىَ، أصابا من خَمْر معهما ، فلما انتشى عمارة قال لامرأة عمرو بن العاص : قبّلينى ، فقال لها عمرو : قبّلى ابنَ عمك، فقبّلته فَهَوِيَها عُمارة، وجعل يراودها عن نفسها، فامتنعتْ منه ثم إن عمراً جلس على منجاف[1]

---

(١) المنجاف : سكان السفينة

السفينة يبول ، فدفعه عمارة فى البحر فلما وقع عمرو سبَح ، حتى أخذ بصِحاف السفينة ، فقال له عُمارة : أما والله لو علمتُ أنك سابحٌ ماطرحتُك ، ولكنّنى كنتُ أظنّ أنك لاتحسِنُ السباحة ، فضغن عمرو عليه فى نفسه ، وعلم أنه كان أراد قتله ؛ ومضيا على وجههما ذلك ؛ حتى قدِما أرضَ الحبشة ؛ فلما نزلاها كتب عمرو إلى أبيه العاص بن وائل ؛ أن اخلعنى وتبرّأْ من جريرتى إلى بنى المغيرة وسائر بنى مخزوم ، وخشِىَ على أبيه أن يُتْبَع بجريرته . فلما قدِم الكتابُ على العاص بن وائل ، مشى إلى رجال بنى المغيرة وبنى مخزوم ، فقال : إن هذين الرّجُلين قد خرجا حيث علمتم ، وكلاهما فاتك صاحبُ شرّ ، غيرُ مأمونَيْن على أنفسهما ، ولا أدرى مايكون منهما ! وإنّى أبرأ إليكم من عمرو وجريرته ، فقد خلعتُه . فقال عند ذلك بنو المغيرة وبنو مخزوم : وأنت تخاف عمراً على عُمارة ! ونحن فقد خلعنا عُمارة وتبرأنا إليك من جريرته ، فخلِّ بين الرجلين . قال : قد فعلتُ ، فخلعوهما وبرئ كلّ قوم من صاحبهم ومايجرى منه .

قال : فلما اطمأننّا بأرض الحبشة ؛ لم يلبثْ عُمارة بن الوليد أن دَبّ لامرأة النجاشىّ ـ وكان جميلاً صَبيحا وسيما ـ فأدخلته ، فاختلف إليها ، وجعل إذا رجع من مَدخله ذلك يخبر عمراً بما كان من أمره ، فيقول عمرو : لاأصدقك أنك قدرت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك ؛ فلما أكثر عليه عُمارة بما كان يخبره ـ وكان عمرو قد علم صدقَه ، وعرف أنه دخل عليها ، ورأى من حاله وهيئته وماتصنع المرأة به إذا كان معها ، وبيتوتته عندها ؛ حتى يأتى إليه مع السَّحَر ماعرف به ذلك ، وكانا فى منزلٍ واحد ؛ ولكنّه كان يريد أن يأتيَه بشىء لايستطاع دفعه ، إن هو رفع شأنه إلى النجاشىّ ـ فقال له فى بعض

مايتذاكران من أمرها : إنْ كنتَ صادقاً فقلْ لها : فلتدهنْك بدُهن النجاشيّ الذى لايدّهن به غيره ، فإنى أعرفه ، وائتنى بشىء منه حتى أصدّقك ، قال : أفعل .

فجاء فى بعض مايدخل إليها ، فسألها ذلك ، فدهَنته منه ، وأعطته شيئاً فى قارورة ، فلما شمّه عمرو عَرَفه ، فقال : أشهد أنك قد صدَقت ! لقد أصبتَ شيئاً ماأصابَ أحد من العرب مثلَه قطّ ، [ونلت من][1] امرأة الملك [شيئاً][1] ماسمعنا بمثل هذا . وكانوا أهلَ جاهلية وشبانا ، وذلك فى أنفسهم فضْلٌ لمن أصابه وقَدَر عليه .

ثم سكت عنه[2] حتى اطمأنّ ، ودخل على النجاشى[2] ، فقال : أيهاالملك! إن معى سفيهاً من سفهاء قريش ، وقد خشيتُ أن يعرّ ى[3] عندك أمرُه ، وأردت أن أُعلمك بشأنه ، وألّا أرفع ذلك إليك حتى أستثبت أنه قد دخل على بعض نسائك فأكثر . وهذا دُهنك قد أعطته وادّهن به .

فلما شمّ النجاشيّ الدُّهن ، قال : صدقت ، هذا دُهنى الذى لايكون إلا عند نسائى ، فلما أثبت أمرَه ، دعا بعُمارة ، ودعا نسوة أُخَرَ ، فجرّدوه من ثيابه ، ثم أمرهنّ أن ينفُخن فى إحليله ، ثم خلى سبيله .

فخرج هاربا فى الوحش ، فلم يزلْ فى أرض الحبشة ، حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب ، فخرج إليه رجالٌ من بنى المغيرة ، منهم عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة ـ وكان اسم عبدالله قبل أن يُسلم بجيرا ، فلما أسلم ، سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله عبد الله ـ فرصدوه على ماء بأرض الحبشة ، كان يرِدُه مع الوحش ، فزعموا أنه أقبل فى حُمُر من حُمُر الوحش ليرِد معها ، فلما وجد ريح الإنس ، هرب منه ، حتى إذا أجهده العطش ، ورد فشرِب حتى تملّأ ، وخرجُوا فى طلبه .

---

(١) تكملة من الأغانى .
(٢ـ٢) الأغانى : « حتى إذا اطمأن دخل على النجاشى » .
(٣) عره : لطخه بالعيب ، وفى ا : « يغرنى » ، وما أثبته من الأغانى .

قال عبد الله بن أبي ربيعة : فسبقتُ إليه فالتزمته ، فجعل يقول : أرسِلْني ، إني أموت إن أمسكتني . قال عبد الله : فضبطتُه[1] فمات في يدي مكانه ، فواروه ثم انصرفوا .

وكان شَعْرُه — فيما يزعمون — قد غطّى كلَّ شيء منه ؛ فقال عمرو بن العاص ، يذكر ما كان صنع به وما أراد من امرأته :

تعلّمْ عُمارَ أنّ من شرِّ سُنّةٍ ... على المرء أن يُدْعَى ابنُ عمٍّ له ابْنَمَا

أأن كنتَ ذا بُرْدَيْن أحْوَى مُرَجَّلا ... فلستَ براعٍ لابن عمك مَحْرَمَا

إذا المرء لم يترك طعاما يحبُّه ... ولم ينه قلبًا غاويا حيثُ يمّما

قضى وَطَرًا منهُ يَسيرا وأصبحتْ ... إذا ذُكرت أمثالُها تملأ الفَمَا[2]

•••

[أمر عمرو بن العاص مع جعفر بن أبي طالب في الحبشة]

وأما خبر عمرو بن العاص في شخوصه إلى الحبشة ، ليكيد جعفر بن أبي طالب والمهاجرين من المؤمنين عند النجاشيّ[3] ، فقد رواه كلّ من صنف في السيرة ؛ قال محمد بن إسحاق في كتاب " المغازي " قال :

حدّثني محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهريّ ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن ، ابن الحارث بن هشام المخزوميّ ، عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية ، زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله ، قالت :

لما نزلنا بأرض الحبشة جاورْنا بها خيرَ جارٍ ، النجاشيَّ ، أمِنّا[4] على ديننا ، وعبدْنا الله لا نُؤذَى كما كنا نُؤذَى بمكة ، ولا نسمع شيئًا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا

---

(١) في الأغاني : « صضطته » . (٢) الخبر والشعر في الأغاني ٩ : ٥٧ — ٥٩ (طبعة الدار)
(٣) النجاشيّ ، ويخففيا . (٤) في الأصول « أمنا » وما أثبته من السيرة .

بينهم أن يبعثوا إلى النجاشيّ فى أمرنا رجلين منهم جَلْدين ، وأن يُهدُوا للنجاشيّ هدايا مما يُستطرَف من متاع مكّة ، وكان من أعجب ما يأتيه منه الأَدَم ؛ فجمعوا أَدَماً كثيرا ، ولم يتركوا من بَطارقته بِطْريقا إلا أهدَوْا إليه هديّة . ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزوميّ وعمرو بن العاص بن وائل السهميّ ، وأمروهما أمْرَهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كلّ بطريق هديته ، قبل أن تُكلِّما النجاشيّ فيهم .

ثم قَدِما إلى النجاشيّ ، ونحن عنده فى خيرِ دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقته بطريقٌ إلا دفعا إليه هديته ، قبلَ أن يكلِّما النجاشيّ ، ثم قالا للبطارقة :

إنه قد فَرّ[1] إلى بلد الملك منّا غِلمانٌ سفهاء ، فارقوا دينَ قومهم ، ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدَع لا نعرفه نحنُ ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك أشرافُ قومهم لتردّهم إليهم ، فإذا كلّمنا الملك فيهم فأشيروا عليه أن يُسْلِمَهم إلينا ولا يكلّمهم ، فإن قومَهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لهما : نعم .

ثم إنهما قرّبا[2] هدايا الملك إليه فقَبِلها منهم ، ثم كلّماه ، فقالا له :

أيها الملك ، قد فرّ إلى بلادك منّا غِلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، جاءوا بدينٍ ابتدعُوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ؛ وقد بعثَنا فيهم إليك أشرافُ قومِنا من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ، لتردّهم عليهم ؛ فهمْ أعلى بهم عيْناً ، وأعلم بما عابوا عليهم وعابوه منهم .

قالت أم سلَمة : ولم يكن شىء أبغضَ إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص ، من أن يسمع النجاشيّ كلامهم .

فقالت بطارقة الملك وخواصّه حوله : صدقا أيها الملك ، قومُهم أعلَى بهم عينا ، وأعلم

(١) السيرة : « ضوى » ، أى أوى . (٢) السيرة : « قدما » .

بما عابوا عليهم فليسْلِمْهم الملك إليهما ، ليردّاهم [1] إلى بلادهم وقومهم .

فغضب الملك وقال : لا ها اللهِ ! إذاً لا أسلمُهم إليهما ، ولا أُخفِر [2] قوما جاورونى ونزلوا بلادى ، واختارونى على سواى ،حتى أدعوهم وأسألهم عمّايقول هذان فى أمرهم،فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهماورددتُهم إلى قومهم، وإن كانوا على غيرذلك منعتُهم منهم، وأحسنتُ جوارَهم ماجاورونى .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلمّا جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ماتقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علِمْناه، وما أمرَنا به نبينا صلى الله عليه وآله كائنا [فى ذلك] [3] ماهو كائن ، فلمّاجاءوه ، وقد دعا النجاشىُّ أساقِفتَه ، فنشروا مصاحفَهم حوله ، سألهم فقال لهم :ماهذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دِين أحد من هذه الملل ؟ قالت أم سلمة : وكان الذى كلّمه جعفر بن أبى طالب فقال له :

أيها الملك إنا كنّا قوما فى جاهلية نعبد الأصنام ، ونأ كل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأ كل القوىُّ منّا الضعيف . فسكنّا على ذلك حتى بعث الله عزّ وجلّ علينا رسولا منّا ،نعرف نسبَه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ، ونخلع ما كنا عليه نحن وآباؤنا من دونه ، من الحجارة والأوثان ، وأمرَنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرّحِم ، وحسن التجاور ، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن سائر الفواحش ،وقَوْل الزور،وأ كْل مال اليتيم،وقذف المحصَنة ، وأمرَنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا ، وبالصلاة والزكاة والصيام .

---

(١) السيرة : «فليردهم» .
(٢) فى السيرة : « ولا يكاد قوم » .
(٣) من السيرة .

قالت[1] : فعدّد عليه أمورَ الإسلام كلّها، فصدّقناه وآمنّا به، واتبعناه على ماجاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ماحرّم علينا، وأحْلَلْنا ماأحلّ لنا، فعدَا علينا قومُنا فعذّبونا، وفتنُونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادة الأصنام والأوثان عن عبادة الله، وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث؛ فلمّا قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على مَنْ سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألّا نظلم عندك أيها الملك.

فقال النجاشيّ : فهل معك مما جاء به صاحبكم عن الله شيء؟ فقال جعفر : نعم. فقال اقرأه عليّ، فقرأ عليه صدراً من «كهيعص»، فبكى حتى اخضلّت لحيتُه، وبكت أساقفته حتى أخضلوا لحاهم[2]. ثم قال النجاشيّ : والله إن هذا والذى جاء به عيسى ليَخرج من مشكاة واحدة، والله لا أُسْلِمكم إليهم.

قالت أمّ سلمة : فلمّا خرج القوم من عنده، قال عمرو بن العاص[3] : والله لأعيبُهم غداً عنده بما يستأصل به خَضْراءهم[3]؛ فقال له عبدالله بن أبى ربيعة — وكان أتقى الرّجُلَيْن: لاتفعل، فإنّ لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفوا؛ قال : والله لأخبرنّه غداً أنهم يقولون فى عيسى بن مريم إنه عبدٌ. ثم غدا عليه من الغد، فقال : أيّها الملك، إنّ هؤلاء يقولون فى عيسى بن مريم قولاً عظيماً؛ فأرسِلْ إليهم فسَلْهم عمّا يقولون فيه؛ فأرسل إليهم.

قالت أمّ سلمة : فما نزل بنا مثلُها. واجتمع المسلمون، وقال بعضهم لبعض : ماتقولون فى عيسى إذا سألكم عنه؟ فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه والله ماقال عزّ وجلّ، وما جاء به نبينا عليه السلام، كائنا فى ذلك ماهو كائن.

فلمّا دخلوا عليه قال لهم : ماتقولون فى عيسى بن مريم؟ فقال جعفر : نقول إنه عبدالله

---

(١) فى الأصول : «قال»، وما أثبته من السيرة.
(٢) السيرة : «أخضلوا مصاحفهم».
(٣ — ٣) السيرة : «والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم»، أى جماعتهم.

ورسوله وروحُه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البَتُول .

قالت : فضرب النجاشيّ بيديه على الأرض، وأخذ منها عوداً ، وقال : ماعدا عيسى ابن مريم ماقال هذا العود .

قالت : فقد كانت بطارقته تناخرت حوله، حين قال جعفر ماقال،فقال لهم النجاشيّ: وإن تناخرتم !

ثم قال للمسلمين:اذهبوا فأنتم « سيوم » بأرضي،أي آمنون،مَنْ سبَّكم غرم،ثم مَنْ سبّكم غرم ، ثم مَنْ سَبّكم غرم ، ما أحِب أن لى دَبْراً[1] ذهباً وأنى آذيتُ رجلامنكم- والدَّبر بلسان الحبشة : الجبل - ردُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى فيها ؛ فوالله ماأخذ الله منى الرِّشوة حين ردّنى إلى مُلكى . فآخذ الرِّشوة فيه ، وما أطاع الناسَ فىَّ فأطيعهم فيه !

قالت : فخرج الرجلان من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ماجاءا به ، وأقمنا عنده فى خير[2] دار مع خير جار ، فوالله إنَّا لعلى ذلك ؛ إذ نزل به رجلٌ من الحبشة ينازعه فى ملكه .

قالت أمّ سلمة : فوالله ما أصابنا خوفٌ وحزن قطّ كان أشدّ من خوف وحزن نزل بنا أن يظهرَ ذلك الرجل على النجاشيّ ، فيأتى رَجل لا يعرفُ من حَقّنا ما كان يعرف منه .

قالت : وسار إليه النجاشيّ وبينهما عرْض النِّيل ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله:مَنْ رجلٌ يخرج حتى يحضر وَقْعةالقوم ثم يأتينا بالخبر ؟ فقال الزّبير بن العوام: أنا - وكان من أحدث المسلمين[3] سِناً- فنفخوا له قربة فجعلها تحت صدره ، ثم سَبَح

(١) فى الأصول : « دبيا » ، والصواب من السيرة .
(٢) السيرة : « بخير » .
(٣) السيرة : « القوم »

عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم . قالت : ودعونا الله للنجاشىّ بالظهور على عدوّه والتمكين له فى بلاده ، فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن ، إذ طلع الزبير يسعى ويلوّح بثوبه ويقول : ألا أبشروا ، فقد ظهر النجاشىّ وأهلك الله عدوّه .

قالت : فوالله ما أعلمنا فرحنا فرحة مثلها قطّ ، ورجع النجاشىّ ، وقد أهلك الله عدوّه وتمكّن ومكّن له فى بلاده ، واستوثق له أمر الحبشة ، فكنّا عنده فى خير منزل ودار إلى أن رجعنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة[1] .

• • •

وروى عن عبد الله بن جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال : لقد كاد عمرو بن العاص عمّنا جعفرا بأرض الحبشة عند النجاشىّ ، وعند كثير من رعيته بأنواع الكيد ردّها الله تعالى عنه بلطفه ؛ رماه بالقتل والسَّرَق والزّنا فلم يصدّق به شىء من تلك العيوب ، لما شاهده القوم من طهارته وعبادته ، ونُسُكه وسيما النبوّة عليه ، فلما نبا معوّله عن صفاته ، هيّأ له سُمًّا قدّمه إليه فى طعام ، فأرسل الله هرًّا كفّ تلك الصّحفة ، وقد مدّ يده نحوه ثم مات لوقته ، وقد أكل منها . فتبين لجعفر كيدُه وغائلته فلم يأكل بعدها عنده ، ومازال ابن الجزّار عدوًّا لنا أهلَ البيت .

• • •

[أمر عمرو بن العاص فى صفين]

وأمّا خبر عمرو فى صِفّين واتقائه حملة علىّ عليه السلام ، بطرحه نفسه على الأرض وإبداء سَوْأته : فقد ذكره كلّ من صنف فى السِّيَر كتابا ، وخصوصاً الكتب الموضوعة لصِفّين .

---

(١) الخبر فى سيرة بن هشام ١ : ٢١١ ـ ٢١٣ (على هامش الروض الأنف) .

قال نصر بن مزاحم فى كتاب صفين ، قال :

حدثنا محمد بن إسحاق ، عن عبدالله بن أبى عمرو ، وعن عبد الرحمن بن حاطب ، قال[١] : كان عمرو بن العاص عدوا للحارث بن نضْر الخثعمىّ[٢] ، وكان من أصحاب علىّ عليه السلام ، وكان علىّ عليه السلام قد تهيبتْه فرسان الشام ، وملأ قلوبهم بشجاعته ، وامتنع كلٌّ منهم من الإقدام عليه . وكان عمرو قلّما جلس مجلساً إلا ذكر فيه الحارث بن نضْر الخثعمىّ وعابه ، فقال الحارث :

ليس عمرو بتاركٍ ذكرَه الحا ... رث بالسوء أو يلاق عليّـــا[٣]

واضعُ السيف فوق منكِبه الأيْـ ... ـمن لا يحسب الفوارس شيّا

ليتَ عمرا يلقاه فى حَوْمة النَّقْـ ... ـع وقد أمست السيوف عِصيّاً[٤]

حيث يدعو للحرب حامية القو ... م إذا كان بالبِراز مَليّا[٥]

فالقه إن أردت مكرُمة الدهْـ ... ـر أوِ الموت كلّ ذاك عليّا

فشاعت هذه الأبيات حتى بلغت عمرا ، فأقسم بالله ليلقيَنّ عليًّا ولو مات ألف موتة . فلما اختلطت الصفوف لقيَه فحمل عليه برمحه ، فتقدم علىٌّ عليه السلام وهو مخترط سيفاً

---

(١) صفين ٤٨٩ وما بعدها .
(٢) صفين : « الجشمىّ » .
(٣) صفين :

ليس عمروٌ بتاركٍ ذكرَه الحرْ ... بَ مدى الدهر أو يلاق عليـــــا

(٤) صفين : « صارت السيوف » .
(٥) بعده فى صفين :

فوق شهبٍ مثلِ السحوق من النَّخْـــلِ ينـــــادى المبارزين إليّا

ثمّ يا عَمْرُ تستريح من الفخـــر وتَلْقَى به فتًى هاشميّـا

السحوق من النخل : الطويلة ؛ شبه بها الخيل .

معتقلٌ رمحا ، فلما رهقه هز فرسَه ليعلوَ عليه ، وألقى عمرو نفسه عن فرسه إلى الأرض شاغراً برجليه؛ كاشفا عورته ، فانصرف عنه لافتاً وجهه مستدبِراً له ، فعدَّ الناس ذلك من مكارمه وسؤدُده ، وضرب بها المثل .

• • •

قال نصر : وحدثنى محمد بن إسحاق ، قال : اجتمع[1] عند معاوية فى بعض ليالى صِفِّين عمرو بن العاص ، وعُتبة بن أبى سفيان ، والوليد بن عُقبة ، ومروان بن الحكم ، وعبدالله ابن عامر ، وابن طلحة الطَّلحات الخُزاعىّ ، فقال عتبة : إن أمرَنا وأمرَ علىّ بن أبى طالب لَعجَب ! ما فينا إلا موتور مُجتاح[2] .

أمّا أنا فقتل جَدّى عُتبة بن ربيعة ، وأخى حنظلة ، وشرِك فى دم عمّى شيبة يوم بدر . وأما أنتَ يا وليد ، فقتلَ أباك صَبْراً . وأما أنت يابن عامر ، فصرع أباك وسلب عمك . وأما أنت يابن طلحة ، فقتل أباك يوم الجمل ، وأيتمَ إخوتك . وأما أنت يامروان فكما قال الشاعر :

وأفلتهنّ عِلباء جَرِيضاً ... وَلَوْ أدْرَكْنَهُ صَفِرَ الوِطَابُ[3]

فقال : معاوية هذا الإقرار فأين الغُيُر[4] ؟ قال مَرْوان : وأىّ غُيُر تريد ؟ قال : أريد أن تشجُروه بالرماح . قال : والله يامعاوية ما أراك إلا هاذيا أو هازئا ، وما أرانا إلا ثقّلنا عليك ، فقال ابن عُقْبة .

يقول لنا معاويةُ بن حَرْب ... أما فيكمْ لِواتِركم طَلُوبُ
يَشُدُّ على أبى حسَن علىّ ... بأسْمَر لا تُهجِّنُه الكعوبُ

---

(١) صفين ٤٧٥ وما بعدها .

(٢) صفين : « مجاح » .

(٣) لامرئ القيس ، ديوانه ١٣٨ ، وعلباء كاهل ونامرئ القيس ، والجريض : الذى يؤخذ بريقه . وصفر وطابه ؛ كناية عن القتل .

(٤) الغير : جمع غيور ، والغيرة : الحمية .

فهيتكَ مجمع الهَبّاتِ منهُ ... ونقعُ الحرب مطّرِدٌ يؤوبُ

فقلت له : أتلعب يا ابن هندٍ ... كأنك بيننا رجلٌ غريبُ !

أتُغْرينا بحيّةِ بطنِ وادٍ ... إذا نُهِشَتْ ، فليس لها طبيبُ[1]

وما ضَبُعٌ يدِبُّ ببطن وادٍ ... أُتيح له به أسدٌ مَهيبُ

بأضعف حيلةً منّا إذا ما ... لقيناه ولُقياهُ عجيبُ

سوى عمرو وقته خُصيتاهُ ... وكان لقلبه منهُ وَجيبُ

كأنّ القومَ لمّا عاينوه ... خِلال النقْع ، ليس لهم قلوبُ

لعمر أبي معاويةَ بن حربٍ ... وما ظنّي ستلحقهُ العيوبُ

لقد ناداه في الهيجا عليٌّ ... فأسمعه ولكنْ لا يُجيبُ

فغضب عمرو ، وقال : إن كان الوليد صادقا فليلق عليًّا ، أو فليقفْ حيث يسمع صوته .

وقال عمرو :

يذكّرني الوليد دُعا عليٍّ ... ونُطقُ المرء يملؤه الوعيدُ

متى تذكرْ مشاهدَه قريش ... يطِرْ من خوفه القلب الشديدُ

فأما في اللقاء فأين منهُ ... معاويةُ بن حرب والوليدُ !

وعيّرني الوليد لقاء ليث ... إذا ما شدّ هابته الأُسودُ[2]

لقيتُ ولست أجهلُه عيانًا ... وقد بُلّتْ من العَلَقِ اللُّبودُ

فأطعنُه ويطعُنني خِلاسا ... وماذا بعد طعنته أُريدُ !

فرُمْها منه يا ابن أبي مُعَيْطٍ ... وأنت الفارس البطل النَّجيدُ

وأُقسِمُ لو سمعتَ ندا عليٍّ ... لطار القلب وانتفخَ الوريدُ

---

(١) صفين : « أتأمرنا » .

(٢) صفين : « إذا ما زار » أي زأر .

ولو لانفيتَهَ شُقَّتْ جيُوبٌ عليك ، ولُطِّمت فيك الخدودُ

* * *

وذكر أبو عمر بن عبد البر فى كتاب " الاستيعاب " فى باب بُسْر بن أرطاة قال [1] :

كان بُسْر من الأبطال الطغاة ، وكان مع معاوية بصفّين ، فأمره أن يلقى عليًّا عليه السلام فى القتال ، وقال له : إنى سمعتك تتمنّى لقاءه ، فلو أظفرك الله به وصرعْتَه حصَّلْتَ على الدنيا والآخرة [2] ، ولم يزل يشجّعه ويمنّيه حتى رأى عليا فى الحرب ، فقصده ، والتقيا فصرعه علىّ عليه السلام ، [3] وعرض له معه مثل ما عرض له مع عمرو ابن العاص فى كشف السوأة [3] .

قال أبو عمر : وذكر ابن الكلبى فى كتابه فى أخبار صفّين ، أن بُسْر بن أرطاة بارَز عليًّا يوم صفّين ، فطعنه علىّ عليه السلام فصرَعه ، فانكشف له ، فكفّ عنه ، كما عرض له مثل [4] ذلك مع عمرو بن العاص .

قال : وللشعراء فيهما أشعار مذكورة فى موضعها من ذلك الكتاب ؛ منها فيما ذكر ابن الكلبى والمدائنىّ قول الحارث بن نصر الخثعمى [5] — وكان عدوًّا لعمرو بن العاص وبُسْر بن أرطاة :

أفى كلِّ يوم فارسٌ لك ينتهى وعورته وسْطَ العجاجة باديهْ
يكفُّ لها عنه علىٌّ سِنانه ويَضحك منها فى الخلاء معاويهْ

(١) الاستيعاب ١٦٤ وما بعدها .
(٢) الاستيعاب : « دنيا وآخرة » .
(٣ — ٣) الاستيعاب : « وعرض على كرم الله وجهه مثل ما عرض فيما ذكر مع عمرو بن العاص » .
(٤) الاستيعاب : « فيما ذكر » .
(٥) الاستيعاب : « السهمى » .

بدَتْ أمسِ من عمرو فقنّع رأسه　　وعورة بُسْر مثلها حذو حاذيهْ

فقولا لعمرو ثم بُسْرٍ : ألاَ انظُرَا　　لنفسِكما : لاتَلْقَيَا الليثَ ثانيهْ

ولا تحمدا إلا الحيا وخصاكما　　هما كانتا والله للنفس واقيهْ

ولولاهما لم تنجُوَا من سنانه　　وتلك بما فيها إلى العَوْد ناهيهْ

متى تلقيا الخيل المغيرة صُبْحَةً　　وفيها علىٌّ فاترُكا الخيلَ ناحيهْ

وكُونا بعيداً حيث لايبلغ القنا　　نُحورَكما ، إنّ التجاربَ كافيهْ

• • •

وروى الواقدىّ قال : قال معاوية يوما بعد استقرار الخلافة له لعمرو بن العاص : ياأبا عبد الله ، لاأراك إلاويغلبُنى الضحك ! قال : بماذا ؟ قال : أذكر يوم حمل عليك أبوتراب فى صِفّين ، فأزريت نفسك فَرَقاً من شَبا سنانه ، وكشفت سوأتك له ! فقال عمرو : أنا منك أشدّ ضحكا ! إنى لأذكرُ يومَ دعاك إلى البِراز فانتفخ سَحْرُك ، وربَا لسانُك فى فمك ، وغَصِصْتَ بريقك ، وارتعدَتْ فرائصُك ، وبدا منك ما أكره ذِكْرَه لك ! فقال معاوية : لم يكن هذا كلّه ، وكيف يكون ودونى عَكّ والأشعريون ! قال : إنك لتعلم أن الذى وصفتُ دون ما أصابك ، وقد نزل ذلك بك ودونك عكّ والأشعريون ، فكيف كانت حالك لو جمعكما مأقِطُ[1] الحرب ! فقال : ياأبا عبد الله ، خُضْ بنا الهزل إلى الجِدّ ، إن الجبْن والفرار من علىّ لا عَار على أحدٍ فيهما .

• • •

(١) المأقط : موضع القتال .

[خبر إسلام عمرو بن العاص]

فأما القول فى إسلام عمرو بن العاص ، فقد ذكره محمد بن إسحاق فى كتاب " المغازى " قال :

حدثنى زيد بن أبى حبيب ، عن راشد مولى حبيب بن أبى أوس الثقفى،عن حبيب ابن أبى أوس ، قال : حدثنى عمرو بن العاص من فيه ، قال :

لما انصرفنا [مع الأحزاب][1] من الخندق،جمعتُ رجالاً من قُريش كانوا يرون رأيى، ويسمعون منى،فقلت لهم:والله إنى لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوّاً مُنكراً،وإنى قد رأيت رأياً، فما ترون فيه؟ فقالوا:ما رأيت؟ فقلت:أرى أن نلحق بالنجاشىّ،فنكون عنده،فإن ظهر محمد على قومه أقمنا عند النجاشىّ ، فأنْ نكون تحت يديه أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يدىْ محمد ، وإن ظهر قومُنا فنحن مَن قد عرفوا ، [فلن يأتنا منهم إلا خير][1] قالوا : إنّ هذا الرأىُ ، فقلت : فاجمعوا ما نُهدِى له — وكان أحبَّ [2] ما يأتيه من أرضنا الأدَم[3] — فجمعنا له أدَماً كثيراً ، ثم خرجنا حتى قدِمنا عليه ، فوالله إنا لعنده،إذ قدم عمرو بن أمية الضّمْرِىّ ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله بعثه إليه فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه.

قال : فدخل عليه،ثم خرج من عنده،فقلت لأصحابى:هذا عمرو بن أمية،لو قد دخلتُ على النجاشىّ فسألته إياه فأعطانيه ، فضربت عنقه ، فإذا فعلتُ ذلك رأتْ قريش أنى قد أجزأت[4] عنها حين قتلت رسول محمد، قال : فدخلتُ عليه فسجدت له فقال:مرحباً بصديق

(١) من سيرة ابن هشام
(٢) السيرة : « ما يهدى إليه » .
(٣) الأدم : الجلود ، جمع أديم .
(٤) أجزأت عنها : قمت مقامها .

أهديتَ إليّ من بلادك شيئاً؟ قلت : نعم أيها الملك ، قد أهديت لك أدَماً كثيراً ، ثم قرّبته إليه ، فأعجبه واشتهاه ، ثم قلت له : أيها الملك ، إني قد رأيت رجلا خرج من عندك ، وهو رسول رجل عدوّ لنا فأعطنيه لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا .

فغضب الملك ، ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره ، فلو انشقّت لي الأرض لدخلتُ فيها فرَقاً منه ، ثم قلت : أيها الملك ، والله لو ظننتُ أنك تكره هذا ما سألتكه ، فقال : أتسألني أن أعطيك رسولَ رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله ؟ فقلت : أيها الملك ، أكذلك هو ؟ فقال : إي والله ! أطعني ويحك واتبعه ، فإنه والله لعلى حقّ ، وليظهرنّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده ، قلت فبايعني له على الإسلام ، فبسط يده ، فبايعتُه على الإسلام ، وخرجتُ عامداً لرسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما قدمت المدينة جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد أسلم خالد ابن الوليد ، وقد كان صحبني في الطريق إليه ، فقلت : يا رسول الله ، أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي ، ولم أذكر ما تأخر ، فقال : «بايع يا عمرو ، فإن الإسلام يجبّ ما قبله ، وإن الهجرة تجبّ ما قبلها» ، فبايعته وأسلمت [1] .

وذكر أبو عمر في " الاستيعاب " : أنّ إسلامه كان سنة ثمان ، وأنه قدم وخالد ابن الوليد وعثمان بن طلحة المدينة ، فلما رآهم رسول الله قال : «رمتكم مكة بأفلاذ كبدها» . قال : وقد قيل إنه أسلم بين الحديبية وخيبر ، والقول الأول أصح [2] .

[بعث رسول الله عمرا إلى ذات السلاسل]

قال أبو عمر : وبعث رسولُ الله عمراً إلى ذات السّلاسل من بلاد قُضاعة في ثلثمائة ، وكانت أمّ العاص بن وائل من بَلِيّ ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله عمراً إلى أرض بلِيّ

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٣١٧ (مطبعة حجازي) . (٢) الاستيعاب ١١٨٥ وما بعدها .

وعُذْرة ، يتألفهم بذلك ويدعوهم إلى الإسلام، فسارَ حتى إذا كان على ماء أرض جُذام ، يقال له: السلاسل ـ وقد سمِّيت تلك الغزاة ذات السَّلاسل ـ خاف، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يستنجدُ ، فأمدَّه بجيش فيه مائتا فارس ، فيه أهلُ الشرف والسوابق من المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر، وأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، فلما قدِموا على عمرو ، قال عمرو : أنا أميرُكم وإنما أنتم مددى ، فقال أبو عبيدة : بل أنا أمير مَن معى وأنت أمير من معك ، فأبى عمرو ذلك ، فقال أبو عبيدة : إن رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إلىّ فقال : إذا قدمت إلى عمرو فتطاوعا ولا تختلفا ، فإن خالفتنى أطعتك ، قال عمرو : فإنى أخالفك ، فسلَّم إليه أبو عبيدة، وصلى خلفه فى الجيش كله ، وكان أميرا عليهم، وكانوا خمسمائة .

* * *

[ولايات عمرو فى عهد الرسول والخلفاء]

قال أبو عمر : ثم ولاه رسولُ الله صلى الله عليه وآله عُمان ، فلم يزل عليها حتى قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله، وعمل لعمر وعثمان ومعاوية ، وكان عمر بن الخطاب ولّاه بعد مَوْت يزيد بن أبى سفيان فِلَسْطين والأردنّ ، وولّى معاوية دمشق وبعلبكّ والبلقاء ، وولى سعيدَ بن عامر بن حذيم حِمْص . ثم جمع الشام كلَّها لمعاوية ، وكتب إلى عمرو ابن العاص أن يسيرَ إلى مصر ، فسار إليها فافتتحها ، فلم يزل عليها والياً حتى مات عمر فأمَّره عثمان عليها أربع سنين ونحوها ، ثم عزله عنها وولاها عبد الله بن سعد العامرىّ .

قال أبو عمر : ثم إن عمرو بن العاص ادّعى على أهل الإسكندرية أنهم قد نقضوا العهد الذى كان عاهدهم ، فعمد إليها، فحرب أهلها وافتتحها ، وقتل المقاتلة وسَبى الذرّية ، فنقم ذلك عليه عثمان ، ولم يصح عنده نقضُهم العهدَ ، فأمر بردّ السَّبى الذى سُبوا من القُرى إلى مواضعهم ، وعزل عمرا عن مصر ، وولى عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح العامرىّ

مصر بذلك؛ فكان ذلك بدوّ الشر بين عمرو بن العاص وعثمان بن عفّان، فلما بدابينهما من الشرّ ما بدا، اعتزل عمرو فى ناحية فلسطين بأهله، وكان يأتى المدينة أحيانا، فلما استقرّ الأمر لمعاوية بالشام، بعثه إلى مصر بعد تحكيم الحكمين فافتتحها، فلم يزل بها إلى أن مات أميرا عليها، فى سنة ثلاث وأربعين، وقيل سنة ثنتين وأربعين، وقيل سنة ثمان وأربعين، وقيل سنة إحدى وخمسين.

قال أبو عمر: والصحيح أنه مات فى سنة ثلاث وأربعين، ومات يوم عيد الفطر من هذه السنة وعمره تسعون سنة، ودفن بالمقطّم من ناحية السّفح، وصلّى عليه ابنه عبدالله، ثم رجع فصلّى بالناس صلاةَ العيد، فولاه معاوية مكانه، ثم عزله وولى مكانه أخاه عُتْبة ابن أبى سفيان.

قال أبو عمر: وكان عمرو بن العاص من فُرسان قريش وأبطالهم فى الجاهلية، مذكوراً فيهم بذلك، وكان شاعرا حسن الشعر، وأحد الدهاة المتقدمين فى الرأى والذكاء، وكان عمر بن الخطاب إذا استضعف رجلا فى رأيه وعقله، قال: أشهد أنّ خالقك وخالق عمرو واحد؛ يريد خالق الأضداد[1].

* * *

[نُبذ من كلام عمرو بن العاص]

ونقلت أنا من كتب متفرقة كلمات حِكَمية تُنسب إلى عمرو بن العاص، استحسنتُها وأوردتها، لأنى لا أجحد لفاضل فضله، وإن كان دينُه عندى غيرَ مرضىّ.

فمن كلامه: ثلاث لا أملّهنّ: جليسى ما فهِم عنى، وثوبى ما سترنى، ودابتى ما حملتْ رَحْلى.

(١) انظر أخبار عمرو بن العاص فى الاستيعاب ص ١١٨٤ وما بعدها.

وقال لعبد الله بن عباس بصفّين : إن هذا الأمرَ الذى نحن وأنتم (١) فيه ،ليس بأوّل أمر قاده البلاء ، وقد بلغ الأمر منّا ومنكم ماترى ، وما أبقت لنا هـذه الحرب حياء ولا صبرا ، ولسنا نقول : ليت الحرب عادت ؟ ولكنا (١) نقول : ليتها لم تكن كانت ! فافصل فيما بقىَ بغير ما مضى ، فإنّك رأسُ هذا الأمر بعد علىّ ، وإنما هو آمر مطاع ، ومأمور مطيع ، ومبارز مأمون ، وأنت هو .

ولمّا نصب معاوية قميصَ عثمان على المنبر ، وبكى أهل الشام حوله ، قال : قد هممتُ أن أدعَه على المنبر ، فقال له عمرو : إنه ليس بقميص يوسف ، إنه إن طال نظرهم إليه ، وبحثوا عن السبب وقفوا على مالا تحبّ أن يقفوا عليه ، ولكن اذْعهم بالنظر إليه فى الأوقات .

وقال : ماوضعت سرّى عند أحد فأفشاه فلُمْتُه ، لأنى أحقّ باللوم منه إذ كنتُ أضيقَ به صدرا منه .

وقال : ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشرّ، لكن العاقل من يعرف خير الشرّين .

وقال عمر بن الخطاب لجلسائه يوما وعمرو فيهم : ما أحسنُ الأشياء ؟ فقال كلٌّ منهم ماعنده ؟ فقال : ماتقول أنت ياعمرو ؟ فقال :

* الغمراتُ ثمّ ينجلينا (٢) *

وقال لعائشة : لوددت أنك قُتلتِ يوم الجمل ، فقالت : ولِمَ لاأبالك ؟! قال : كنت تموتين بأجلك ، وتدخلين الجنة ، ونجعلك أكبرَ التشنيع على علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

وقال لبنيه : يابَنِىّ ، اطلبوا العلم ، فإن استغنيتم كان جَمالا ، وإن افتقرتم كان مالا .

ومن كلامه : أميرٌ عادل خيرٌ من مطر وابل ، وأسدٌ حطوم خير من سلطان ظلوم ، وسلطان ظلوم خير من فتنة تدوم ، وزلة الرّجل عَظمٌ يُجبَر ، وزلّة اللسان لاتُبقى ولاتَذَر . واستراح مَنْ لاعقل له .

(١ــ١) ساقط من ب ، ج ، وأثبته من ا .

(٢) البيت من رجز للأغلب العجلى ؛ جمهرة الأمثال ١٥٠

وكتب إليه عمر يسأله عن البحر ، فكتب إليه : خَلْق عظيم يركبه خَلْق ضعيف . دُود على عود ، بين غرق ونَزَق .

وقال لعثمان وهو يخطب على المنبر : ياعثمان ، إنّك قد ركبتَ بهذه الأمة نهاية من الأمر ، وزغت فزاغوا ، فاعتدِل أو اعتزِل .

ومن كلامه : استوحِش من الكريم الجائع ، ومن اللئيم الشبعان ؛ فإنّ الكريم يصول إذا جاع ، واللئيم يصول إذا شبع .

وقال : جُمع العجز إلى التوانى فنتج بينهما الندامة ، وجُمع الجبن إلى الكسل فنتجَ بينهما الحرمان .

• • •

وروى عبدالله بن عباس ، قال : دخلتُ على عمرو بن العاص وقد احتُضِر، فقلت : ياأبا عبدالله؛ كنت تقول : أشتهى أنّى أرى عاقلا يموت حتى أسأله كيف تجد، فماذا تجد ؟ قال: أجد السماء كأنها مطبقة على الأرض وأنا بينهما ، وأرانى كأنما أتنفس من خرق إبرة ، ثم قال: اللهم خُذْ منى حتى ترضَى ، ثم رفع يده ،فقال :اللهم أمرتَ فعصينا، ونهيت فركبنا؛ فلا برىء فأعتذر ، ولا قوىّ فأنتصر ، ولكن لا إله إلا الله ؛ فجعل يرددها حتى فاض.

وقد روى أبو عمر بن عبدالبرّ هذا الخبر فى كتاب " الاستيعاب " ،قال: لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة ، قال: اللهمّ أمرتَنى فلم أئتمر، وزجرتَنى فلم أنزجر. ووضع يده فى موضع الغلّ ، ثم قال : اللهمّ لاقوِىٌّ فأنتصر ؛ ولا برىء فأعتذر، ولا مستكبرٌ بل مستغفر ،لا إله إلا أنت ؛ فلم يزل يرددها حتى مات .

قال أبو عمر : وحدثنى خلف بن قاسم ، قال : حدثنى الحسن بن رشيق ، قال : حدثنا الطحاوىّ ، قال : حدثنا المُزنىّ ، قال : سمعت الشافعىّ يقول : دخل ابنُ عباس على عمرو ابن العاص فى مرضه ، فسلّم عليه ، فقال : كيف أصبحت ياأبا عبد الله ؟ قال : أصبحتُ وقد أصلحت من دنياى قليلا ، وأفسدتُ من دينى كثيرا ؛ فلو كان الذى أصلحتُ هو الذى

أفسدت ، والذى أفسدت هو الذى أصلحت ، لَفُزت . ولو كان ينفعنى أن أطلبَ طلبتُ ، ولو كان ينجينى أن أهرُب ، هربت فقد صرت كالمنخنق بين السماء والأرض ، لا أرقى بيدين ، ولا أهبط برجلين ، فعظنى بعظةٍ أنتفع بها يابن أخى ، فقال ابن عباس : هيهات أبا عبد الله ، صار ابنُ أخيك أخاك ، ولا تشاء أن تَبكِىَ إلا بَكيت[1] ، كيف يؤمر برحيلٍ من هو مقيم ! فقال عمرو على حينها : من حين ابن بضعٍ وثمانين تُقَنِّطنى من رحمة ربى ، اللهمّ إنّ ابن عباس يُقنطنى من رحمتك ، فخذمنّى حتى ترضى ؛ فقال ابن عباس : هيهات أبا عبد الله ! أخذتَ جديدا وتُعطى خَلَقا ؛ قال عمرو : مالى ولك يابن عباس ! ما أرسل كلمة إلا أرسلتَ نقيضها[2] .

***

وروى أبو عمر فى كتاب " الاستيعاب " أيضا عن رجال قد ذكرهم وعدّدهم أنّ عمْراً لمّا حضرته الوفاة ، قال له ابنه عبد الله وقد رآه يبكى : لِمَ تبكى ؟ أجَزَعًا من الموت ؟ قال : لا والله ، ولكن لما بعده فقال له : لقد كنت على خير ، فجعل يُذَكِّرُهُ صحبةَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفتوحه بالشام ، فقال له عمرو : تركتَ أفضل من ذلك شهادةَ أن لا إله إلا الله ، إنى كنتُ على ثلاثة أطباق ، ليس منها طبَق إلا عرفتُ نفسى فيه ، كنت أولَ أمرى كافرا ، فكنت أشدَّ الناس على رسول الله صلى الله عليه ، فلو مِتّ حينئذ وجبتْ لى النار ، فلما بايعت رسول الله صلى الله عليه ، كنت أشدّ الناس حياء منه ، فما ملأتُ منه عينى قطّ ، فلو متّ يومئذ قال الناس : هنيئا لعمرو ! أسلم وكان على خير ، ومات على خير أحواله ، فيرجى له الجنة ؛ ثم تلبّثْتُ بعد ذلك بالسلطان وبأشياء ، فلا أدرى

(١) الاستيعاب : « أن تبكى إلا بكيت » .
(٢) الاستيعاب ١١٨٦ .

أهلِيّ أم لي ؟ فإذا مت فلا تبكينّ عليّ باكية ، ولا يتبعني مائح ، ولا تقربوا من قبري نارا ، وشُدّوا عليّ إزاري ، فإني مخاصَم ، وشنوا عليّ التراب شنًّا ؛ فإنّ جنبي الأيمن ليس بأحقّ من جنبي الأيسر ، ولا تجعلوا في قبري خشبة ولا حجرا ، وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قَدْرَ نحر جزور وتقطيعها ؛ أستأنس بكم[1]

* * *

فإن قلت : فما الذي يقوله أصحابك المعتزلة في عمرو بن العاص ؟ قلت : إنهم يحكمون على كلّ من شهد صِفّين ، بما يحكم به على الباغي الخارج على الإمام العادل ، ومذهبهم في صاحب الكبيرة إذا لم يتب معلوم .

فإن قلت : أليس في هذه الأخبار ما يدل على توبته ؛ نحو قوله : « ولا مستكبر بل مستغفر » وقوله : « اللهمّ خذمني حتى ترضى » وقوله : « أمرت فعصيت ، ونهيت فركبت » . وهذا اعتراف وندَم ، وهو معنى التوبة ؟ قلت : إن قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾[2] يمنع من كون هذا توبة ، وشروط التوبة وأركانها معلومة ، وليس هذا الاعتراف والتأسف منها في شيء .

وقال شيخُنا أبو عبد الله : أوّلُ مَنْ قال بالإرجاء المحض معاوية وعمرو بن العاص ، كانا يزعُمان أنه لا يضرُّ مع الإيمان معصية ، ولذلك قال معاوية لمن قال له : حاربتَ من تعلَم ، وارتكبتَ ما تعلم ، فقال : وثقتُ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾[3] .

---

(١) الاستيعاب ١١٩٠ .
(٢) سورة النساء ١٨ .
(٣) سورة الزمر ٥٣ .

وإلى هذا المعنى أشار عمرو بقوله لابنه : تركتَ أفضلَ من ذلك ؛ شهادة أن لا إله إلا الله .

* * *

[فصل في شرح ما نسب إلى عليّ من الدعابة]

فأما ما كان يقوله عمرو بن العاص في عليّ عليه السلام لأهل الشام : « إن فيه دُعابة » ، يروم أن يعيبه بذلك عندهم ؛ فأصل ذلك كلمة قالها عمر فتلقفها ، حتى جعلها أعداؤه عيبا له وطعنا عليه

قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب في كتاب " الأمالي " :

كان عبدالله بن عباس عند عمر ، فتنفّس عمر نَفَساً عاليا ، قال ابن عباس : حتى ظننت أن أضلاعه قد انفرجتْ ، فقلت له : ما أخرج هذا النَّفَس منك يا أمير المؤمنين إلا همٌّ شديدٌ . قال : إي والله يا بن عباس ، إني فكرت فلم أدر فيمن أجعلُ هذا الأمر بعدي . ثم قال : لعلك ترى صاحبَك لها أهلا ؟ قلتُ : وما يمنعه من ذلك مع جهاده وسابقته وقرابته وعلمه ! قال : صدقتَ ، ولكنه امرؤ فيه دُعابة ! قلت : فأين أنت من طلحة ؟ قال : هو ذو البأْو [1] بإصبعه المقطوعة . قلت : فعبد الرحمن ؟ قال : رجل ضعيف لو صار الأمر إليه لوضع خاتَمه في يد امرأته . قلت : فالزبير ؟ قال شَكِس لَقِس [2] ، يلاطم في البقيع في صاعٍ من بُرّ . قلت : فسعد بن أبي وقاص ؟ قال : صاحب مِقْنَب [3] وسلاح . قلت : فعثمان ، قال : أوّه أوّه ؛ مرارا . ثم قال : والله لئِنْ وليها ليحملنّ بني أبي مُعَيط على رقاب الناس ، ثم لتنهضنّ إليه العرب فتقتله . ثم قال : يا بن عباس ، إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا حصيف العُقْدة ، قليل الغِرّة ، لا تأخذه في الله لومة لائم ؛ يكون شديدا من غير عُنف ، ليّنا من

---

(١) البأو : الكبر والفخر ؛ وفي اللسان : روى الفقهاء : « في طلحة بأواء » .

(٢) الشكس : الصعب الخلق ، واللقس الضيق .

(٣) المقنب : جماعة الخيل .

غير ضعف ، جوادا من غير سَرَف ، ممسكا من غير وَكْف(1) . قال ابن عباس : وكانت هذه صفات عمر ، ثم أقبل عليّ فقال : إن أحرَاهم أن يحملهم على كتاب ربهم وسنّة نبيهم لصاحبُك ، والله لئن وليها ليحملنّهم على المحجّة البيضاء والصراط المستقيم .

* * *

واعلم أن الرجل ذا الخلق المخصوص لا يرى الفضيلةَ إلا في ذلك الخلق ، ألا ترى أنّ الرجل يبخلُ فيعتقد أنّ الفضيلةَ في الإمساك والبخيل يعيب أهلَ السّماح والجود، وينسبهم إلى التبذير وإضاعة الحزم ، وكذلك الرجل الجواد يعيب البخلاء وينسبهم إلى ضيق النّفس وسوء الظنّ وحب المال ، والجبان يعتقد أن الفضيلة في الجبن ويعيب الشجاعة ويعتقد كونها خرقا وتغريرا بالنفس ، كما قال المتنبي :

* يرى الجبناء أنّ الجبنَ حزمٌ (2) *

والشجاع يعيب الجبانَ وينسُبه إلى الضعف ، ويعتقد أنّ الجبن ذلّ ومهانة ؛ وهكذا القول في جميع الأخلاق والسجايا المقتسمة بين نوع الإنسان . ولمّا كان عمر شديد الغِلْظة وعْر الجانب ، خشِن الملمس دائم العبوس ، كان يعتقد أنّ ذلك هو الفضيلة وأن خلافه نقص ، ولو كان سهلا طلْقا مطبوعا على البشاشة وسماحة الخُلق ، لكان يعتقد أنّ ذاك هو الفضيلة وأن خلافه نقص ، حتى لو قدّرنا أن خُلقَه حاصل لعليّ عليه السلام ، وخُلق عليّ حاصل له ، لقال في عليّ : « لولا شراسة فيه » .

فهو غير ملوم عندي فيما قاله ، ولا منسوب إلى أنه أراد الغضّ من عليّ ، والقدح

---

(1) الوكف : العيب .

(2) ديوانه ٢٣٩ وبقيته :

* وتلكَ خديعةُ الطَّبعِ اللّئيمِ *

فيه ، ولكنّه أخبر عن خُلُقه، فدلّ أن الخلافة لا تصلح إلا لشديد الشكيمة ، العظيم الوعورة . وبمقتضى ما كان بطنّه من هذا المعنى ، تمّم خلافة أبي بكر بمشاركته إياه في جميع تدابيراته وسياسته وسائر أحواله ، لرفقٍ وسهولة كانت في أخلاق أبي بكر ، وبمقتضى هذا الخلُقِ المتمكّن عنده ، كان يشير على رسول الله صلى الله عليه وآله في مقامات كثيرة ، وخطوب متعددة ، بقتل قوم كان يرى قتلهم ، وكان النبيّ صلّى الله عليه وآله يرَى استبقاءهم واستصلاحهم ، فلم يقبلْ عليه السلام مشورتَه على هذا الخُلق .

وأما إشارته عليه يوم بدر بقتل الأسرى حيث أشار أبو بكر بالفداء ، فكان الصواب مع عمر ونزل القرآن بموافقته ، فلما كان في اليوم الثاني وهو يوم الحديبيّة أشار بالحرب ، وكره الصلح ، فنزل القرآن بضدّ ذلك ، فليس كلّ وقت يصلح تجريد السيف ، ولا كلّ وقت يصلح إغماده ، والسياسة لا تجري على منهاج واحد ولا تلزم نظاما واحدا .

وجملة الأمر أنه رضي الله عنه لم يقصدْ عيبَ عليّ عليه السلام ، ولا كان عنده معيباً ، ولا منقوصاً ؛ ألا ترى أنه قال في آخر الخبر : « إنَّ أحْرَاهم إن وَلِيَها أن يحملهم على كتاب الله وسنّة رسوله لصاحبُك » ، ثم أكّد ذلك بأن قال : « إن وَلِيَهم ليحملنّهم على المحجّة[1] البيضاء والصراط المستقيم » ، فلو كان أطلَق تلك اللفظة ، وعَنَى بها ما حملها عليه الخصوم ، لم يقل في خاتمة كلامه ما قاله .

وأنت إذا تأمّلت حالَ عليّ عليه السلام في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجدتَه بعيداً عن أن يُنسبَ إلى الدُّعابة والمُزاح ، لأنه لم يُنقل عنه شيء من ذلك أصلاً ، لا في كتب الشيعة ولا في كتب المحدّثين ، وكذلك إذا تأمّلت حالَه[2] في أيام الخليفتين أبي بكر وعمر ، لم تجدْ في كتب السيرة حديثا واحدا يمكن أن يتعلّق به متعلّق في دُعابته ومُزاحه ، فكيف يظنّ

---

(١) المحجة : الطريق ؛ والطريق تذكر وتؤنث . (٢) ج : « حالته » .

بعمر أنه نسَبه إلى أمر لم ينقله عنه ناقل ، ولا ندّد به صديق ولا عدوّ ؛ وإنما أراد سهولة خُلُقه لا غيْر ، وظنّ أن ذلك مما يُفْضي به إلى ضعف إنْ وليَ أمر الأمّة ، لاعتقاده أنّ قِوام هذا الأمر إنما هو بالوعورة ، بناء على ما قد ألفته نفسه ، وطبعتْ عليه سجيّتهُ ، والحال في أيام عثمان ، وأيام ولايته عليه السلام الأمرَ كالحال فيما تقدم ، في أنه لم يظهر منه دُعابة ، ولا مُزاح يسمّى الإنسان لأجله ذا دُعابة ولعب . ومن تأمّل كتب السِّيَر عرف صدْق هذا القول ، وعرف أن عمرو بن العاص أخذ كلمة عمر إذ لم يقصِدْ بها العيب فجعلها عيباً ، وزاد عليها أنه كثيرُ اللعب ، يعافس النساء ويمارسهنّ ، وأنه صاحب هزْل .

ولعمر الله لقد كان أبعدَ الناس من ذلك ، وأيّ وقت كان يتّسع لعليّ عليه السلام حتى يكون فيه على هذه الصفات ؟ فإن أزمانه كلّها في العبادة والصلاة ، والذكر والفتاوى والعلم ، واختلاف الناس إليه في الأحكام وتفسير القرآن ، ونهاره كلّه أو معظمه مشغول بالصوْم ، وليله كله أو معظمه مشغول بالصلاة ، هذا في أيام سِلْمه ، فأما أيام حربه فبالسيف الشهير ، والسِّنان الطرير[1] ، وركوب الخيل ، وقوْد الجيش ، ومباشرة الحروب .

ولقد صدق عليه السلام في قوله : « إني ليمنعني من اللعب ذكرُ الموت » ، ولكنّ الرجل الشريف النبيل ، الذي لا يستطيع أعداؤه أن يذكروا له عيباً أو يَعُدّوا عليه وَصْمة ، لا بدّ أن يحتالوا ويبذلوا جهدهم في تحصيل أمرٍ ما وإن ضعف ، يجعلونه عذراً لأنفسهم في ذمّه ، ويتوسّلون به إلى أتباعهم في تحسينهم لهم مفارقته ، والانحراف عنه ، وما زال المشركون والمنافقون يصنعون لرسول الله صلى الله عليه وآله الموضوعات ، ينسبون إليه ما قد برّأه الله عنه من العيوب والمطاعن ، في حياته وبعد وفاته إلى زماننا هذا ، وما يزيده الله سبحانه إلا رفعة وعلوًّا ، فغيرُ منكَر أن يعيب عليًّا عليه السلام عمرو بن العاص وأمثاله من أعدائه ، بما إذا تأمله المتأمل ، علم أنهم باعتمادهم عليه وتعلّقهم به ، قد اجتهدوا

---

(١) سنان طرير : أي محدد .

فى مدحه والثناء عليه ، لأنهم لو وجدوا عيباً غير ذلك لذكروه ، ولو بالغ أمير المؤمنين وبذل جهده فى أن يُثْنىَ أعداؤه وشانئوه عليه من حيث لا يعلمون ، لم يستطع إلى أن يجد إلى ذلك طريقاً ألطفَ من هذه الطريق التى أسلكهم الله تعالى فيها ، وهداهم إلى منهاجها ، فظنُّوا أنهم يغضون منه ! وإنما أعلوا شأنه ، ويضعون من قدره ، وإنما رفعوا منزلته ومكانه .

* * *

[أقوال وحكايات فى المزاح]

ونحن نذكر من بعد ، ما جاء فى الأحاديث الصحاح والآثار المستفيضة ، المتفق على نقلها مزاحَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومزاح الأشراف والأفاضل والأكابر من أصحابه والتابعين له ، ليُعلم أن المزاح إذا لم يخرج عن القاعدة الشَّرعية لم يكن قبيحا .

فأول ذلك مارواه الناس قاطبة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « إنى أمزح ، ولا أقول إلا حقًّا » .

وقيل لسفيان الثورى : المزاح هُجْنة ؟ فقال : بل هو سنة ، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنى أمزح ولا أقول إلا الحق » .

وجاء فى الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لامرأة من الأنصار : « الحقى زوجك فإنّ فى عينه بياضا » ، فسعتْ نحوه مرعوبة ، فقال لها : ما دهاك ؟ فأخبرته ، فقال : نعمْ إنّ فى عينى بياضاً لا لسوء ، ضعمّى عليك . فهذا من مُزاح رسول الله صلى الله عليه وآله .

وأتت عجوز من الأنصار إليه عليه السلام ، فسألته أن يدعوا الله تعالى لها بالجنة ، فقال : « إن الجنة لاتدخلها العجُز » فصاحت ، فتبسم عليه السلام ، فقال : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا[1] ﴾ .

---

(١) سورة الواقعة ٣٥

وفى الخبر أيضا : أن امرأة استحملته ، فقال : « إنا حاملوك إن شاء الله تعالى على ولد الناقة » ، فجعلت تقول : يارسول الله : وما أصنع بولد الناقة ؟ وهل يستطيع أن يحملنى ! وهو يبتسم ويقول : « لأحملك إلا عليه » ، حتى قال لها أخيرا : « وهل يلد الإبل إلا النوق » !

وفى الخبر أنه عليه السلام مَرّ ببلال وهو نائم فضربه برجله ، وقال : أنائمة أم عمرو ؟ فقام بلال مرعوباً ، فضرب بيده إلى مذاكيره ، فقال له : مالك ؟ قال : ظننت أنى تحولت امرأة . قيل : فلم يمزح رسول الله بعد هذه .

وفى الخبر أيضا أن نُغَرا [1] كان لصبىّ من صبيان الأنصار ، فطار من يده ، فبكى الغلام ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يمرّ به فيقول : « ياأباعمير ، مافعل النُّغَير » ؟ والغلام يبكى .

وكان يمازح ابنىْ بنته مُزاحاً مشهوراً ، وكان يأخذ الحسين عليه السلام ، فيحمله على عاتقه ، وهو عليه السلام نائم على ظهره ويقول له : حُزُقَّة حُزُقَّة ، تَرَقّ عين بقّة [2] .

وفى الحديث الصحيح المتفق عليه : أنه مرّ على أصحاب الدِّرَكلة وهم يلعبون ويرقصون ، فقال : جدّوا يابنى أرْفِدَة ، حتى يعلم اليهود والنصارى أن فى ديننا فُسحة .

قال أهل اللغة : الدِّرَكلة ، بكسر الدال والكاف : لعبة للحبش فيها ترقص . وبنو أرْفِدَة : جنس من الحبش يرقصون .

وجاء فى الخبر أنه سابَق عائشة فسبقته ، ثم سابقها فسبقها فقال : هذه بتلك .

وفى الخبر أيضا أن أصحاب الزفانة وهم الراقصون ، كانوا يقمعون [3] باب حجرة عائشة ، فتخرج إليهم مستمعة ومبصرة ، فيخرج هو عليه السلام من ورائها مستترا بها .

وكان نعيمان [4] ، وهو من أهل بدر ، أولَع الناس بالمُزاح عند رسول الله صلى الله عليه

---

(١) النغر : صغار العصافير . وانظر اللسان .

(٢) الحزقة : الضعيف الذى يقارب خطوه من ضعف . وعين بقة كناية عن صغر العين . وانظر اللسان ١١ : ٣٣٠

(٣) يقمعون : يضربون (٤) هو نعيمان بن عمرو بن رفاعة بن الحارث ؛ كذا نسبه وترجم له وذكر طائفة من أخباره فى الإصابة ٤ : ٥٤٠

وكان يكثر الضحك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يدخل الجنة وهو يضحك » .

وخرج نُعيمان هو وسويبط بن عبد العزّى[١] وأبو بكر الصديق ، في تجارة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بعامين ، وكان سُويبط على الزاد ، فكان نُعيمان يستطعمه فيقول : حتى يجيء أبو بكر ، فمرّ بركب من نجران ، فباعه نُعيمان منهم على أنه عبدٌ له بعشر قلائص ، وقال لهم : إنه ذو لسان ولهجة ، وعساه يقول لكم : أنا حرّ ؛ فقالوا : لا عليك . وجاءوا إليه فوضعوا عمامته في عنقه ، وذهبوا به ، فلما جاء أبو بكر أُخبر بذلك ، فرده وأعاد القلائص إليهم . فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه من ذلك سنة[٢] .

وروى أن أعرابياً باع نُعيمانَ عكّة[٣] عسل ، فاشتراها منه ، فجاء بها إلى بيت عائشة في يومها وقال : خذوها ، فظنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أنه أهداها إليه ، ومضى نُعيمان ، فنزل الأعرابيّ على الباب ، فلما طال قعوده نادى : ياهؤلاء ، إما أن تعطوا ثمن العسل أو تردّوه علينا ، فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله بالقصة ، وأعطى الأعرابيّ الثمن ، وقال لنُعيمان : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : رأيتُك يارسولَ الله ؛ تحبّ العسل ، ورأيت العُكّة مع الأعرابيّ . فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله ولم ينكر عليه .

وسئل النَّخَعيّ : هل كان أصحاب رسول الله يضحكون ويمزحون ؟ فقال : نعم والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي .

وجاء في الخبر أن يحيى عليه السلام لقي عيسى عليه السلام ، وعيسى متبسّم ، فقال يحيى عليه السلام : مالي أراك لاهياً كأنك آمن ! فقال عليه السلام : مالي أراك عابساً

---

(١) في الإصابة ٢ : ٩٦ ، ٩٧ : « سويبط بن حرملة ، قال : ذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق وعروة فيمن هاجر إلى الحبشة » (٢) الخبر في الإصابة ٢ : ٩٧ .
(٣) العكة : زق السمن أو العسل .

كأنك آيس ؟ فقالا : لا نبرح حتى ينزل علينا الوحي، فأوحى الله إليهما: أحبُّكما إليَّ الطلْقُ البسّام ، أحسنُكما ظنًّا بي .

وروي عن كبراء الصحابة رضي الله تعالى عنهم أنهم كانوا يتمازحون ويتناشدون الأشعار ، فإذا خاضوا في الدين ، انقلبت حاليقهم ، وصاروا في صور أخرى .

وروي أن عبدالله بن عمر قال لجاريته : خلقني خالق الخير ، وخلقك خالق الشر . فبكت ، فقال : لا عليك ، فإن الله تعالى هو خالق الخير وهو خالق الشر .

قلت : يعني بالشرّ المرض والغلاء ونحوهما .

وكان ابن سيرين ينشد :

نُبِّئْتُ أن فتـاة كنتُ أخطبُها عُرقوبها مثلُ شهر الصوم في الطول[1]

ثم يضحك حتى يسيل لعابه .

وجاء عبد الرحمن بن عوف إلى باب عمر بن الخطاب ، فوجده مستلقيا على مرفقة له ، رافعاً إحدى رجليه على الأخرى ، منشداً بصوت عال :

وكيف ثَوائي بالمدينـة بعـدما قَضَى وطراً منها جميلُ بن معمرا

فلما دخل عبد الرحمن وجلس ، قال : يا أبا محمد ، إنّا إذا خلونا قلنا كما يقول الناس .

وكان سعيد بن المسيِّب ينشد :

لقد أصبحتْ عِرْسُ الفرزدق جامحاً ولو رضيت رمح استه لاستقرّتِ[2]

ويضحك حتى يستغرق .

وكان يقال : لا بأس بقليل المُزاح يخرج منه الرجل عن حدّ العبوس .

---

(١) زهر الآداب ١٦٥ ، من غير نسبة .
(٢) لجرير ، ديوانه ٨٨

ومن كلام بعض الأدباء : ونحن نحمد الله إليك، فإن عُقدة الإسلام فى قلوبنا صحيحة، وأواخيه عندنا ثابتة ، وقد اجتهد قوم أن يدخلوا قلوبنا من مرض قلوبهم ، وأن يَشُوبوا يقيننا بشكّهم ، فعَصم الله منهم ، وحال توفيقه دونهم ، ولنابعدُ مذهب فى الدُّعابة جميل، لا يشوبه أذى ولا قذًى ، يخرج بنا إلى الأنس من العُبوس ، وإلى الاسترسال من القُطوب ، ويلحقنا بأحرار الناس الذين ارتفعوا عن لُبسة الرياء ، وأنفوا من التشوّف بالتصنّع .

وقال ابن جُرَيج : سألت عطاء عن القراءة على ألحان الغناء والحُداء، فقال لى: لا بأس بذلك؛ حدثنى عبيدالله بن عمر الليثىّ ، أنه كان لداود النبىّ عليه السلام مِعْزَفَة ، قد يضرب بها إذا قرأ الزبور ، فتجتمع إليه الطير والوحش، فيبكى ويُبكى مَنْ حوله .

وقال جابر بن عبدالله الجُعفى : رأيت الشَّعبىّ يقول لخياط يمازحه : عندنا حُبٌّ مكسور وأحب أن تخيطه ؛ فقال الخياط : أحضر لى خيوطاً من ريح لأخيطه لك .

وسئل الشعبىّ : هل يجوز أن يؤكل الجنّى لو ظُفر به ؟ فقال: ليتنا نخرج منه كَفافاً[١] لا لنا ولا علينا .

وسأل إنسان محمد بن سيرين عن هشام بن حسان، فقال : توفى البارحة ، أما شعرت ؟ فخرج يسترجع ، فلما رأى ابن سيرين جزعه ، قرأ : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[٢] .

وكان زيد بن ثابت من أفكه الناس فى بيته وأرفثهم، وقد أباح الله تعالى الرّفث إلى النساء ، فقال: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ

(١) الكفاف : المثل .
(٢) سورة الزمر ٤٢ .

وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾[1]. وقال أهل اللغة: الرَّفَث: القول الفاحش تخاطب به المرأة حال الجماع.

ومرّ بالشعبيّ حمّال على ظهره دَنّ خلّ، فوضع الدّنّ وقال له: ما كان اسم امرأة إبليس؟ فقال الشعبيّ: ذلك نكاح ماشهدناه.

وقال عِكرمة: ختن ابنُ عباس بنيه فأرسلني، فدعوت اللّعّابين فلعبوا، فأعطاهم أربعة دراهم.

وتقدّم رجلان إلى شُريح في خُصومة، فأقرّ أحدهما بما ادُّعِيَ عليه وهو لايدرى، فقضى شُريح عليه، فقال: أصلحك الله أتقضي عليّ بغير بينة؟ قال: بلى، شهد عندى ثقة. قال: ومَنْ هو؟ قال: ابنُ أخت خالتك.

وجاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وآله مرّ بصُهيب وهو أرمد يأكل تمراً فنهاه، فقال: إنما آكله عن جانب العين الصحيحة يارسول الله، فضحك منه ولم ينكر عليه.

وفي الخبر أنه صلى الله عليه وآله مرّ بحسان بن ثابت، وقد رشّ[2] أطامه، وعنده جارية تغنيه:

هل عليّ ويحكما إن لهوتُ من حرَجِ

فقال صلى الله عليه وآله: « لاحرَجَ إن شاء الله ».

وقيل: إن عبد الله بن جعفر قال لحسان بن ثابت في أيام معاوية: لوغنّتك فلانة جاريتي صوت كذا لم تدرك ركابك، فقال: ياأبا جعفر، ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة ١٨٧.
(٢) رش أطامه: غسلها
(٣) سورة الحج.

وقال أسلم مولى عمر بن الخطاب : مرّ بي عمر وأنا وعاصم نغنّي غناء النَّصْب[1] ، فوقف وقال : أعيدا عليّ ، فأعدنا عليه ، وقلنا : أينا أحسن صنعة ياأمير المؤمنين ؟ فقال : مَثَلُكما كحمارى العباديّ ، قيل له : أيّ حماريك شرّ ؟ فقال : هذا ثم هذا. فقلت:ياأميرَ المؤمنين ، أنا الأول من الحمارين ؟ فقال : أنت الثاني منهما .

ومرّ نعيمان وهو بَدْرِيّ بمخرمة بن نوفل في خلافة عثمان ، وقد كُفّ بصره ، فقال: ألا يقودني رجل حتّى أبول ؟ فأخذ نعيمان بيده حتى صار به إلى مؤخر المسجد ، وقال : هاهنا فَبُلْ ، فبال، فصاح به النّاس ، فقال : مَنْ قادني ؟ قيل : نعيمان ، قال : لله عليّ أن أضربَه بعصاي هذه . فبلغ نعيمان فأتاه ، فقال : بلغني أنك أقسمت لتضربنّ نعيمان فهل لك فيه ؟ قال : نعم . قال : قم ، فقام معه حتى وافَى به عثمان بن عفان وهو يصلي ،فقال : دونك الرجل ،فجمع مخرمة يديه في العصا وضربه بها ، فصاح الناس : ويلك، أمير المؤمنين! قال : من قادني ؟ قالوا : نعيمان ، قال : ومالي ولنعيمان ! لاأعرض له أبدا !

وكان طُويس يتغنّى في عُرْس ، فدخل النعمان بن بشير الأنصاري العرس وطويس يغنيهم :

أَجَدَّ بِعَمْرَةَ هجرانُها وتسخط أم شانناشانُها[2]

فأشاروا إليه بالسكوت ، فقال النعمان : دعوه إنه لم يقل بأسا ، إنما قال :

وعَمْرَةُ مِنْ سرواتِ النِّسا ء تنفحُ بالمسك أردانُها

وعَمْرة هذه أمّ النعمان ؛ وفيها قيل هذا النسيب .

وقد روى عن جماعة من الصحابة والتابعين اللعب بالنّرد والشِّطْرَنج، ومنهم من روى عنهم شربَ النبيذ وسماع الغناء المطرب .

---

(١) النصب : غناء يشبه الحداء ؛ إلا أنه أرق .
(٢) البيتان لقيس بن الخطيم ، ديوانه ٧ ، ٨

فأما أمير المؤمنين على عليه السلام ، فإذا نظرت إلى كتب الحديث والسِّيَر ، لم تجد أحداً من خَلْق الله عدوًّا ولا صديقا ، روى عنه شيئا من هذا الفن ؛ لا قولا ولا فعلا ، ولم يكن جِدٌّ أعظم من جِدِّه ، ولا وقار أتمّ من وقاره ، وما هَزَل قطّ ولا لعب ، ولا فارق الحقّ والناموس الدينيّ سرًّا ولا جهرا ؛ وكيف يكون هازلا ومن كلامه المشهور عنه : « ما مزح امرؤ مَزْحة إلا ومجّ معها من عقله مجّة » ! ولكنّه خُلِق على سَجِيّة لطيفة ، وأخلاق سهلة ، ووجه طَلْق ، وقول حَسَن ، وبِشْر ظاهر ؛ وذلك من فضائله عليه السلام ، وخصائصه التى منحه الله بشرفها ، واختصه بمزيتها ، وإنما كانت غلظته وفظاظته فعلا لا قولا ، وضربا بالسيف لا جَبْهًا بالقول ، وطعْنا بالسنان لا عَضْهًا باللسان [1] ؛ كما قال الشاعر :

وتسفَه أيدينا ويحلُمُ رأيُنا ونشتُمُ بالأفعال ، لا بالتكلّمِ

***

[نبذ وأقوال فى حسن الخلق ومدحه]

فأمّا سوء الخلق فلم يكن من سجاياه ، فقد قال النبى صلى الله عليه وآله : « خصلتان لا يجتمعان فى مؤمن : البُخْلُ وسوء الخلق » . وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [2] ، وقال أيضا : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [3] .

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وآله : ما الشؤم ؟ فقال : سوء الخلق .

وصحب جابر رجلًا فى طريق مكة ، فآذاه سوء خُلُقه ، فقال جابر : إنى لأرحمه ، نحن نفارقه ويبقى معه سوء خُلُقه !

(١) يقال : جبهت فلانا ؛ إذا خاطبته بما يكره . والعضه : الرمى بالكذب والبهتان
(٢) سورة القلم ٤
(٣) سورة آل عمران ١٥٩

وقيل لعبد الله بن جعفر : كيف تجاورُ بنى زُهرة وفى أخلاقهم زَعَارة (١) ؟ قال : لايكون لى قِبَلهم شىء إلا تركتُه ، ولا يطلبون منى شيئا إلا أعطيتهم .

وفى الحديث المرفوع أنه صلى الله عليه وآله قال : « ألا أُنبئكم بشرّ الناس » ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : « مَنْ نزل وحْده ، ومنع رِفْده ، وضرب عبده » ، ثم قال : « ألا أُنبئكم بشرّ من ذلك » ؟ قالوا : بلى ، قال : « مَنْ لم يُقِل عَثْرة ، ولا يقبل معذرة » .

وقال إبراهيم بن عباس الصولىّ : لو وزنت كلمة رسول الله صلى الله عليه وآله بمحاسن الخلق كلها لرجحت ، قوله : « إنكم لن تَسَعُوا (٢) الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم » .

وفى الخبر المرفوع : « حُسن الخلق زمام من رحمة الله فى أنف صاحبه ، والزمام بيد المَلَك ، والملك يجرُّه إلى الخير ، والخير يجرّه إلى الجنة ؛ وسوء الخلق زمام من عذاب الله فى أنف صاحبه ، والزمام بيد الشيطان ، والشيطان يجرّه إلى الشرّ ، والشرّ يجرّه إلى النار » .

وروى الحسن بن علىّ عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وآله : « إن الرّجُل يدرك بحسن خلقه دَرَجة الصائم القائم ، وإنه ليُكتب جبارا ولا يملك إلا أهلَه » .

وروى أبو موسى الأشعرىّ ، قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وآله يمشى وامرأةٌ بين يديه ، فقلت : الطريقَ لرسول الله صلى الله عليه ! فقالت : « الطريق معرِّض ؛ إن شاء أخذ يمينا وإن شاء أخذ شمالا . فقال صلى الله عليه وآله : « دعوها فإنها جبّارة (٣) » .

وقال بعض السلف : الحسَن الخلق ذو قرابة عند الأجانب ، والسّيِّئ الخلق أجنبىّ عند أهله .

ومن كلام الأحنف : ألا أخبرُكم بالمَحْمدة بلا مذمة ؟ الخلق السّجيح ، والكفّ عن القبيح . ألا أخبركم بأدوأ الداء ؟ الخلق الدنىُّ واللسان البذىُّ » .

(١) الزعارة ، وتشدد الراء : شراسة الخلق .

(٢) فى الأصول : « لن تسعوا » تصحيف ؛ ولفظ الحديث فى الجامع الصغير ١ : ١٧٥ : « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ، ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق » .

(٣) جبارة ، أى مستكبرة عاتية . وانظر النهاية ١ : ١٤٧

وفى الحديث المرفوع : « أول ما يوضع فى الميزان الخلق الحسن » .

وجاء مرفوعاً أيضاً : « المؤمن هيّن لين كالجمل الأنف[1] ؛ إن قيد انقاد ، وإن أنيخ على صخرة استناخ » .

وجاء مرفوعا أيضا : « ألا أخبركم بأحبكم إلىّ وأقربكم منّى مجالس يوم القيامة ؟ أحاسنكم أخلاقا ، الموطّئون أكنافا ، الذين يألفون ويُؤلفون . ألا أخبركم بأبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة : الثرثارون المتفيهقون » .

أبو رجاء العُطاردىّ : من سرّه أن يكون مؤمنا حقا ، فليكن أذلّ من قَعُود ؛ كلّ من مرّ به ادّعاه .

فُضَيل بن عياض : لأن يصحبنى فاجر حَسَنُ الخلق ، أحب إلىّ من أن يصحبنى عابد سَيّئُ الخلق ، لأنّ الفاسق إذا حسُن خلقه خفّ على الناس وأحبوه ، والعابد إذا ساء خلقهُ ، ثقُل على الناس ومقتُوه .

دخل فَرْقد ومحمد بن واسع على رجل يعودانه ، فجرى ذكر العنف والرّفق ، فروى فَرْقد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قيل له : عَلَى من حُرِّمت النار يارسول الله ؟ قال : « على الهيّن الليّن السّهل القريب » ؛ فلم يجد محمد بن واسع بياضاً يكتب ذلك فيه ، فكتبه على ساقه .

عبد الله بن الدارانىّ : ما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظمَ من قَسْوة القلب .

عائشة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بأهل بيت خيرا أدخل عليهم باب رِفْق » .

وعنها ، عنه صلى الله عليه وآله : « من أُعطِىَ حظّه من الرّفق أُعطِىَ حظّه من خير الدنيا والآخرة » .

---

(١) يريد سهل القيادة ؛ وأصله أن البعير إذا اشتكى من البرة توجع فى أنفه يقال له : بعير أنف .

جرير بن عبد الله البَجَليّ رفعه « إنّ الله ليُعطي على الرفق ما لا يعطي على الخُرق ، فإذا أحبّ الله عبداً أعطاه الرفق » . وكان يقال : « ما دخل الرِّفق في شيء إلا زانه » .

أبو عوْن الأنصاري : ما تكلّم الإنسان بكلمة عنيفة إلا وإلى جانبها كلمة ألْيَن منها تجري مجراها .

سئلت عائشة عن خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، فقالت : كان خلقُه القرآن : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ[1] ﴾ .

وسئل ابنُ المبارك عن حُسْن الخلق ، فقال : بسْط الوجه ، وكفّ الأذى ، وبذْلُ الندى .

ابن عباس : إنّ الْخُلقَ الحسَن يُذيب الخطايا كما تُذيب الشمس الجليد ، وإنّ الخلُقَ السّيئَ يفسد العمل ، كما يفسد الخلّ العسل .

عليّ عليه السلام : ما من شيء في الميزان أثقل من خُلُق حَسَن .

وعنه عليه السلام : عنوانُ صحيفة المؤمن حُسْنُ خلقه .

وعنه عليه السلام مرفوعاً : عليكم بحُسْنِ الخلق؛ فإنه في الجنّة ، وإياكم وسوء الخلق فإنّه في النار .

قال المنصور لأخيه أبي العباس في بني حسن لما أزمَعُوا الخروج عليه : آنسْهُمْ يا أميرَ المؤمنين بالإحسان ، فإن استوحشوا فالشرُّ يصلح ما يعجز عنه الخير ، ولا تدَعْ محمداً يمرَحُ في أعنّة العقوق . فقال أبو العباس : يا أبا جعفر ! إنه من شدّد نفّر ، ومن لان ألِف ، والتغافل من سجايا الكرام .

[فصل في ذكر أسباب الغلظة والفظاظة]

ونحن نذكر بعدُ كلاماً كليًّا في سبب الغلظة والفظاظة ، وهو الخلق المنافي للخلق الذي كان عليه أمير المؤمنين ، فنقول :

---

(١) سورة الأعراف ١٩٩

إنه قد يكون لأمر عائد إلى المزاج الجسماني ، وقد يكون لأمر راجع إلى النفس :

فأما الأول ؛ فإنما يكون من غلبة الأخلاط السوداوية وترمّدها ، وعدم صفاء الدم وكثرة كدرته وعكره ، فإذا غلظ الدم وثخن غلظ الرّوح النفساني وثخن أيضا ، لأنه متولد من الدم ، فيحدث منه نوع مما يحدث لأصحاب البطرة ، من الاستيحاش والنّبوّة عن الناس وعدم الاستئناس والبشاشة ، وصار صاحبه ذاجفاء وأخلاق غليظة ، ويشبه أن يكون هذا سببا ماديًّا ، فإنّ الذي يقوى في نفسي أن النفوس إن صحّت وثبتت مختلفةٌ بالذات .

وأما الراجع إلى النفس فأن يجتمع عنده أسقاط وأنصباء من قوى مختلفة مذمومة ، نحو أن تكون القوة الغضبية عندها متوافرة ، وينضاف إليها تصوّر الكمال في ذاتها وتوهم النقصان في غيرها ، فيعتقد أنّ حركات غيرها موافقة على غير الصّواب ، وأن الصواب ماتوهمه . وينضاف إلى ذلك قلّة أدب النفس (عدم الضبط لها واستحقارها الغير ؛ وقلّ التوقير له ، وينضاف إلى ذلك لجاجّ ، وضيق في النفس ، وحدّة واستشاطة وقلة صبر عليه ، فيتولّد من مجموع هذه الأمور خُلُق دنيّ ؛ وهو السلطة والمظاظة ، والوعورة والبادرة المكروهة ، وعدم محبة الناس ، ولقاؤهم بالأذى ، وقلّة المراقبة لهم ، واستعمال القهر في جميع الأمور ، وتناول الأمر من السماء ؛ وهو قادر على أن يتناوله من الأرض .

وهذا الخلق خارجٌ عن الاعتدال ، وداخل في حيّز الجور ؛ ولا ينبغي أن يسمّى بأسماء المدح ، وأعني بذلك أن قوماً يسمّون هذا النوع من العنف والخلق الوعر رجوليّة ، وشدّةً وشكيمة ، ويذهبون بمذهبَ قوة النفس وشجاعتها ؛ الذي هو بالحقيقة مدح ، وشتّان بين الخلقين ، فإنّ صاحب هذا الخلق الذي ذممناه تصدُر عنه أفعال كثيرة يجور فيها على نفسه ثم على إخوانه ؛ على الأقرب فالأقرب من معامليه ، حتى ينتهيَ إلى عبيده وحرمه ؛ فيكون عليهم سوط عذاب ، لا يقيلهم عثْرة ، ولا يرحم لهم عَبْرة ، وإن كانوا برآء الذنوب ، غير مجرمين ولا مكتسبي سوء ، بل يتجرّم عليهم ، ويهيج من أدنى سبب يجد به طريقا إليهم ،

حتى يبسُط يده ولسانه ، وهم لا يمتنعون منه ، ولا يتجاسرون على ردّه عن أنفسهم ، بل يُذعنون له ويقرّون بذنوب لم يقترفوها ؛ استكفافاً لعاديته وتسكيناً لغضبه ، وهو فى ذلك يستمرئ على طريقته لا يكفّ يداً ولا لساناً .

وأصل هذا الخلق الذى ذكرناه أنه مركّب من قوى مختلفة من شدة القوة العصبية ، فهى الحاملة لصاحب هذا الخلق على ما يصدُر عنه من البادرة المكروهة والجَهْل والقِحة ؛ وقد رأينا وشاهدنا من تشتدّ القوة العصبية فيه ، فيتجاوز الغضب على نوع الإنسان إلى البهائم التى لا تعقل ، وإلى الأوانى التى لا تحسّ ، وربما قام إلى الحمار وإلى البرذَوْن فضربهما ولكمهما ، وربّما كسر الآنية لشدة غضبه ، وربما عضّ القُفْل إذا تعسّر عليه ، وربما كسر القلم إذا تعلقت به شعرة من الدواة واجتهد فى إزالتها فلم تزل .

ويحكَى عن بعض ملوك اليونان المتقدّمين : أنه كان يغضب على البحر إذا هاج واضطرب ، وتأخّرت سفنه عن النفوذ فيه ؛ فيقسم بمعبوده ليطمّنه وليطرحنّ الجبال فيه حتى يصيرَ أرضاً ، ويقف بنفسه على البحر ، ويهدده بذلك ، ويزجُره زجراً عنيفاً ، حتى تدرّ أوداجُه ويشتدّ احمرار وجهه ؛ ومنهم من لا يسكن غضبُه حتى يصبّ عليه ماء بارد أو حتى يبول ؛ ولهذا ورد فى الشريعة ، الأمر لمن اشتد غضبه أن يتوضأ للصلاة ويصلّى .

وكان عمر بن الخطاب إذا غضب على واحد من أهله لا يسكُن غضبُه ؛ حتى يعضّ يده عضّاً شديداً حتى يُدميها .

* * *

وذكر الزبير بن بكار فى " الموفقيات " أن سرّية جاءت لعبيد الرحمن أو لعبيد الله

ابن عمر بن الخطاب إليه تشكوه فقالت : ياأميرَ المؤمنين ، ألا تعذُرنى من أبى عيسى ؟ قال : ومَنْ أبو عيسى ؟ قالت : ابنك عبيد الله ، قال : ويحك ! وقد تكنَّى بأبى عيسى ! ثم دعاه فقال : إيهاً اكتنيت بأبى عيسى ! فحذر وفزع ، وأخذ يده فعضّها ؛ ثم ضربه ، وقال : ويلك ! وهل لعيسى أب ؟ أتدرى ما كُنَى العرب ؟ أبو سلمة ، أبو حنظلة ، أبو عرفطة ، أبو مرّة . . .

قال الزبير : وكان عمر إذا غضب على بعض أهله لم يسكن غضبُه حتى يعضّ يده عضا شديدا . وكان عبد الله بن الزبير كذلك ، ولقوة هذا الخلُق عنده أضمر عبد الله بن عباس فى خلافته إبطال القول بالعول[1] وأظهره بعده ، فقيل له : هلا قلت هـذا فى أيام عمر ؟ فقال : هبْته ، وكان أميرا مهيباً .

ولذلك قال أيضاً أبو سفيان فى استلحاق زياد : أخاف من هذا العَيْر الجالس أن يخرق علىّ إهابىّ ؛ فإذا هابه أبو سفيان ، وهو من بنى عبد مناف فى المنزلة التى تعلم ، وحوله بنو عبد شمس ، وهم جمرة قريش ، فما ظنك بمن هو دونه !

وقد علمتَ حال جبلة بن الأيهم وارتداده عن الإسلام لتهدّده له ووعيده إياه أن يضربه بالدِّرّة ، وفساد الحال بينه وبين خالد بن الوليد بعد أن كان وليًّا مصافيا ، ومنحرفا عن غيره قاليا ، والشأن الذى كان بينه وبين طلحة حتى همّ أن يوقع به ، وحتى همّ طلحة أن يجاهره ، وطلحة هو الذى قال لأبى بكر عند موته : ماذا تقول لربك وقد ولّيتَ فينا فظًّا غليظا ! وهو القائل له : ياخليفةَ رسول الله ؛ إنا كنا لانحتمل شراسته وأنت حىّ تأخذ على يديه ، فكيف يكون حالنا معه وأنت ميت وهو الخليفة !

واعلم أنا لانريد بهذا القول ذمّه رضى الله عنه ؛ وكيف نذمّه وهو أولى الناس بالمدح

---

(١) العول : ارتفاع الحساب فى الفرائض . انظر اللسان .

والتعظيم ؛ ليُمْن نقيبته وبركة خلافته ، وكثرة الفتوح فى أيامه ، وانتظام أمور الإسلام على يده أولكنّا أردنا أن نشرح حال العنف والرفق ، وحال سعة الخلق وضيقه ، وحال البشاشة والعبوس ، وحال الطلاقة والوعورة ، فنذكر كل واحد منها ذكرا كليّاً ، لا نخصّ به إنساناً بعينه . فأما عمر فإنه وإن كان وعرا شديدا خشنا ، فقد رزق من التوفيق والعناية الإلهية ونُجْح المساعى ، وطاعة الرعية ونفوذ الحكم ، وقوة الدين وحسن النية وصحة الرأى ، ما يُربِى محاسنه ومحامده على ما فى ذلك الخلق من نقص ، وليس الكامل المطلق إلا الله تعالى وحده .

فأما حديث الرُّصيحة وماجعل معاوية لعمرو بن العاص من جعالة على مبايعته ونصرته ، فقد تقدم ذكره فى أخبار صفين المشروحة فى هذا الكتاب من قبل .

———

(٨٤)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، ٱلْأَوَّلُ لَا شَيْءَ قَبْلَهُ ، وَٱلْآخِرُ لَا غَايَةَ لَهُ ، لَا تَقَعُ ٱلْأَوْهَامُ لَهُ عَلَى صِفَةٍ ، وَلَا تُعْقَدُ ٱلْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَى كَيْفِيَّةٍ ، وَلَا تَنَالُهُ ٱلتَّجْزِئَةُ وَٱلتَّبْعِيضُ ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ ٱلْأَبْصَارُ وَٱلْقُلُوبُ .

الشَّرْحُ

في هذا الفصل على قصره ثماني مسائل من مسائل التوحيد :

الأولى : أنه لاثانى له سبحانه في الإلهية .

والثانية : أنه قديم لا أوّل له . فإن قلت : ليس يدلّ كلامه على القدم ، لأنه قال : « الأوّل لاشىء قبله » فيوهم كونه غير قديم بأن يكون محدثا وليس قبله شىء ، لأنه محدَث عن عدم والعدم ليس بشىء ! قلت : إذا كان محدَثا كان له محدِث ، فكان ذلك المحدِث قبله ، فثبت أنه متى صدق أنه ليس شىء قبله صدق كونه قديما .

والثالثة : أنه أبدىّ لا انتهاء ولا انقضاء لذاته .

والرابعة : نفى الصفات عنه ــ أعنى المعانى .

والخامسة : نفى كونه مكيّفا ؛ لأن كيف إنما يُسأل بها عن ذوى الهيئات والأشكال وهو منزّه عنها .

والسادسة : أنه غير متبعّض لأنه ليس بجسم ولا عرَض .

والسابعة : أنه لا يُرى ولا يدرَك.

والثامنة : أن ماهيّته غير معلومة ، وهو مذهب الحكماء وكثير من المتكلّمين من أصحابنا وغيرهم .

وأدلّةُ هذه المسائل مشروحة في كتبنا الكلامية .

واعلم أنّ التوحيد والعدل والمباحث الشريفة الإلهيّة ، ما عرفت إلا من كلام هذا الرجل ، وأنّ كلام غيره من أكابر الصحابة لم يتضمّن شيئا من ذلك أصلا ؛ ولا كانوا يتصورونه ، ولو تصوّروه لذكروه . وهذه الفضيلة عندى أعظم فضائله عليه السلام .

* * *

الأصْل :

ومنها :

فَاتّعِظُوا عِبادَ اللهِ بِالْعِبَرِ النَّوَافِعِ ، وَاعْتَبِرُوا بِالآيِ السَّوَاطِعِ ، وَازْدَجِرُوا بِالنُّذُرِ الْبَوَالِغِ ، وَانْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ وَالْمَوَاعِظِ ، فَكَأَنْ [1] قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخالِبُ الْمَنِيَّةِ ، وَانْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عَلائِقُ الْأُمْنِيَّةِ ، وَدَهَمَتْكُمْ مُفْظِعَاتُ الْأُمُورِ ، وَالسِّيَاقَةُ إِلَى الْوِرْدِ الْمَوْرُودِ ، فَكُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ؛ سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشَرِهَا ، وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا .

* * *

الشّرْحُ

العِبَر : جمع عِبْرة ، وهى مايعتبر به أىْ يتعظ . والآى : جمع آية ، ويجوز أن يريدَ

(١) مخطوطة النهج : « وكأن » .

بها آى القرآن ، ويجوز أن يريدَ بها آيات الله فى خلقه ، وفى غرائب الحوادث فى العالم .

والسواطع : المشرقة المنيرة .

والنُّذُر : جمع نذير ؛ وهو المخوِّف ، والأحسن أن يكون النُّذُر ها هنا هى الإنذارات نفسها ، لأنه قد وصف ذلك بالبوالغ ، وفواعل لا تكون فى الأكثر إلا صفة المؤنث .

ومُعْظِلِماتِ الأمور : شدائدها الشنيعة ، أفظعَ الأمرُ فهو مُفظِع ، ويجوز فَظُعَ الأمر بالضم فظاعة فهو فظيع ، وأُفْظِعَ الرجل على ما لم يسمَّ فاعله ، أى نزل به ذلك .

وقوله : « والسياقة إلى الورد المورود» ؛ يعنى الموت . وقوله : «سَائِقٌ وَشَهِيدٌ» ؛ وقد فسّر عليه السلام ذلك وقال : « سائق يسوقها إلى محشرها ، وشاهد يشهد عليها بعملها » ؛ وقد قال بعض المفسرين : إن الآية لا تقتضى كونهما اثنين ، بل من الجائز أن يكون ملكا واحداً جامعاً بين الأمرين ، كأنه قال : « وجاءت كل نفس معها ملك يسوقها ويشهد عليها» . وكلام أمير المؤمنين يحتمل ذلك أيضاً ، لأنه لم يقل أحدهما ؛ لكن الأظهر فى الأخبار والآثار أنهما ملَكان .

فإن قلت: إذا كان تعالى عالما بكلّ شىء فأىّ حاجة إلى الملائكة التى تكتب الأعمال ، كما قال سبحانه : ﴿ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[1] ؛ وإذا كان تعالى أعدل العادلين فأىّ حاجة إلى ملك يشهد على المكلّف يوم القيامة ؟ وإذا كان قادراً لذاته ، فأىّ حاجة إلى ملك يسوق المكلف إلى المحشر ؟ قلت : يجوز أن يكونَ فى تقرير مثل ذلك فى أنفس المكلّفين فى الدنيا ألطافٌ ومصالح لهم فى أديانهم ، فيخاطبهم الله تعالى به

(١) سورة الزخرف ٨٠

لوجوب اللّطف فى حكمته ، وإذا خاطبهم به وجب فعله فى الآخرة ؛ لأن خبره سبحانه لا يجوز الخلف عليه .

* * *

الأصْـلُ :

ومنها فى صفة الجنة :

دَرَجَاتٌ مُتَفَاضِلَاتٌ ، وَمَنَازِلُ مُتَفَاوِتَاتٌ ، لَا يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا ، وَلَا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا ، وَلَا يَهْرَمُ خَالِدُهَا ، وَلَا يَبْأَسُ سَاكِنُهَا .

* * *

الشّـرْحُ :

الدّرجات : جمع درجة ، وهى الطّبقات والمراتب ، ويقال لها : درجات فى الجنة ودَرَكات فى النار ، وإنما تفاضَلَتْ وتفاوتت بحسب الأعمال ، ولا يجوز أن يقع ذلك تفضُّلاً ؛ لأن التفضل بالثّواب قبيح .

فإن قلت : فما قولُكَ فى الحُور والولدان والأطفال والمجانين ؟ قلت : يكون الواصل إليهم نعماً ولذة لا شبهة فى ذلك ، ولكن لا ثواب لهم ولا ينالونه ، والثواب أمرٌ أخصُّ من المنافع والنعم ، لأنّه منافع يقترن بها التعظيم والتبجيل ، وهذا الأمرُ الأخصّ لا يحسن إيصاله إلّا إلى أرباب العمل .

وقوله : « لا ينقطع نعيمها ولا يظعن مقيمها » قولٌ متفق عليه بين أهل الملّة ، إلا ما يحكى عن أبى الهذيل ؛ أنّ حركات أهل الجنة تنتهى إلى سكون دائم . وقد نزّهه قوم من أصحابنا عن هذا القول وأكذبوا رواته ، ومَنْ أثبته منهم عنه زعم أنه لم يقل بانقطاع النعيم ، لكن بانقطاع الحركة مع دوام النعيم ، وإنما حمله على ذلك أنه لما استدلّ على أن

الحركة الماضية يستحيل ألّا يكون لها أوّل ، عورض بالحركات المستقبلة لأهل الجنة والنار، فالتزم أنها متناهية ، وإنما استُبعد هذا عنه ؛ لأنه كان أجلّ قدراً من أن يذهب عليه الفرق بين الصورتين .

وييأس : مضارع يَئِسَ ، وجاء فيه « يَيئِس » بالكسر ، وهو شاذ كشذوذ « يحسِب » و ينعِم ، ومعنى « ييأس » : يصيبه البؤس وهو الشقاء .

(٨٥)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ ، وَخَبَرَ الضَّمَائِرَ ، لَهُ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَالْغَلَبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَالْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامِ مَهَلِهِ ، قَبْلَ إِرْهَاقِ أَجَلِهِ ، وَفِي فَرَاغِهِ قَبْلَ أَوَانِ شُغُلِهِ ، وَفِي مُتَنَفَّسِهِ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ ؛ وَلْيُمَهِّدْ لِنَفْسِهِ وَقَدَمِهِ ، وَلْيَتَزَوَّدْ مِنْ دَارِ ظَعْنِهِ لِدَارِ إِقَامَتِهِ .

فَاللهَ اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ فِيمَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ ، وَاسْتَوْدَعَكُمْ مِنْ حُقُوقِهِ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا ، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى ؛ وَلَمْ يَدَعْكُمْ فِي جَهَالَةٍ وَلَا عَمًى ، قَدْ سَمَّى آثَارَكُمْ ، وَعَلِمَ أَعْمَالَكُمْ ، وَكَتَبَ آجَالَكُمْ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ؛ وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَانًا ، حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ ، وَأَنْهَى إِلَيْكُمْ عَلَى لِسَانِهِ مَحَابَّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَمَكَارِهَهُ ، وَنَوَاهِيَهُ وَأَوَامِرَهُ ، وَأَلْقَى إِلَيْكُمُ الْمَعْذِرَةَ ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ ، وَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ، وَأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ .

● ● ●

الشرح :

السرائر : جمع سَرِيرة ، وهو ما يكتم من السّرّ .

وخبَرَ الضمائر ، بفتح الباء : امتحنها وابتلاها ، ومن رواه بكسر الباء أراد «علم» ، والاسم

الخُبْر ، بضم الخاء وهو العلم . والضمائر : جمع ضمير ، وهو ماتضمره وتكنّه فى نفسك .

وفى قوله : « له الإحاطة بكلّ شىء » ؛ وقد بينها ثلاث مسائل فى التوحيد :
إحداهنّ : أنه تعالى عالم بكلّ المعلومات .

والثانية : أنه لاشريك له ، وإذا ثبت كونه عالماً بكلّ شىء كان فى ضمن ذلك نفى الشريك ، لأن الشريك لا يكون معلوماً .

والثالثة : أنه قادر على كلّ ما يصح تعلق قادريته تعالى به .

وأدلة هذه المسائل مذكورة فى الكتب الكلاميّة .

وقوله : « فليعمل العامل منكم إلى قوله » : « وليتزوّد من دار ظعنه لدار إقامته » مأخوذٌ من قول رسول الله صلى الله عليه وآله فى خطبته المشهورة وهى : « أيها الناس ؛ إنّ لكم معالمَ فانتهوا إلى معالمكم وإن لكم غاية فانتهوا إلى غايتكم . إن المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مَضى لا يدرى ما الله صانعٌ به ، وأجل قد بقىَ لا يدرى ما الله قاضٍ فيه ، فليأخذ العبدُ من نفسه لنفسه ، ومنْ دنياه لآخرته ، ومن الشّبيبة قبل الهَرَم ، ومن الحياة قبل الموت ؛ فو الذى نفس محمد بيده ؛ ما بعدَ الموت من مستعتَب ، وما بعدَ الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » .

والمَهَل : المهلة والتؤدة . والإرهاق : مصدر أرهق ، تقول : أرهقه قرنه فى الحرب إرهاقاً إذا غشيَه ليقتله ، وزيد مرهَق ؛ قال الشاعر :

تَنْدَى أكُفّهمُ وفى أبياتهمْ ثِقَةُ المجاورِ والمضافِ المرهَقِ[1]

وفى متنفَّسه ، أى فى سَعة وقته ؛ يقال : أنت فى نفَس من أمرك ، أى فى سَعة .

---

(١) الكميت ؛ اللسان ٣ : ٤٢١ .

والكَظَم بفتحهما : مخرج النَّفَس ، والجمع أكظام . ويجوز ظلْمه وظلَمه ، بتحريك العين وتسكينها ، وقرئ بهما : ﴿ يوم ظعنكم[1] ﴾ ﴿ وظعَنكم ﴾ .

ونصب « اللهَ اللهَ » على الإغراء ، وهو أن تقدّر فعلا ينصب المفعول به ؛ أى اتقوا الله ، وجعل تكرير اللفظ نائبا عن الفعل المقدّر ودليلا عليه .

استحفظكم من كتابه : جعلكم حفَظة له ؛ جمع حافظ .

السُّدَى : المهمَل ، ويجوز سَدى بالفتح ، أسديت الإبل : أهملتها . وقوله : « قد سمّى آثاركم » يفسّر بتفسيرين : أحدهما : قد بيّن لكم أعمالكم خيرها وشرها ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ[2] ﴾ ؛ والثانى : قد أعلى مآثركم ، أى رفع منازلكم إن أطعتم ، ويكون سمّى بمعنى أسْمَى ، كما كان فى الوجه الأول بمعنى أبان وأوضح .

والتِّبيان ، بكسر التاء : مصدر ، وهو شاذ ؛ لأن المصادر إنما تجئ على « التَّفعال » بفتحها مثل التَّذكار والتَّكرار ، ولم يأت بالكسر إلا حرفان وهما : التِّبيان والتِّلقاء .

وقوله : « حتى أكمل له ولكم دينه » من قوله تعالى : ﴿ اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى[3] ﴾ .

وقوله : « الذى رضى لنفسه » من قوله تعالى : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ ﴾[4] ؛ لأنه إذا ارتضى لهم فقد ارتضاه لنفسه ، أى ارتضى أن ينسب إليه ، فيقال : هذا دين الحق . « وأنهى إليكم » : عرّفكم وأعلمكم .

ومحابّه : جمع محبة ، ومكارهه : جمع مَكرَهة ، وهى ما تكرهه ، وفى هذا دلالة أن الله تعالى يحب الطاعة ويكره المعصية ، وهو خلاف قول الجبرة .

(١) سورة النحل ٨٠ .
(٢) سورة البلد ١٠ .
(٣) سورة المائدة ٣ .
(٤) سورة النور ٥٥ .

والأوامر : جمع آمِر ، وأنكره قوم وقالوا : هاهنا جمع وأمر ، كالأحاوص جمع أحوص ، والأحامر جمع أحمر . يعنى الكلام الآمر لهم بالطاعات وهو القرآن .

والنّواهى : جمع ناهية ، كالسّوارى جمع سارية ، والغوادى جمع غادية ، يعنى الآيات الناهية لهم عن المعاصى ، ويضعُف أن يكون الأوامر والنواهى جمع أمر ونهى ، لأن «فَعْلاً» لا يجمع على أفاعل وفواعل ، وإن كان قال ذلك بعض الشّواذّ من أهل الأدب .

وقوله : «وألقى إليكم المعذرة» كلام فصيح ، وهو من قوله تعالى : ﴿ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ ﴾[1] .

وقدّم إليكم بالوعيد ، وأنذركم بين يدى عذاب شديد ، أى أمامه وقبله ، مأخوذ أيضاً من القرآن . ومعنى قوله : « بين يدى عذاب شديد » ، أى أمامه وقبله ؛ لأن ما بين يديك متقدم لك .

* * *

الأصْلُ :

فَاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ ، وَاصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ ؛ فَإِنَّهَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ الْأَيَّامِ الَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا الْغَفْلَةُ ، وَالتَّشَاغُلُ عَنِ الْمَوْعِظَةِ ، وَلَا تُرَخِّصُوا لِأَنْفُسِكُمْ ؛ فَتَذْهَبَ بِكُمُ الرُّخَصُ مَذَاهِبَ الظَّلَمَةِ ، وَلَا تُدَاهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمُ الْإِدْهَانُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ .

عِبَادَ اللهِ ، إِنَّ أَنْصَحَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ ، وَإِنَّ أَغَشَّهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ ؛ وَالْمَغْبُونُ مَنْ غَبَنَ نَفْسَهُ ، وَالْمَغْبُوطُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ ، وَالشَّقِيُّ مَنِ انْخَدَعَ لِهَوَاهُ وَغُرُورِهِ .

(١) سورة النساء ٩٠ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ ، وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ الْهَوَى مَنْسَاةٌ لِلْإِيمَانِ ؛ وَمَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ .

جَانِبُوا الْكَذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ . الصَّادِقُ عَلَى شَفَا مَنْجَاةٍ وَكَرَامَةٍ ، وَالْكَاذِبُ عَلَى شَرَفِ مَهْوَاةٍ وَمَهَانَةٍ .

وَلَا تَحَاسَدُوا ؛ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ ، وَلَا تَبَاغَضُوا فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ ؛ وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَلَ يُسْهِي الْعَقْلَ ، وَيُنْسِي الذِّكْرَ . فَأَكْذِبُوا الْأَمَلَ ؛ فَإِنَّهُ غُرُورٌ ، وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ .

•••

الشَّرْحُ

قوله : « فاستدركوا بقية أيامكم » ؛ يقال : « استدركت ما فات وتداركت ما فات » ، بمعنى « واصبروا لها أنفسكم » : مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾[1] ؛ يقال : « صبر فلان نفسه على كذا » ، أى حبسها عليه . يتعدى فينصب ؛ قال عنترة :

فصبرتُ عارفةً لذلك حُرَّةً ترسو إذا نفس الجبان تَطَلَّعُ[2]

أى حبست نفسا عارفة . وفى الحديث النبوى فى رجل أمسك رجلا وقتله الآخر ، فقال عليه السلام : « اقتلوا القاتل واصبروا الصابر » ، أى احبسوا الذى أمسكه حتى يموت .

والضمير فى « فإنها قليل » عائد إلى الأيام التى أمرهم باستدراكها . يقول : إن هذه الأيام التى قد بقيت من أعماركم قليلة ، بالنسبة والإضافة إلى الأيام التى تغفلون فيها عن الموعظة .

---

(١) سورة الأنعام ٥٢ .
(٢) يذكر حرباً كان فيها . اللسان ٦ : ١٠٧ .

وقوله : « فإنها قليل » فأخبر عن المؤنث بصيغة المذكر ، إنما معناه فإنها شيء قليل؛ بحذف الموصوف ؛ كقوله : ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ (١) أى قبيلا رفيقا .

ثم قال : « ولا تُرَخِّصوا » ؛ نَهى عن الأخذ برُخَص المذاهب ؛ وذلك لأنه لا يجوز للواحد من العامة أن يقلّد كلاًّ من أئمة الاجتهاد فيما خفّ وسَهُل من الأحكام الشرعية . أولا تُساهلوا أنفسكم فى ترك تشديد المعصية ، ولا تسامحوها وترخّصوا إليها فى ارتكاب الصغائر والمحقَّرات من الذنوب ، فتهجُم بكم على الكبائر ، لأنّ من مرَن على أمر تدرّج من صغيره إلى كبيره .

والمداهنة : النفاق والمصانعة ، والإدهان مثله ؛ قال تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ (٢) .

قوله : « إنّ أنصحَ الناس لنفسه أطوعُهم لربه » ، لأنه قد صانها عن العقاب ، وأوجب لها الثواب ؛ وذلك غاية ما يمكن من نصيحتها ونفعها .

قوله : « وإن أغشّ الناس لنفسه أعصاهم لربه » ؛ لأنه ألقاها فى الهلاك الدائم ، وذلك أقصى ما يمكن من غِشّها والإضرار بها .

ثم قال : « والمغبونُ من غَبَن نفسه » ، أى أحقّ الناس أن يسمّى مغبونا مَنْ غَبَن نفسه ، يقال : غبنتُه فى البيع غَبْنا ، بالتسكين ، أى خدعتُه ، وقد غُبِن فهو مغبون ، وغبِن الرجل رأيه بالكسر غَبَنًا بالتحريك فهو غَبِين ، أى ضعيف الرأى ، وفيه غَبَانة . ولفظ الغَبْن يدلّ على أنه من باب غَبْن البيع والشراء ، لأنه قال : « والمغبون » ولم يقل : « والغبين » .

والمغبوط : الذى يُتمنّى مثلُ حاله ، والذى يتمنى زوالَ حاله وانتقالها هو الحاسد ،

---

(١) سورة النساء ٦٩ .
(٢) سورة القلم ٩ .

والحسد مذموم ، والغبطة غير مذمومة ، يقال : غَبَطْته بمـا نال ، أغبطه غبطا وغِبْطة فاغتبط هو ؛ كقولك منعته فامتنع ، وحبسته فاحتبس ، قال الشاعر :

وبينا المرء فى الأحيـــــاء مغتبطٌ إذ صار فى الرَّمْس تعفُوه الأعاصير[1]

هكذا أنشدوه بكسر الباء ، وقالوا فيه : مغتبِط ، أى مغبوط .

قوله : « والسعيد من وُعظ بغيره » مثَل من الأمثال النبوية .

وقد ذكرنا فيما تقدم ، ماجاء فى ذم الرياء وتفسير كونه شِركا .

وقوله عليه السلام : « مَنْسَاة للإيمان » ؛ أى داعية إلى نسيان الإيمان وإهماله ، والإيمان الاعتقاد والعمل .

ومحضرة الشيطان : موضع حضوره ، كقولك : مَسْبَعة ، أى موضع السباع . ومَفْعَاة ، أى موضع الأفاعى .

ثم نهى عن الكذب وقال : « إنه مجانب للإيمان » وكذا ورد فى الخبر المرفوع . وشَفا منجاة ؛ أى حَرْف نجاة وخَلاص ؛ وشفا الشيء حرفه ، قال تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾[2] ؛ وأشفى على الشيء وأشرف عليه بمعنًى ؛ وأكثرما يقال ذلك فى المكروه ، يقال : أشْفَى المريض على الموت ، وقد استعمله هاهنا فى غير المكروه.

والشَّرَف : المكان العالى ، بفتح الشين ، وأشرفْت عليه ، أى اطّلعت من فوق .

والمَهْواة : موضع السقوط . والمهانة : الحقارة .

ثم نهى عن الحسَد وقال : « إنه يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب » ، وقد ورد هذا الكلام فى الأخبار المرفوعة ؛ وقد تقدّم منا كلام فى الحسد ، وذكرنا كثيرا مما جاء فيه.

---

(١) من أبيات فى اللسان (دهر) ، ونسبها إلى عثير بن لبيد العذرى ، وانظر ترجمة الأنا ص ٢٧
(٢) سورة آل عمران ١٠٣ .

ثم نهى عن المباغضة وقال : « إنها الحالقة » ، أى المستأصلة التى تأتى على القوم ، كالحلق للشعر .

ثم نهى عن الأمل وطوله وقال : « إنه يورث الغفل سهوا ، وينسى الذكر ». ثم أمر بإكذاب الأمل ، ونهى عن الاعتماد عليه ، والسكون إليه ، فإنه من باب الغرور .

وقد ذكرنا فى الأمل وطوله نكتاً نافعة فيما تقدم ،ويجب أن نذكر ماجاء فى النهى عن الكذب .

• • •

[فصل فى ذم الكذب وحقارة الكذابين]

جاء فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا كذب العبد كذبة تباعد الملك منه مسيرة ميل ، من نتن ماجاء به » .

وعنه عليه السلام: « إياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب ، فيكتب عند الله كاذبا ؛ وعليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البرّ ، وإن البرّ ليهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدُق ويتحرّى الصدق ، فيكتب عند الله صادقا » .

وروى أنّ رجلا قال للنبى صلى الله عليه وآله : أنا يارسول الله أستسِرّ بخلال أربع: الزناء ، وشرب الخمر والسرَق ، والكذب ، فأيّتهنّ شئتَ تركتُها لك ؛ قال دع الكذب؛ فلما ولّى همّ بالزنا ، فقال: يسألنى فإن جحدت نقضت ماجعلت له ، وإن أقررت حُددت، ثم همّ بالسّرق، ثم بشُرب الخمر ، ففكّر فى مثل ذلك ، فرجع إليه فقال : قد أخذتَ علىّ السبيل كلّه ، فقد تركتهنّ أجمع .

قال العباس بن عبد المطلب لابنه عبد الله : يابنىّ أنت أفقهُ منى ، وأنا أعقل منك ،

وإن هذا الرجل يُدْنيك — يعنى عمر بن الخطاب — فاحفظ عنّى ثلاثاً : لاتُفْشِيَنّ له سرّاً، ولا تغتابَنّ عنده أحداً ، ولا يطّلِعَنّ منك على كِذْبةٍ . قال عبد الله : فكانت هذه الثلاث أحبّ إلىّ من ثلاث بَدَرات ياقوتاً .

قال الواثق لأحمد بن أبى دُوَاد رحمه الله تعالى : كان ابنُ الزّيات عندى ، فذكرك بكلّ قبيح ، قال : الحمد لله الذى أحوجه إلى الكذب علىّ ، ونزّهنى عن الصدق فى أمره .

وكان يقال : أمران لايكاد أحدُهما ينفكّ من الكذب : كثرةُ المواعيد وشدة الاعتذار .

ومن الحِكَم القديمة : إنّما فَضَل الناطق على الأخرس بالنطق ، وزَيْن المنطق الصدق، فالكاذب شرٌّ من الأخرس .

قال الرشيد للفضل بن الربيع فى كلام جرى بينهما : كذبتَ، فقال : ياأمير المؤمنين؛ وَجْه الكذوب لايقابلك ، ولسانه لايحاورك .

قيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾[1]؛ هى فى الكذابين ، فالويل لكلّ كاذب إلى يوم القيامة .

ومن كلام بعض الصالحين : لولم أترك الكذب تأثُّماً لتركته تكرُّماً .

أبو حيان : الكذب شعارٌ خَلَق ، وموردٌ رَنَق[2] ، وأدب سيّئ ، وعادة فاحشة ، وقلّ من استرسل معه إلا ألفه، وقلّ من ألفه إلا أتلفه ،والصدق ملبسٌ بهىّ ،ومنهل غدِق، وشُعاع منبثّ ،وقلّ من اعتاده ومرن عليه إلا صحبته السكينة ،وأيّده التوفيق ، وخدمته القلوب بالمحبّة ، ولحظته العيون بالمهابة .

---

(١) سورة الأنبياء ١٨ .
(٢) الرنق ، بفتح النون وإسكانها وكسرها : الكدر

ابن السّماك : لاأدرى ، أُوجَر على ترك الكذب أم لا ! لأنى أتركه أَنَفَةً .

يحيى بن خالد : رأيتُ شِرِّيب خمرٍ نَزَع ، ولصًّا أقلع ، وصاحبَ فواحش ارتدع ، ولم أر كاذبا رَجَعَ .

قالوا فى تفسير هذا : إن المولع بالكذب لايكاد يصبر عنه ، فقد عوتب إنسان عليه، فقال لعاتبه : يابن أخى ، لو تمزمَزْت به لما صبرت عنه .

وقيل لكاذب معروف بالكذب : أصدقت قطّ ؟ قال: لولا أنى أخاف أن أصدُق لقلت : لا !

وجاء فى بعض الأخبار المرفوعة : قيل له : يارسولَ الله ، أيكون المؤمن جبانا ؟ قال: نعم ، قيل : أفيكُون بخيلا ؟ قال : نعم ، قيل أيكون كاذبا ؟ قال : لا .

وقال ابنُ عباس : الحَدَث حَدَثان : حدث من فِيك ، وحدث من فَرْجك .

وقال بعضهم : من أسرع إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه مالا يعلمون ؛ أخذه شاعر فقال :

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إلى ذَمِّهِ ذَمُّوه بالحقِّ وبالباطلِ[1]

وكان يقال : خذوا عن أهل الشرف ، فإنهم قَلّما يكذبون .

وقال بعض الصالحين : لو صحبنى رجل ، فقال لى: اشترطْ علىّ خَصْلَةً واحدة لاتزيد عليها ، لقلت : لاتكذب .

وكان يقال : خَصْلتان لايجتمعان : الكذب والمروءة .

كان يقال : مِنْ شرف الصدق أنّ صاحبَه يُصدَّق على عدوّه ، ومن دناءة الكذب أنّ صاحبَه يكذَّب وإن كان صادقا .

---

(١) العقد ٢ : ٤٤٤ من غير نسبة ، وبعده :

مَقَالَةُ السُّوء إلَى أهْلِهَا أسْرَعُ مِنْ مُنحَدِرٍ إلَى سَائِلِ

ومثل هـذا قولهم : منْ عُرِف بالصدق جاز كِذْبُه ، ومن عُرِف بالـكذب لم يَجُزْ صدقه .

وجاء فى الخبر المرفوع : « إن فى المعاريض لمندوحةً عن الـكذب » .

وقال ابن سيرين : الـكلام أوسع من أن يكذب ظريفٌ .

وقالوا فى قوله تعالى : ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾[1] لم ينسَ ، ولـكنّه من معاريض الـكلام ، وكذلك قالوا فى قول إبراهيم : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾[2] .

وقال المُذَيِّ : إنى لأصدُق فى صغار مايضرّنى ، فكيف لاأصدق فى كبار ماينفعنى !

وقال بعض الشعراء :

لايـكذِبُ المرء إلّا منْ مهـانَتِهِ   أوعادةِ السُّوءِ أو من قلّة الأدبِ
لَعَضُ جيفةِ كَلْبٍ خيرُ رائحـةً   مِنْ كِذبةِ المرء فى جدّ وفى لعبِ

شهد أعرابىّ عند معاوية بشهادة ، فقال له : كذبت ، فقال : الـكاذب واللهِ المُزمّل فى ثيابك ! فقال معاوية : هذا جزاء من عَجِل .

وقال معاوية يوما للأحنف ـ وحدّثه حديثـا ـ أتـكذب ؟ فقال له الأحنف : والله ما كذبت منذ علمتُ أنّ الـكذب يشين أهله .

ودخل عبدُ الله بن الزُّبير يوماً على معاوية فقال له : اسمع أبياتاً قلتُها ـ وكان واجداً على معاوية ـ فقال : هات ، فأنشده :

إذا أنت لم تُنصِفْ أخاكَ وجَـدْتَهُ   عَلَى طَرَفِ الهجران إن كان يعقـلُ
ويركب حدّ السيف من أن تَضيمه   إذا لم يـكن عن شفرة السيف مِزْحَلُ

فقال معاوية : لقد شعرتَ بعدنا يأبا بكر ؛ ثم لم يلبث معاوية أن دخل عليه مَعْنُ

---

(١) سورة الـكهف ٧٣ .
(٢) سورة الصافات ٨٩ .

ابن أوس المزنيّ ، فقال : أقلت بعدنا شيئا ؟ قال نعم ، وأنشده :

لَعَمْرُكَ لا أدرِى وإنِّى لأَوْجَلُ   عَلَى أَيِّنَا تَعْدُو المَنِيَّةُ أوَّلُ [١]

حتى صار إلى الأبيات التى أنشدها ابن الزبير ، فقال معاوية : يا أبا بكر ، أما ذكرتَ آنفا أن هذا الشعر لك ؟ فقال: أنا أصلحتُ المعانى وهو ألّف [الشعر] [٢] . وبعدُ ، فهو ظِئْرى [٣] وما قال من شىء فهوَ لى .

وكان عبدالله بن الزبير مُسْتَرضَعًا فى مُزَيْنَة [٤] .

وروى أبو العباس المبرِّد فى " الكامل " أن عمرَ بن عبد العزيز كَتَب فى إشخاص إياس بن معاوية المزنىّ ، وعدىّ بن أرطاة الفَزارىّ أمير البصرة وقاضيها إليه ، فصار عدىٌّ إلى إياس ، وقدّر أنّه يُزَرِّنه [٥] عند عمر بن عبد العزيز ويُثْنِى عليه ، فقال له : يا أبا واثلة ، إن لنا حقًّا ورحما ، فقال إياس : أعَلَى الكذب تريدنى ! والله ما يسرّنى أنْ كذبتُ كذبة يغفرها الله لى ، ولا يطلع عليها هذا ـ وأومأ إلى ابنه ـ ولى ماطلعت عليه الشمس [٦] !

وروى أبو العباس أيضا : أن عمرو بن معديكرب الزُّبيدىّ كان معروفا بالكذب. وقيل لخلف الأحمر ـ وكان مولًى لهم وشديد التعصب لليمن : أ كان عمرو بن معديكرب يكذب ؟ قال : يكذب فى المقال ويصدق فى الفعال [٧] .

---

(١) ديوانه ٢٧ .

(٢) من الكامل .

(٣) الكامل : « وهو بعد ظئرى » .

(٤) الخبر فى الكامل ٢ : ٢١١ ، ٢١٢ .

(٥) فى الأصول : « يقرظه » ، وما أثبته من الكامل . وفى زيادات أبى الحسن الأخفش : التزرين المدح ، ولم أسمع هذه اللفظة إلا من أبى العباس ، وهى عندى مشتقة من المازن . وهو بيض النمل ؛ وبه سميت مازن ؛ كأنه أراد منه أن يكثره . ويروى : « يكثرة » . وفى زيادات الكامل أيضاً : قال الشيخ : قوله : « أن يزرنه عند الخليفة ؛ أى كأنه يجعله سيد مزينة ؛ لأنه كان مزينياً » .

(٦) الكامل ٢ : ٢١٢

(٧) الكامل ٢ : ٢٠٨ .

قال أبو العباس : فروِى لنا أن أهل الكوفة لأشراف ، كانوا يظهرون بالكُنَاسة[١] فيركبون على دوابهم حتى تطرُدَهم[٢] الشمس ، فوقف عمرو بن معديكرب الزُّبيدىّ ، وخالد بن الصقعب النَّهدىّ — وعمرو لا يعرفه، إنما يسمع باسمه — فأقبل عمرو يحدثه، فقال: أغرْتُ مرّة على بنى نَهْد، فخرجوا مسترعِفين بخالد بن الصقعب ، فحملتُ عليه ، فطعنته فأذرِيتُهُ[٣] ثم مِلْت عليه بالصَّمْصَامة[٤] ، فأخذت رأسه ، فقال خالد بن الصقعب : حِلًّا أبا ثور ، إن قتيلك هو المحدِّث ! فقال عمرو : ياهذا إذا حُدِّثت فاستمِع، فإنما نتحدّث بمثل ما تستمع لنُرهِب به هذه المعدّيّة .

قوله : « مسترعِفين » أى مقدمين له . وقوله : « حِلًّا أبا ثور » أى استثن ، يقال: حلف ولم يتحلّل ، أى لم يستثن . والمعدّية : مضرُ وربيعة وإياد ، بنو معدّ بن عدنان ، وهم أعداء اليمن فى المفاخرة والتكاثُر .

---

(١) الكناسة : محلة بالكوفة .
(٢) الكامل : « إلى أن يطردهم حر الشمس » .
(٣) أذريته : صرعته وألقته عن فرسه
(٤) الصمصامة : السيف الصارم لا ينثنى ؛ وهو اسم عمرو بن معديكرب .

(٨٦)

الأصـل :

ومن خطبة له عليه السلام :

عِبَادَ اللهِ؛ إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللهِ إِلَيْهِ عَبْداً أَعَانَهُ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَاسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ، وَتَجَلْبَبَ الْخَوْفَ؛ فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ، وَأَعَدَّ الْقِرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ، فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَعِيدَ، وَهَوَّنَ الشَّدِيدَ.

نَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَذَكَرَ فَاسْتَكْثَرَ، وَارْتَوَى مِنْ عَذْبٍ فُرَاتٍ، سُهِّلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ، فَشَرِبَ نَهَلاً، وَسَلَكَ سَبِيلاً جَدَداً.

قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ، وَتَخَلَّى مِنَ الْهُمُومِ، إِلَّا هَمّاً وَاحِداً انْفَرَدَ بِهِ، فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ الْعَمَى، وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ الْهَوَى، وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الْهُدَى، وَمَغَالِيقِ أَبْوَابِ الرَّدَى.

قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ، وَقَطَعَ غِمَارَهُ، وَاسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَا بِأَوْثَقِهَا، وَمِنَ الْحِبَالِ بِأَمْتَنِهَا، فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ، قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلهِ سُبْحَانَهُ فِي أَرْفَعِ الْأُمُورِ؛ مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ، وَتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَى أَصْلِهِ.

مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ، كَشَّافُ عَشَوَاتٍ، مِفْتَاحُ مُبْهَمَاتٍ، دَفَّاعُ مُعْضِلَاتٍ، دَلِيلُ فَلَوَاتٍ؛ يَقُولُ فَيُفْهِمُ، وَيَسْكُتُ فَيَسْلَمُ.

قَدْ أَخْلَصَ لِلهِ فَاسْتَخْلَصَهُ، فَهُوَ مِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ، وَأَوْتَادِ أَرْضِهِ، قَدْ أَلْزَمَ

نَفْسَهُ العَدْلَ ، فَكَانَ أَوَّلَ عَدْلِهِ نَفْيُ الْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ .

يَصِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ ، لَا يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلَّا أَمَّهَا ، وَلَا مَظِنَّةً إِلَّا قَصَدَهَا ، قَدْ أَمْكَنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ ، فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ ، وَيَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ .

• • •

الشَّرْحُ :

استشعر الحزن : جعله كالشعار ، وهو ما يلي الجسد من الثياب . وتجلبب الخوف : جعله جلبابا ، أي ثوبا .

زهر مصباح الهدى : أضاء . وأعدّ القرى ليومه ، أي أعدّ ما قدمه من الطاعات قِرًى لضيف الموت النازل به . والفرات : العذب .

وقوله : « فشرب نَهَلًا » ؛ يجوز أن يكون أراد بقوله : « نَهَلًا » المصدر ، من نَهِلَ يَنْهَلُ نَهَلًا ، أي شرب حتى رَوِيَ ، ويجوز أن يريد بالنَّهَل الشرب الأول خاصة ، ويريد أنه اكتفى بما شربه أولا ، فلم يحتج إلى العَلَل .

وطريق جَدَدٌ : لا عثار فيه لقوة أرضه . وقطع غماره ؛ يقال : بحر غَمْر ، أي كثير الماء ، وبحار غِمار . واستمسك من العرا بأوثقها ؛ أي من العقود الوثيقة ، قال تعالى : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾[1] .

ونصب نفسه لله ، أي أقامها .

كشّاف عَشَوات : جمع عُشْوة وعَشْوة وعِشْوة ، بالحركات الثلاث ، وهي الأمر الملتبس ؛ يقال : أوطأني عَشْوة .

(١) سورة البقرة ٢٥٦ .

والمعضلات : جمع معضلة وهي الشدائد والأمور التي لا يهتدى لوجهها .
دليل فلوات ، أي يُهتدى به كما يَهتدى الركب في الفلاة بدليلهم .
أمّها : قصدها . ومظنّة الشيء : حيث يُظنّ وجوده . والثّقَل : متاع المسافر وحَشَمه .

[فصل في العبّاد والزهّاد والعارفين وأحوالهم]

واعلم : أنّ هذا الكلام منه أخذ أصحاب علم الطريقة والحقيقة علمَهم ، وهو تصريح بحال العارف ومكانته من الله تعالى .

والعرفان درجة حال رفيعة شريفة جداً ، مناسبة للنبوّة ، ويختصّ الله تعالى بها مَنْ يقرّبه إليه من خلقه .

والأولياء على طبقات ثلاث :

الطبقة الأولى : حالُ العابد ، وهو صاحبُ الصلاة الكثيرة ، والصوم الدائم ، والحجّ والصدقة .

والطبقة الثانية : حال الزاهد ، وهو المعرضُ عن ملاذّ الدنيا وطيّباتها ؛ تقنعه الكِسرة ، وتسترُه الخِرْقة ، لا مالَ ولا زوجة ولا ولد .

والطبقة الثالثة : حال العارف ، وهو الواصل إلى الله سبحانه بنفسه لا ببدنه ، والباري سبحانه متمثّل في نفسه تمثُّلَ المعشوق في ذات العاشق ؛ وهو أرفع الطبقات ، وبعده الزاهد .

وأما العابد فهو أدونُها ، وذلك لأنّ العابد مُعامل كالتاجر ، يعبُد ليثاب ، ويُتعب نفسه ليرتاح ؛ فهو يعطى من نفسه شيئاً ويطلب ثمنه وعِوَضه ، وقد يكون العابد غنياً موسراً ، كثير المال والولد ، فليستْ حاله من أحوال الكمال .

وأما الزاهد ، فإنه احتقر الدنيا وعروضها وقِنْياتها ، فخلصت نفسه من دناءة المطامع

وصار عزيزاً مَليكاً ، لا سلطان عليه لنفسه ولا لغيره ، فاستراح من الذل والهوان ، ولم يبق لنفسه شيء تشتاق إليه بعد الموت ، فكان أقرب إلى السلامة والنجاة من العابد الفقير الموسر .

وأمّا العارف فإنه بالحال التي وصفناها ، ويستلزم معوجودها أن يكون زاهدا ، لأنه لا يتصوّر العرفان مع تعلّق النفس بلذّة الدنيا وشهواتها . ثم قد يحصلُ بعضُ العرفان لبعض العلماء الفضلاء ، مع تعلّقهم بشهوات الدنيا ، ولكنّهم لا يكونون كاملين في أحوالهم ، وإنما تحصُل الحالة الكاملة لمن رَفَضَ الدنيا وتخلّى عنها ، وتستلزم الحالة المذكورة أيضا أن يكونَ عابدا عبادةً ما ، وليس يشترط في حصول حال العرفان أن يكون على قدم عظيمة من العبادة ، بل الإكثارُ من العبادة حجاب كما قيل ؛ ولكنْ لا بدّ من القيام بالفرائض وشيء يسير من النوافل .

* * *

واعلم : أن العارف هو العارف بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله وكتبه ، وبالحكمة المودعة في نظام العالم ، لاسيما الأفلاك والكواكب ، وتركيب طبقات العناصر ، والأحكام وفي تركيب الأبدان الإنسانية .

فمن حصل له ذلك ، فهو العارف ؛ وإن[1] لم يحصل له ذلك ، فهو ناقص العرفان ، وإن انضمّ إلى ذلك استشعارُه جلال الله تعالى وعظمته ، ورياضة النفس والمجاهدة ، والصبر والرضا والتوكل ، فقد ارتفع طبقة أخرى ، فإن حصل له بعد ذلك الحبّ والوجْد ، فقد ارتفع طبقة أخرى ، فإن حَصَل له بعد ذلك الإعراضُ عن كلّ شيء سوى الله ، وأن يصيرَ مساويا عن الموجودات كلها ، فلا يشعر إلا بنفسه وبالله تعالى ، فقد ارتفع طبقة أخرى ، وهي أرفع الطبقات .

(١) ب : « ولن » .

وهناك طبقة أخرى يذكرونها ، وهى أن يسلب عن نفسه أيضا ، فلا يكون له شعور بها أصلا ، وإنما يكون شاعرا بالقيّوم الأوّل سبحانه لاغير ، وهذه درجةُ الاتحاد ، بأن تصير الذّاتان ذاتاً واحدة .

وهذا قول قوم من الأوائل ومن المتأخّرين أيضا ، وهو مقام صعب ، لاتثبت العقول لتصوُّره واكتناهه .

* * *

واعلم أن هذه الصفات والشروط والنعوت التى ذكرها فى شرح حال العارف ، إنما يعنى بها نفسَه عليه السلام ؛ وهو من الكلام الذى له ظاهر وباطن ؛ فظاهره أن يشرح حال العارف المطلق ، وباطنه أن يشرح حال عارف معيّن ، وهو نفسه عليه السلام . وسيأتى فى آخر الخطبة مايدلّ على ذلك .

ونحن نذكر الصفات التى أشار عليه السلام إليها واحدة واحدة :

فأوّلها : أن يكون عبداً أعانه الله على نفسه ، ومعنى ذلك أن يخصّه بالطاف ، يختار عندها الحَسَن ويتجنّب القبيح ، فكأنه أقام النفس فى مقام العدوّ ، وأقام الألطافَ مقام المعونة التى يعدّه الله سبحانه بها ، فيكسر عادية العدوّ للذكور ؛ وبهذا الاعتبار سمى قومٌ من المتكلمين اللطف عَوْناً .

وثانيها : أن يستشعر الحزن ، أى يحزن على الأيام الماضية ، إن لم يكن اكتسب فيها من موجبات الاختصاص أضعاف ما اكتسبه .

وثالثها : أن يتجلبب الخوف ، أى يخاف من الإعراض عنه ، بأن يصدر عنه مايمحوه من جريدة المخلصين .

ورابعها : أن يُعِدّ القِرَى لضيف المنيّة ، وذلك بإقامة وظائف العبادة .

وخامسها : أن يقرّب على نفسه البعيد ، وذلك بأن يمثّل الموت بين عينيه صباحا ومساء ، وألا يطيل الأمل .

وسادسها : أن يهوّن عليه الشدائد ؛ وذلك باحتمال كُلَف المجاهدة ورياضة النفس على عمل المشاقّ .

وسابعها : أن يكون قد نظر فأبصر ، وذلك بترتيب المقدّمات المطابقة لمتعلّقاتها ترتيبا صحيحا ، لتنتج العلم اليقينيّ .

وثامنها : أن يذكر الله تعالى فيستكثر من ذكره ، لأنّ ذكره سبحانه والإكثار منه ، يقتضى سكونَ النفس وطُمأنينتها ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [1] .

وتاسعها: أن يرتوى من حبّ الله تعالى ، وهو العذب الفُرات ، الذى سهل موارده على من انتخبه الله ، وجعله أهلًا للوصول إليه ، فشرب منه ونَهِل ، وسلك طريقاً لا عثار فيه ولا وَعْث .

وعاشرها: أن يخلعَ سرابيلَ الشهوات، لأن الشهوات تصدئ مرآة العقل ، فلا تنطبع المعقولات فيها كما ينبغى ، وكذلك الغضب .

وحادى عشرها : أن يتخلّى من الهموم كلّها ، لأنها تزيّدات وقواطع عن المطلوب ، إلا همّاً واحداً وهو همّة بمولاه ، الذى لذّته وسروره الاهتمام به ، والتفرد بمناجاته ومطالعة أنوار عزّته ، فحينئذ يخرج عن صفة أهل العمى ، ومن مشاركة أهل الهوى ، لأنه قد امتاز عنهم بهذه الرتبة والخاصيّة التى حصلت له فصار مفتاحاً لباب الهدى ، ومغلاقاً لباب الضلال والردى ، قد أبصر طريق الهدى ، وسلك سبيله ، وعرف مناره ، وقطع غماره .

(١) سورة الرعد ٢٨ .

وثانى عشرها : أن ينصبَ نفسَه لله فى أرفع الأمور ، وهو الخلوة به ، ومقابلة أنوار جلاله بمرآة فكره ، حتى تتكيّف نفسه بتلك الكيفية العظيمة الإشراق ، فهذا أرفع الأمور وأجلّها وأعظمها ، وقد رَمّز فى هذا الفصل ، ومزجه بكلام خرج به إلى أمر آخر ، وهو فقه النفس فى الدين ، والأمور الشرعية النافعة للناس فى دنياهم وأخراهم ؛ أمّا فى دنياهم فلردْع المفسِد وكفّ الظالم ، وأما فى أخراهم فللفوز بالسعادة باعتبار امتثال الأوامر الإلهية. فقال : « فى إصدار كلّ وارد عليه » ؛ أى فى فُتيا كلّ مستفتٍ له ، وهداية كلّ مسترشد له فى الدين ؛ ثم قال : « وتصيير كلّ فرع إلى أصله » . ويمكن أن يحتجّ بهذا من قال بالقياس ، ويمكن أن يقال : إنه لم يُرِد ذلك ، بل أراد تخريج الفروع العقلية ، وردّها إلى أصولها ؛ كما يتكلف أصحابنا القول فى بيان حكمة القديم تعالى ، فى الآلام وذبح الحيوانات ، ردًّا له إلى أصل العدل ، وهو كونه تعالى لا يفعل القبيح.

وثالث عشرها : أن يكون مصباحاً لظلمات الضلال ، كشّافاً لعشوات الشُّبَه ، مفتاحاً لمبهمات الشكوك المستغلقة ، دفّاعاً لمعضلات الاحتجاجات العقلية الدقيقة الغامضة ، دليلا فى فلوات الأنظار الصعبة المشتبهة ، ولم يكن فى أصحاب محمد صلى الله عليه وآله أحد بهذه الصفة إلا هو.

ورابع عشرها : أن يقول مخاطبا لمن يرى أنه يفهم ما خاطبه به ، وأن يسكت فيسلم ، وذلك لأنه ليس كل قائل مُفهِما ، ولا كل ساكت سالما.

وخامس عشرها : أن يكونَ قد أخلصَ لله فاستخلصه الله ، والإخلاص لله مقام عظيم جدًّا ، وهو ينزّه الأفعال عن الرّياء ، وألّا يمازج العبادة أمر لا يكون لله سبحانه ؛ ولهذا كان بعض الصالحين يُصْبِح من طول العبادة نَصِباً قشفا ، فيكتحلُ ويدّهن ؛ ليُذهِبَ بذلك أثر العبادة عنه.

وقوله : « فهو من معادن دينه وأوتاد أرضه » ، معادن دينه : الذين يُقتبس الدين منهم ، كمعادن الذهب والفضة ، وهى الأرضون التى يلتقط ذلك منها ، وأوتاد أرضه : هم الذين لولاهم لمادت الأرض وارتجّت بأهلها ، وهذا من باب الاستعارة الفصيحة ، وأهل هذا العلم يقولون : أوتاد الأرض جماعة من الصالحين ، ولهم فى الأوتاد والأبدال والأقطاب كلامٌ مشهور فى كتبهم .

وسادس عشرها : أن يكون قد ألزم نفسه العدل ، والعدالة : مَلَكة تصدُر بها عن النفس الأفعال الفاضلة خلقا لا تخلّقاً .

وأقسام العدالة ثلاثة ، هى الأصول وما عداها من الفضائل فروع عليها :

الأولى الشجاعة ، ويدخل فيها السخاء ، لأنه شجاعة وتهوين للمال ، كما أن الشجاعة الأصلية تهوين للنفس ، فالشجاع فى الحرب جواد بنفسه ، والجواد بالمال شجاع فى إنفاقه ، ولهذا قال الطائى :

أيقنتُ أنّ من السَّماح شجاعةً تدمى وأنّ من الشجاعة جودا[(١)]

والثانية : الفقه ، ويدخل فيها القناعة والزهد والعزلة .

والثالثة : الحكمة ، وهى أشرفها .

ولم تحصل العدالة الكاملة لأحد من البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا لهذا الرجل ، ومن أنصف علم صحة ذلك ، فإن شجاعته وجوده ، وعفّته وقناعته وزهده ، يُضرب بها الأمثال .

وأما الحكمة والبحث فى الأمور الإلهيّة ، فلم يكن من فنّ أحد من العرب ، ولا نقل فى جهاد أكابرهم وأصاغرهم شىء من ذلك أصلا ، وهذا فنٌّ كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به ؛ وأوّل من خاض فيه من العرب علىّ عليه السلام ، ولهذا

(١) أبو تمام ، ديوانه ١ : ٤٢٣ .

تجدُ المباحث الدقيقة فى التوحيد والعدل مبثوثةً عنه فى فرش كلامه وخطبه ، ولا تجد فى كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمةً واحدة من ذلك ، ولا يتصوّرونه ، ولو فُهّموه لم يفهموه ، وأنّى للعرب ذلك !

ولهذا انتسب المتكلّمون الذين لججوا فى بحار المعقولات إليه خاصة دون غيره ، وسمّوه أستاذهم ورئيسهم ، واجتذبته كلُّ فرقة من الفرق إلى نفسها ؛ ألا ترى أن أصحابنا ينتمون إلى واصل بن عطاء ، وواصل تلميذ أبى هاشم بن محمد بن الحنفيّة ، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد ، ومحمد تلميذ أبيه علىّ عليه السلام !

فأما الشّيعة من الإمامية والزّيديّة والكيسانية ، فانتماؤهم إليه ظاهر .

وأما الأشعرية فإنهم بأخَرة ينتمون إليه أيضاً ؛ لأنّ أبا الحسن الأشعرىّ تلميذ شيخنا أبى علىّ رحمه الله تعالى ، وأبو علىّ تلميذ أبى يعقوب الشحّام ، وأبو يعقوب تلميذ أبى الهُذَيل ، وأبو الهُذَيل تلميذ أبى عثمان الطويل ، وأبو عثمان الطويل تلميذ واصل بن عطاء ، فعاد الأمر إلى انتهاء الأشعرية إلى علىّ عليه السلام .

وأما الكرّامية فإن ابن الهيصم ذكر فى كتاب " المقالات " أنّ أصلَ مقالتهم وعقيدتهم تنتهى إلى علىّ عليه السلام من طريقين :

أحدها : أنهم يُسندون اعتقادهم عن شيخ بعد شيخ ، إلى أن ينتهى إلى سُفيان الثّورىّ ، ثم قال : وسفيان الثورىّ من الزيدية ، ثم سأل نفسه فقال : إذا كان شيخكم الأكبر الذى تنتمون إليه كان زيديّاً ، فما بالكم لا تكونون زيديّة ؟ وأجاب بأن سُفيان الثورىّ رحمه الله تعالى ، وإن اشتهر عنه الزّيديّة ، إلا أنّ تزيّده إنما كان عبارة عن موالاة أهل البيت ، وإنكار ما كان بنو أميّة عليه من الظلم ، وإجلال زيد بن علىّ وتعظيمه ، وتصويبه فى أحكامه وأحواله ، ولم ينقل عن سفيان الثورىّ أنّه طعن فى أحد من الصحابة .

الطريق الثانى : أنه عدّ مشايخهم واحداً فواحداً ، حتى انتهى إلى علماء الكوفة من أصحاب علىّ ، كسلمة بن كُهَيل ، وحبّة العُرَنىّ ، وسالم بن الجعْد ، والفضل بن دُكين ، وشعبة ، والأعمش ، وعلقمة وهُبيرة بن مريم ، وأبى إسحاق الشعبىّ ، وغيرهم ، ثم قال : وهؤلاء أخذوا العلم من علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فهو رئيس الجماعة — يعنى أصحابه — وأقوالهم منقولة عنه ومأخوذة منه .

وأما الخوارج فانتماؤهم إليه ظاهر أيضاً ، مع طعنهم فيه ، لأنهم كانوا أصحابه وعنه مَرَقوا ، بعد أن تملّذوا عنه واقتبسوا منه ، وهم شيعته وأنصاره بالجمل وصِفّين ، ولكنّ الشيطان رانَ على قلوبهم ، وأعمى بصائرهم .

ثم إنه عليه السلام ذكر حال هذا العارف العادل فقال : « أوّل عدله نفى الهوى عن نفسه » ، وذلك لأنّ من يأمر ولا يأتمر ، وينهى ولا ينتهى ، لا تؤثر عظته ، ولا ينفع إرشاده . ثم شرح ذلك فقال : « يصف الحق ويعمل به » . ثم قال : « لايدع للخير غاية إلا أمّها ، ولا مَظِنّة إلا قصدها » ؛ وذلك لأن الخير لذته وسروره وراحته ، فمتى وجد إليه طريقاً سلكها ، ثم قال : « قد أمكن الكتاب — يعنى القرآن — من زمامه » ، أى قد أطاع الأوامر الإلهية ، فالقرآن قائده وإمامه ، يحلّ حيث حلّ ، وينزل حيث نزل .

• • •

الأصْـلُ :

وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّى عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ ، فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ ، وَأَضَالِيلَ مِنْ ضُلاَّلٍ ، وَنَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكاً مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ وَقَوْلِ زُورٍ ، قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ ، وَعَطَفَ الْحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِ ، يُؤَمِّنُ النَّاسَ مِنَ الْعَظَائِمِ ، وَيُهَوِّنُ كَبِيرَ الْجَرَائِمِ ، يَقُولُ : أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ — وَفِيهَا وَقَعَ — وَيَقُولُ : أَعْتَزِلُ الْبِدَعَ — وَبَيْنَهَا اضْطَجَعَ — فَالصُّورَةُ

صُورَةُ إِنْسَانٍ ، وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ ، لَا يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَى فَيَتَّبِعَهُ ، وَلَا بَابَ الْعَمَى فَيَصُدَّ عَنْهُ ، وَذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ .

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ! وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ! وَالْأَعْلَامُ قَائِمَةٌ ، وَالْآيَاتُ وَاضِحَةٌ ؛ وَالْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ ! فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ ! وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ ؛ وَهُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ ، وَأَعْلَامُ الدِّينِ ، وَأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ ! فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ ، وَرِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاشِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ ، وَيَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ ، فَلَا تَقُولُوا بِمَا لَا تَعْرِفُونَ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ ، وَأَعْذِرُوا مَنْ لَا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ ـ وَهُوَ أَنَا . أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الْأَكْبَرِ ، وَأَتْرُكْ فِيكُمُ الثَّقَلَ الْأَصْغَرَ ! قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الْإِيمَانِ ، وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَأَلْبَسْتُكُمُ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي ، وَفَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي ، وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الْأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِي .

فَلَا تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لَا يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ ، وَلَا تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ الْفِكَرُ .

* * *

الشَّرْحُ :

الجهائل : جمع جهالة؛ كما قالوا : علاقة وعلائق . والأضاليل : الضلال ، جمعٌ لا واحد له من لفظه .

وقوله : « وقد حمل الكتاب على آرائه » ، يعني قد فسّر الكتاب وتأوّله على مقتضى هواه وقد أوضح ذلك بقوله : « وعطف الحقّ على أهوائه » .

وقوله : « يؤمن الناس من المظالم » ، فيه تأكيد لمذهب أصحابنا فى الوعيد ، وتضعيف لمذهب المرجئة الذين يؤمنون الناس من عظائم الذنوب ، ويمنُّونهم العفوَ ؛ مع الإصرار وترك التَّوْبة . وجاء فى الخبر المرفوع المشهور : « الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتْبَع نفسَه هواها ، وتمنَّى على الله » .

وقوله : « يقول أقف عند الشبهات » ؛ يعنى أنّ هذا المدّعىَ للعلم يقول لنفسه والناس : أنا واقف عند أدنى شبهة تحرُّجاً وتورُّعاً ؛ كما قال صلى الله عليه وآله : « دَعْ ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يريبُك » .

ثم قال : « وفى الشبهات وَقَع » ، أى بجهله ؛ لأنّ مَنْ لا يعلم الشبهة ما هى ، كيف يقفُ عندها ، ويتحرّج من الورْطة فيها ، وهو لا يأمن من كونها غير شبهة على الحقيقة !

وقوله : « اعتزل البِدَع وبينها اضطجع » ؛ إشارة إلى تضعيف مذاهب العامة والحشويّة الذين رفضوا النَّظر العقلىّ ، وقالوا : نعتزِلُ البِدَع .

وقوله : « فالصورة صورة إنسان ... » وما بعده ، فمراده بالحيوان ها هنا الحيوان الأخرس كالحمار والثور ، وليس يريد العموم ، لأنّ الإنسان داخل فى الحيوان ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا[1] ﴾ .

وقال الشاعر :

وَكَائِنْ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ ... زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُـــــهُ فى التَّكَلُّمِ[2]

لسانُ الفتى نِصْفٌ ونِصْفٌ فؤادُه ... فلمْ يبقَ إلّا صُورة اللَّحْمِ والدمِ

---

(١) سورة الفرقان ٤٤ .

(٢) البيتان ينسبان إلى زهير ، ملحق ديوانه ص ١٩٢ (من مجموعة العقد الثمين) .

قوله : « وذلك ميّت الأحياء » كلة فصيحة ، وقد أخذها شاعر فقال :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ[1]

إلا أن أمير المؤمنين عليه السلام أراد لجهله ، والشاعر أراد لبؤسه .

وتُؤْفَكُون : تقلبون وتصرَّفُون .

والأعلام : المعجزات هاهنا ؛ جمع عَلَم ، وأصله الجبل أو الراية والمنارة ، تنصب في الفلاة ليهتدى بها .

وقوله : « فأيْنَ يُتاه بكم ! » أي أين يذهب بكم في التيه ! ويقال : أرضٌ تَيْهاء يتحيَّر سالكها . وتَعْمَهُون : تتحيّرون وتضلّون .

وعِتْرَة رسول الله صلى الله عليه وآله : أهلُه الأدْنَوْن ونسله ؛ وليس بصحيح قول مَنْ قال : إنهم رهطُه وإن بعدوا ؛ وإنما قال أبو بكر يوم السقيفة أو بعده : « نحن عِتْرة رسول الله صلى الله عليه وبَيْضته التي تَفَقَّأَتْ عنه » ؛ على طريق المجاز ؛ لأنهم بالنسبة إلى الأنصار عِتْرَة له لا في الحقيقة ؛ ألا تَرَى أنّ العدنانيّ يفاخر القحطاني ؛ فيقول له : أنا ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ ليس يعني أنه ابنُ عمّه على الحقيقة ، بل هو بالإضافة إلى القحطانيّ كأنه ابن عمه ؛ وإنما استعمل ذلك ونطق به مجازاً . فإن قدّر مقدِّرٌ أنه على طريق حذف المضافات ؛ أي ابن ابن عمّ أب الأب ؛ إلى عدد كثير في البنين والآباء ، فكذلك أراد أبو بكر أنهم عِترة أجداده ، على طريق حذف المضاف . وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وآله عِترَتَه مَنْ هي ، لما قال : « إني تارك فيكم الثَّقَلَيْن » ، فقال : « عِترتي أهل بيتي » ، وبيّن في مقام آخر مَنْ أهلُ بيته حيث طرح عليهم كساء . وقال حين نزلت : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ

---

(١) لابن الرعناء الغساني ، الكامل لابن الأثير ٣٢٦ .

لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[١] : « اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب الرجس عنهم ».

فإن قلت : فمَنْ هى العِتْرة التى عنها أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الكلام ؟

قلت : نفسه وولداه ؛ والأصلُ فى الحقيقة نفسه ، لأنّ ولديه تابعان له ؛ ونسبتهما إليه مع وجوده كنسبة الكواكب المضيئة مع طلوع الشمس المشرقة ، وقد نبّه النبى صلى الله عليه وآله على ذلك بقوله : « وأبوكما خير منكما » .

وقوله : « وهم أزمّة الحقّ » : جمع زمام ؛ كأنه جعل الحقّ دائراً معهم حيثما داروا ، وذاهبا معهم حيثما ذهبوا ، كما أن الناقة طَوْع زمامها ، وقد نبّهَ الرسول الله صلى الله عليه وآله على صِدْق هذه القضية بقوله : « وأدِرِ الحقّ معه حيث دار » .

وقوله : « وألسنة الصِّدق » من الألفاظ الشريفة القرآنية ، قال الله تعالى : ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[٢] ، لما كان لا يصدُر عنهم حكم ولا قول إلا وهو موافق للحقّ ؛ والصواب جعلهم كأنهم ألسِنَةُ صِدْقٍ لا يصدر عنها قول كاذب أصلا ؛ بل هى كالمطبوعة على الصدق .

وقوله : « فأنزلوهُم منازل القرآن » تحته سرٌّ عظيم ؛ وذلك أنه أمر المكلَّفين بأنْ يُجْرُوا العِتْرة فى إجلالها وإعظامها والانقياد لها والطاعة لأوامرها مَجْرَى القرآن .

فإن قلت : فهذا القول منه يُشعِرُ بأنّ العِتْرة معصومة ، فما قول أصحابكم فى ذلك ؟

قلت : نصّ أبو محمد بن متّويه رحمه الله تعالى فى كتاب " الكفاية " على أنّ عليا عليه السلام معصوم ، وإنْ لم يكُنْ واجبَ العصمة ، ولا العصمة شرط فى الإمامة ؛ لكن أدلّة النصوص قد دلّتْ على عِصْمَتِه ؛ والقطع على باطنه ومغيبه ، وأنّ ذلك أمرٌ اختصّ

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣
(٢) سورة الشعراء ٨٤ .

هو به دون غيره من الصحابة ؛ والفرق ظاهرٌ بين قولنا : « زيد معصوم ، وبين قولنا : « زيد واجب العصمة » ، لأنّه إمام ؛ ومِنْ شرط الإمام أن يكون معصوماً ، فالاعتبار الأول مذهبنا ، والاعتبار الثانى مذهب الإمامية .

ثم قال : « وردوهم ورْدَ الهيم العطاش » ، أى كونوا ذوى حِرْص وانكماش على أخذ العلم والدين منهم ، كحِرْص الهيم الظماء على وُرود الماء .

ثم قال : « أيُّها الناس خذوها عن خاتم النبيين » إلى قوله : « وليس ببالٍ » هذا الموضع يحتاج إلى تلطّف فى الشرح ، لأنّ لقائلٍ أنْ يقولَ : ظاهر هذا الكلام متناقض ، لأنه قال : « يموت مَنْ مات منا وليس بميت » ، وهذا كما تقول : يتحرك المتحرك وليس بمتحرك ، وكذلك قوله : ويبلى مَنْ بلِيَ منا ، وليس ببالٍ » ، ألا ترى أنّه سَلْب وإيجاب لشىء واحد ! فإن قلتم : أراد بقاء النفس بعد موت الجسد ، كما قاله الأوائل وقوم من المتكلمين ، قيل لكم : فلا اختصاص لنبيّ ولا لعليّ بذلك ؛ بل هذه قضية عامة فى جميع البشر ، والكلام خَرَج مخرج التمدّح والفخر .

فنقول فى الجواب :

إنّ هذا يُمكن أن يحمل على وجهين :

أحدهُما : أن يكونَ النبىّ صلى الله عليه وآله وعلىٌّ ومَنْ يتلوهُما من أطايب العترة أحياء بأبدانهم التى كانت فى الدنيا بأعيانها ؛ قد رَفعهم الله تعالى إلى ملكوت سماواته ؛ وعلى هذا لو قدرنا أن محتفِراً احتفر تلك الأجداث الطاهرة عقب دَفْنهم لم يجد الأبدان فى الأرض ؛ وقد روى فى الخبر النبوىّ صلى الله عليه وآله مثل ذلك ؛ وهو قوله : « إنّ الأرض لم تُسَلَّط علىّ ، وأنها لا تأكل لى لحماً ولا تشرب لى دماً » ، ثم يبقى الإشكال فى قوله : « ويبلى مَنْ بَلِي منا وليس ببالٍ » ؛ فإنه إنْ صَحّ هذا التفسير فى الكلام الأول ؛ وهو قوله : « يموت

مَنْ مات منّا وليس بميت » ؛ فليس يصح في القضية الثانية ، وهي حديث البلاء ، لأنّها تقتضى أنّ الأبدان تَبْلى وذلك الإنسان لم يبلَ ، فأحوج هذا الإشكال إلى تقدير فاعل محذوف ؛ فيكون تقدير الكلام : يموت مَنْ مات حال موته وليس بميت فيا بعد ذلك من الأحوال والأوقات ، وَيَبْلَى كمن مَنْ بَلِيَ منّا وليس هو ببال ؛ فحذف المضاف كقوله : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ ﴾[1] ، أى وإلى أهل مدين ؛ ولما كان السَّكَنُ كالجزء من الميت لاشتماله عليه عَبّر بأحدهما عن الآخر لمجاورة والاشتمال ، كما عبّروا عن المطر بالسماء ، وعن الخارج المخصوص بالغائط ، وعن الخمر بالكأس . ويجوز أن يحذف الفاعل كقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾[2] ؛ و ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾[3] . وقول حاتم : « إذا حَشْرَجَتْ[4] » وحذف الفاعل كثير .

والوجه الثانى أنّ أكثر المتكلّمين ذهبوا إلى أن للإنسان الحىّ الفعّال أجزاء أصلية فى هذه البنية المشاهدة ؛ وهى أقلّ ما يمكن أن يأتلف منه البنية التى معها يصحّ كون الحىّ حيًّا ، وجعلوا الخطاب متوجّهًا نحوها ، والتكليف وارداً عليها ، وما عداها من الأجزاء ؛ فهى فاضلة ليست داخلة فى حقيقة الإنسان ؛ وإذا صحّ ذلك جاز أن ينتزع الله تلك الأجزاء الأصلية من أبدان الأنبياء والأوصياء ، فيرفعها إليه بعد أن يخلق لها من الأجزاء الفاضلة عنها نظير ما كان لها فى الدار الأولى ؛ كما قاله مَنْ ذهب إلى قيامة الأنفس والأبدان معاً ، فتنعم عنده وتلتذّ بضروب اللذات الجسمانية ، ويكون هذا مخصوصاً بهذه الشجرة

(١) سورة الأعراف ٨٥ .
(٢) سورة ص ٣٢ .
(٣) سورة الواقعة ٨٣ .
(٤) من قول حاتم :

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى ... إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

ديوانه ١١٨ (من مجموعة خمسة دواوين) .

المباركة دون غيرها ؛ ولا عجب فقد ورد في حقّ الشهداء نحو ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (١) .

وعلى الوجه الأول لو أنّ محتفراً احتفر أجداثهم لوجدَ الأبدان فيها ؛ وإن لم يعلم أنّ أصول تلك البُنَى قد انتزعت منها ونقلت إلى الرفيق الأعلى ؛ وهذا الوجه لايحتاج إلى تقدير ماقدّرناه أولا من الحذف : لأنّ الجسد يَبْلَى في القبر إلاقدْر ماانتزع منه ونقل إلى مَحَلّ القُدْس ؛ وكذلك أيضاً يصدُق على الجسد أنّه ميت ؛ وإن كان أصل بنيته لم يمُتْ ؛ وقد ورد في الخبر الصحيح : « أنّ أرواحَ الشهداء من المؤمنين في حواصل طيور خُضْر تدور في أفناء الجنان ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش » ، فإذا جاء هذا في الشهداء فما ظنُّك بموالى الشُّهدَاء وسادَاتهم !

فإن قلت : فهل يجوز أن يُتأوّل كلامُه ، فيقال : لعلّه أراد بقاء الذِّكر والصيت؟ قلت إنه لبعيدٌ ، لأنّ غيرَهم يَشْرَكهم في ذلك ؛ ولأنّه أخرج الكلام مخرّج المتعجب المستعظم له .

فإن قلت : فهل يمكن أن يقال : إن الضمير يعود إلى النبي صلى الله عليه وآله ؛ لأنه قد ذكره في قوله : « خاتم النبيين » فيكون التقدير : أنّه يموت مَنْ مات منا والنبي صلى الله عليه وآله ليس بميت ، ويبلى مَنْ بَلِى منا والنبي ليس ببال .

قلت : هذا أبعدُ من الأول ، لأنه لو أراد ذلك لقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله لاتُبليه الأرض ، وإنه الآن حيّ ؛ ولم يأت بهذا الكلام الموهم ؛ ولأنه في سياق تعظيم العِتْرة وتبجيل أمرها ؛ وفخره بنفسه وتمدّحه بخصائصه ومزاياه ؛ فلا يجوز أن يدخل في غضون ذلك ماليس منه .

---

(١) سورة آل عمران ١٦٩ .

فإن قلت : فهل هـذا الـكلام منه أم قاله مرفوعا ؟ قلت : بل ذكره مرفوعا ، ألا تراه قال : « حذوها عن خاتم النبيين » . ثم نعود إلى التفسير فنقول : إنّه لما قال لهم ذلك علم أنه قال قولا عجيباً ؛ وذكر أمراً غريباً ، وعلم أنهم سينكرون ذلك ويعجبون منه ، فقال لهم : فلا تقولوا مالا تعرفون ؛ أى لاتكذّبوا أخبارى ؛ ولا تكذّبوا أخبار رسول الله لكم بهذا فتقولون مالا تعلمون صحّته ، ثم قال : فإن أكثر الحق فى الأمور العجيبة التى تنكرونها كإحياء الموتى فى القيامة ، وكالصراط والميزان والنار والجنةوسائر أحوال الآخرة ؛ هذا إن كان خاطب مَنْ لايعتقد الإسلام ؛ فإن كان الخطاب لمن يعتقد الإسلام فإنه يعنى بذلك أنّ أكثرهم كانوا مرجئة ومشبّهة ومُجْبِرة ؛ ومن يعتقد أفضلية غيره عليه ، ومن يعتقد أنه شَرِكَ فى دم عثمان ، ومن يعتقد أنّ معاوية صاحب حُجّة فى حربه ؛ أو شبهة يمكن أن يتعلق بها متعلق ؛ ومن يعتقد أنه أخطأ فى التحكيم ؛ إلى غير ذلك من ضروب الخطأ التى كان أكثرهم عليها .

ثم قال : «واعذروا مَنْ لاحجةلكم عليهوهوأنا» ، يقول : قد عَدَلْتُ فيكم، وأحسنت السيرة وأقمتكم على المحجّة البيضاء ، حتى لم يبق لأحد منكم حُجّة يحتج بها علىّ ، ثم شرح ذلك ، فقال : « عملت فيكم بالثقل الأكبر » ، يعنى الكتاب و« خلّفت فيكم الأصغر » يعنى ولديه ؛ لأنهمابقية الثّقل الأصغر ؛ فجاز أن يطلق عليهمابعد ذهاب مَنْ ذهب منه أنهما الثقل الأصغر ، وإنما سمى النبى صلى الله عليه وآله الكتاب ، والعِترة الثقلين لأن الثَّقَل فى اللغة متاع المسافر وحَشَمُه ؛ فكأنه صلى عليه وآله لما شارف الانتقال إلى جوار ربه تعالى جعل نفسه كالمسافر الذى ينتقل من مَنْزل إلى منزل ؛ وجعل الكتاب والعِترة كمتاعه وحَشَمه ؛ لأنهما أخصّ الأشياء به .

قوله : « وركزت فيكم راية الإيمان » ، أى غرزتها وأثبتها ؛ وهـذا من باب الاستعارة . .

وكذلك قوله : « ووقفتكم على حدود الحلال والحرام » من باب الاستعارة أيضاً ، مأخوذ من حُدود الدار وهي الجهات العاصلة بينها وبين غيرها .

قوله : « وألبستكم العافية منْ عَدْلي » استعارة فصيحة ، وأفصح منها قوله : « وفرشتكم المعروف من قولي وفعلي » ، أي جعلته لكم فراشا ، وفرَش هاهنا : متعدٍّ إلى مفعولين ، يقال : فرشته كذا ، أي أوسعته إياه .

ثم نهاهم أن يستعملوا الرأى فيما ذكره لهم من خصائص البِعثة وعجائب ما منحها الله تعالى ، فقال : إنّ أمرنا أمر صعب لا تهتدى إليه العقول ، ولا تدرك الأبصار قعرَهُ ، ولا تتغلغل الأفكار إليه . والتغلغل : الدخول ، من تغلغل الماء بين الشجر ، إذا تخللها ودخل بين أصولها .



الأصل :

ومنها :

حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ ؛ تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا ؛ وَتُورِدُهُمْ صَفْوَهَا ؛ وَلَا يُرْفَعُ عَنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلَا سَيْفُهَا وَكَذَبَ الظَّانُّ لِذٰلِكَ ؛ بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ يَتَطَعَّمُونَهَا بُرْهَةً ، ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً .

* * *

الشرح :

معقولة : محبوسة معقال كما تعقّل الناقة . وتمنحهم : تعطيهم ، والمنح : العطاء ، منحَ يمنَح بالفتح ، والاسم المِنْحَة بالكسر ، واستمنحت زيدا : طلبت منْحَته .

والدَّرُّ في الأصل : اللّبَن ، جعل الدنيا كناقة معقولة عليهم تمنحهم لبنها ، ثم استعمل

الدَّرّ فى كل خير ونفع ، فقيل : لا دَرَّ درّه ! أى لا كثُر خيره ، ويقال فى المدح : لله درّه ! أى عمله .

ومجّة من لذيذ العيش ، مصدر مَجّ الشراب مِنْ فيه ، أى رمى به وقذفه ، ويقال : امججْتُ نقطة من القلم ، أى رشّشتُ ، وشيخ ماجّ ، أى كبير يمجّ الريق ، ولا يستطيع حبسه لكبره .

ويتطعّمونها ؛ أى يذوقونها . وبُرْهة ، أى مدة من الزمان فيها طول . ولفظت الشىء من فى ، ألفظه لفظا : رميتُه ، وذلك الشىء اللُّفاظة واللُّفاظ ؛ أى يلفظونها كأنها لا يبقى منها شىء معهم .

* * *

وهذه الخطبة طويلة ، وقد حذف الرضىُّ رحمه الله تعالى منها كثيرا ، ومن جملتها :

أما والذى فَلَق الحبَّة ، وبرأ النَّسمة ، لا يرون الّذى ينتظرون حتى يهلك المتمنُّون . ويَضمَحِلّ المحلُّون ، ويتثبَّت المؤمنون ، وقليلٌ ما يكون ؛ والله والله لا تَرَوْن الذى تنتظرون حتى لا تدْعُون الله إلا إشارةً بأيديكمْ وإيماضاً بحواجبكم ، وحتى لا تملِكون من الأرض إلّا مواضعَ أقدامكم ، وحتى يكونَ موضعُ سلاحكم على ظهوركم ؛ فيومئذ لا ينصرنى إلا الله بملائكته ، ومَن كُتِبَ عَلَى قَلْبِه الإيمان ، والّذى نَفْسُ عَلِىّ بيده لا تقوم عصابةٌ تطلب لى أولغيرى حَقًّا ، أوتدفع عنا ضَيْماً إلا صَرَعتهم البليّةُ ، حتى تقوم عصابةٌ شهدت مع محمد صلى الله عليه وآله بَدْراً ، لا يودَى قتيلهم ، ولا يداوَى جريحُهم ، ولا ينعَشُ صريعُهم . قال المفسرون : هم الملائكة .

ومنها :

لقد دعوتُكم إلى الحقّ وتولَّيتُمْ ، وضربْتكم بالدِّرَّة فما استقمتم ، وستَليكم

بَعْدِى وُلاة يعذِّبُونـكم بالسِّيَاط والحديد ، وسيأتيكُم غُلاما ثَقِيفٍ : أَخْفش وجُعْبوب ؛ يقتلان ويُظْلِمان ، وقليل ما يمكّثان .

قلت : الأخفش : الضعيف البصر خِلْقة ، والجُعبوب : القصير الذميم ، وهما الحجاج ويُوسف بن عمر . وفى كتاب عبد الملك إلى الحجّاج : قاتلك الله أُخَيفشَ العينين ، أصكّ الجاعِرَتَيْن[1] !

ومن كلام الحسن البصرى رحمه الله تعالى يذكر فيه الحجاج : أتانا أُعَيْمش أُخَيْفش يمدّ بيدٍ قصيرة البنان ، ما عرق فيها عنان فى سبيل الله .

وكان المثل يُضْرَبُ بِقِصَرِ يوسف بن عمر ، وكان يغضب إذا قيل له قصير ، فَصَّل له الخيّاطُ ثوبا ، فأبقى منه فضلة كثيرة ، فقيل له : ما هذه ؟ قال : فضلت مِنْ قميص الأمير ، فضربه مائة سوط ، فكان الخيّاطون بعد ذلك يفصّلُون له اليَسِير من الثوب ، ويأخذون الباقى لأنفسهم .

---

(١) الجاعرتان : حرفا الوركين المشرفان على الفخذين . والأصك : الذى تصطك ركبتاه وعرقوباه من المشى

(٨٧)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ لَمْ يَقْصِمْ جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلَّا بَعْدَ تَمْهِيلٍ وَرَخَاءٍ ؛ وَلَمْ يَجْبُرْ عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ أَزْلٍ وَبَلَاءٍ ؛ وَفِي دُونِ مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَتْبٍ وَمَا اسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خَطْبٍ مُعْتَبَرٌ . وَمَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بِلَبِيبٍ ، وَلَا كُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيعٍ ؛ وَلَا كُلُّ ذِي نَاظِرٍ بِبَصِيرٍ .

فَيَا عَجَبًا ! وَمَا لِيَ لَا أَعْجَبُ مِنْ خَطَإِ هَذِهِ الْفِرَقِ عَلَى اخْتِلَافِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا ! لَا يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ ، وَلَا يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ ، وَلَا يَعِفُّونَ عَنْ عَيْبٍ ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ ، الْمَعْرُوفُ فِيهِمْ مَا عَرَفُوا ، وَالْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا ، مَفْزَعُهُمْ فِي الْمُعْضِلَاتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَتَعْوِيلُهُمْ فِي الْمُهِمَّاتِ عَلَى آرَائِهِمْ ؛ كَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِهِ ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَى بِعُرًى ثِقَاتٍ ، وَأَسْبَابٍ مُحْكَمَاتٍ .

• • •

الشرح :

القَصْم ، بالقاف والصاد المهملة : الكسر ، قصمتُه فانقصم ، وقصّمته فتقصّم ، ورجل أقصم الثنيّة ؛ أى مكسورها ، بيّن القَصَم ، بفتح الصاد .

والتمهيل : التأخير . ويروى « رجاء » وهو التأخير أيضا ؛ والرواية المشهورة « ورخاء » ، أى بعد إعطائهم من سعة العيش وخصب الحال ما اقتضته المصلحة .

والأزْل ، بفتح الهمزة : الضيق . ويقتصُّون : يتبعون ، قال سبحانه وتعالى : ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [1] .

ويعِفّون ، بكسر العين ؛ عَفَفْتُ عن كذا ، أعِفُّ عَفًّا وعِفّةً وعَفافة ، أى كففت ، فأنا عفٌّ وعفيف ، وامرأة عَفّة وعفيفة ، وقد أعفّه الله ، واستعفّ عن المسألة ، أى عفّ . وتعفّف الرجل ، أى تكلّف العِفّة ، ويروى : « ولا يَعْفُون عن عَيْب » ، أى لا يصفحون.

ومفزعهم : ملجؤهم . وفيما يُرى ، أى فيما يظنّ ، ويرى بفتح الياء ؛ أى فيما يراه هو. وروى : « بمرّا وثيقات » .

يقول إنّ عادة الله تعالى ألّا يقصِم الجبابرة إلا بعد الإمهال والاستدراج ؛ بإفاضة النعم عليهم ، وألّا يجبر أولياءه وينصرهم إلا بعد بؤس وبلاء يمتحنهم به ، ثم قال لأصحابه : إنّ في دون ما استقبلتم من عَتْب لمعتبر ، أى من مشقّة ، [2] يعني عما استقبلوه مالاقوه [3] في مستقبل زمانهم من الشيب ، وولاة السوء ، وتنكّر الوقت ؛ وسمّى المشقّة عتبًا ، لأن العَتْب مصدر عَتَب عليه ، أى وَجَد عليه ، فجعل الزمانَ كالواجد عليهم ، القائم في إنزال مشاقّه بهم مقامَ الإنسان ذى الموجدة يعتِب على صاحبه . وروى « من عَتَب » ، بفتح التاء جمع عَتَبة ؛ يقال : قد حُمِل فلان على عتبة ، أى أمر كريه من البلاء ؛ وفى المثل : « ما فى هذا الأمر رَتَب ولا عَتَب » ، أى شدة . وروى أيضا « من عَنَت » وهو الأمر الشاقّ . وما استدبروه من خَطْب ؛ يعني به ما تصرّم عنهم من الحروب والوقائع التى قَضَّوْها ونضوها واستدبروها . ويروى : « واستدبرتم من خِصْب » ؛ وهو رخاء العيش ؛ وهذا يقتضى المعنى الأول ، أى وما خلّفتمُ وراءكم من الشباب والصحّة وصفو المعيشة .

ثم قال : « وما كل ذى قلب بلبيب ... » الكلام إلى آخره ، وهو مأخوذ من قول الله

(١) سورة القصص ١١ .

(٢ـ٢) ج : « يعني ما استقبلوه ، أى ما لاقوه » .

تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [1] .

ثم تعجّب من اختلاف حجج الفرق فى الدّين وخطئهم وكونهم لا يتبعون أقوالَ الأنبياء ، ولا أقوال الأوصياء ، ثم نعَى عليهم أحوالهم القبيحة ، فقال : إنهم لا يؤمنون بالغيب ، أى لا يصدقون بما لم يشاهدوه ، ولايكفّون عن الأمور القبيحة ، لكنهم يعملون فى الشبهات ، أى يعملون أعمالا داخلة فى الشبهات متوسطة لها . ويسيرون فى الشهوات ، جعل الشهوات كالطريق التى يسير فيها الإنسان .

ثم قال : المعروف فيهم ماعرفوه ، أى ليس المعروف عندهم ما دلّ الدليل على كونه معروفا وصوابا وحقًّا ، بل المعروف عندهم ماذهبوا إلى أنه حقّ ، سواء كان حقًّا فى نفس الأمر أو لم يكن ، والمنكر عندهم ماأنكروه كما شرحناه فى المعروف .

ثم قال : إنهم لايستشيرون بعالم ، ولا يستفتون فقيها فاضلا ، بل مفزعهم فى الأمور المشكلة إلى أنفسهم وآرائهم ، ولقد صدق عليه السلام ، فإن هذه صفات مَنْ يدّعى العلم والفضل فى زماننا وقبله بدهر طويل ، وذلك أنهم يأنفون من التعلّم والاسترشاد ، فالبادئ منهم يعتقد فى نفسه أنه أفضلُ من البارع المنتهى ، ومتى ظفر الواحد منهم بمبادئ علم وحله ، شرع فى التدريس والتصنيف ، فمنعه التزامه بذلك من التردد إلى أبواب العلماء ، وأنف من سؤالهم عن الأمور المشكلة ، فدام جهله إلى أن يموت .

ثم قال : « كأنّ كلّ واحد منهم إمام نفسه » ، ويروى بحذف « كأنّ » وإسقاطها ، وهو أحسن .

---

(١) سورة الأعراف ١٧٩ .

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أرسله على حين فترة من الرسل، وطول هجعة من الأمم، واعترام[1] من الفتن، وانتشار من الأمور، وتلظ من الحروب، والدنيا كاسفة النور، ظاهرة الغرور؛ على حين اصفرار من ورقها، وإياس من ثمرها، وإغوار[2] من مائها. قد درست منار الهدى، وظهرت أعلام الردى؛ فهي متجهمة لأهلها، عابسة في وجه طالبها، ثمرها الفتنة، وطعامها الجيفة، وشعارها الخوف، ودثارها السيف.

فاعتبروا عباد الله، واذكروا تيك التي آباؤكم وإخوانكم بها مرتهنون، وعليها محاسبون. ولعمري ما تقادمت بكم ولا بهم العهود، ولا خلت فيما بينكم وبينهم الأحقاب والقرون، وما أنتم اليوم من يوم كنتم في أصلابهم ببعيد.

والله ما أسمعكم الرسول شيئاً إلا وها أنا ذا اليوم مسمعكموه، وما أسماعكم اليوم بدون أسماعكم بالأمس، ولا شقت لهم الأبصار، ولا جعلت لهم الأفئدة في ذلك الزمان؛ إلا وقد أعطيتم مثلها في هذا الزمان، ووالله ما بصرتم بعدهم شيئاً جهلوه، ولا أصفيتم به وحرموه، ولقد نزلت بكم البلية جائلاً خطامها، رخواً بطانها؛ فلا يغرنكم ما أصبح فيه أهل الغرور، فإنما هو ظل ممدود إلى أجل معدود.

• • •

(١) مخطوطة النهج : « واعترام » .

(٢) مخطوطة النهج : « وإغوار » .

الشرح :

الفترة بين الرسل : انقطاعُ الرسالة والوحي ؛ وكذلك كان إرسال محمد صلى الله عليه وآله ، لأنّ بين محمد وبين عهد المسيح عليه السلام عهداً طويلا ، أكثر الناس على أنه ستمائة سنة ، ولم يرسَل في تلك المدّة رسول ، اللهمّ إلا ما يقال عن خالد بن سنان العبسيّ ، ولم يكن نبيًّا ولا مشهوراً .

والهجْعة : النَّوْمة ليلا ، والهجوع مثله ، وكذلك التَّهْجاع ، بفتح التاء ، فأما الهِجْعة بكسر الهاء ؛ فهي الهيئة كالجِلْسة من الجلوس .

قوله : « واعتزام من الفتن » ، كأنه جعل الفِتَن معتزِمة ، أي مريدة مصمّمة للشَّغب والهَرْج . ويروى : « واعتراض » (ويروى : « واعترام » بالراء المهملة من العُرام ، وهي الشّرّة . والتلظّي : التلهّب .

وكاسفة النور : قد ذهب ضوءها ، كما تكسِفُ الشمس . ثم وصفها بالتغير وذبول الحال ، فجعلها كالشجرة التي اصفرّ ورقها ويبس ثمرها . وأغور ماؤها ، والإغوار : ذهاب الماء ، فلاة عَوْراء : لا ماء بها . ومَنْ رواه : « وإغوار من مائها » ، بالغين المعجمة ، جعله من غار الماء ، أي ذهب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾[1] .

ومتجهّمة لأهلها : كالحة في وجوههم .

ثم قال : « ثمرها الفتنة » أي نتيجتها وما يتولّد عنها . وطعامها الجيفة ، يعني أكل الجاهلية الميتة ، أو يكون على وجه الاستعارة ، أي أكلها خبيث . ويروى « الخِيفة » أي الخوف ، ثم جعل الخوف والسيف شعارها ودثارها ، فالشعار ما يلي الجسد ، والدِّثار فوق

---

(١) سورة الملك ٣٠ .

الشعار ، وهذا من بديع الكلام ومن جيِّد الصناعة ، لأنه لما كان الخوفُ يتقدّم السيف والسيف يتلوه ، جعلَ الخوف شِعاراً لأنّه الأقربُ إلى الجسد ؛ وجعل الدِّثار تاليا له .

ثم قال : « واذكروا تيك » كلمة إشارة إلى المؤنثة الغائبة ، فيمكن أن يعنى بها الدنيا التي تقدّم ذكرها ، وقد جعل آباءهم وإخوانهم مرتهنين بها ومحاسبين عليها ، والارتهان : الاحتباس ، ويمكن أن يعنى بها الأمانة التي عرضت على الإنسان فحملها ، والمراد بالأمانة الطاعة والعبادة وفعل الواجب وتجنّب القبيح . وقال : « تيك » ولم يجر ذكرها ، كما قال تعالى : ﴿ الم ◦ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ[1] ﴾ ولم يجر ذكره ؛ لأنّ الإشارة إلى مثل هذا أعظم وأهيب وأشدّ روعة في صدر المخاطَب من التصريح .

قوله : « ولا حلت فيما بينكم وبينهم الأحقابُ » ، أي لم يطل العهد ؛ والأحقاب : المدد المتطاولة ، والقرون : الأمم من الناس .

وقوله : « من يوم كنتم » ؛ يروى بفتح الميم من « يوم » على أنه مبنيّ ؛ إذ هو مضاف إليه الفعل المبني ؛ ويروى بجرّها بالإضافة ؛ على اختلاف القولين في علم العربية .

ثم اختلفت الرواية في قوله : « والله ما أسمعكم » فروى بالكاف وروى « أسمعهم » ، وكذلك اختلفت الرواية في قوله : « وما أسماعُكم اليومَ بدون أسماعكم بالأمس » ، فروى هكذا ، وروى « بدون أسماعهم » ، فمن رواه بهاء الغيبة في الموضعين فالكلام منتظم ، لا يحتاج إلى تأويل ، ومن رواه بكاف الخطاب ، قال : إنه خاطب به من صحب النبيّ صلى الله عليه وآله وشاهده وسمع خطابه ؛ لأنّ أصحاب عليّ عليه السلام كانوا فريقين : صحابة وتابعين ، ويعضد الرواية الأولى سياق الكلام .

وقوله : « ولا شُقّت لهم الأبصار ... إلا وقد أعطيتم مثلها[2] » .

---

(١) سورة البقرة ١ ، ٢ .
(٢) كذا في الأصول .

وأصفيتم به : منحتموه ، من الصفيّ وهو ما يصطفيه الرئيس من المغنم لنفسه قبل القسمة ، يقال : صفيّ وصفيّة .

وخلاصة هذا الكلام أن جميع ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله قاله لأصحابه قد قلتُ مثله لكم ، فأطاع أولئك وعصيتم أنتم ، وحالكم مساوية لحالهم .

قلت : لو أن محبا منهم يحيبُ لأمكن أن يقول له : المخاطبون وإن كانوا نوعا واحدا متساويا ؛ إلا أنّ المخاطب مختلف الحال ؛ وذلك لأنك وإن كنت ابنَ عمه في النسب وأخاه ولحمه ودمه ؛ وفضائلك مشتقة من فضائله ، وأنت قبس من نوره وثانيه على الحقيقة ، ولا ثالث لكما ؛ إلا أنك لم تُرزَق القبول الذي رزقه ؛ ولا انفعلت نفوس الناس لك حسب انفعالها له ؛ وتلك خاصية النبوة التي امتاز بها عنك ؛ فإنه كان لا يسمع أحدٌ كلامَه إلا أحبّه ومال إليه ؛ ولذلك كانت قريش تسمي المسلمين قبل الهجرة الصباة ، ويقولون : نخاف أن يَصْبُو الوليد بن المغيرة إلى دين محمد صلى الله عليه وآله ؛ ولئن صبا الوليد وهو ريحانة قريش لتصبونّ قريش بأجمعها . وقالوا فيه : ما كلامه إلا السِّحر ! وإنه ليفعل بالألباب فوق ما تفعل الخمر . ونهوا صبيانهم عن الجلوس إليه لئلا يستميلهم بكلامه وشمائله ؛ وكان إذا صلى في الحِجْر وجهر يجعلون أصابعهم في آذانهم خوفاً أن يسحرهم ويستميلهم بقراءته وبوعظه وتذكيره ، هذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾[1] .

ومعنى قوله : ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾[2] لأنهم كانوا يهربون إذا سمعوه يتلو القرآن ، خوفاً أن يغيّر عقائدهم في أصنامهم ، ولهذا

---

(١) سورة نوح .
(٢) سورة الإسراء ٤٦ .

أسلم أكثر الناس بمجرد سماع كلامه ورؤيته ومشاهدة رُوائه ومنظره، وماذاقوه من حلاوة لفظه وسَرِيّ كلامه في آذانهم، ومَلَك نفوسهم وعقولهم، حتى بذلوا المُهَج في نصرته؛ وهذا من أعظم معجزاته عليه السلام، وهو القبول الذي منحه الله تعالى، والطاعة التي جعلها في قلوب الناس له، وذلك على الحقيقة سِرّ النبوّة، الذي تفرّد به صلوات الله عليه، فكيف يروم أمير المؤمنين من الناس أن يكونوا معه كما كان آباؤهم وإخوانهم مع النبيّ صلى الله عليه وآله؛ مع اختلاف حال الرئيسين وتساوي الأثرين كما يعتبر في تحققه تساوي حال المحلين، يعتبر في حقيقته أيضا تساوي حال المؤثّرين.

ثم نعود إلى التفسير، قال: « ولقد نزلت بكم البليّة »، أي المحنة العظيمة، يعني فتنة معاوية وبني أمية.

وقال: « جائلا خطامها »، لأن الناقة إذا اضطرب زمامها استصعبتْ على راكبها، ويسمى الزمام خطاما لكونه في مقدّم الأنف، والخطم من كل دابة: مقدّم أنفها وفمها[1]، وإنما جعلها رخوا بطانها، لتكون أصعب على راكبها، لأنه إذا استرخى البطان كان الراكب في معرض السقوط عنهـا، وبطان القَتَب هو الحزام الذي يجعل تحت بطن البعير.

ثم نهاهم عن الاغترار بالدنيا ومتاعها، وقال: إنها ظلٌّ ممدود إلى أجل معدود، وإنما جعلها كالظلّ لأنه ساكن في رأى العين، وهو متحرك في الحقيقة، لا يزال يتقلّص، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾[2] وهو أشبه شيء بأحوال الدنيا.

وقال بعض الحكماء: أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام.

---

(١) ج: « أنفه وفمه ».
(٢) سورة الفرقان ٤٦.

(٨٩)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ ، وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ ، الَّذِى لَمْ يَزَلْ قَائِماً دَائِماً ؛ إِذْ لَا سَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ ، وَلَا حُجُبٌ ذَاتُ إِرْتَاجٍ ، وَلَا لَيْلٌ دَاجٍ ، وَلَا بَحْرٌ سَاجٍ ، وَلَا جَبَلٌ ذُو فِجَاجٍ ، وَلَا فَجٌّ ذُو اعْوِجَاجٍ ، وَلَا أَرْضٌ ذَاتُ مِهَادٍ ، وَلَا خَلْقٌ ذُو اعْتِمَادٍ ، وَذَلِكَ مُبْتَدِعُ الْخَلْقِ وَوَارِثُهُ ، وَإِلَٰهُ الْخَلْقِ وَرَازِقُهُ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ ، يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ ، وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ .

* * *

الشَّرْحُ :

الرويّة : الفكرة وأصلها الهمز ، رَوّأتُ فى الأمر ، وقد جاء مثلها كلمات يسيرة شاذّة ، نحو البريّة ، من برأ ، أى خلق ، والذريّة من ذرأ أى خلق أيضا ، والدّريّة وهى ما يستتر به الصائد ، أصله من درأت أى دفعت ، وفلان برىّ أصله برىء ، وصف الله تعالى بأنّه يعرف من غير أن تتعلّق الأبصار بذاته ، ويخلق من غير تفكر وترو فيما يخلقه .

لم يزل قائما ، القائم والقيّوم بمعنًى ، وهو الثابت الذى لا يزول ، ويعبر عنه فى الاصطلاح النظرىّ بالواجب الوجود ، وقد يفسر القائم على معنى قولهم : فلان قائم بأمر كذا ، أى وال ومسك له أن يضطرب .

ثم قال : هو موصوف بأنه قائم دائم من قبل أن يخلق العالم ، وهذا يؤكّد التفسير

الأول ؛ لأنه إذا لم يكن العالم مخلوقا بعد لم يصدق عليه أنه قائم بأمره إلا بالقوة لا بالفعل ؛ كما يصدق عليه أنه سميع بصير فى الأزل ، أى إذا وجدت المسموعات والمبصرات سمعها وأبصرها ، ولو سمى قبل خلق الكلام متكلما على هذا التفسير لم أستبعده ؛ وإن كان أصحابنا يأبونه .

والأبراج : الأركان فى اللغة العربية .

فإن قلت : فهل يطابق هـذا التعبير مايعتقده أصحابُ الهيئة وكثير من الحكماء والمتكلّمين أنّ السماء كُرة لازاوية فيها ولا ضِلَع ؟

قلتُ : نعم لامنافاة بين القولين ، لأن الفلك وإن كان كُرة لكن فيه من المتممات مايجرى مجرى أركان الحصن أو السور ، فصحّ إطلاق لفظة الأبراج عليه ، والمتممات أجسام فى حشْو الفلك تخنُ فى موضع ؛ والناس كلهم أثبتوها .

فإن قلت : فهل يجوز أن يحمل لفظ الأبراج على مايعتقده المنجّمون وأهل الهيئة ، وكثير من الحكماء والمتكلمين من كون الفلك مقسوما باثنى عشر قسما ، كلّ قسم منها يسمى برجا ؟

قلت : لامانع من ذلك ، لأنّ هذا المسمى كان معلوما متصوّرا قبل نزول القرآن ، وكان أهل الاصطلاح قد وضعوا هذا اللفظ بإزائه ، فجاز أن ينزل القرآن بموجبه ؛ قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ [(1)] ، وأحدها علىّ عليه السلام منه ، فقال : « إذ لاسماء ذات أبراج » ، وارتفع « سماء » لأنه مبتدأ وخبره محذوف ؛ وتقديره « فى الوجود » .

ثم قال : « ولا حُجُب ذات إرتاج » والإرتاج مصدر أرتج أى أغلق ، أى ذات إغلاق ، ومن رواه « ذات رِتاج » على « فِعال » ، فالرتاج الباب المغلق ، ويُبعد رواية من رواه

(١) سورة البروج ١ .

«ذات أرتاج» لأن «فعالا» قلّ أن يجمع على «أفعال» ؛ ويعني بالحُجُب ذات الإرتاج حجب النور المضروبة بين عرشه العظيم وبين ملائكته . ويجوز أن يريد بالحجب السموات أنفسها ، لأنها حجبت الشياطين عن أن تعلم ما للملائكة فيه .

والليل الداجي :المظلم ، والبحر الساجي :الساكن . والفِجاج : جمع فَجّ ؛ وهو الطريق الواسع بين جبلين . والمهاد : الفراش .

قوله : « ولا حلق ذوا عتماد » ؛ أي ولا مخلوق يمشي برجلين فيعتمد عليهما ، أو يطير بجناحيه فيعتمد عليهما ؛ ويجوز أن يريد بالاعتمادهما : البطش والتصرّف . مبتدع الخلق : مخرجه من العدم المحض ، كقوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[1] . ودائبان : تثنية دائب ؛ وهو الجادّ المجتهد المتعب ، دأب في عمله أي جدّ وتعب دأبا ودءوبا فهو دئيب ، ودأبته أنا . وسمّى الشمس والقمر دائبين لتعاقبهما على حال واحدة دائما لا يفتران ولا يسكنان ، وروى «دائبين» بالنصب على الحال ويكون خبر المبتدأ «يبليان» وهذه من الألفاظ القرآنية[2] .

* * *

الأصْلُ :

قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ ، وَأَحْصَى آثَارَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ وَعَدَدَ أَنْفُسِهِمْ وَخَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ ، وَمُسْتَقَرَّهُمْ وَمُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ الْأَرْحَامِ وَالظُّهُورِ ، إِلَى أَنْ تَتَنَاهَى بِهِمُ الْغَايَاتُ .

* * *

الشّرْحُ :

آثارهم ، يمكن أن يُعْنَى به آثار وطئهم في الأرض إيذانا بأنه تعالى عالم بكلّ معلوم

(١) سورة الأنعام ١٠١ .

(٢) من من قوله تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾

كا آذن قوله سبحانه : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ [1] بذلك . ويمكن أن يعنى به حركاتهم وتصرّفاتهم .

وروى : « وعدد أنفاسهم » على الإضافة .

وخائنة الأعين : مايومى به مسارقة وخفية . ومستقرّهم، أى فى الأرحام ومستودعهم، أى فى الأصلاب، وقد فسر ذلك فتكون «من» متعلّقة بمستودعهم ومستقرهم على إرادة تكرّرها ، ويمكن أن يقال: أراد مستقرّهم ومأواهم على ظهر الأرض ومستودعهم فى بطنها بعد الموت ، وتكون «من» ها هنا بمعنى «مذ» أى مذ زمان كونهم فى الأرحام والظهور إلى أن تتناهى بهم الغايات، أى إلى أن يحشروا فى القيامة. وعلى التأويل الأول يكون تناهى الغايات بهم عبارة عن كونهم أحياء فى الدنيا .

* * *

الأصل :

هُوَ الَّذِي اشْتَدَّتْ نِقْمَتُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَاتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نِقْمَتِهِ . قَاهِرُ مَنْ عَازَّهُ ، وَمُدَمِّرُ مَنْ شَاقَّهُ ؛ وَمُذِلُّ مَنْ نَاوَاهُ ، وَغَالِبُ مَنْ عَادَاهُ ، مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ ، وَمَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ قَضَاهُ ، وَمَنْ شَكَرَهُ جَزَاهُ .

عِبَادَ اللهِ زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا، وَحَاسِبُوهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَنَفَّسُوا قَبْلَ ضِيقِ الْخِنَاقِ ، وَانْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّيَاقِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لَا زَاجِرٌ وَلَا وَاعِظٌ .

* * *

(١) سورة الأنعام ٥٩ .

الشرح :

يجوز نِقمةٌ ونَقْمة ، مثل كَلِمة وكِلْمة ، ولَبِنة ولِبْنة ، ومعنى الكلام أنه مع كونه واسع الرحمة فى نفس الأمر ، وأنه أرحم الراحمين ؛ فإنه شديد النقمة على أعدائه ؛ ومع كونه عظيم النقمة فى نفس الأمر وكونه شديد العقاب فإنه واسع الرحمة لأوليائه . وعازَّه ، أى غالبه ، وعَزَّه أى غلبه ، ومنه ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾[1] ، وفى المثل « مَنْ عَزَّ بَزَّ » ، أى مَنْ غَلَب سلَب . والمدمَّر : المهلك ، دَمَره ودَمَّر عليه بمعنًى ، أى أهلكه . وشاقَّه : عاداه ، قيل إنَّ أصله من الشِّق وهو النِّصف ، لأن المعادى يأخذ فى شِقٍّ والمعادَى فى شِقٍّ يقابله . وناواه ، أى عاداه ، واللفظة مهموزة ، وإنما لَيَّنها لأجل القرينة السَّجعية ، وأصلها ناوأتُ الرجل مناوأة ونِواء ؛ ويقال فى المثل : « إذا ناوأتَ الرجل فاصْبِر » .

قوله : « زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا » من الكلام الفصيح النادر اللطيف ، يقول : اعتبروا أعمالكم وأنتم مختارون قادرون على استدراك الفارط ، قبل أن يكون هذا الاعتبار فعلَ غيركم وأنتم لا تقتدرون على استدراك الفارط ، ومثله قوله : « وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا » .

ثم قال : « وتنفَّسوا قبل ضيق الخناق » ، أى انتهزوا الفرصة ، واعملوا قبل أن يفوتكم الأمر ، ويجدَّ بكم الرحيل ويقع الندم ، قال الشاعر :

اخْتِمْ وطينُك رَطْبٌ إن قدرتَ فكَمْ ... قد أمكن الختمُ أقواماً فما ختموا

ثم قال : « وانقادوا قبل عُنف السياق » ، هو العُنف بالغنم ، وهو ضدّ الرفق ، يقال عنُف عليه وعنُف به أيضاً ، والعَنِيف : الذى لا رفق له بركوب الخيل ، والجمع عُنُف . واعتنفتُ الأمرَ ، أى أخذته بعنف ، يقول : انقادوا أنتم من أنفسكم قبل أن تقادوا وتساقوا

---

(١) سورة ص ٢٣ .

بغير اختياركم سوقًا عنيفا . ثم قال « مَنْ لم يُعِنْه الله على نفسه حتى يجعل له منها واعظا وزاجرا لم ينفعه الزجر والوعظ من غيرها » أخذ هذا المعنى شاعر فقال :

وأقصرت عمّا تعهدين وزاجرٌ — من النفس خيرٌ من عتاب العواذلِ

فإن قلت : أليس فى هذا الكلام إشعارٌ ما بالجبر ؟

قلت : إنه لا خلاف بين أصحابنا فى أنّ لله تعالى ألطافًا يفعلها بعباده ، فيقرّبهم من الواجب ، ويبعدهم من القبيح ؛ ومن يعلم الله تعالى من حاله أنه لا لطف له لأنّ كلّ مايعرض لطفًا له فإنه لا يؤثر فى حاله ولا يزداد به إلا إصرارا على القبيح والباطل ؛ فهو الذى عناه أميرُ المؤمنين عليه السلام بقوله : « من لم يعن على نفسه » ، لأنه ماقبل المعونة ولا انقاد إلى مقتضاها ، وقد روى : « واعلموا أنّه مَنْ لم يعِن على نفسه » بكسر العين أى من لم يعن الواعظين له والمنذرين على نفسه ، ولم يكن معهمُ ألبًا عليها وقاهرا لها ، لم ينتفع بالوعظ والزجر ، لأن هوى نفسه يغلب وعظَ كلّ واعظ وزجر كل زاجر .

(٩٠)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام تعرف بخطبة الأشباح ، وهي من جلائل خطبه عليه السلام

روى مَسْعَدَةُ بنُ صَدَقَةَ عن الصادقِ جعفرِ بنِ محمدٍ عليهما السلامُ ، أنه قال : خطب أميرُ المؤمنينَ بهذه الخطبةِ على منبرِ الكوفةِ ؛ وذلك أن رجلًا أتاه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، صِفْ لنا ربَّنا[1] مثل ما نراه عيانًا[1] ، لنزداد له حبًّا ، وبه معرفة ؛ فغضبَ ونادى : الصلاةَ جامعةً ، فاجتمع إليه الناسُ حتى غصَّ المسجدُ بأهلِهِ ؛ فصعِدَ المنبرَ وهو مغضَبٌ متغيرُ اللونِ ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ، وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله ، ثم قال:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَفِرُهُ الْمَنْعُ وَالْجُمُودُ، وَلَا يُكْدِيهِ الْإِعْطَاءُ وَالْجُودُ ؛ إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ ، وَكُلُّ مَانِعٍ مَذْمُومٌ مَا خَلَاهُ ؛ وَهُوَ الْمَنَّانُ بِفَوَائِدِ النِّعَمِ ، وَعَوَائِدِ الْمَزِيدِ وَالْقِسَمِ ، عِيَالُهُ الْخَلَائِقُ، ضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ، وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ، وَنَهَجَ سَبِيلَ الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ ، وَالطَّالِبِينَ مَا لَدَيْهِ ، وَلَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلْ، الْأَوَّلُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَالْآخِرُ الَّذِي لم يكن له[2] بَعْدٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ بَعْدَهُ، وَالرَّادِعُ أَنَاسِيَّ الْأَبْصَارِ عَنْ أَنْ تَنَالَهُ أَوْ تُدْرِكَهُ، مَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيَخْتَلِفَ مِنْهُ الْحَالُ ، وَلَا كَانَ فِي مَكَانٍ فَيَجُوزَ عَلَيْهِ الِانْتِقَالُ .

* * *

الشّـرْحُ :

الأشبـاح : الأشخاص ، والمراد بهم هنا هنا الملائكة ، لأنّ الخطبة تتضمّن ذِكْرَ الملائكة .

(١ ـ ١) ساقط من مخطوطة النهج (٢) مخطوطة النهج : « ليس له » .

وقوله : « الصلاة جامعةً » منصوب بفعل مقدر ، أى احضروا الصلاة ، وأقيموا الصلاة ، و « جامعةً » منصوب على الحال من الصلاة .

وغَصَّ المسجد ، بفتح الغين ، أى امتلأ ، والمسجدغاصٌّ بأهله . ويقال: رجل مغضَب، بفتح الضاد ، أى قد أغضِب ، أى فعل به مايوجب غضبَه .

ويَفِرُه المنع : يزيد فى ماله ، والموفور التامّ ، ووفرتُ الشىء وفْرا وَوَفَر الشىء نفسُه وفُورا ، يتعدّى ولايتعدى . وفى أمثالهم : « يوفر ويحمد » هو من قولك وفرته عرضَه ووفرته ماله .

وقوله : « ولا يكديه الإعطاء » ، أى لايفقرُه ولا ينفد خزائنه ، يقال : « كَدَتِ الأرضُ » تَـكْدُو فهى كادية ، إذا أبطأ نباتُها ، وقلّ خيرها ، فهذا لازم ، فإذا عدّيته أتيتَ بالهمزة فقلتَ : أكديت الأرض ، أى جعلتُها كادية ، وتقول : أكدَى الرجلُ إذا قلّ خيره ، وقوله تعالى : ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴾[1] ، أى قطع القليل ، يقول : إنّه سبحانه قادر على المقدورات ، وليس كالملوك من البشر الذين إذا أعطوا نقصَتْ خزائنهم وإن منعوا زادت ، وقد شرح ذلك وقال : « إذ كلّ معطٍ منتقَص » أى منقوص ، ويجىء « انتقص » لازما ومتعديا ، تقول : انتقص الشىء نفسُه ، وانتقصتُ الشىء ، أى نقصتُه وكذلك « نقص » يجىء لازما ومتعديا .

ثم قال : « وكلّ مانع مذموم غيره » ، وذلك لأنه تعالى إنما يمنع مَنْ تقتضى الحكمةُ والمصلحةُ منعه ، وليس كما يمنع البشر . وسأل رجل علىّ بن موسى الرّضا عن الجواد ، فقال : إنّ لكلامك وجهين ، فإن كنتَ تسأل عن المخلوق ، فإنّ الجواد هو الذى يؤدّى ماافترض الله عليه، والبخيل هو الذى يبخلُ بما افترض الله عليه، وإن كنت تعنى الخالق ،

---

(١) سورة النجم ٣٤ .

فهو الجواد إن أعطى،وهو الجواد إن منع ، لأنه إن أعطى عبداً أعطاه ماليس له ، وإن منعه منعه ما ليس له .

قوله : « وليس بما سُئل بأجود منه بما لم يُسأل » فيه معنى لطيف ، وذلك لأنّ هذا المعنى مما يختص بالبشر ، لأنهم يتحركون بالسؤال وتهزّهم الطلبات ، فيكونون بما سألهم السائل أجود منهم بما لم يسألهم إياه ، وأما البارئ سبحانه فإن جوده ليس على هذا المنهاج لأنّ جوده عامٌّ في جميع الأحوال .

ثم ذكر أنّ وجودَه تعالى ليس زمانيّ ، فلا يطلق عليه البعدية والقبلية ، كما يطلق على الزمانيات ، وإنما لم يكن وجوده زمانيا لأنه لا يقبل الحركة ، والزمان من لواحق الحركة ، وإنما لم تطلق عليه البَعْدِيّة والقَبْلِيّة إذ لم يكن زمانيا ، لأنّ قولنا في الشيء : إنه بعد الشيء الفلانيّ ، أي الموجود في زمان حضر بعد تقضّي زمان ذلك الشيء الفلاني ، وقولنا في الشيء : إنه قبل الشيء الفلاني، أي إنه موجود في زمان حضر ولم يحضر زمان ذلك الشيء الفلانيّ بعد ، فما ليس في الزمان ليس يصدق عليه القبل والبعد الزمانيان ، فيكون تقدير الكلام على هذا : الأول الذى لا يصدق عليه القبلية الزّمانية ، ليمكن أن يكون شيء ما قبله ، والآخر الذى لا يصدق عليه البعدية الزمانية ، ليمكن أن يكون شيء ما بعده .

وقد يحمل الكلامُ على وجه آخر أقربَ مُتَناوَلاً من هذا الوجه ، وهو أن يكون أراد : الذى لم يكن محدثاً ، أى موجوداً قد سبقه عدم ، فيقال إنه مسبوق بشيء من الأشياء إما المؤثر فيه أو الزمان المقدم عليه ، وأنه ليس بذات يمكن فناؤها وعدمها فيما لايزال ، فيقال : إنه ينقضى وينصرم ، ويكون بعده شيء من الأشياء ، إمّا الزمان أو غيره ، والوجه الأوّلُ أدق وألطف ، ويؤكد كونه مراداً قوله عقيبه : « ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال » ، وذلك لأنّ واجب الوجود أعلى من الدهر والزمان ، فنسبة ذاته إلى الدهر والزمان بجملته وتفصيل أجزائه نسبة متحدة .

فإن قلت : إذا لم يكن قبل الأشياء بالزمان ولا بعدها بالزمان ؛ فهو معها بالزمان ، لأنه لايبقى بعد نفى القَبْلية والبعديّة إلا المعيّة !

قلت : إنما يلزم ذلك فيما وجوده زمانيّ ، وأمّا ماليس زمانيا لايلزم من نفى القبليّة والبعديّة إثبات المعيّة ، كما أنه مالم يكن وجوده مكانيا لم يلزم من نفى كونه فوق العالم أو تحت العالم بالمكان ، أن يكون مع العالم بالمكان .

ثم قال : « الرادع أناسيّ الأبصار عن أن تناله أو تدركه » ، الأناسيّ : جمع إنسان؛ وهو المثال الذى يُرى فى السواد ؛ وهذا اللفظ ظاهره يشعر بمذهب الأشعرية ، وهو قولهم : إنّ الله تعالى خَلَقَ فى الأبصار مانعاً عن إدراكه ؛ إلا أنّ الأدلة العقلية من جانبنا اقتضتْ تأويلَ هذا اللفظ ، كما تأوّل شيوخنا قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [1] ؛ فقالوا : إلى جنّة ربها ؛ فنقول : تقديرُه الرادعُ أناسيَّ الأبصار أن تنال أنوارَ جلالته .

فإن قلت : أتثبتون له تعالى أنواراً يمكن أن تدركَها الأبصار ، وهل هذا إلا قولٌ بالتجسيم !

قلت: كلاَّ لاتجسيمَ فى ذلك ؛ فكما أنّ له عرشاً وكرسياً وليس بجسم ؛ فكذلك أنوار عظيمة فوق العرش، وليس بجسم ، فكيف تنكر الأنوار، وقد نطق الكتاب العزيز بها فى غير موضع، كقوله:﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [2]، وكقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ .

* * *

(١) سورة القيامة ٧٥ .
(٢) سورة الزمر ٦٩ .

الأصلُ :

وَلَوْ وَهَبَ مَاتَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجِبَالِ ؛ وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ ؛ مِنْ فِلِزِّ اللُّجَيْنِ وَالْعِقْيَانِ ، وَنُثَارَةِ الدُّرِّ وَحَصِيدِ الْمَرْجَانِ ، مَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ ، وَلَا أَنْفَدَ سَعَةَ مَاعِنْدَهُ ، وَلَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ الْأَنْعَامِ ، مَالَا تُنْفِدُهُ مَطَالِبُ الْأَنَامِ ، لِأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لَا يَغِيضُهُ[1] سُؤَالُ السَّائِلِينَ ، وَلَا يُبْخِلُهُ إِلْحَاحُ الْمُلِحِّينَ .

• • •

الشَّرحُ

هذا الكلام من تتمة الكلام الأول ، وهو قوله : « لا يفِرُه المنع ، ولا يكديه الإعطاء والجود » . وتنفست عنه المعادن : استعارة ؛ كأنها لما أخرجته وولدته كانت كالحيوان يتنفس فيخرج من صدره ورئته الهواء .

وضحكت عنه الأصداف ، أى تفتحت عنه وانشقت ، يقال للطلع حين ينشق : الضَّحك ، بفتح الضاد ، وإنما سمي الضاحك ضاحكا ، لأنه يفتح فاه . والفِلِزّ : اسم الأجسام الذائبة كالذهب والفضة والرصاص ونحوها . واللُّجين : اسم الفضة جاء مُصغَّرا ، كالكُمَيت والثُّريا . والعِقيان : الذهب الخالص ، ويقال : هو ما ينبت نباتا وليس مما يحصل من الحجارة . ونُثارة الدر : ماتناثر منه ، كالسُّقاطة والنُّخالة ، وتأتى « فُعالة » تارةً للجيِّد المختار ، وتارة للساقط المتروك ، فالأول نحو الخلاصة ، والثانى نحو القُلامة .

وحصيد المَرْجان : كأنه أراد المتبدّد منه كما يتبدّد الحبّ المحصود ، ويجوز أن يعنى به الصُّلب المحكم ، من قولهم : « شىء مستحصَد » ، أى مستحصف مستحكم ، يعنى أنه ليس برخو ولاهشّ ، ويروى : « وحَصْباء المرجان » ، والحصباء : الحصى . وأرض حَصِبة ومَحْصَبة ،

(١) مخطوطة النهج : « يغيظه »

بالفتح : ذات حَصْباء . والمرجان : صغار اللؤلؤ ؛ وقد قيل إنه هذا الحجر ، واستعمله بعض المتأخرين فقال :

أدْمَى لها المرجانُ صَفْحةَ خدِّه   وبكى عليها اللؤلؤ المكنونُ

وتُنفده : تفنيه ، نفد الشيء أي فَنِيَ ، وأنفدته أنا . ومطالب الأنام : جمع مطلب، وهو المصدر ، من طلبت الشيء طَلَبًا ومطلبا .

ويَغيضه ، بفتح حرف المضارعة : ينقصُه ؛ ويقال : غاضَ الماء ، فهذا لازم ، وغاض اللهُ الماء ، فهذا متعدٍّ ؛ وجاء : أغاض الله الماء .

والإلحاح : مصدر ألحّ على الأمر ، أي أقام عليه دائما ، من ألحّ السحاب ؛ إذا دام مطره ، وألحّ البعيرُ : حَرَن ، كما تقول : خَلأت الناقة ؛ وروى « ولا يُبخله » بالتخفيف ؛ تقول : أبخلت زيدا ، أي صادفته بخيلا ؛ وأجبنته : وجدته جبانا .

وفي هذا الفصل من حسن الاستعارة وبديع الصنعة مالا خفاء به .

* * *

الأصْــل :

فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ ، وَاسْتَضِئْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ ، وَمَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ ، مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ ، وَلَا فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَئِمَّةِ الْهُدَى أَثَرُهُ، فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ اللَّهِ عَلَيْكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ الْإِقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ ، فَمَدَحَ اللَّهُ

اعْتِرَافَهُمْ بِالعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً ، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ البَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً ، فَاقْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ .

* * *

الشَّرْحُ :

تقول : ائتمّ فلان بفلان ؛ أى جعله إماما واقتدى به . فيكل علمه ؛ من وكله إلى كذا وكلاً ووُكولا ؛ وهذا الأمر موكول إلى رأيك . والاقتحام : الهُجُوم والدخول مغالبة . والسُّدد المضروبة : جمع سُدّة ؛ وهى الرِّتاج .

واعلم أنّ هذا الفصل يمكن أن تتعلق به الحشويّة المانعون من تأويل الآيات الواردة فى الصفات ، القائلين بالجمود على الظواهر ويمكن أيضا أن يتعلق به مَنْ نفى النظر وحرمه أصلا ؛ ونحن قبل أن نحققه ونتكلم فيه نبدأ بتفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ ﴾[1] فنقول :

إن من الناس من وقف على قوله : ﴿ إلا الله ﴾ ، ومنهم من لم يقف على ذلك ، وهذا القول أقوى من الأوّل ؛ لأنه إذا كان لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله لم يكن فى إنزاله ومخاطبة المكلّفين به فائدة ، بل يكون كخطاب العربيّ بالزنجية ، ومعلوم أنّ ذلك عيب قبيح .

فإن قلتَ : فما الذى يكون موضع ﴿ يقولون ﴾ من الإعراب ؟

قلت : يمكن أن يكون نصبا على أنه حال من الراسخين ، ويمكن أن يكون كلاما مستأنفا ، أى هؤلاء العالمون بالتأويل ، يقولون : آمنا به .

---

(١) سورة آل عمران ٧ .

وقد روى عن ابن عباس أنه تأوّل آية ، فقال قائل من الصحابة : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، فقال ابن عباس : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ ، وأنا من جملة الراسخين .

ثم نعود إلى تفسير كلام المؤمنين عليه السلام فنقول :

إنه غضب وتغيّر وجهه لقول السائل : صِفْ لنا ربّنا مثل ما نراه عيانا ، وإذا هذا المعنى يتصرف وصيّة له بما أوصاه به من اتباع ما جاء في القرآن والسنّة ، وذلك لأنّ العلم الحاصل من رؤية الشيء عيانا ، علمٌ لا يمكن أن يتعدّى مثله بالله سبحانه ، لأن ذاته تعالى لايمكن أن تُعْلَم من حيث هي هي ، كما تعلم المحسوسات ، ألا ترى أنّا إذا علمنا أنه صانع العالم ، وأنه قادر عالم حيّ سميع بصير مريد ، وأنه ليس بجسم ولا جوهر ولا عَرَض ، وعلمنا جميعَ الأمور السلبية والإيجابية المتعلقة به ، فإنا علمنا سُلوبا وإضافات ، ولاشك أنّ ماهية الموصوف مغايرة لماهية الصفات ، والذوات المحسوسة بخلاف ذلك ، لأنا إذا رأينا السّواد ، فقد علمنا نفس حقيقة السواد لاصفة من صفات السواد ؛ وأيضا فإنا لو قدرنا أنّ العلم بوجوده وصفاته السلبية والإيجابية ، يستلزم العلم بذاته ، من حيث هي هي لم يكن عالما بذاته علما جزئيا ، لأنّه يمكن أن يصدُق هذا العلم على كثيرين ، على سبيل البدل ، وإذا ثبت أنه يستحيلُ أن يصدُق على كثيرين على سبيل البدل ، ثبتَ أنّه يستحيلُ أن يصدُق على كثيرين على سبيل الجمع ، والعلم بالمحسوس يستحيلُ أن يصدق على كثيرين لاعلى سبيل الجمع ، ولا على سبيل البدل ، فقد بانَ أنه يستحيل أن يعلم الله تعالى كما يعلم الشيء المرئيّ عيانا ، فأمير المؤمنين عليه السلام أنكر هذا السؤال كما أنكره الله تعالى على بني إسرائيل لما طلبوا الرؤية ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ [١] .

---

(١) سورة البقرة ٥٥ .

ثم قال للسائل بعد غضبه واستحالة لونه وظهور أثر الإنكار عليه: مادلَّك القرآنُ عليه من صفته فخُذْ به ، فإن لم تجده فى الكتاب فاطلبه من السنّة ومن مذاهب أئمة الحق ، فإن لم تجد ذلك ، فاعلم أنّ الشيطان حينئذ قد كلّفك علْم مالم يكلفك الله علمه ؛ وهـذا حق ؛ لأن الكتاب والسنّة قد نطقا بصفات لله من كونه عالمًا قادراً حيًّا مريداً سميعا بصيرا ، ونطقا أيضا بتنزيهه عن سِمات الحُدُوث كالجسمية والحلول والجهة ؛ وما استلزم الجهة كالرؤية فلا إنكار على مَنْ طلب فى مدارك العقول وجوها تعضُدُ ماجاء به القرآن والسنّة ، وتوفّق بَيْن بعض الآيات وبعض ؛ وتحمل أحدَ اللفظين على الآخر إذا تناقضا فى الظاهر ، صيانةً لكلام الحكيم عن التهافت والتعارض . وأما مالم يأتِ الكتاب والسنة فيه بشيء فهو الذى حُرِّم وحُظِر على المكلّفين الفكر فيه؛ كالكلام فى الماهيّة التى يذهب ضرار المتكلم إليها ، وكإثبات صفات زائدة على الصفات المعقولة لذات البارئ سبحانه ، وهى على قسمين:

أحدُهما : مالم يرِدْ فيه نصٌّ ؛ كإثبات طائفة تُعرف بالماتريدية صفةً سمَّوْها التكوين زائدة على القدرة والإرادة .

والثانى : ماورد فيه لفظ فأخطأ بعضُ أهل النظر ، فأثبت لأجل ذلك اللفظة صفة غير معقولة للبارئ سبحانه ، نحو قول الأشعريّين : إنّ اليدين صفة من صفات الله ، والاستواء على العرش صفة من صفات الله ، وإنّ وجه الله صفة من صفاته أيضا ، ثم قال : إن الراسخين فى العلم الذين غنوا بالإقرار بما عرفوه عن الولوج والتقحّم فيما لم يعرفوه ، وهؤلاء هم أصحابنا المعتزلة لاشبهة فى ذلك ، ألا ترى أنّهم يعللون أفعال الله تعالى بالحِكَم والمصالح ، فإذا ضاق عليهم الأمر فى تفصيل بعض المصالح فى بعض المواضع ، قالوا : نعلم على الجملة أنّ لهذا وجْهَ حكمة ومصلحة ، وإن كنا لانعرف تفصيل تلك المصلحة ، كما يقولون فى تكليف مَنْ يعلم الله تعالى منه أنه يكفر ، وكما يقولون فى اختصاص الحال التى حدث فيها العالم بحدوثه دون ماقبلها وما بعدها .

وقد تأول القطب الراوندي كلامَ أمير المؤمنين في هذا الفصل ، فقال : إنما أنكر على من يقول : لم تعبَّد اللهُ المكلَّفين بإقامة خمس صلوات ؟ وهلا كانت ستاً أو أربعاً ! ولم جعلَ الظهر أربع ركعات ، والصبح ركعتين ؟ وهلّا عكس الحال ! وهذا التأويل غيرُ صحيح ، لأنه عليه السلام إنما أخرج هذا الكلام مخرج المنكِر عَلَى مَنْ سأله أن يصف له البارئ سبحانه ، ولم يكن السائل قد سأل عن العلّة في أعداد الصّلاة وكمية أجزاء العبادات.

ثم إنه عليه السلام قد صرّح في عُضون الكلام بذلك ؛ فقال : فانظر أيّها السائل ، فما دلّك القرآن عليه من صفته فائتمّ به ، وما لم يدلك عليه فليس عليك أن تخوض فيه ، وهذا الكلام تصريحٌ بأنّ البحث إنما هو في النظر العقليّ في فنّ الكلام ، فلا يجوز أن يحمل على ما هو بمعزل عنه .

واعلم أنا نتساهل في ألفاظ المتكلمين ، فنوردها بعباراتهم ، كقولهم في « المحسوسات » والصواب « الحِسّات » ؛ لأنه لفظ المفعول من « أحسّ » الرباعي ، لكنا لما رأينا العدول عن ألفاظهم إذا خضنا في مباحثهم مستهجناً عبّرنا بعباراتهم على علم منّا أنّ العربية لا تسوغها .

* * *

الأَصْلُ :

هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ارْتَمَتِ الْأَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ ، وَحَاوَلَ الْفِكْرُ الْمُبَرَّأُ مِنْ خَطَرِ الْوَسَاوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ ، وَتَوَلَّهَتِ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ ، لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ ، وَغَمَضَتْ مَدَاخِلُ الْعُقُولِ فِي حَيْثُ لَا تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَنَاوُلِ عِلْمِ ذَاتِهِ ـ رَدَعَهَا وَهِيَ تَجُوبُ مَهَاوِيَ سُدَفِ الْغُيُوبِ ، مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ ؛ فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لَا يُنَالُ بِجَوْرِ الاعْتِسَافِ كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ ، وَلَا تَخْطُرُ بِبَالِ أُولِي الرَّوِيَّاتِ خَاطِرَةٌ مِنْ تَقْدِيرِ جَلَالِ عِزَّتِهِ .

* * *

الشرح :

ارتمت الأوهام ، أى ترامَت ؛ يقال : ارتمى القوم بالنَّبل ؛ أى تراموا ، فشبّه جَوَلان الأوهام والأفكار وتعارضها بالترامى .

وخَطْر الوساوس ، بتسكين الطاء ؛ مصدر خَطَر له خاطر ، أى عرض فى قلبه ، ويروى « من خطَرات الوساوس » .

وتولّهت القلوب إليه : اشتدّ عِشقها حتى أصابها الوَلَه وهو الحيرة .

وقوله : « لتجرى فى كيفية صفاته » ، أى لتصادف مجرًى ومسلكا فى ذلك ، وغمضت مداخلُ العقول ، أى غَمض دخولها ، ودق فى الأنظار العميقة التى لا تبلغ الصفات كنهها لدقّتها وغموضها طالبة أن تنال معرفته تعالى .

ولفظة « ذات » لفظة قد طال فيها كلام كثير من أهل العربية ، فأنكر قومٌ إطلاقها على الله تعالى وإضافتها إليه ، أمّا إطلاقها فلأنّها لفظة تأنيث ؛ والبارىُ سبحانه منزّه عن الأسماء والصفات المؤنثة ؛ وأما إضافتها فلأنّها عين الشىء ؛ والشىء لا يضاف إلى نفسه .

وأجاز آخرون إطلاقها فى البارىْ تعالى وإضافتها إليه ، أما استعمالها فوجهين :

أحدهما أنها قد جاءت فى الشعر القديم ، قال خُبيب الصحابىّ عند صَلْبه :

وذلك فى ذاتِ الإلٰه وإن يشأ ... يُبارك على أوصال شِلْوٍ موزّع [1]

ويروى « ممزّع [2] » ، وقال النابغة :

مجلّتُهمْ ذاتُ الإلٰه ودينُهمْ ... قويمٌ فما يخشَوْن غير العواقب [3]

والوجه الثانى أنها لفظة اصطلاحية ، فجاز استعمالها لا على أنها مؤنث « ذو » بل تستعمل

---

(١) هو خبيب بن عدى الأنصارىّ ، من قصيدة أوردها ابن عبد البر فى الاستيعاب ٤١١ .
(٢) هى رواية الاستيعاب . (٣) ديوانه ٨ .

ارتجالا في مسماها الذي عبّر عنه بها أرباب النظر الإلهيّ ، كما استعملوا لفظ الجوهر والعرَض وغيرهما في غير ما كان أهل العربية واللغة يستعملونها فيه .

وأما منعهم إضافتها إليه تعالى ، وأنه لا يقال : « ذاته » ؛ لأنّ الشيء لا يضاف إلى نفسه فباطل بقولهم : أخذتُه نفسه وأخذتُه عينه ؛ فإنه بالاتفاق جائز ، وفيه إضافة الشيء إلى نفسه .

ثم نعود إلى التفسير :

قوله عليه السلام : « ردعها » ، أي كفّها . وتجوب ، أي تقطع والمهاوي : المهالك ، الواحدة مَهْوَاة بالفتح ، وهي ما بين جبلين أو حائطين ونحو ذلك . والسُّدَف : جمع سُدْفة ، وهي القطعة من الليل المظلم . وجُبِهت ، أي رُدّت ، وأصله مِنْ جَبْهَتُهُ ، أي صَكَكْتُ جبهته . والجَوْر : العدول عن الطريق ، والاعتساف : قَطْع المسافة على غير جادّة معلومة .

وخُلاصة هذا الفصل أنّ العقولَ إذا حاولت أن تدرك متى ينقطع اقتداره على المقدّرات نكصتْ عن ذلك ، لأنه قادر أبداً دائماً على ما لا يتناهى ؛ وإذا حاول الفِكْر الذي قد صفا وخلا عن الوساوس والعوائق أنْ يدرك مغيّبات عِلْمِه تعالى كلّ وحَسَر ورجع ناقصا أيضاً ؛ وإذا اشتدّ عشق النفوس له ، وتولّهت نحوه لتسلك مسلكا تقف منه على كيفية صفاته عجزت عن ذلك ؛ وإذا تلطفت العقول ، وغَمَضت مداخلُها في دقائق العلوم النظرية الإلهيّة التي لا توصف لدقّتها طالبة أن تعلم حقيقة ذاته تعالى ، انقطعت وأعيت ، وردّها سبحانه وتعالى وهي تجول وتقطع ظلماتِ الغيب لتخلُص إليه ، فارتدّتْ حيث جَبَهها وردعها ، مُقِرّة معترفة بأن إدراكه ومعرفته لا تُنالُ باعتساف المسافات التي بينها وبينه ؛ وإن أرباب الأفكار والرويات يتعذّر عليهم أن يخطر لهم خاطر يطابق ما في الخارج من تقدير جلال عزته ؛ ولابدّ من أخذ هذا القيد في الكلام ؛ لأن أرباب الأنظار

لا بدّ أن تخطر لهم الخواطر في تقدير جلال عزّته ؛ ولكن تلك الخواطر لا تكون مطابقة لها في الخارج ؛ لأنها خواطر مستندُها الوهم لا العقل الصريح ؛ وذلك لأنّ الوهم قد ألف الحسّيات والمحسوسات ، فهو يعقل خواطر بحسب ما ألفه من ذلك ؛ وجلالُ واجبِ الوجود أعلى وأعظم من أن يتطرّق لوهمٌ نحوه ؛ لأنه برىء من المحسوسات سبحانه ؛ وأما العقل الصريح فلا يدرك خصوصية ذاته لما تقدّم .

واعلم أن قوله تعالى : ﴿ فَارْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[1] فيه إشارة إلى هذا المعنى، وكذلك قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾[2] .

* * *

الأصل :

الَّذِي ٱبْتَدَعَ ٱلْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ ٱمْتَثَلَهُ، وَلَا مِقْدَارٍ ٱحْتَذَى عَلَيْهِ مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَهُ ، وَأَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ ، وَعَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ ، وَٱعْتِرَافِ ٱلْحَاجَةِ مِنَ ٱلْخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمِسَاكِ قُوَّتِهِ ؛ مَادَلَّنَا بِاضْطِرَارِ قِيَامِ ٱلْحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ ، فَظَهَرَتْ فِي ٱلْبَدَائِعِ ٱلَّتِي أَحْدَثَهَا آثَارُ صَنْعَتِهِ ، وَأَعْلَامُ حِكْمَتِهِ ، فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ ، وَدَلِيلاً عَلَيْهِ ؛ وَإِنْ كَانَ خَلْقاً صَامِتاً؛ فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ ، وَدَلَالَتُهُ عَلَى ٱلْمُبْدِعِ قَائِمَةٌ .

* * *

(١) سورة الملك ٣ ، ٤ .
(٢) سورة البقرة ٢٥٥ .

الشرح :

المِساك ، بكسر الميم : مايمسّك ويعصم به .

وقوله : « ابتدع الخلق على غير مثال امتثله » يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يريد بـ « امتثله » مثله ، كما تقول : صنعت واصطنعت بمعنى ، فيكون التقدير أنه لم يمثّل لنفسه مثالا قبل شروعه فى خلق العالم ؛ ثم احتذى ذلك المثال ؛ وركّب العالم على حسب ترتيبه ، كالصانع الذى يصوغ حلقة من رصاص مثالا ، ثم يصوغ حلقة من ذهب عليها ، وكالبنّاء يقدر ويفرض رسوماً وتقـديراتٍ فى الأرض وخطوطاً ، ثم يبنى بحسبها .

والوجه الثانى : أنّه يريد بامتثله احتذاه وتقيّله واتبعه ، والأصل فيه امتثال الأمر فى القول ، فنقل إلى احتذاء الترتيب العقلىّ ، فيكون التقدير أنّه لم يمثّل له فاعل آخر قبله مثالا اتبعه واحتذاه وفعل نظيره ، كما يفعل التلميذ فى الصياغة والنجارة شيئاً قد مثّل له أستاذُه صورتَه وهيئته .

واعلم أنّ هذا أحدُ الأسئلة التى يذكرها أصحابنا فى باب كونه عالما ، لأنهم لما استدلّوا على كونه تعالى عالمًا بطريق إحكام العالم وإتقانه ، سألوا أنفسهم فقالوا : لم لايجوز أن يكونَ القديم سبحانه أحدثَ العالم محتذياً لمثال مثله ، وهيئة اقتضاها ، والمحتذى لايجب كونه عالمًا بما يفعله ، ألا ترى أنّ من لايحسن الكتابة قد يحتذى خطا مخصوصاً ، فيكتب قريباً منه ، وكذلك من يطبع الشّمع بالخاتم ثم يطبع فيه مثال الخاتم ، فهو فعل الطابع ، ولايجب كونه عالما .

وأجاب أصحابنا عن ذلك فقالوا : إنّ أول فعل محكم وقع منه ، ثم احتذى عليه ، يكفى فى ثبوت كونه عالمـا ، وأيضاً فإنّ المحتذى ليست العالمية بمسلوبة عنه ، بل موصوف بها ،

ألا ترى أنه متصوّر صورة مايحتذيه ، ثم يوقع الفعل مشابها له ، فالمحتذى عالم في الجملة ، ولكنّ علمه يحدث شيئاً فشيئاً .

فأما معنى الفصل فظاهر ، يقول عليه السلام : إنه ابتدع الخلق على غير مثال قدمه لنفسه ولا قدم له غيره ليحتذى عليه ، وأرانا من عجائب صنعته ومن اعتراف الموجودات كلّها ، بأنها فقيرة محتاجة إلى أن يمسكها بقوته ، مادلّنا على معرفته ضرورة ، وفي هذا إشارة إلى أن كلّ ممكن مفتقر إلى المؤثر ، ولما كانت الموجودات كلّها غيره سبحانه ممكنة لم تكن غنيّة عنه سبحانه ، بل كانت فقيرة إليه ، لأنها لولاه ماقيت ، فهو سبحانه غنيّ عن كلّ شيء ، ولا شيء من الأشياء مطلقاً بغنيّ عنه سبحانه ، وهذه من خصوصية الإلهية ، وأجلّ ماتدركه العقول من الأنظار المتعلقة بها .

فإن قلت : في هذا الكلام إشعار بمذهب شيخكم أبي عثمان ، في أنّ معرفته تعالى ضرورية .

قلت : يكاد أن يكون الكلام مشيراً بذلك ؛ إلا أنه غير دالّ عليه ، لأنه لم يقل ما دلنا على معرفته باضطرار ، ولكن قال ما دلّنا باضطرار قيام الحجّة له على معرفته ، فالاضطرار راجعٌ إلى قيام الحجة ، لا إلى المعرفة .

ثم قال عليه السلام : وظهرت آثار صنعته ، ودلائل حكمته في مخلوقاته فكانت وهي صامتة في الصورة ناطقة في المعنى بوجوده وربوبيته سبحانه ، وإلى هذا المعنى نظر الشاعر فقال :

فَوَعَجَباً كَيْفَ يُعْصَى الإلهُ أمْ كيف يجحدُه الجاحدُ ! [1]
وَفِي كُــــلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ تَدُلُّ على أنّهُ وَاحِــدُ

---

(١) لأبي العتاهية ، ديوانه ٦٩ ، ٧٠

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [1] : إنه عبارة عن هذا المعنى .

• • •

الأَصْلُ :

فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايُنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ ، وَتَلَاحُمِ حِقَاقِ مَفَاصِلِهِمُ الْمُحْتَجِبَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ ، لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ ، وَلَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ الْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَا نِدَّ لَكَ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ عَنِ الْمَتْبُوعِينَ ؛ إِذْ يَقُولُونَ : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ؛ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِكَ ، إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَامِهِمْ ، وَنَحَلُوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ ، وَجَزَّءُوكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ ، وَقَدَّرُوكَ عَلَى الْخِلْقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوَى بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ ، وَالْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ ، وَنَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ ، وَأَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ ؛ فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً ، وَلَا فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا مَحْدُوداً مُصَرَّفاً .

• • •

الشَّرْحُ :

حقاق المفاصل جمع حُقّة ، وجاء في جمعها حِقَق وحقاق وحُقّ ، ولما قال : « بتباين أعضاء خلقك ، وتلاحم حقاق مفاصلهم » ؛ فأوقع التلاحُم في مقابلة التباين صناعة وبديعا . وروى

---

[1] سورة الإسراء ٤٤ .

« المحتجبة » ، فمن قال : « المحتجّة » ، أراد أنّها بما فيها من لطيف الصنعة كالمحتجة المستدلة على التدبير الحكمي من لدنه سبحانه ، ومن قال : « المحتجبة » أراد المستترة ، لأنّ تركيبها الباطن خفيّ محجوب .

والندّ : المثل . والعادلون بك : الذين جعلوا لك عَديلًا ونظيرا . ونَحَلُوك : أعطوك ؛ وهي النِّحلة ، وروى : « لم يُعْقَد » على ما لم يسمّ فاعله .

وغَيْب ضميره ، بالرفع . والقرائح : جمع قَرِيحة ، وهى القوة التى تستنبط بها المعقولات وأصلُه من قريحة البئر ، وهو أوّل مائها .

ومعنى هذا الفصل أنه عليه السلام شَهِد بأنّ المجسم كافر ، وأنّه لا يعرف الله ، وأن من شبه الله بالمخلوقين ذوى الأعضاء المتباينة ، والمفاصل المتلاحمة ، لم يعرفه ولم يباشر قلبه اليقين ، فإنه لا ندّ له ولا مِثل ، ثمّ أكّد ذلك بآيات من كتاب الله تعالى ، وهى قوله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ[1] ﴾ . حكى سبحانه حكاية قول الكفار فى النار ؛ وهم الغاوون للذين أغووهم من الشياطين وهم المتبوعون . لقد كنّا ضالين إذ سويناكم بالله تعالى ، وجعلناكم مثله ، ووجه الحجّة أنه تعالى حكى ذلك حكاية منكِر على مَنْ زعم أن شيئا من الأشياء يجوز تسويته بالبارى سبحانه ، فلو كان البارى سبحانه جسما مصوّرا ، لكان مشابها لسائر الأجسام المصوّرة ، فلم يكن لإنكاره على من سواه بالمخلوقات معنى .

ثم زاد عليه السلام فى تأكيد هذا المعنى ، فقال : كذب العادلون بك ، المثبتون لك نظيراً وشبيها ، يعنى المشبِّهة والمجسِّمة ، إذ قالوا : إنّك على صورة آدم ، فشبّهوك بالأصنام التى

(١) سورة الشعراء ٩٤ — ٩٨ .

كانت الجاهلية تعبدها ، وأعطوك حلية المخلوقين لما اقتضت أوهامهم ذلك ، من حيث لم يألفوا أن يكون القادر الفاعل العالم إلّا جسما ، وجعلوك مركّبا ومتجزئا ، كما تتجزأ الأجسام ، وقدروك على هذه الخلقة ، يعنى خلقة البشر المختلفة القُوى ، لأنها مركبة من عناصر مختلفة الطبائع . ثم كرّر الشهادة فقال : أشهد أنّ مَنْ ساواك بغيرك ، وأثبت أنك جوهرٌ أو جسم فهو عادل بك كافر . وقالت تلك الخارجية للحجاج : « أشهدُ أنك قاسط عادل » ، فلم يفهم أهلُ الشام حوله ما قالت ، حتى فسّره لهم ، قال عليه السلام فمن يذهب إلى هذا المذهب فهو كافر بالكتاب ، وبما دلّت عليه حجج العقول . ثم قال : وإنك أنت الله ، أى وأشهد أنك أنت الله الذى لم تحط العقولُ بك ، كإحاطتها بالأشياء المتناهية ، فتكون ذا كيفية .

وقوله : « فى مهبّ فكرها » استعارة حسنة ، ثم قال : « ولا فى رَوِيّات خواطرها » ، أى فى أفكارها . محدودا ذا حدٍّ مُصَرَّفا ، أى قابلا للحركة والتغير .

وقد استدلّ بعضُ المتكلّمين على نفى كون البارئ سبحانه جسما بما هو مأخوذ من هذا الكلام ، فقال : لو جاز أن يكون البارئ جسما ، لجاز أن يكونَ القمر هو إله العالم ، لكن لا يجوز أن يكون القمر إله العالم ، فلا يجوز أن يكون البارى جِسْماً ، بيان الملازمة أنه لو جاز أن يكون البارئ سبحانه جسما ، لما كان بين الإلهية وبين الجسمية منافاة عقلية ، وإذا لم يكن بينهما منافاة عقلية أمكن اجتماعُهما ، وإذا أمكن اجتماعهما جاز أن يكون القمر هُوَ إلهُ العالم ، لأنه لا مانع من كونه إله العالم إلا كونه جسما يجوز عليه الحركة ، والأفول ، ونقصان ضوئه تارة ، وامتلاؤه أخرى ، فإذا لم يكن ذلك منافيا للإلهية ، جاز أن يكون القمر إله العالم ، وبيان الثانى إجماعُ المسلمين على كفر من أجاز كون القمر إله العالم ، وإذا ثبتت الملازمة وثبتت المقدّمة الثانية فقد تمت الدلالة

* * *

الأَصْلُ :

ومنها :

قَدَّرَ مَا خَلَقَ فَأَحْكَمَ تَقْدِيرَهُ ، وَدَبَّرَهُ فَأَلْطَفَ تَدْبِيرَهُ ، وَوَجَّهَهُ لِوِجْهَتِهِ فَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِهِ ، وَلَمْ يَقْصُرْ دُونَ الانْتِهَاءِ إِلَى غَايَتِهِ ، وَلَمْ يَسْتَصْعِبْ إِذْ أُمِرَ بِالْمُضِيِّ عَلَى إِرَادَتِهِ ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا صَدَرَتِ الْأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ ! الْمُنْشِئُ أَصْنَافَ الْأَشْيَاءِ بِلَا رَوِيَّةِ فِكْرٍ آلَ إِلَيْهَا ، وَلَا قَرِيحَةِ غَرِيزَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْهَا ، وَلَا تَجْرِبَةٍ أَفَادَهَا مِنْ حَوَادِثِ الدُّهُورِ ، وَلَا شَرِيكٍ أَعَانَهُ عَلَى ابْتِدَاعِ عَجَائِبِ الْأُمُورِ ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ ، وَأَجَابَ إِلَى دَعْوَتِهِ ، لَمْ يَعْتَرِضْ دُونَهُ رَيْثُ الْمُبْطِئِ ، وَلَا أَنَاةُ الْمُتَلَكِّئِ ، فَأَقَامَ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَوَدَهَا ، وَنَهَجَ حُدُودَهَا ، وَلَاءَمَ بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ مُتَضَادِّهَا ، وَوَصَلَ أَسْبَابَ قَرَائِنِهَا ، وَفَرَّقَهَا أَجْنَاساً ، مُخْتَلِفَاتٍ فِي الْحُدُودِ وَالْأَقْدَارِ ، وَالْغَرَائِزِ وَالْهَيْئَاتِ ، بَدَايَا خَلَائِقَ أَحْكَمَ صُنْعَهَا ، وَفَطَرَهَا عَلَى مَا أَرَادَ وَابْتَدَعَهَا .

• • •

الشَّرْحُ :

الوِجْهة ، بالكسر : الجهة التي يتوجّه نحوها ، قال تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾[1] .

والرَّيْث : البطء والتلكُّؤ : التأخّر . والأَوَد : الاعوجاج . ولاءم بين كذا وكذا ، أي جمع ، والقرائن هنا : الأنفس ، واحدتها قَرونة وقَرينة ، يقال : سمحت قرينته وقَرونته؛ أي أطاعته نفسُه وذلّت ، وتابعته على الأمر . وبدايا . ها هنا : جمع بديّة،

---

(١) البقرة ١٤٨ .

وهي الحالة المتعجبة ، أبدأ الرجل إذا جاء بالأمر البديء ، أي المعجب ، والبديّة أيضاً : الحالة المبتدأة المبتكرة ، ومنه قولهم : فَعَلَه بادئَ ذي بَدِيء على وزن « فعيل » ، أي أوّلَ كلّ شيء . ويمكن أن يحمَل كلامُه أيضاً على هذا الوجه .

وأما خلائق ؛ فيجوز أن يكون أضاف « بدايا » إليها ؛ ويجوز ألاّ يكون أضافه إليها ، بل جعلها[1] بدلاً من « أجناسا » . ويروى « برايا » جمع بريّة . يقول عليه السلام : إنّه تعالى قدّر الأشياء التي خلقها، فخلقها محكمة على حسَب ما قدّر . وألطف تدبيرها، أي جعله لطيفا ، وأمضى الأمور إلى غاياتها وحدودها المقدّرة لها ، فهيأ الصَّقْرة للاصطياد ، والخيل للركوب والطّراد ، والسيف للقَطْع ، والقلم للكتابة ، والفَلَك للدوران ونحو ذلك ، وفي هذا إشارة إلى قول النبيّ صلى الله عليه وآله : « كلٌّ ميسّرٌ لما خلق له » ؛ فلم تتعدّ هذه المخلوقات حدود منزلتها التي جعلت غايتها، ولا قصرت دون الانتهاء إليها ، يقول : لم تقف على الغاية ولا تجاوزتها . ثم قال : ولا استصعبت وامتنعت إذا أمرها بالمضيّ إلى تلك الغاية بمقتضى الإرادة الإلٰهية ، وهذا كلّه من باب المجاز ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ[2] ﴾ .

وخلاصة ذلك ، الإبانة عن نفوذ إرادته ومشيئته .

ثم علّل نفي الاستصعاب فقال : وكيف يَستصعب ، وإنما صدرت عن مشيئته ! يقول : إذا كانت مشيئتهُ هي المقتضية لوجود هذه المخلوقات ، فكيف يُستَصْعَبُ عليه بلوغها إلى غاياتها التي جعلت لأجلها ، وأصلُ وجودها إنما هو مشيئته ، فإذا كان أصل وجودها بمشيئته ، فكيف يستصعب عليه توجيهها لوجهتها ، وهو فرع من فروع وجودها وتابع له !

---

(١) ا : « بجعلها » .
(٢) سورة فصلت ١١ .

ثم أعاد معانىَ القول الأول ، فقال : إنه أنشأ الأشياء بغير رويّة ولا فكرة ولا غريزة أضمر عليها خَلْق ما خلق عليهـا . ولا تجربة أفادها ، أى استفادها من حوادث مرّت عليه من قبلُ ، كما تكسب التجارب علوماً لم تكن ، ولا بمساعدة شريك أعانه عليها . ثمّ خلقُه بأمره إشارة إلى قوله : « ولم يتعصب إذ أمر بالمضىّ » ؛ فلما أثبت هناك كونها أُمِرت أعاد لفظ الأمر ها هنا ، والكلّ مجاز ، ومعناه نفوذ إرادته ، وأنه إذا شاء أمراً استحال ألا يقع ، وهذا المجاز هو المجازُ المستعمَل فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[1] ؛ تعبيرا بهذا اللفظ عن سرعة مواتاة الأمور له ، وانقيادها تحت قدرته .

ثم قال : ليس كالواحد منا يعترض دون مراده ريْث وبطء ، وتأخير والتواء . ثم قال : وأقام العوج وأوضح الطريق ، وجمع بين الأمور المتضادّة ، ألا ترى أنه جمع فى بَدَن الحيوانات والنبات بين الكيفيات المتباينة المتنافرة ، من الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، ووصلَ أسباب أنفسها بتعديل أمزجتها ، لأن اعتدال المزاج أو القرب من الاعتدال سببُ بقاء الروح ، وفرّقها أجناساً مختلفات الحدود والأقدار ، والخلق والأخلاق والأشكال . أمورٌ عجيبة بديعة مبتكرة الصنعة ، غير محتذى بها حَذْوَ صانع سابق ، بل مخلوقة على غير مثال ، قد أحكم سبحانه صنعها ، وخلقها على موجب ما أراد ، وأخرجها من العدم المحض إلى الوجود ، وهو معنى الابتداع ، فإنّ الخلق فى الاصطلاح النظرىّ على قسمين : أحدهما صورة تخلق فى مادة ، والثانى ما لا مادّة له ، بل يكون وجودُ الثانى من الأول فقطْ ، من غير توسّط المادة ، فالأول يسمّى التكوين ، والثانى يسمى الإبداع ، ومرتبة الإبداع أعلى من مرتبة التكوين .

* * *

---

(١) سورة يس ٨٢ .

الأصل :

ومنها في صفة السماء :

وَنَظَمَ بِلَا تَعْلِيقٍ رَهَوَاتِ فُرَجِهَا ، وَلَاحَمَ صُدُوعَ انْفِرَاجِهَا ، وَوَشَّجَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَزْوَاجِهَا ، وَذَلَّلَ لِلْهَابِطِينَ بِأَمْرِهِ ، وَالصَّاعِدِينَ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ حُزُونَةَ مِعْرَاجِهَا ، وَنَادَاهَا بَعْدَ إِذْ هِيَ دُخَانٌ ، فَالْتَحَمَتْ عُرَا أَشْرَاجِهَا ، وَفَتَقَ بَعْدَ الِارْتِتَاقِ صَوَامِتَ أَبْوَابِهَا ، وَأَقَامَ رَصَداً مِنَ الشُّهُبِ الثَّوَاقِبِ عَلَى نِقَابِهَا ، وَأَمْسَكَهَا مِنْ أَنْ تَمُورَ فِي خَرْقِ الْهَوَاءِ بِأَيْدِهِ ، وَأَمَرَهَا أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لِأَمْرِهِ ، وَجَعَلَ شَمْسَهَا آيَةً مُبْصِرَةً لِنَهَارِهَا ، وَقَمَرَهَا آيَةً مَمْحُوَّةً مِنْ لَيْلِهَا ، وَأَجْرَاهُمَا فِي مَنَاقِلِ مَجْرَاهُمَا ، وَقَدَّرَ سَيْرَهُمَا[1] فِي مَدَارِجِ دَرَجِهِمَا ، لِيُمَيِّزَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِهِمَا ، وَلِيُعْلَمَ عَدَدُ السِّنِينَ وَالْحِسَابُ بِمَقَادِيرِهِمَا ، ثُمَّ عَلَّقَ فِي جَوِّهَا فَلَكَهَا ، وَنَاطَ بِهَا زِينَتَهَا ، مِنْ خَفِيَّاتِ دَرَارِيِّهَا ، وَمَصَابِيحِ كَوَاكِبِهَا ، وَرَمَى مُسْتَرِقِي السَّمْعِ بِثَوَاقِبِ شُهُبِهَا ، وَأَجْرَاهَا عَلَى أَذْلَالِ تَسْخِيرِهَا ، مِنْ ثَبَاتِ ثَابِتِهَا ، وَمَسِيرِ سَائِرِهَا ، وَهُبُوطِهَا وَصُعُودِهَا ، وَنُحُوسِهَا وَسُعُودِهَا .

• • •

الشرح :

الرَّهَوات : جمع رَهْوة ، وهي المكان المرتفع والمنخفض أيضا ، يجتمعُ فيه ماء المطر ، وهو من الأضداد . والفُرَج : جمع فُرْجة ، وهي المكان الخالي. ولاحم: ألصق . والصَّدْع: الشّق. ووَشّجَ ، بالتشديد ، أى شبك. ووشجَت العروقُ والأغصان ، بالتخفيف: اشتبكت، وبيننا رحم واشجة ، أى مشتبكة .

وأزواجها: أقرانها وأشباهها، قال تعالى: ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً ﴾[2]، أى أصنافا ثلاثة.

---

(١) مخطوطة النهج : « مسيرهما » .

(٢) سورة الواقعة ٧ .

والحزونة : ضدّ السهولة . وأشراجها : جمع شَرْج ؛ وهو عُرَا العَيْبة ؛ وأشرجتُ العيبة،أي أقفلت أشراجها،وتسمى مجرّة السماء شَرْجا؛تشبيها بشَرْج العَيْبة؛وأشراج الوادى: ماانفسح منه واتسع .

والارتتاق :الارتتاج . والنقاب :جمع نَقْب ؛ وهو الطريق فى الجبل. وتَمُور :تتحرك وتذهب وتجيء ؛ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ [1] والأَيْدُ : القوة.ونَاطَ بها : عَلّق .والدّرارىّ : الكواكب المضيئة ، نسبت إلى الدُّرّ لبياضها؛ واحدها دُرّىّ، ويجوز كسر الدال ، مثل بحر لُجّىّ ولِجّىّ .

والثواقب :المضيئات . وتقول :افعل ما أمرتك على أذلاله ،أى على وجهه ؛ ودَعْه فى أذلاله ؛ أى على حاله ، وأمور الله جارية على أذلالها ؛ أى على مجاريها وطرقها .

يقول عليه السلام : كانت السماء أوّل ما خلقت غير منتظمة الأجزاء ، بل بعضُها أرفعُ وبعضها أخفض ، فنظمها سبحانه ، بجعلها بسيطا واحدا ، نظماً اقتضته القدرة الإلهية ؛من غير تعليق ، أى لا كما ينظم الإنسانُ ثوبًا مع ثوب ، أو عِقْدا مع عِقْد ،بالتعليق والخياطة، وألصق تلك الفروجَ والشُّقوق ، فجعلها جسما متصلا ، وسطحا أملس لا تفاوت فيه ولا فُرَج ولا صُدوع ، بل جعلَ كلّ جزء منها ملتصقا بمثله ، وذلل الملائكة الهابطين بأمره ، والصاعدين بأعمال خلقه ــ لأنهم الكَتَبة الحافظون لها ــ حُزُونة العُروج إليها ، وهو الصعود

ثم قال : « وناداها بعد إذ هى » روى بإضافة « بَعْد » إلى « إذ » وروى بضمّ « بعد » ، أى وناداها بعدذلك إذ هى دخان ؛ والأول أحسن وأصوب ، لأنها على الضمّ تكون دُخانا بعد نظامه رَهَوات فروجها وملاحمة صدوعها؛ والحال تقتضى أن دخانها قبل ذلك لا بعده .

---

(١) سورة الطور ٩ .

فإن قلت: ماهذا النداء ؟ قلت: هوقوله : ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾(١) ،فهوأمر فى اللفظ ونداء فى المعنى ، وهو على الحقيقة كناية عن سرعة الإبداع . ثم قال: وفَتَق سد الارتتاق صوامتَ أبوابها ، هذا صريح فى أنّ للسماء أبوابا ، وكذلك قوله : « على نقابها » ،وهو مطابق لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَاءِ ﴾ (٢) والقرآن العظيم وكلام هذا الإمام المعظّم أولى بالاتباع من كلام الملاسفة ، الذين أحالوا الخرق على الفلك . وأما إقامة الرصدمن الشُّهب الثواقب ، فهو نص القرآن العزيز ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ (٣) : والقول بإحراق الشهب الشياطين اتباعا لنص الكتاب أولى من قول الفلاسفة الذين أحالوا الانقضاض على الكواكب .

ثم قال : وأمسكها على الحركة بقوته ، وأمرها بالوقوف فاستمسكت ووقفت . ثم ذكر الشمس والقمر تذكرةً مأخوذ من قول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ (٤) .

ثم ذكر الحكم فى جَرَيان الشمس والقمر فى مجراهما تذكرةً مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾(٥) ، وقوله : ﴿ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة فصلت ١١ .
(٢) سورة الأعراف ٤٠ .
(٣) سورة الجن ٨ ، ٩ .
(٤) سورة الإسراء ١٢ .
(٥) سورة يس ٣٨ ، ٣٩
(٦) سورة يونس ٥ .

ثم قال : « ثم علق فى جوّها فلكها » ، وهذا يقتضى أنّ الفلك غير السماء ، وهو خلاف قول الجمهور ، وقد قال به قائلون ، ويمكن أن نفسر ذلك إذا أردنا موافقة قول الجمهور بأنه أراد بالفلك دائرة معدّل النهار ، فإنّها الدائرة العظمى فى الفلك الأعظم ، وهى فى الاصطلاح النظرى تسمى فلكاً .

ثم ذكر أنه زين السماء الدنيا بالكواكب ، وأنها رجوم لمسترق السمع ، وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ (1) .

ثم شرح حال الدنيا فقال : « من ثبات ثابتها » ، يعنى الكواكب التى فى كرة البروج و « مسير سائرها » ، يعنى الخمسة والنيرين لأنها سائرة دائما

ثم قال : « وصعودها وهبوطها » ، وذلك أن الكواكب السيارة صعوداً فى الأوج ، وهبوطا فى الحضيض ، فالأول هو البعد الأبعد عن المركز ، والثانى البعد الأقرب .

فإن قلت : ما باله عليه السلام قال : « ونحوسها وسعودها » ، وهو القائل لمن أشار عليه ألا يحارب فى يوم مخصوص : « المنجّم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر فى النار » ؟

قلت : إنه عليه السلام إنما أنكر فى ذلك القول على من يزعم أن النجوم مؤثّرة فى الأمور الجزئيّة ، كالذين يحكمون لأرباب المواليد وعليهم ، وكمن يحكم فى حرب أو سلم ، أو سفر أو مقام ، بأنه للسعد أو النحس ، وأنه لم ينكر على من قال : إنّ النجوم تؤثّر سعوداً ونحوسا فى الأمور الكلية ، نحو أن تقتضى حرًّا أو بردا ، أو تدلّ على مرض عامّ

---

(1) سورة الصافات ٦ — ٩

أو قحط عام ، أو مطر دائم ، ونحو ذلك من الأمور التي لا تحص إنسانا بعينه،وقد قدمنا في ذلك الفصل مايدل على تصويب هذا الرأي ، وإفساد ماعداه .

* * *

الأصل :

ومنها في صفة الملائكة :

ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لِإِسْكَانِ سَمٰوَاتِهِ ، وَعِمَارَةِ الصَّفِيحِ الْأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ ، خَلْقاً بَدِيعاً مِنْ مَلَائِكَتِهِ ، وَمَلَأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا ، وَحَشَى بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوَائِهَا ، وَبَيْنَ فَجَوَاتِ تِلْكَ الْفُرُوجِ زَجَلُ الْمُسَبِّحِينَ مِنْهُمْ فِي حَظَائِرِ الْقُدُسِ ، وَسُتُرَاتِ الْحُجُبِ وَسُرَادِقَاتِ الْمَجْدِ ، وَوَرَاءَ ذٰلِكَ الرَّجِيجِ الَّذِي تَسْتَكُّ مِنْهُ الْأَسْمَاعُ سُبُحَاتُ نُورٍ تَرْدَعُ الْأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا فَتَقِفُ خَاسِئَةً عَلَى حُدُودِهَا .

وَأَنْشَأَهُمْ عَلَى صُوَرٍ مُخْتَلِفَاتٍ ، وَأَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ ، أُولِي أَجْنِحَةٍ تُسَبِّحُ جَلَالَ عِزَّتِهِ ، لَا يَنْتَحِلُونَ مَاظَهَرَ فِي الْخَلْقِ مِنْ صُنْعِهِ ، وَلَا يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئاً مَعَهُ مِمَّا انْفَرَدَ بِهِ :﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ*لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[1] جَعَلَهُمُ اللهُ فِيمَا هُنَالِكَ أَهْلَ الْأَمَانَةِ عَلَى وَحْيِهِ ، وَحَمَّلَهُمْ إِلَى الْمُرْسَلِينَ وَدَائِعَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَعَصَمَهُمْ مِنْ رَيْبِ الشُّبُهَاتِ ، فَمَا مِنْهُمْ زَائِغٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ .

وَأَمَدَّهُمْ بِفَوَائِدِ الْمَعُونَةِ ، وَأَشْعَرَ قُلُوبَهُمْ تَوَاضُعَ إِخْبَاتِ السَّكِينَةِ ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَاباً ذُلُلاً إِلَى تَمَاجِيدِهِ ، وَنَصَبَ لَهُمْ مَنَاراً وَاضِحَةً عَلَى أَعْلَامِ تَوْحِيدِهِ ، لَمْ تُثْقِلْهُمْ مُوصِرَاتُ الْآثَامِ ، وَلَمْ تَرْتَحِلْهُمْ عُقَبُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، وَلَمْ تَرْمِ الشُّكُوكُ بِنَوَازِعِهَا عَزِيمَةَ إِيمَانِهِمْ ، وَلَمْ تَعْتَرِكِ الظُّنُونُ عَلَى مَعَاقِدِ يَقِينِهِمْ ، وَلَا قَدَحَتْ قَادِحَةُ الْإِحَنِ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَلَا سَلَبَتْهُمُ الْحَيْرَةُ مَالَاقَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمَائِرِهِمْ ، وَمَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ

---

(١) سورة الأنبياء ٢٦ ، ٢٧ .

وهيبة جلاله في أثناء صدورهم ، ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع برينها على فكرهم .

ومنهم من هو في خلق الغمام الدلح ، وفي عظم الجبال الشمخ ، وفي قترة الظلام الأيهم . ومنهم من قد خرقت أقدامهم تخوم الأرض السفلى ؛ فهي كرايات بيض قد نفذت في مخارق الهواء ، وتحتها ريح هفافة تحبسها على حيث انتهت من الحدود المتناهية ؛ قد استفرغتهم أشغال عبادته ، ووصلت حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته ، وقطعهم الإيقان به إلى الوله إليه ، ولم تجاوز رغباتهم ماعنده إلى ماعند غيره .

قد ذاقوا حلاوة معرفته ، وشربوا بالكأس الروية من محبته ، وتمكنت من سويداوات قلوبهم وشيجة خيفته ، فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم ، ولم ينفد طول الرغبة إليه مادة تضرعهم ، ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة ربق خشوعهم ، ولم يتولهم الإعجاب فيستكثروا ما سلف منهم ، ولا تركت لهم استكانة الإجلال نصيباً في تعظيم حسناتهم . ولم تجر الفترات فيهم على طول دءوبهم ، ولم تغض رغباتهم فيخالفوا عن رجاء ربهم ، ولم تجف لطول المناجاة أسلات ألسنتهم ، ولا ملكتهم الأشغال فتنقطع بهمس الجؤار إليه أصواتهم ، ولم تختلف في مقاوم الطاعة مناكبهم ، ولم يثنوا إلى راحة التقصير في أمره رقابهم .

ولا تعدو على عزيمة جدهم بلادة الغفلات ، ولا تنتضل في هممهم خدائع الشهوات .

قد اتخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم ، ويمموه عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم ، لا يقطعون أمد غاية عبادته ، ولا يرجع بهم الاستهتار

بِلُزُومِ طَاعَتِهِ، إِلَّا إِلَى مَوَادَّ مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرِ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَجَائِهِ وَمَخَافَتِهِ، لَمْ تَنْقَطِعْ أَسْبَابُ الشَّفَقَةِ مِنْهُمْ فَيَنُوا فِي جِدِّهِمْ، وَلَمْ تَأْسِرْهُمُ الْأَطْمَاعُ فَيُؤْثِرُوا وَشِيكَ السَّعْيِ عَلَى اجْتِهَادِهِمْ[1]. لَمْ يَسْتَعْظِمُوا مَا مَضَى مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوِ اسْتَعْظَمُوا ذَلِكَ لَنَسَخَ الرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقَاتِ وَجَلِهِمْ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي رَبِّهِمْ بِاسْتِحْوَاذِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ.

وَلَمْ يُفَرِّقْهُمْ سُوءُ التَّقَاطُعِ، وَلَا تَوَلَّاهُمْ غِلُّ التَّحَاسُدِ، وَلَا تَشَعَّبَتْهُمْ مَصَارِفُ الرِّيَبِ، وَلَا اقْتَسَمَتْهُمْ أَخْيَافُ الْهِمَمِ، فَهُمْ أُسَرَاءُ إِيمَانٍ لَمْ يَفُكَّهُمْ مِنْ رِبْقَتِهِ زَيْغٌ وَلَا عُدُولٌ، وَلَا وَنًى وَلَا فُتُورٌ، وَلَيْسَ فِي أَطْبَاقِ السَّمَاءِ مَوْضِعُ إِهَابٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ سَاعٍ حَافِدٌ، يَزْدَادُونَ عَلَى طُولِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْمًا، وَتَزْدَادُ عِزَّةُ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِظَمًا.

الشَّرْحُ :

هذا موضع المثل : « إذا جاء نهرُ الله بطل نهر مَعْقِل »[2] ! إذا جاء هذا الكلام الربّانىّ ، واللفظ القدسىّ ، بطلَتْ فصاحة العرب ، وكانت نسبة الفصيح من كلامها إليه ، نسبةَ التراب إلى النُّضار الخالص ؛ ولو فرضت أنّ العرب تقدِرُ على الألفاظ الفصيحة المناسبة ، أو المقاربة لهذه الألفاظ ، من أين لهم المادّة التى عبّرت هذه الألفاظ عنها ؟ ومن أين تعرف الجاهليّة بل الصحابة المعاصرُون لرسول الله صلى الله عليه وآله هذه المعانى الغامضة السمائيّة ؛ ليتهيّأ لها التعبير عنها ! أما الجاهليّة فإنهم إنما كانت تظهر فصاحتهم فى صفة بعير أو فرس أو حمار وحش ، أو ثور فلاة ، أو صفة جبال أو فلوات ؛ ونحو ذلك . وأما الصحابة

---

(١) ج : « فى اجتهادهم » .

(٢) نهر معقل : مضاف إلى معقل بن يسار بن عبد الله المزنى ؛ ذكر ياقوت عن الواقدى أن عمر أمر أبا موسى الأشعرى أن يحفر نهراً بالبصرة وأن يجريه على يد معقل بن يسار ، فنسب إليه .

فالمذكورون منهم بفصاحةٍ إنما كان منتهى فصاحة أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثة ، إمّا في موعظة تتضمّن ذكر للموت أو ذمّ الدنيا،أو مايتعلق بحرب وقتال،من ترغيب أو ترهيب ؛ فأمّا الكلامُ في الملائكة وصفاتها ، وصُورها وعباداتها ، وتسبيحها ومعرفتها بخالقها وحبّها له ، وَوَلَهِها إليه ، وماجرى مجرى ذلك مما تضمّنه هذا الفصل على طوله ، فإنّه لم يكن معروفاً عندهم على هذا التفصيل ؛ نعم ربما علموه جملة غير مقسّمة هذا التقسيم ، ولا مرتّبة هذا الترتيب ؛ بما سمعوه من ذكر الملائكة في القرآن العظيم ؛وأمامَنْ عنده علم من هذه المادة ، كعبد الله بن سلاّم وأميّة بن أبي الصّلْت وغيرهم ؛ فلم تكن لهم هذه العبارة ، ولا قَدَرُوا على هذه الفصاحة ، فثبت أنّ هذه الأمور الدقيقة في مثل هذه العبارة الفصيحة ، لم تحصل إلا لعليّ وحده ؛ وأقسم أنّ هذا الكلام إذا تأمّله اللبيب اقشعرّ جلده ، ورجف قلبُه ، واستشعر عظمة الله العظيم في رَوْعه وخَلَده ، وهام نحوه وغلب الوجد عليه؛وكاد أن يخرج من مَسْكه شوقاً ؛ وأن يفارق هيكله صَبابةً ووجداً.

ثم نعود إلى التفسير فنقول :

الصّفيح الأعلى : سطح الفَلَك الأعظم ؛ ويقال لوجه كلّ شيء عريض : صفيح وصَفْحَة .

والفُروج : الأماكن الخالية والفِجاج : جمع فَجّ ، والفَجّ : الطريق الواسع بين جبلين أو حائطين وأجوائها : جمع جَوّ،وهو ما اتّسع من الأودية،ويقال لما بين السماء والأرض جَوّ،ويروى : «أجوابها» جمع جَوْبَة،وهي الفُرْجة في السحاب وغيره ويروى:«أجْوَازها» جمع جَوْز،وهو وَسَط الشيء . والفجوات . جمع فَجْوة،وهي الفُرْجة بين الشيئين؛تقول منه: تفاجَى الشيء ، إذا صار له فَجْوة ، ومنه الفَجاء ؛ وهو تباعُد مابين عُرْقُوتَي البعير .

والزَّجَل : الصوت . وحظائر القدس : لفظة وردت في كلام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأصل « الحظيرة » مايعمل شِبْه البيت للإبل من الشجر ليقيها البرد ؛ فسمّى عليه

السلام تلك المواطن الشريفة المقدّسة العالية التي فوق الفلك حَظَائر القدس ، والقُدْسُ بتسكين الدال وضمها : الطُّهر ، والتقديس : التطهير ، وتقدّس : تطهّر . والأرض المقدّسة المطهّرة ، وبيت المقدس أيضا ، والنسبة إليه قُدْسيّ ومقدسيّ . والسُّتُرات : جمع سُتْرة . والرجيج : الزلزلة والاضطراب ؛ ومنه ارتجّ البحر . وتستكّ الأسماع : تنسدّ ، قال النابغة:

وَنُبِّئْتُ خَيْرَ النّاسِ أَنَّكَ لُمْتَنِي وتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكُّ منها المسامعُ [1]

سُبُحات النور ، بضم السين والباء : عبارة عن جلالة الله تعالى وعظمته . وتَرْدَع الأبصار تكفّها . وخاسئة ، أي سادرة ، ومنه : ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [2] ، وحَسَأ بصرُه ، حَسْأً وخُسوءا ، أي سَدِر [3] .

وقوله : « على حدودها » أي تقف حيث تنتهي قوتّها ، لأنّ قوتها متناهية ؛ فإذا بلغتْ حدّها وقفت . وقوله : « أُولِي أَجْنِحَةٍ » من الألفاظ القرآنية [4] .

وقوله : « لا ينتحلون ماظهر في الخلق من صنعه » ، أي لايدّعون الإلٰهيّة لأنفسهم، وإن كان قوم من البشر يدّعونها لهم . وقوله: « لا يدّعون أنهم يخلقون شيئا معه مما انفرد به»، فيه إشارة إلى مذهب أصحابنا في أنّ أعمال العباد مخلوقة لهم ، لأنّ فائدة هذا التقييد ، وهو قوله : « انفرد به » إنّما تظهر بذلك .

وأما الآيات المقدسة ، فالرواية المشهورة « مُكْرَمون » وقرئ : « مُكَرَّمُون » بالتشديد ، وقرئ «لايسبُقونه» بالضم ، والمشهور القراءة بالكسر ، والمعنى أنهم يتبعون قوله ، ولا يقولون شيئا حتى يقوله ، فلا يسبق قولهم قولَه ، وأراد أن يقول : « لايسبقونه بقولهم » ، فحذف الضمير المضاف إليه ، وأناب اللّام منابه

---

(١) ديوانه ٥٢ ، وروايته : « أتاني أبيت اللعن » .
(٢) سورة الملك ٤ . (٣) سدر : أي كلّ وأعيا .
(٤) من قوله تعالى في سورة فاطر . ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾

ثم قال : « وهم بأمره يعملون » ؛ أى كما أنّ قولهم تابع لقوله ؛ فعملهم أيضاً كذلك فرْعٌ على أمره ،لايعملون عملا مالم يؤمروا به ؛ وجاء فى الخبر المرفوع عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « أنه رأى جبرائيل ليلة المعراج ساقطاً كالحِلْس من خَشْية الله » . والحِلْس : الكساء الخفيف .

والزائغ : العادل عن الطريق ، والإخبات : التذلّل والاستكانة . وأبوابا ذُلُلا ، أى سهلة وطيئة ، ومنه : دابّةٌ ذَلُول ؛ وتماجيده : الثناء عليه بالمجد . والمؤصِرات : المثقلات والإصْر : الثقل .

وتقول : « ارتحلتُ » البعير ، أى ركبته ، والعُقْبة : النوبة ، والجمع عُقَب . ومعنى قوله : « ولم ترتحلهم عُقَب الليالى والأيام » . أى لم تؤثّر فيهم نوبات الليالى والأيام وكرورها ، كما يؤثر ارتحال الإنسان البعير فى ظهره . ونوازعها : شهواتها النازعة المحرّكة ، وروى : « نوازغها » بالغين المعجمة ، من نَزَغ بينهم ، أى أفسد .

ولم تعترك الظنون ، أى لم تزدحم الظنون على يقينهم الذى عقدوه .

والإحَن : جمع إحْنة ، وهى الحقد ، يقول : لم تقطع قوادح الحقد فى ضمائرهم .

ومالاق ، أى ما التصق ، وأثناء صدورهم : جمع ثِنْى وهى التضاعيف . والرَّيْن : الدّنس والطبع ، قال تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ [(١)] .

وتقترع ، من الاقتراع بالسهام ، بأنْ يتناوب كلٌّ من الوساوس عليها . ويروى : « فيفترع » بالفاء ، أى تعلو بريبتها ، فرَعه ، أى علاه .

والغمام : جمع غمامة ، وهى السحابة والدُّلّح : الثِّقال ، جاء يدْلح بحِمْله ، أى جاء مثقّلاً به . والجبال الشُّمخ : العالية الشاهقة .

وقوله : « فى قَتْرة الظلام » ، أى سواده . والأيْهم : لا يهتدَى فيه ، ومنه

---

(١) سورة المطففين ٨٣ .

فلاةً يَهْماء . والتُّخُوم ، بضم التاء : جمع تَخْم وهو منتهى الأرض أو القرية ، مثل فَلْس وفلوس ، ويروى : « تَخُوم » بفتح التاء على أنّها واحد ، والجمع تُخُم مثل صَبُور وصُبُر .

وريح هَفّافة ؛ أى ساكنة طَيّبة ؛ يقول: كأنّ أقدامهم التى خرقتِ الهواء إلى حضيض الأرض رايات بيض تحتها ريح ساكنة ليست مضطربة ؛ فتموج تلك الرايات ؛ بل هى ساكنة تحبسها حيث انتهت، وجاء فى الخبر أنّ لإسرافيل جناحين أحدهما فى أقصى المشرق والآخر فى أقصى المغرب ، وأنّ العرش على كاهله ، وإنه ليتضاءل أحيانا لعظمة الله ، حتى يعود مثل الوضع وهو العصفور .

ثم ، قال : « قد استفرغتْهم أشغال عبادته تعالى » أى جعلَتْهم فارغين إلا منها . ويروى : « ووسَّلت حقائق الإيمان » بالسين المشددة ، يقال: وسَّل فلان إلى ربّه وسيلة، والوسيلة مايتقرب به ؛ والجمع وسيل ووسائل ؛ ويقال : وسلتُ إليه وتوسلت إليه بمعنًى .

وسويداوات القلوب : جمع سويداء ؛ وهى حَبّة القلب . والوشيجة فى الأصل :عرق الشَّجرة ، وهى هنا استعارة . وَحَنَيتُ ضلَعى ، أى عوجتها . والرِّبَق : جمع رِبْقة ؛ وهى الحبل .

قوله : « ولم يتولّهم الإعجاب » ؛ أى لم يستولِ عليهم . والدءوب : الجدّ والاجتهاد . والأسَلات : جمع أسَلة ؛ وهى طرف اللسان ومستدقّه ، والجؤار: الصّوت المرتفع ،والهَمْس: الصوت الخفىّ ، يقول : ليست لهم أشغال خارجة عن العبادة ، فيكون لأجلها أصواتهم المرتفعة خافية ساكنة . لاتعدُو ، من عَدَا عليه ، إذا قهره وظلمه ، وهو هاهنا استعارة .

ولاتنتضل الخدائع فى هممهم ؛استعارة أيضا من النِّضال ؛ وهو المراماة بالسهام . وذو العرش : هو الله تعالى ؛ وهذه لفظة قرآنية ؛قال سبحانه : ﴿ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ

سَبِيلًا ﴾ .(١) يعنى لابتغوا إلى الله تعالى سبيلا . وقال تعالى : ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۞ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾(٢) ، والاستهتار : مصدر استهتر فلان بكذا ، أى لازمه وأولع به .

وقوله : « فَيَئُوا » أى فيصفوا ؛ وبى : بنى . والجدّ : الاجتهاد والانكماش .

ثم قال : إنهم لايستعظمون عبادتهم ، ولو أنّ أحدهم استعظم عبادته لأذهب خوفَهُ ورجاءه الذى يتولد من استعظام تلك العبادة ؛ يصفهم بعظم التقوى .

والاستحواذ : الغلبة ، والغِلّ : الحقد ، وتشعّبتهم : تقسّمتهم وفرّقتهم ؛ ومنه قيل للمنية شَعوب ، أى مفرّقة . وأخياف الهمم ، أى الهمم المختلفة ؛ وأصله من الخَيَف ؛ وهو كَحَل إحدى العينين دون الأخرى ؛ ومنه المثل : الناس أخياف ؛ أى مختلفون ، والإهاب : الجلد . والحافد : المسرع ؛ ومنه الدعاء : اللهمّ إليك نسعى ونحفد .

* * *

واعلم أنه عليه السلام إنما كرّر ولّد كد صفاتهم عما وصفهم به ؛ ليكون ذلك مثالا يحتذى عليه أهل العرفان من البشر ؛ فإن أعلى درجات البشر أن يتشبّه بالملك ، وخُلاصة ذلك أمور :

منها العبادة القائمة .

ومنها ألّا يدعى أحدٌ لنفسه الحول والقوة ، بل لاحولَ ولا قوّة .

ومنها أن يكون متواضعا ذا سكينة ووقار .

ومنها أن يكون ذا يقين لاتقدَحُ فيه الشكوك والشبهات .

ومنها ألّا يكون فى صدره إحنة على أحد من الناس .

ومنها شدّة التعظيم والهيبة لخالق الخلق ، تبارك اسمه .

ومنها أنْ تستفرغه أشغال العبادة له عن غيرها من الأشغال .

---

(١) سورة الإسراء ٤٢ .

(٢) سورة البروج ١٥ ، ١٦ .

ومنها أنه لا تتجاوز رغباته مما عند الله تعالى إلى ما عند غيره سبحانه .

ومنها أن يعقد ضميره وقلبه على محبة الله تعالى ، ويشرب بالكأس الروية من حبه .

ومنها عِظَم التقوى بحيث يأمن كل شيء عدا الله ، ولا يهاب أحداً إلا الله .

ومنها الخشوع والخضوع والإخبات والذل لجلال عزته سبحانه .

ومنها ألا يستكثر الطاعة والعمل ، وإنْ جَلّ وعَظُم .

ومنها عِظَمُ الرجاء الواقع فى مقابلة عظم الخوف ؛ فإن الله تعالى يحب أن يُرْجَى ، كما يحب أن يخاف .

* * *

[أبحاث تتعلق بالملائكة]

واعلم أنه يجب أن نُلِم أبحاث متعددة تتعلق بالملائكة ويقصد فيها قصد حكاية المذهب خاصة ، وكلُّ الاحتجاج والنظر إلى ما هو مذكور فى كتبنا الكلامية .

البحث الأول فى وجود الملائكة ، قال قوم من الباطنية : السبيل إلى إثبات الملائكة هو الحسّ والمشاهدة ؛ وذلك أن الملائكة عندهم أهلُ الباطن .

وقالت الفلاسفة : هى العقول المفارقة ؛ وهى جواهر مجرّدة عن المادة لا تعلّق لها بالأجسام تدبيرا ، واحترزوا بذلك عن النفوس ؛ لأنها جواهر مفارقة إلا أنها تدبر الأبدان ، وزعموا أنهم أثبتوها نظرا .

وقال أصحابنا المتكلمون : الطريق إلى إثبات الملائكة الخبرُ الصادق المدلول على صدقه ؛ وفى المتكلمين مَنْ زعم أنه أثبت الملائكة بطريق نظرى ؛ وهو أنه لما وجد خلقا من طين وجب فى العقل أن يكون فى المخلوقات خَلْق من الهواء وخلق من النار فالمخلوق من الهواء هو الملك ، والمخلوق من النار الشيطان .

البحث الثاني في بنية الملائكة ، وهيئة تركيبهم ، قال أصحابنا المتكلّمون : إنّ الملائكة أجسامٌ لطاف ، وليسوا من لحم ودم وعظام ، كما خلق البَشَر من هذه الأشياء .
وقال أبو حفص المودّ القرينسيّ من أصحابنا : إنّ الملائكة من أجسام من لحم وعظم : إنه لا فَرْق بينهم وبين البشر ؛ وإنما لم يُرَوْا لبعد المسافة بيننا وبينهم .

وقد تبعه على هذا القول جماعة من معتزلة ما وراء النهر ، وهي مقالة ضعيفة لأنّ القرآن يشهد بخلافه في قوله : ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ[1] ﴾ ، وقوله : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾[2] ؛ فلو كانوا أجساما كثيفة كأجسامنا لرأيناهم.

* * *

البحث الثالث في تكليف الملائكة ، حكى عن قوم من الحشَوية أنهم يقولون : نّ الملائكة مضطرون إلى جميع أعمالهم ، وليسوا مكلّفين .

وقال جمهور أهل النظر : إنهم مكلّفون

وحكى عن أبي إسحاق النظّام ، أنه قال : إنّ قوماً من المعتزلة قالوا : إنّهم جبلوا على الطاعة لخالقة خَلْقهم حلقة المكلفين ، وأنهم قالوا : لو كانوا مكلّفين لم يؤمن أن يعصوا فيما أمروا به ، وقد قال تعالى : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[3] .

وقال قوم : إنّ أكثر الملائكة مكلّفون ، وأن فيهم من ليس بمكلّف بل هو مسخر للملائكة المكلفين ، كما أنّ في الحيوانات ما هو غير مكلّف ، بل هو مسخّر للبشر ومخلوق لمصالحهم .

قالوا : ولا ننكر أن يكونَ الملائكة الذين ذكر منهم أنهم غِلَظ الأجسام وعِظَم الخلق والتركيب بحيث تبلغ أقدامهم إلى قرار الأرض ؛ قد جُعِلوا عُمُداً للسّموات والأرض ؛ فهم

(١) سورة الزخرف ٨٠ .
(٢) سورة ق ١٧ .
(٣) سورة التحريم ٦ .

يحملونها بمنزلة الأساطين التى تحمل السقوف العالية ولم يرشحوا لأمر من الأمور سوى ذلك .

* * *

البحث الرابع : فيما يجوز من الملائكة وما لا يجوز ؛ قال شيخنا أبو القاسم : حكى أبو الحسن الخياط عن قدماء المعتزلة ، أنه لا يجوز أن يَعْصِىَ أحدٌ من الملائكة ؛ ولم يذكر عنهم علّة فى ذلك .

وقال قوم : إنهم لا يعصون ، ولا يجوز أن يعصُوا ؛ لأنهم غير مطيقين الشهوة والغضب ، فلا داعى لهم إلى المعصية ؛ والعاقل لا يفعل إلا بداعٍ إلى الفعل .

وقال قوم : إنهم لا يعصُون ، لأنهم يشاهدون من عجائب صنع الله وآثار هيبته مايصرفهم عن فعل المعصية والقصد إليها ، وكذلك قال تعالى : ﴿ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾[1] .

وقال قوم : إنما لم يَجُزْ أن يعصوا ، لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم لا يعصون ، ولا ينكر مع ذلك أن يكون منهم من يتغيّر حاله ويتبدل بها حالة أخرى ويعصى ، على ما ورد من خبَر الملكين ببابل ، وخبر إبليس ، وإنما يسلب عنهم المعصية ما داموا على حالهم التى هى عليها .

وقال شيوخنا أصحاب أبى هاشم رحمه الله تعالى : إنّ المعصية تجوز عليهم ، كما تجوز علينا ، إلا أن الله تعالى علم أن لهم ألطافا يمتنعون معها من القبيح اختيارا ، فامتنعوا من فعل القبيح اختيارا ، فكانت حالهم كحال الأنبياء من البشر يقدرون على المعصية ولا يفعلونها ،

(١) سورة الأنبياء ٢٨ .

اختيارا من أنفسهم باعتبار الألطاف المقوية لهم ، ولو كان لإبليس أو فرعون أو نمرود ألطاف يعلم الله تعالى إذا فعلها فعلوا الواجب ، وامتنعوا من فعل القبيح لفعلها بهم ، ولكانوا معصومين كالأنبياء والملائكة ، لكنه تعالى علم أنهم لا يؤمنون ولو فعل مهما فعل ، فلا لطف فى المعلوم ، وهذا عندهم حكم عام لجميع المكلفين من الإنس والجن والملائكة .

* * *

البحث الخامس فى أن أى القبيلين أفضلُ ، الملائكة أو الأنبياء؟ قال أصحابنا : نوع الملائكة أفضل من نوع البشر ، والملائكة المقربون أفضل من نوع الأنبياء ، وليس كل مَلَك عند الإطلاق أفضلَ من محمد صلى الله عليه وآله ، بل بعضُ المقربين أفضل منه ، وهو عليه السلام أفضل من ملائكة أخرى غير الأولين ، والمراد بالأفضل الأكثر ثوابا ، وكذلك القول فى موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء . والذى يحكيه قومٌ من أرباب المقالات أنّ المعتزلة ، قالوا : إنّ أدنى مَلَك فى السماء أفضل من محمد صلى الله عليه وآله ليس بصحيح عنهم .

وقال أهل الحديث والأشعرية : إنّ الأنبياء أفضلُ من الملائكة .

وقال الشيعة : الأنبياء أفضل من الملائكة ، والأئمة أفضل من الملائكة

وقال قوم منهم ومن الحشوية : إنّ المؤمنين أفضلُ من الملائكة .

* * *

البحث السادس فى قِدَم الملائكة وحدوثهم ، أمّا الفلاسفة القائلون بأنّهم العقول المفارقة ، فإنّهم يذهبون إلى قدم الملائكة .

وقال غيرهم من أهل الملل : إنّهم محدَثون .

وقال قوم من متأخّرى الحكماء : إن نفوس البشر إذا فارقت الأبدان بالموت بقيت قائمة بأنفسها غير مدبّرة لشىء من الأبدان ، فإن كانت خَيِّرة صالحة فهى الملائكة ،

وإن كانت شريرة رديئة الجوهر فهي الشياطين؛ فالملائكة عند هؤلاء محدثون؛ وعندهم أن هذه النفوس تساعد نفوسا أخرى متعلقة بتدبير الأبدان ، إما على الخير أو على الشر ، فما ينسب في الكتب الإلهية إلى إغواء الشياطين الناس وإضلالهم ، فالمراد به تلك النفوس الشريرة ، وما ينسب فيها إلى إعانة الملائكة لهم على الخير والصلاح ، فالمراد به تلك النفوس الخيرة .

***

البحث السابع في إبليس ، أهو من الملائكة أو ليس منها ؟ قال شيخنا أبو عثمان وجماعة من أصحابنا : إنه من الملائكة ، ولذلك استثناه الله تعالى ، فقال : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ [١] .

وقال قوم : إنه كان من الملائكة بدلالة هذه الآية ، لكن الله مسخه حيث خالف الأمر ، فهو بعد المسخ خارج عن الملائكة ، وقد كان قبل ذلك ملكا ، قالوا : ومعنى قوله : ﴿ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ أي من خزان الجنة ، وروى ذلك عن ابن عباس ، قالوا : ويحمل على معناه أنه صار من الجن ، فيكون « كان » بمعنى « صار » كقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ ، [٢] أي مَنْ صار ، لأنها لو كانت « كان » على حقيقتها لوجب ألا يكلم بعضهم بعضا ، لأنهم كانوا صبيانا في المهود .

قالوا : ومعنى صيرورته من الجن صيرورته ضالا ، كما أن الجن ضالون ، لأن الكفار بعضهم من بعض ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ [٣] .

---

(١) سورة ص ٧٣ ، ٧٤ .
(٢) سورة مريم ٢٩ .
(٣) سورة التوبة ٦٩ .

وقال معظم أصحابنا : إنّ إبليس ليس من الملائكة ، ولا كان منها ، وإنّما استثناه الله تعالى منهم ، لأنه كان مأمورا بالسجود معهم ، فهو مستثنى من عموم المأمورين بالسجود ، لا من خصوص الملائكة .

***

البحث الثامن في هاروت وماروت ، هل هما من الملائكة أم لا ؟ قال جمهور أصحابنا : إنّهما من الملائكة ، وإنّ القرآن العظيم قد صرّح بذلك في قوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾[1] ، وإنّ الذي أنزل عليهما هو علم السّحر ، ابتلاء من الله تعالى للناس ، فمن تعلّمه منهم وعمل به كان كافرا ، ومن تجنبه أو تعلّمه لا ليعمل به ولكن ليتوقاه كان مؤمنا ؛ قالوا : وما كان هذان الملكان يعلّمان أحدا حتى ينبّهاه وينهياه وينصحاه ، ويقولا له : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ ، أي ابتلاء واختبار من الله ، ﴿ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ ، ولا تتعلّمه معتقداً أنه حقّ .

وحكي عن الحسن البصريّ أنّ هاروت وماروت عِلْجان أقلفان من أهل بابل ، كانا يعلّمان الناس السحر ، وقرأ الحسن : ﴿ عَلَى الْمَلِكَيْنِ بِبَابِلَ ﴾ ، بكسر اللام .

وقال قوم : كانا من الملائكة ، فعصيا الله تعالى بالحيف في الحكومة ، وقد كان استقضاهما في الأرض ، وركّب فيهما الشهوة والغضب ، على نحو ما ركّب في البشر ، امتحانا لهما ، لأنهما قد كانا عيّرا البشر بالمعصية ، فلما عصيا حبسهما الله تعالى وعاقبهما بعذاب معجّل ، وألهمهما كلاما إذا تكلم به سكن بعض ما بهما من الألم ، وإنّ السحرة يستمعون ذلك الكلام فيحفظونه ، ويفرقون به بين المرء وزوجه ، فإنهما يتقدّمان إلى من يحضرهما عندما يتكلّمان بالزجر عن العمل بذلك الكلام ، ويقولان : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ

---

(١) سورة البقرة .

فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ ، وهما لم يكفرا ، ولا دَعَوا إلى السحر ؛ وإن عذابهما سينقطع وقد جاء في الأخبار مايوافق هذا .

وقال قوم من الحشويّة : إنّهما شربا الخمر وقتلا النفس ، وزنيا بامرأة اسمها «باهيد» فمسخت ؛ وهي الزهرة التي في السماء .

* * *

الأصْلُ :

ومنها في صفة الأرض ودحوها على الماء :

كَبَسَ الْأَرْضَ عَلَى مَوْرِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ، وَلُجَجِ بِحَارٍ زَاخِرَةٍ ، تَلْتَطِمُ أَوَاذِيُّ أَمْوَاجِهَا ، وَتَصْطَفِقُ مُتَقَاذِفَاتُ أَثْبَاجِهَا ، وَتَرْغُو زَبَداً كَالْفُحُولِ عِنْدَ هِيَاجِهَا، فَخَضَعَ جِمَاحُ الْمَاءِ الْمُتَلَاطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا ، وَسَكَنَ هَيْجُ ارْتِمَائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكَلْكَلِهَا ، وَذَلَّ مُسْتَخْذِياً إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِهَا ؛ فَأَصْبَحَ بَعْدَ اصْطِخَابِ أَمْوَاجِهِ سَاجِياً مَقْهُوراً ، وَفِي حَكَمَةِ الذُّلِّ مُنْقَاداً أَسِيراً، وَسَكَنَتِ الْأَرْضُ مَدْحُوَّةً فِي لُجَّةِ تَيَّارِهِ ، وَرَدَّتْ مِنْ نَخْوَةِ بَأْوِهِ وَاعْتِلَائِهِ ، وَشُمُوخِ أَنْفِهِ وَسُمُوِّ غُلَوَائِهِ ، وَكَعَمَتْهُ عَلَى كِظَّةِ جَرْيَتِهِ ، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقَاتِهِ ، وَلَبَدَ بَعْدَ زَيَفَانِ وَثَبَاتِهِ .

فَلَمَّا سَكَنَ هَيْجُ الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنَافِهَا ، وَحَمَلَ شَوَاهِقَ الْجِبَالِ الشُّمَّخِ الْبُذَّخِ عَلَى أَكْتَافِهَا ، فَجَّرَ يَنَابِيعَ الْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينِ أُنُوفِهَا ، وَفَرَّقَهَا فِي سُهُوبِ بِيدِهَا وَأَخَادِيدِهَا ، وَعَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ مِنْ جَلَامِيدِهَا ، وَذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشُّمِّ مِنْ صَيَاخِيدِهَا ، فَسَكَنَتْ مِنَ الْمَيَدَانِ لِرُسُوبِ[1] الْجِبَالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِهَا ، وَتَغَلْغُلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِي جَوْبَاتِ خَيَاشِيمِهَا ، وَرُكُوبِهَا أَعْنَاقَ سُهُولِ الْأَرَضِينَ وَجَرَاثِيمِهَا، وَفَسَحَ

---

(١) مخطوطة النهج : « برسوب » .

بَيْنَ الْجَوِّ وَبَيْنَهَا ، وَأَعَدَّ الْهَوَاءَ مُتَنَسَّماً لِسَاكِنِهَا ، وَأَخْرَجَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَى تَمَامِ مَرَافِقِهَا .

ثُمَّ لَمْ يَدَعْ جُرُزَ الْأَرْضِ الَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ الْعُيُونِ عَنْ رَوَابِيهَا ، وَلَا تَجِدُ جَدَاوِلُ الْأَنْهَارِ ذَرِيعَةً إِلَى بُلُوغِهَا ، حَتَّى أَنْشَأَ لَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتَهَا ، وَتَسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا ؛ أَلَّفَ غَمَامَهَا بَعْدَ افْتِرَاقِ لُمَعِهِ ، وَتَبَايُنِ قَزَعِهِ ، حَتَّى إِذَا تَمَخَّضَتْ لُجَّةُ الْمُزْنِ فِيهِ ، وَالْتَمَعَ بَرْقُهُ فِي كُفَفِهِ ، وَلَمْ يَنَمْ وَمِيضُهُ فِي كَنَهْوَرِ رَبَابِهِ ، وَمُتَرَاكِمِ سَحَابِهِ ، أَرْسَلَهُ سَحّاً مُتَدَارِكاً ، قَدْ أَسَفَّ هَيْدَبُهُ ، تَمْرِيهِ الْجَنُوبُ دِرَرَ أَهَاضِيبِهِ ، وَدُفَعَ شَآبِيبِهِ .

فَلَمَّا أَلْقَتِ السَّحَابُ بَرْكَ بِوَانَيْهَا ، وَبَعَاعَ مَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ مِنَ الْعِبْءِ الْمَحْمُولِ عَلَيْهَا ، أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ الْأَرْضِ النَّبَاتَ ، وَمِنْ زُعْرِ الْجِبَالِ الْأَعْشَابَ ، فَهِيَ تَبْهَجُ بِزِينَةِ رِيَاضِهَا ، وَتَزْدَهِي بِمَا أُلْبِسَتْهُ مِنْ رَيْطِ أَزَاهِيرِهَا ، وَحِلْيَةِ مَا سُمِطَتْ بِهِ مِنْ نَاضِرِ أَنْوَارِهَا ، وَجَعَلَ ذَلِكَ بَلَاغاً لِلْأَنَامِ ، وَرِزْقاً لِلْأَنْعَامِ ، وَخَرَقَ الْفِجَاجَ فِي آفَاقِهَا ، وَأَقَامَ الْمَنَارَ لِلسَّالِكِينَ عَلَى جَوَادِّ طُرُقِهَا .

• • •

الشَّرْحُ :

كَبَسَ الأرض ، أى أدخلها فى الماء بقوة واعتماد شديد ؛ ويقال لضربٍ من التمر : الكَبِيس ؛ لأنه يُكبَس حتى يتراصّ . والمَوْر : مصدر « مار » أى ذهب وجاء . ومستفحلة : هائجة هَيَجان الفحول . واستفحل الأمر : تفاقم واشتدّ . وزاخرة ، زخر الماء أى امتدّ جدّا وارتفع .

والأواذي : جمع آذيّ ؛ وهو الموج وتصطفق : يضرب بعضها بعضا . والأثباج هاهنا :

أعالى الأمواج ، وأصل الثَّبَج : مابين الكاهل إلى الظهر ؛ فنقل إلى هذا الموضع استعارة

وترغو : تصوّت صوت البعير ، والرغاء : صوت ذات الخُفّ ؛ وفى المثل : « كفى برغائها مناديا » ؛ أى أنّ رُغاء بعير الضيف يقوم مقام ندائه للضيافة والقِرَى . وزَبَدًا على هذا منصوب بفعل مقدّر ؛ تقديره : وترغو قاذفةً زَبدًا ، والزَّبَد : مايطفو فوق السَّيل ؛ يقال : قد أزبد البحر والسَّيل ، وبحر مُزْبِد ؛ أى مائج يقذف بالزبد . والفحول عند هياجها ؛ فحول الإبل إذا هاجتْ للضِّراب .

وجماح الماء : صعودُه وعَلَيانه ، وأصله من جِماح الفَرَس ، وهوأن يعزّ فارسَه ويغلبه . والجموح من الرجال : الذى يركبُ هواه فلا يمكن ردّه . وَخَضَع : ذلّ . وهَيْج الماء : اضطرابه ، هاج هَيْجا وهياجا وهَيَجانا ؛ واهتاج ، وتهيّج ، كلّه بمعنى ، أى ثار ، وهاجه غيرُه ، يتعدّى ولا يتعدّى . وهَيْج ارتمائه ، يعنى تقاذفه وتلاطمه ، يقال ارتمى القومُ بالسهام وبالحجارة ارتماء . وكَلْكَلها : صدرها ؛ وجاء كَلْكَل . وكَلْكال ، وربما جاء فى ضرورة الشعر مشدّدا ، قال :

كأنّ مَهوَاها عَلَى الكَلْكَلِّ موضعُ كَفَّىْ راهبٍ مُصلّى [1]

والمستخذِى : الخاضع ؛ وقد يهمز . وقيل لأعرابىّ فى مجلس أبى زيد : كيف تقول: استخذأتُ ؟ ليتعرّف منه الهمزة . فقال: العرب لاتستخذئ ، وهمزه ؛ وأكثر مايستعمل مليّنا ؛ وأصله من خَذَا الشئ يخذُو خَذْوا ، أى استرخى؛ ويجوز خَذِىَ ، بكسر الذال، وأذُنٌ خَذْواء : بيّنة الخذاء ، أى مسترخية .

وتمعّكت : تمرّغت ، مستعار من تمعُّك الدابة فى الأرض؛ وقالوا : معكتُ الأديمَ ، أى دلكته [2] . وكواهلها : جمع كاهل ؛ وهو ما بين الكتفين ، ويسمى الحارك .

---

(١) الرجز لمنظور بن مرثد الأسدى ، اللسان ١٤ : ١١٧ . (٢) ب : « دلفته » .

واصطخاب أمواجه : افتعال من الصَّخَب ؛ وهو الصياح والجَلَبة ، يقال : صخِب الرجلُ فهو صَخْبان ، واصطخب ، افتعل منه ؛ قال :

• إن الضَّفادع في الغُدران تَصْطَخِبُ [1] •

والساجي: الساكن: والحَكَمة : ما أحاط من اللجام بحَنَك الدابة ؛ وكانت العرب تتخذها من القِدّ والأَبَق ؛ لأن الزينة لم تكن قصدهم ، قال زهير :

القائد الخيلَ منكوباً دوابرُها قد أُحكِمت حَكَماتِ القِدّ والأَبَقا [2]

واستعار الحَكَمة هاهنا ، فجعل للماء حَكَمة ينقاد الماء بها ويدلّ إليها .

ومدحوّة: مبسوطة، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [3]. ويجوز أن تكون « مدحوّة » هاهنا بمعنى مقذوفة مرميّة؛ يقال : دحوتُ الحصاة أي قذفتها؛ ويقال للاعب الجوز : ادحُ وأبعد المدى. والتيّار : أعظم الموج ، ولجّته : أعمقه والبأو : الكِبْر والفخر؛ تقول : بأوتُ على القوم أبأى بأواً ، قال حاتم :

فما زادَنا بأواً على ذي قَرابةٍ غِنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقرُ [4]

وهذا الكلام استعارة ؛ يقال: كَسَرتِ الأرضُ سَوْرة الماء الجامح كما تُكسر سَوْرة بأو الرجل المتكبر المفتخر . والاعتلاء : التيه والتكبّر . والشُّموخ : العلوّ ، مصدر شمخ بأنفه أي تكبّر ، والجبال الشوامخ : الشاهقة والسموّ : العلو ، وسموّ علوائه أي غلوّه وتجاوزه الحدّ .

---

(١) اللسان ٢ : ١٠ من غير نسبة .
(٢) ديوانه ٤٩ ، والأبق : شبه الكتان
(٣) سورة النازعات ٣٠ .
(٤) ديوانه ١١٩ .

وكَمَمْتُهُ ، أى شدّدت فمه لما هاج ، من الكِمام وهو شىء يجعل فى فم البعير ، وبعير مَكْموم .

والكِظّة : الجهد والثِّقل الذى يعترى الإنسان عند الامتلاء من الطعام ، يقول : كظت الأرض الماء حال كونه مكظوظا لشدة امتلائه وكثرته وازدحام أمواجه . فهمد أى سكن ، همدت النارُ تهمُد ، بالضم همودا ، أى طفئت وذهبت ألبتة . والخمود دون الهمود . والنَّزقات : الخفة والطيش ، نزِق الرجل بالكسر ، ينزَق نَزَقا . والنزقات : الدفعات من ذلك .

ولبَد الشىء بالأرض يلبُد ، بالضم لبودا ، أى لصق بها ساكنا . والزَّيفان : التبختر فى المشى ، زاف البعيرُ يزيف ، والزيافة من النوق المختالة ، ويروى : « ولَبَد بعد زَفَيان وثباته » ، والزَّفيان : شدة هبوب الريح ، يقال زَفَته الريحُ زَفَيانا ، أى طردته ، وناقة زَفَيان : سريعة ، وقوس زَفَيان : سريعة الإرسال للسهم . وأكنافها : جوانبها ، وكنفا الطائر جناحاه ، ويقال صِلاء مُكْتَنَف[1] ، أى أحيط به من جوانبه ، وتكنّفه القوم واكتنفوه أحاطوا به .

والجبال الشواهق : العالية ، ومثله البُذّخ . والعِرْنين أوّل الأنف تحت مجتمع الحاجبين . والينابيع : جمع ينبوع ، وهو ما انفجر من الأرض عن الماء . والسُّهوب : جمع سَهْب ، وهو الفلاة . والبِيد : جمع بَيْداء ، وهى الفلاة أيضا

والأخاديد : جمع أخدود ، وهو الشقّ فى الأرض ، قال تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾[2] . والراسيات : الثقال . والشَّناخيب : رءوس الجبال . والشُّمّ : العالية ، والجلاميد : الصخور ، واحدها جُلمود . والصَّياخيد : جمع صَيْخود ، وهى الصخرة الصلبة .

(١) الصلاء : الوقود ، أو النار . (٢) سورة البروج ٤ .

والمَيَدَان : التحرك والاضطراب ، وماد الرجل يميد أى تبختر . ورسوب الجبال : نزولها رسب الشيء فى الماء ، أى سَفَل فيه ، وسيف رَسُوب : ينزل فى العظام .

وقوله : « فى قِطَع أديمها » جمع قِطْعة ، يريد فى أجزائها وأبعاضها . ويروى فى « قُطَع أديمها » ، بضم القاف وفتح الطاء ، جمع قُطْعة وهى القُطْعة مفروزة[١] من الأرض ، وحكىَ أن أعرابيا قال ورثتُ من أبى قُطْعة . ويروى: « فى قطْع أديمها » ، بسكون الطاء ، والقطْع : طِنْفِسة الرَّحْل ، فنقل ذلك إلى هذا الموضع استعارة ، كأنه جعل الأرض ناقة ، وجعل لها قطعا ، وجعل الجبال ثابتة فى ذلك القطع .

وأديم الأرض : وجهها وظاهرها . وتَغَلْغُل الماء فى الشجر : دخوله وتخلله فى أصوله . وعروقه متسرِّبة ، أى داخلة ، تسرّب الثعلب أى دخل السَّرَب ، وجَوْبات : جمع جَوْبة وهى الفُرْجة فى جبل أو غيره . وخياشيمها : جمع خيشوم وهو أقصى الأنف ، وتقول : خشمت الرجل خَشْماً ، أى كسرت خيشومه . وجراثيمها : جمع جُرثومة ، وهى أصل الشجر . وفَسَّح : أوسع . ومتنسَّما ، يعنى موضع النسيم . والأرض الجُرُز التى لا نبات فيها لانقطاع المطر عنها ، وهذه من الألفاظ القرآنية[٢] . والرواب : التلاع وما علا من الأرض . والجداول : الأنهار الصغار ، جمع جدول . والذريعة : الوُصلة .

وناشئة سحاب : ما يبتدئ ظهوره . ولُمَوات ، بفتح اللم : القفر من الأرض ، واللُّمع : جمع لُمعة ، وهى القطعة من السحاب أو غيره . وتباين قَزَعه ، القَزَع : قطع من السحاب رقيقة واحدها قَزَعة ، قال الشاعر :

---

(١) فى الأصل : « مفروزة » ، تصحيف ، وانظر اللسان (قطع)

(٢) من قوله تعالى فى سورة السجدة ٢٧ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾ .

* كَأَنَّ رِعَالَهُ قَزَعُ الْجَهَامِ[1] *

وفى الحديث « كأنهم قَزَعُ الخريف »[2]. وتباينها: افتراقها. وتمخّضت: تحركت بقوة، يقال: تمخّض اللبن إذا تحرّك فى الممخضة، وتمخّض الولد: تحرّك فى بطن الحامل، والهاء فى « فيه » ترجع إلى المُزْن، أى تحرّكت لجة المُزْن فى المُزْن نفسه، أى تحرّك من السحاب وسطُه وثَبَجُه. والتمع البرقُ ولمع أى أضاء، وكُفَفُه: جمع كُفّة والكُفّة كالدّارة تكون فى السحاب. وكان الأصمعىّ يقول: كلّ ما استطال فهو كُفّة بالضم؛ نحو كُفّة الثوب؛ وهى حاشيته وكُفّة الرمل، والجمع كِفاف، وكلّ ما استدار فهو كِفّة بالكسر؛ نحو كِفّة الميزان، وكِفّة الصائد وهى حُبالته، والجمع كِفف. ويقال أيضا: كَفّة الميزان بالفتح. والوميض: الضياء واللّمعان.

وقوله: « لم ينم » أى لم يفتر ولم ينقطع، فاستعار له لفظة النوم. والكَنَهْوَر: العظيم من السحاب. والرّباب: الغمام الأبيض، ويقال: إنه السحاب الذى تراه كأنّه دون السحاب، وقد يكون أبيض، وقد يكون أسود، وهو جمع، والواحدة ربابة، وبه سميت المرأة الرّباب. والمتراكم: الذى قد رَكِب بعضُه بعضاً، والميم بدل من الباء. وسَحًّا: صبًّا، وسحابة سَحُوح، وتَسَحْسَحَ الماء: سال، ومطر سَحْسَاح، أى يسحّ شديدا. ومتداركا: يلحق بعضه بعضا من غير انقطاع. وأسفّ: دنا من الأرض. وهَيْدَبه: ما تهدّب منه، أى تدلّى كما يتدلّى هُدْبُ العين على أشفارها. وتمْرِى الجَنُوب، وهو بمعنى تحلب وتستدرّ، ويروى « تمريه الجَنُوب » على أن يعدّى الفعل إلى المفعولين، كما تقول حلبت الناقة لبنا. ويروى: « تَمْتَرِى الجَنُوب » وهو بمعنى تمْرِى، من مريت الفرس وامتريته، إذا استخرجتَ بالسوط ما عنده من الجرى. وإنما

(١) لذى الرمة، ديوانه ٥٩٧ يصف فلاة، وصدره:

* تَرَى عُصَبَ الْقَطَا هَمَلًا عَلَيْهِ *

(٢) فى النهاية لابن الأثير ٣: ٢٥١؛ من حديث على.

خَصّ الجنوبَ بذلك لأنها الريح التي يكون عنها المطر . والدِّرَر : جمع دِرَّة ، وهي كثرة اللبن وسيلانه وصبّه . والأهاضيب : جمع هِضاب ، والهِضاب: جمع هَضْب ، وهي حلبات القَطْر بعد القطر . والدُّفَع: جمع دُفْعَة ، بالضم وهي كالدُّفْقة من المطر بالضم أيضا والشآبيب: جمع شؤبوب وهي رَشّة قوية من المطر ،تنزل دفعة بشدة، والبِرْك: الصدر وبوانيها، تثنية بوان على « فِعال » بكسر الفاء وهو عمود الخيمة ، والجمع بُوُن بالضم ، قال الشاعر :

أَضْبَرَ مِنْ ذِي ضَاغِطٍ عَرَكْرَكِ ... أَلْقَى بِوَانَيْ زَوْرِهِ لِلْمَبْرَكِ[1]

ومن روى : « بَوَانيها » أراد أواصلها ، من قولك : قوس بانية إذا التصقت بالوَتَر . والرواية الأولى أصحّ . وبَعاع السحاب : ثقله بالمطر ، قال امرؤ القيس :

وَأَلْقَى بِصَحْرَاءِ الْغَبِيطِ بَعَاعَهُ ... نُزُولَ الْيَمَانِي ذِي الْعِيَابِ الْمُثَقَّلِ[2]

والعبء : الثقل ، واستقلت :ارتفعت ونهضت ، وهوامد الأرض ، هي الأرضون التي لا نبات بها . وزُعْر الجبال : جمع أزعر ، والمراد به قلة العشب والخَلَى[3] : وأصله من الزَّعَر ، وهو قلة الشعر في الرأس ، وقال :

مَنْ يَكُ ذَا لِمَّةٍ يُرَجِّلُهَا ... فَإِنَّنِي غَيْرُ ضَائِرِي زَعَرِي

وقد زَعِرَ الرجلُ يَزْعَر : قلّ شعره . وتبهج : تُسَرّ وتفرح، تقول: بَهَجَنِي أمرُ كذا بالفتح ، وأبهجني معاً ، أي سَرّني . ومن رواه بضم الهاء أراد تَحْسُنُ وتَمْلُح ، من البَهْجَة، وهي الحُسْن ، يقال بَهُجَ الرجلُ بالضم ، بَهَاجَةً ، فهو بهيج ، أي حسن ، قال الله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[4]، وتقول: قد أبهجت الأرض بالهمزة ،أي بهج نباتها وحسُن.

---

(١) المركرك : الجمل الغليظ القوي ، والرجز في صحاح الجوهري ؛ وهو في اللسان أيضاً بنسبته إلى حنظلة بن قيس بن أشيم .

(٢) ديوانه ٢٥ .

(٣) الخلى : الرطب من النبات ، وهو الكلأ .

(٤) سورة الحج ٥ .

وتزدهى ، أى تتكبّر ، وهى اللغة التى حكاها ابن دريد ، قال : تقول : زها الرجلُ يَزْهُو زَهْوًا ، أى تكبّر [1] وعلى هذه اللغة تقول : ازدهى الرجلُ يزدهى ، كما تقول من «علا» اعتلى يعتلى ، ومن « رمى » ارتمى يرتمى ، وأماتَنّ رواه « وتُزْدَهَى بما ألبستْه » على مالم يسمّ فاعله ، فهى اللغة المشهورة . تقول : زُهِى فلان علينا ، وللعرب أحرف تتكلّم بها على سبيل المفعول به ، وإن كانت بمعنى الفاعل ، كقولهم : عُنِى بالأمر ، ونُتِجَت الناقة ، فتقول على هذه اللغة : فلان يُزْدَهَى بكذا .

والرَّيْط جمع رَيْطة ، وهى المُلاءة غير ذاتِ لفقين . والأزاهير : النَّوْر ذو الألوان . وسمطت به : علّق عليها السُّموط ، جمع سِمْط وهو العقد ، ومن رواه « شمطت » بالشين المعجمة ، أراد ماخالط سواد الرياض من النَّوْر الأبيض كالأقحوان ونحوه ، فصارت الرياض كالشعر الأشمط . والناضر : ذو النَّضارة ، وهى الحسن والطَّراوة .

وبلاغا للأنام ، أى كفاية . والآفاق : النواحى ، والمنار : الأعلام .

* * *

[فصـــــول متنوعة تتعلّق بالخطبة]

وينبغى أن نتكلّم فى هذا الموضع فى فصول :

الفصل الأول فى كيفية ابتداء خلق الأرض :

ظاهر كلام أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الماء خُلِق قبل الأرض ، وقد ذكرنا فيما تقدم أنّه قولٌ لبعض الحكماء ، وأنه موافق لما فى التوراة إلّا أنّ فى كلامه عليه السلام فى هذا الموضع إشكالًا ، وذلك أنّ لقائل أن يقول . كلامُه يشعر بأن هَيَجان الماء وغَلَيانه وموْجه

(١) نقله صاحب اللسان فى زها

تسكن بوضع الأرض عليه ، وهذا خلاف ما يشاهد ، وخلاف ما يقتضيه العقل ، لأن الماء الساكن إذا جُعل فيه جسم ثقيل اضطرب وتموّج ، وصعد علوّاً ، فكيف الماء المتموج يسكن بطرح الجسم الثقيل فيه ؟

والجواب أنّ الماء إذا كان تموّجه من قِبَل ريح هائجة ، جاز أن يسكن هَيَجانُه بجسم يحول بينه وبين تلك الريح ، ولهذا إذا جعلنا في الإناء ماء وروحناه بمروحة تموّجه،فإنه يتحرك ، فإن جعلنا على سطح الماء جسما يملأ حافات الإناء وروحناه بالمروحة فإن الماء لايتحرك ، لأن ذلك الجسم قد حال بين الهواء المجتلب بالمروحة وبين سطح الماء ، فمن الجائز أن يكون الماء الأول هائجاً لأجل ريح محرِّكة له ، فإذا وضعت الأرض عليه حال بين سطح الماء وبين تلك الريح ، وقد مرّ في كلام أمير المؤمنين في الخطبة الأولى ذكرُ هذه الريح ، فقال : « ريح اعتقمَ مهبّها ، وأدام مُرَبَّها وأعصف مجراها ، وأبعد منشأها، فأمرها بتصفيق الماء الزخار ، وإثارة موج البحار ، فمخضت مخض السقاء ، وعصفت به عصفها بالفضاء».

***

الفصل الثاني في بيان قوله عليه السلام : « فلما سكن هَيْج الماء من تحت أكنافها ، وحمل شواهق الجبال البُذَّخ على أكتافها ، فجر ينابيع العيون فيها ، وعدّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها » :

وذلك لأنّ العامل في « لمّا » يجب أن يكون أمراً مباينا لما أضيفت إليه ، مثاله : لما قام زيد قام عمرو ، فقام الثانية هي العاملة في « لمّا » ، فيجوز أن تكون أمراً مباينا لما أضيف « لمّا » إليه ، وهو قيام زيد ، وهاهنا قد قال عليه السلام: لمّا حمل الله تعالى شواهق الجبال على الأرض عدّل حركات الأرض بالجبال ، ومعلوم أن أحد الأمرين هو الآخر .

والجواب أنه ليس أحدُ الأمرين هو الآخر بعينه ، بل الثاني معلول الأول ، وموجب

عنه لأنّ الأول هو تحمّل الجبال عليها ، والثانى تعديل حركاتها بالجبال المحمول عليها ، فكأنه قال : حمل عليها الجبال ، فاقتضى ذلك الحمل تعديلَ حركاتها ؛ ومعلومٌ أن هذا الكلام منتظم .

* * *

الفصل الثالث فى قوله : « إن الجبال هى المسكِّنة للأرض » :

فنقول : إن هذا القول يخالف قولَ الحكماء ؛ لأن سكون الأرض عند الحكماء لم يكن لذلك ، بل لأنها تطلب المركز ، وهى حاصلة فى حيّزها الطبيعى ؛ لكنا وإن كان مخالفاً لقول الحكماء ، فإنّا معتقدونه ومذهباً ، ونعدل عن قول الحكماء ، لأنّ اتباع قوله عليه السلام أولى من اتباع أقوالهم .

* * *

الفصل الرابع فى ذكر بطائر لمّا وصَف به المطر والسحاب :

فمن ذلك ما رواه عبد الرحمن ، ابن أخى الأصمعىّ ، عن عمّه قال : سئل أعرابىّ عن مَطر ، فقال :

استقلّ سدٌّ مع انتشار الطَّفَل ، فشصا واحزألّ ، ثم اكفهرّت أرجاؤه ، واحمومَتْ أرحاؤه ، وابذعرت فوارقه ، وتضاحكتْ بوارقه ، واستطار وادقه ، وارتتقت جُوَبُه ، وارتعن هَيْدَبُه ، وحشكت أخلافه ، واستقلّتْ أردافه ، وانتشرت أكنافه ؛ فالرعد مرتجس ، والبرق مختلس ، والماء منبجس ، فأترع الغُدُر ، وأنبت الوُجُر ، وخلط الأوعال بالآجال ، وقرن الصِّيران بالرئال ، فللأودية هدير ، وللشِّراج خرير ، وللتِّلاع زَفير ، وحطّ النَّبْع والعَتَمَ من القُلل الشمّ إلى القيعان الصُّحْم ، فلم يبق فى القُلَل إلا مُعْصِم

مُجْرَنْثِم ، أو داحض مُحْرَجم ، وذلك من فضل رب العالمين ، على عباده المذنبين .

قلت : السُّدّ : السحاب الذى يَسُدّ الأفق . وأصل الجبل . والطَّفَل : اختلاط الظلام وانتشارُه حال غروب الشمس . وشما : ارتفع وعلا . واحْزَأَلّ : انتصب . واكفهرّت أرجاؤه : غَلُظت نواحيه وجوانبه وتراكبت . واحومّت : اسودّت مع مخالطة حمرة وأرجاؤه : أوساطه . وانزعرت : تفرقت . والفوارق : قِطَعٌ من السحاب تتفرق عنه مثل فِرَق الإبل ؛ وهى النوق إذا أرادت الولادة فارقت الإبل وبَعُدت عنها حيث لا تُرَى . وتضاحكت بوارقُه : لمعت واستطار : انتشر . والوادق : ذو الوَدْق ، وهو مطر كبار . وأرسعت جُوَبه ، أى تلاءمت فُرَجُه والتحمت . وارتمن : استرخى . وهَيْدَبُه : ما تدلّى منه . وحَسُكت أخلافُه : امتلأت ضُروعه . وأرداءه : مآخره . وأكنافه : نواحيه ، ويرتجس : يصوّت ، والرّجس : الصوت . ويختلس : يستلبُ البصر . وينبعس بنصبٍّ فأترع الدُّر : ملأها ، جمع غَدِير . وأنبت الوُجُر : حفرها ؛ جمع وِجار ؛ وهو بيت الضبع . والآجال : جمع إجل ؛ وهو قطيع البقر : والصِّيران مثله ، جمع صُوار . والرِّئال : جمع رَأْل ؛ وهو فرخ النعام . والهدير : الصوت . والشَّراج : جمع شَرْج ؛ وهو مسيل الماء إلى الحَرّة . وخرير الماء : صوته . وزفير التِّلاع : أن تزفر بالماء لفرط امتلائها . والنَّبْع : شجر ، والعَم : شجر آخر ؛ وكلاهما لاينبت إلّا فى رءوس الجبال . والشمّ : العالية . والصُّحْم : السود التى تضرب إلى الصفرة ، والمُعْصِم : المعتصم الملتجئ . والمجرنثم : المتقبض ، والداحض : الزالق الواقع . والمحرجم : المصروع .

* * *

ومن ذلك ما رواه أبو حاتم ، عن الأصمعى ، قال : سألت أعرابيًّا من بنى عامر ابن صعصعة ، عن مطر أصاب بلادَهم ، فقال :

نشأ عارضًا ، فطلع ناهضًا ، ثم ابتسم وامضًا ؛ فاعتنّ فى الأقطار فأشجاها ، وامتدّ فى

الآفاق فغطّاها ، ثم ارتجس فهمهم ،ثم دوّى فأظلم ، فأركّ ودثّ ، وبغّش وطشّ ،ثم قطقط فأفرط ، ثم ديّم فأغمط ،ثم ركد فأثجم ، ثم وبل فسحم ،وجاد فأنعم ، فقمس الرُّبا،وأفرط الزُّبى سَيْحاً[1] تباعا ، يريد انقشاعا ؛ حتى إذا ارتوت الحزون ، وتضحضحت المتون،ساقه ربّك إلى حيث يشاء ، كما جلبه من حيث شاء .

قلت : العارض:سحاب يعترض فى الأفق . واحتشّ : اعترض وأشجاها : ملأها فكان كالشجى فى حلقها . وارتجس : صوّت.والهمهمة : صوت الرعد.ودوّى : أحدث دويّا. فأظلم:أعدم الضوء من الأرض بتكاثفه.فأركّ،أى مطر ركّا،والركّ:المطر الضعيف،وكذلك الدثّ والبغش والطشّ،وفوق ذلك القطقط ودَيّم : صار ديمةً وهى المطر أياما لا يُقلع. وأغمط ، أى دام.وأثجم : أقام . ووَبَل : جاء بالوابل ؛ وهو المطر العظيم : وسحم:صبّ. وأنعم : بالغ وقمس : غوّص فى الماء . وأفرط الزُّبى ملأها ، جمع زُبية ؛ وهى حفيرة تحفر للوحوش فى مكان مرتفع.والحزون : جمع حزن،وهو ما غلظ من الأرض.والمُتون : جمع متن ؛ وهو الصلب من الأرض . وتضحضحت : صار فوقها ضحضاح من الماء ؛ وهو الرقيق .

* * *

ومن ذلك مارواه أبو حاتم أيضا ، عن الأصمعىّ ، قال : سألتُ أعرابيًّا عن مَطَرٍ أصابهم بعد جَدْب ، فقال :

ارتاح لنا ربُّك بعد ما استولى اليأس على الظُّنون،وخامر القلوبَ القُنوط؛ فأنشأ نوء الجبهة قَزَعةً كالفُرْص من قِبَل العَيْن ، فاحزألّتْ عند ترحّل النهار لأدم السّرار؛حتى إذا نهضت فى الأفق طالعة ، أمرَ مسحرها الجنوب فتدمّت لها ، فانتثرت[2] أحصانُها، واحومّتْ أرْكانها ، ونسّق عثانُها ، واكفهرّت رَحاها ، وانبعجت كُلاها[3]،وذمرت

(١) ساح الماء سيحاً : جرى واسطرد . وفى الأصول : « سبحاً » . تصحيف

(٢) ب ، « فانذعرت » .

(٣) كلية السحابة ، أسفلها

أخراها أولاها؛ ثم استطارت عقائقُها، وارتعجت بوارقها، وتقعقعت صواعقها، ثم ارتعنت جوانبها، وتداعَتْ سواكبُها، ودَرّتْ حوالبُها؛ فكانت للأرض طَبَقاً شجّ فهضَبَ، وعمّ فأحسب؛ فملّ القيعان، وضَحضَح الغيطان، وصوّح الأضواج، وأترع الشّراج، فالحمد لله الذي جعل كفاء إساءتنا إحساناً، وجزاء ظلمنا غفراناً.

قلت: نوء الجبهة محمود عندهم للمطر، والقزَعة: القطعة الصغيرة من السحاب. والقُرْص: الترس. والعَين ماعن يمين قِبْلة العراق. وترجّل النهارِ: انبساط الشمس. والأدم: أحد ليالى السِّرار، والأحصان: النواحى. واحمومت: اسودّت. وبَسَق: علا. والعَنان: مايعترض من السحاب فى الأفق. وابنعجت: امتدت. وذمرت: حضّت. والعقائق: البروق. وارتعجت: اهتزّت وارتعدت. وطبقاً أى غطّت الأرض. وهضَب: جاء بالمطر دفعة فدفعة. وأحسب: كفى. وعلّ القيعان: سقاها مرّة بعد أخرى، والغيطان: جمع غائط وهو ما سَفل من الأرض. وصوّح الأضواج: هدم الأجواف. وأترع الشّراج: ملأ المسيلات.

* * *

ومن ذلك مارواه ابن دريد، عن عبد الرحمن، عن عمه الأصمعىّ، قال:

سمعت أعرابياً من بنى عامر يصف مطراً، قال: نشأ عند القصْر بنوء الغفْر حَيَاً عارضاً ضاحكاً وامضاً، فكلا ولا ما كان حتى شَجيَتْ به أقطارُ الهواء، واحتجبت به السماء، ثم أطرق فاكفهرّ، وتراكم فادلهمّ، وبَسَق فارلأمّ، ثم حدث به الريح فخرّ، والبرق مرتعج، والرعد مُبْعَوج، والمدجج مبتهج، فأثجم ثلاثاً، متحيّراً هثهاثاً، أخلافه حاشكة، ودُفَعه متواشكة، وسَوامه متداركة، ثم ودّع مُنجحاً، وأقلع مُتْهِماً، محمود البلاء، مترع النِّهاء[1]، مشكور النعماء، بطَوْل ذى الكبرياء.

قلت: القَصْر: العشىّ. والغفْر من نجوم الأسد. والحيَا: الدانى من الأرض. وقوله: «كلا ولا» أى فى زمان قصير جدا. وشجيت به الأقطار: صار كالشّجَى لها.

(١) نهاء: جمع نِهى؛ وهو الغدير.

وازلأمّ : انتصب. والرتمج : المتدارك والمتبرج : العالى الصوت. والحدّج : السحاب أول مايشنأ . ويتبعّج : يشتق . وأتّجم : دام متحيرا ، أى كأنه قد تحير لا وجه له يقصده . والمنهات : الداخل. وأخلافه حاشكة أى ضروعة ممتلئة . ودُفَعه متواشكة أى مسرعة. وتوامه متعاركة ، شبّه قطع السحاب بتوام الإبل . ومُنْجماً : مقلعا . وقُتيها : يسير نحو تِهامة :

* * *

الفصل الخامس فى بيان أنه عليه السلام إمام أرباب صناعة البديع

وذلك لأن هذا الفن لايوجد منه فى كلام غيره ممن تقدمه إلا ألفاظ يسيرة غير مقصودة ؛ ولكنها واقعة بالاتفاق كما وقع التجنيس فى القرآن العزيز اتفاقا غيرَ مقصود ، وذلك نحو قوله : ﴿ يا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ ﴾ (١) ، وكما وقعت المقابلة أيضا غير مقصودة فى قوله : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ (٢) على أنها ليست مقابلة فى المعنى ، بل من اللفظ خاصة . ولما تأمل العلماء شعر امرئ القيس وجدوا فيه من الاستعارة بيتا أو بيتين نحو قوله يصف الليل :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجازاً وَنَاء بِكَلْكَلِ (٣)

وقوله :

وإن يَكُ قد ساءَتكِ مِنّى خليقةٌ فَسُلِّى ثيابى مِنْ ثيابِكِ تَنْسُلِ (٤)

ولم يَشُذُّوا مثل ذلك فى أشعار الجاهلية ، حكموا له بأنه إمام الشعراء ورئيسهم .

وهذا الفصل من كلام أمير المؤمنين عليه السلام قد اشتمل من الاستعارة العجيبة وغيرها من أبواب البديع على مالو كان موجودا فى ديوان شاعر مكثر ، أو مترسّل مكثر

(١) سورة يوسف ٨٤ .
(٢) سورة الرحمن ٨ .
(٣) ديوانه ١٨ .
(٤) ديوانه ١٣ .

لكان مستحق التقديم بذلك؛ ألا تراه كيف وصف الأمواج بأنها مستفحلة، وأنها ترغو رُغاء فحول الإبل . ثم جعل الماء بَجَاحاً ، ثم وصفه بالخضوع ، وجعل للأرض كَلْكَلاً، وجعلها واطئة للماء به ، ووصف الماء بالذل والاستخذاء لمّا جعل الأرض متمعّكة عليه كما يتمعّك الحمار أو الفرس ، وجعل لها كواهل، وجعل للذل حَكَمَة، وجعل الماء في حَكَمة الذل منقادا أسيرا ، وساجيا مقهورا . وجعل الماء قد كان ذا نخوة وبأو واعتلاء ، فردّته الأرض خاضعا مسكينا، وطأطأت من شُموخ أنفه ، وسُموّ غلوائه، وجعلها كاعمة له، وجعل الماء ذا كِظّة بامتلائه ، كما تعترى الكظّة المستكثر من الأكل . ثم جعله هامداً بعد أن كانت له نزقات ، ولابداً بعد أن كانت له وثبات ، ثم جعل للأرض أكتافا وعرانين ، وأنوفا وخياشيم؛ ثم نفى النوم عن وميض البرق، وجعل الجنوب مارية دِرَرَ السحاب، ثم جعل للسحاب صدرا وبِوَاناً، ثم جعل الأرض مبتهجة مسرورة مزدهاة، وجعل لها رَيْطا من لباس الزهور ، وسُموطا تحلّى بها . فيالله وللعجب من قوم زعموا أن الكلام إنما يفضُل بعضه بعضا لاشتماله على أمثال هذه الصنعة، فإذا وجدوا في مائة ورقة كلمتين أو ثلاثا منها، أقاموا القيامة، ونفخوا في الصور، وملئوا الصحف بالاستحسان لذلك والاستظراف، ثم يمرّون على هذا الكلام المشحون كله بهذه الصنعة على ألطف وجه ، وأرصع وجه ، وأرشق عبارة، وأدق معنى ، وأحسن مقصد ، ثم يحملهم الهوى والعصبية على السكوت عن تفضيله إذا أجملوا وأحسنوا، ولم يتعصبوا لتفضيل غيره عليه ، على أنه لا عجب، فإنه كلام علي عليه السلام، وحظّ الكلام حظّ المتكلم ؛ وأشبه امرأً بعضُ بَزِّه !

* * *

وهذا آخر الجزء السادس من الأجزاء العشرين من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي على ما جزأه [1] .

---

(١) ج : « تم الجزء السادس من أجزاء شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد على ما جزأه ، ويتلوه الجزء السابع والحمد لله وحده » .

فهرس الخطب *

* وهى الخطب التى وردت فى كتاب نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات (*)

(*) وهي الموضوعات التي وردت أثناء الشرح .

(١) انظر أخبار يوم السقيفة في الجزء الأول ٢١ — ٦١